تراجم الأعلام المعاصرين

في العالم الإسلامي

بقلم

أنور الجندي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما يتاح لنا اليوم أن تتحقق أمنية غالية عاشت فى أعماق النفس زمناً ، وهى إصدار موسوعة (تراجم الإعلام) نحس بالعرفان والفضل للحق تبارك وتعالى توجيها وعونا وعطاءاً ، ونشعر بالرضى لأننا استطعنا أن نحقق لأمتنا عملا نافعاً ، يعطى لشباب هذا الجيل أفكاراً ميسرة وسريعة عن أعلام العالم الإسلامى والأمة العربية فى مختلف مجالات الوطنية والفكر والوحدة والحرية والنضال من أجل بناء النهضة .

وكنا قد بدأنا هذه المحاولة منذ عشرين عاماً فى ثلاث أعمال مختلفة :

(أولا) دراسات مطولة لإعلام الفكر والأدب وقد أصدرنا فى هذا الجانب سبع دراسات موسعة عن محمود تيمور ، المراغى ، زكى مبارك ، أحمد زكى باشا، عبد العزيز جاويش ، الزهاوى ، فريد وجدى (وهو تحت الطبع) .

(ثانيا) دراسات موجزة قصيرة : تمثلت فى كتابنا [الإعلام الألف] وقد صدر منه ثلاثة أجزاء تضم حوالى ٧٥٠ شخصية : الجزء الرابع تحت الإعداد .

(ثالثا) دراسات وسطى تعطى صورة تحليلية للاعلام وفى هذا المجال ظهر :

(١) أعلام الإسلام (٢) الجباه العالية (٣) إعلام الحرية فى العالم العربى (مجموعة إقرأ) (٤) إعلام وأصحاب أقلام (٥٢ شخصية).

وهذا الكتاب تراجم الأعلام المعاصرين .

ويجرى العمل اليوم لإصدار كتابين آخرين هما :

(١) نوابغ الفكر الإسلامى (٢) البطولة الإسلامية .

هذا بالإضافة إلى دراسة شملت ٢٥٠ شخصية من الأدباء ضمتها « موسوعة معالم الأدب العربى المعاصر » تقاسمها أعلام (الشعر – النثر – القصة – اللغة العربية – الترجمة – أدب المرأة – الصحافة) .

وبذلك يمكن القول بأن هذه الدراسة فى مجموعها قد إكتملت فى موسوعة ضخمة تضم أكثر من أربعمائة ترجمة ، وأصبح يمكن التعرف بها على أبرز أعلام العصر الحديث فى العالم الإسلامى والأمة العربية فى مجال (الأدب والوطنية والصحافة والعلوم والإجماع والاقتصاد والسياسة) .

واعتقد أننا فى هذه المرحلة الحاسمة من حياتنا فى أشد الحاجة إلى مثل هذا العمل الذى يضع تحت أيدى شبابنا وثائق تاريخية تكشف عن قدرة امتنا مدى الزمن على الحركة والتطور والأخذ والعطاء والتلقى من خلال قاعدة أساسية واضحة تتمثل فيها شخصيتنا الأصيلة ومقومات فكرنا العربى الإسلامى القادرة على الحياة والالتقاء بالحضارات والثقافات فى مختلف الأزمان والأوطان .

ولاشك أن تقدير الشباب لهذا اللون من الدراسات وإقباله عليه ، يعطينا الثقة بأن هـذا الجيل قد بدأ يكتشف نفسه ويؤمن بعظمة أمته وفكره وتراثه ، وقد كنا إلى عهد قريب نتنكر لتاريخنا ولغتنا وقيمنا الفكرية والروحية – جهلا بها أو قصوراً من الباحثين عن تقديم ثمرات هذا الفكر مبسطة سهلة لهذا الشباب المتطلع الطامح . بينما وجد أمامه حصيلة من الآراء والثقافات الغربية ألقاها الاستعمار فى طريقه غير ممحصة ولا مدروسة أو مقارنة بفكرنا

ومفاهيمنا ، ومن ثم فقد إندفع وراء بريق الثقافة الغربية فلم يأخذ منها مع الأسف إلا قشورها. ذلك أن الاستعمار كان ومازال وسيظل فى مختلف صوره (الاستعمار الثقافى اليوم بعد الاستعمار السياسى العسكرى) يحرضنا ويغرينا ويخدعنا بالشبهات والدسائس على أن نتنكر لعظمة فكرنا وتاريخنا وتراثنا وذلك ليسلخنا من روح فكرنا العربى الإسلامى ، الذى تراكم عليه غبار كثيف ، وقد كانت هذه المجموعة من الإعلام رائده فى هذا المجال ، مجال إضاءة المصابيح أمام أمتنا ، وإزالة الصخور من طريقنا ، والكشف عن جوهر فكرنا ، وذلك جهد ضخم قام به هؤلاء الإبرار فى فترة من أحلك فترات تاريخ العالم الإسلامى والأمة العربية ، فترة إقترن فيها ضعف الواقع وتخلف الحاضر ، بصراع المستعمر الزاحف فكانت المعركة معركتين : معركة الإصلاح والتجديد والبعث ضد الجمود والتخلف ، ومعركة المقاومة والكفاح ضد الاحتلال والاستعمار والاستبداد .

* * *

فمن حق هؤلاء الرواد أن نذكرهم وأن نكشف عن جوهر فكرهم وطريق حياتهم فهم مصابيح مضيئة على طريق اليقظة ، ومنائر حية على طريق النهضة كافحوا فى أشد الأوقات ظلمة وظلماً ، واحتملوا الكثير فى سبيل الكلمة ، وأعلنوا صيحة الحق مدوية عالية ، وكان من نصيبهم السجن أو النفى أو الموت ولكنهم مضوا مؤمنين بحق هذه الأمة ، وبحق هذا الفكر الإسلامى العربى الذى هو « روح اليقظة » وقوامها ومادة حياتها . فكل الحركات الوطنية والدعوات الفكرية إنما كانت تلتمس أصوله ومفاهيمه وقيمه وجذوره ، وكل دعوة أو حركة خرجت عليه ضاعت أو ماتت أو انطوت مهما علا بريقها وامتد زيفها زمناً ، فإنها لم تستطع أن تقاوم الفناء ، ذلك أن هذه « الأمة العربية »

قد كونت قيما أساسية لفكرها منذ بزغ فجر الإسلام جامعا لكل عناصرها وأديانها وإجناسها ، فكانت هذه القيم عصارة اليهودية والنصرانية والإسلام ، وخيرما فى فلسفات الهند والفرس واليونان والرومان والعرب ، وقد صهرها الفكر العربى الإسلامى فى إطار من التوحيد والعدل والحرية . ولقد كانت هذه الثقافة العربية المعاصرة ثمرة هذا الفكر العربى الإسلامى ونتاجه ، ذلك أنه فيما عدا الجانب الدينى اللاهوتى فى الإسلام وهو خاص بالمسلمين وحدهم ، فأن هذا الفكر ملك لهذا الشرق العربى الإسلامى كله بكل أديانه ومذاهبه ونحله وعناصره ، صاغه من عصاره فكره وشاركت فيه وكونته ثقافاته وفلسفاته .

* * *

ومنذ ظهرت أول خيوط « اليقظة العربية الإسلامية » فى منتصف القرن الثامن عشر ، من الجزيرة العربية ومن الأزهر فى مصر تبلور ذلك الخط الطويل الممتد الذى التقى فيه هذا الرعيل كله من الإعلام الذين تنتظمهم هذه الدراسة فى مختلف المراحل والميادين والأقطار ، إذن فحركة اليقظة العربية الإسلامية هى الرابطة بين هؤلاء الرواد ، والقاسم المشترك لفكرهم ودعوتهم ، سواء أكانوا فى قلب الأمة العربية أو خارجها فى أنحاء العالم الإسلامى الذى يجمعه بالأمة العربية جذور عميقة من وحدة الفكر . ومن حق أن الأمة العربية وقد حملت لواء حركة اليقظة وقدمت لها رواداً ومفكرين ودعاة أضافوا إضافات حية بناءة كانت مصدراً حياً لمتابعة العالم الإسلامى من حركة يقظة وتجديد للفكر ، وحركة مقاومة للنفوذ الأجنبى وحركة بناء فى مجال البعث للقديم الاقتباس من الفكر الغربى على قاعدة أصيلة من ذاتيتها وفكرها .

واعتقد أنه من خلال دراسة هؤلاء الأعلام فى مجموعهم يمكن أن ترسم

فى صياغة متكاملة قصة اليقظة وتاريخها وتطورها فى مجالات الوطنية والعلم والإصلاح الإجتماعى والتجديد الدينى والتطور الثقافى والمقاومة الحربية والعمل السياسى والصحفى .

وتضم هذه الدراسة تراجم الإعلام الذين برزوا خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) ومن جاءوا بعدهم إلى منتصف هذا القرن ٠

* * *

وبالجلة فإن هذه الباقة من الإعلام أنما تمثل مطلع الفجر على طريق اليقظة الطويل، وقد حق علينا أن نذكر هؤلاء الرواد تقديراً لهم وإفادة من تجاربهم ولاشك أن هذه المجموعة تمثل القيادة الواعية ، التى حملت اللواء فى ذلك الصراع الهائل بين الحق والباطل والحرية والاستعباد . ومن الحق أن يقال أن هؤلاء الروادكانوا منارا يهتدى وضياءاً يبعث فى النفوس الأمل ؟

الهرم — أبريل ١٩٧٠

أنور الجندى

ثبت الاعلام

(ا)

(١) ابراهيم هنانو : (سوريا) : المجاهد الذى كشف خدعة الاستعمار
(٠٠٠ - ١٩٣٥)

(٢) أبو الكلام أزاد : (الهند) : داعية الحرية والإسلام
(٠٠٠ - ١٩٥٨)

(٣) أحمد عرابى : (مصر) : قائد الثورة العرابية
(١٨٤١ - ١٩١١)

(٤) أمير بقطر : (مصر) : الرحالة المنقطع النظير
(-١٩٦٨)

(٥) أمير على : (الهند) مدرة الاسلام فى قلب بلاد الغرب
(١٨٤٩ - ١٩٢٨)

(٦) اسماعيل عصرنسكى : (تركستان) : داعية الوحدة الإسلامية
(١٨٥٩ — ١٩١٤)

(ج)

(٧) جمال الدين القاسمى : (الشام) : الكشف عن جوهر الإسلام
(١٨٦٦ - ١٩١٤)

(خ)

(٨) خير الدين التونسى: (تونس) : داعية الربط بين الاسلام والعصر
(١٨١٠ - ١٨٩٠)

(ر)

(٩) رشيد رضا : (مصر) : صاحب المنار (١٨٦٥ - ١٩٣٥)

(١٠) رشيد الكيلانى: (العراق) : قائد الثورة العراقية (١٩٠٠ ـ ١٩٦٥)

(١١) رفيق العظم : (الشام) : مؤرخ أعلام الاسلام

(ش)

(١٢) شبلى النعمانى : (الهند) : المؤرخ والمجدد الاسلامى (ـ ١٩١٤)

(١٣) شكيب ارسلان : (الشام) : موسوعة حاضر العالم الاسلامى
(١٨٦٩ ـ ١٩٤٦)

(ص)

(١٤) صلاح الدين الصباغ : (العراق) : صوت اليقظة العربية (١٨٩٩ـ١٩٤٥)

(ط)

(١٥) طاهر الجزائرى: (الشام) : مجدد الاسلام والثقافة العربية (١٨٥٢ـ١٩٢٠)

(١٦) طنطاوى جوهرى : (مصر) داعية السلام العالمى (١٨٧٠ ـ ١٩٤٠)

(ع)

(١٧) عزيز المصرى : (مصر) : رجل الحرب والعروبة (١٨٨٠ ـ ١٩٦٥)

(١٨) عبد الحميد بن باديس : (الجزائر) : داعية الاسلام والعروبة والجزائر
(١٨٨٧ ـ ١٩٤٠)

(١٩) عبد الحميد الزهراوى : (الشام) : رئيس المؤتمر العربى الأول
(١٨٨٥ ـ ١٩١٦)

(٢٠) عبد الرحمن شهبندر : (الشام) : من قادة الحركة العربية (١٨٨٢ ـ ١٩٤٠)

(٢١) عبد الرحمن الرافعى : (مصر) : مؤرخ الحركة الوطنية المصرية
(١٨٨٩ ـ ١٩٦٦)

(٢٢) عبد العزيز الثعالبى : (تونس) : تلميذ جمال الدين وخليفة الكواكبى
(١٨٧٤ ـ ١٩٤٤)

(٢٣) عبد القادر الجزائرى : (الجزائر) : سفير المغرب إلى المشرق
(١٨٠٧ — ١٨٨٣)

(٢٤) عبد القادر المغربى : (الشام) : مجدد الإسلام واللغة (١٦٨٧ —١٩٥٦)

(٢٥) عبد القادر الحسينى : (فلسطين) : أول شهداء معركة فلسطين (١٩٠٨ — ١٩٤٨)

(٢٦) عبد الكريم الخطابى : (المغرب) : بطل تحرير المغرب (١٨٨٣ — ١٩٦٣)

(٢٧) عبد المحسن الفاطمى : (العراق) : شاعر النفس الطويل (١٨٧٠ — ١٩٣٥)

(٢٨) على مبارك : (مصر) : بناء المعاهد والمدارس والمكتبات (١٨٢٤ — ١٨٩٣)

(٢٩) على يوسف : (مصر) : رائد الصحافة العربية فى مصر (—)

(٣٠) عمر مكرم : (مصر) حامل لواء الشعب (— ١٨٢٢)

(ف)

(٣١) فارس الخورى : (الشام) : عبقرية البيان والقانون (١٨٧٧ — ١٩٦٢)

(٣٢) فريد وجدى : (مصر) : مؤلف دائرة المعارف (— ١٩٥٢)

(م)

(٣٣) ~~مدحت : (تركيا) : أبو الدستور العثمانى (١٨٨٣ — ١٨٧٦)~~

(٣٤) محمد أحمد المهدى : (السودان) الرجل الذى أسر غردون ليفتدى به عرابى (١٨٤٥ — ١٨٨٥)

(٣٥) محمد على جناح : (الباكستان) : مؤسس الباكستان (—١٩٤٧)

(٣٦) محمد بن عبد الوهاب : (الجزيرة العربية) : مجدد الإسلام وداعية التوحيد (١٧٠٣ — ١٧٩٢)

(٣٧) محمد بن على السنوسى : (طرابلس الغرب) : الدعوة إلى تحرير الإسلام من القيود (١٧٨٧ — ١٨٥٩)

(٣٨) محمد بن العربى العلوى : (المغرب) مجدد الاسلام فى المغرب (— ١٩٦٤)

(٣٩) محمد مصطفى المراغى : (مصر) : مجدد الإسلام والأزهر (١٨٨١ — ١٩٤٥)

(٤٠) محمد مصدق : (إيران) : صوت الحرية فى إيران (١٨٧٩ — ١٩٦٧)

(٤١) محمد مسعود : (مصر) : صاحب الجذاذات التاريخية

(٤٢) مصطفى عبد الرازق : (مصر) : ثقافة الشرق والغرب (١٨٨٢–١٨٤٧)

(٤٣) مصطفى كامل : (مصر) : موقظ الوطنية بعد الاحتلال (١٨٧٤–١٩٠٨)

(ن)

(٤٤) نعمان أبو الثناء الألوسى : (العراق) صاحب « روح المعانى » (١٨٠٢ — ١٨٥٤)

(ى)

(٤٥) يوسف العظمة : (الشام) : البطل الذى رفض أن يرى استعمار وطنه (١٨٨٤ — ١٩٢٠)

ابراهيم هنانو

« المجاهد الذى كشف خدعة الاستعمار »

(توفى ١٩٣٥)

« أنا لا أعد مجرماً لأن أمرنا سياسى صرف وأنا لا أشك بأنكم ستحكمون بالعدل ، أما تشكيل العصابات فلم يكن بقصد السلب أو الفتك ، وإلا لقاومنا الشعب وسحقنا سحقـــا ، فقواتنا إذن مؤلفة من أفرد الشعب صاحب الحق والسلطان ، ولو كنت مجرماً عادياً لما فاوضنى ممثلكم بشأن عقد هدنة ومبادلة الأسرى ، ولما عقدت معى حكومة أنقرة اتفاقاً .

« نحن لم نعهد إلى الوسائل الحربية إلا للدفاع عن أنفسنا .

« إننى ثائر سياسى ادافع عن وطنى واتبرأ من كل مجرم سفاك.

إن الرجل الذى قاوم الانتداب الفرنسى لن ينفصل عن مسئولية تعود تبعتها عليه .

« من دفاعه امام المحكمة »

* * *

نموذج لقلة من المجاهدين ، فطموا أنفسهم عن المطامع الشخصية . ووهبوا حياتهم خالصة لأوطانهم وأمتهم . وصاموا عن كل رغبة أو غاية . ولم يجعلوا للحياة ومتاعها وترفها حسابا لديهم . شبيه فى هذا بمحمد فريد فى مصر الذى أنفق كل ما يملك — وهو الكثير — فى سبيل وطنه وقضية بلاده أما إبراهيم هنانو فقد أحرق كل ما يملك من دور — وضياع ومتاع — حتى إذا وقع فى قبضة الأعداء لا يضيق بشىء ولا يصبه الوهن .

وقد تنبه فى ذكاء إلى مؤامرات الاستعمار الفرنسى منذ اللحظة الأولى وكشف فى صراحة عن المناورة ، فلم يلبث والمؤتمر السورى منعقد ليعلن قيام الدولة العربية عام ١٩٢٠ أن قال كلمته :

« إن الحلفاء متآمرون على سورية والوطن العربى . وهذه المؤتمرات السياسية لن تجدى فتيلا . وعلينا أن نفتش عن طريق آخر نحرر بواسطته البلاد ونجنبها طريق المعاهدات » .

وكان هنانو قد رأى إخوانه وهم يستشهدون فوق أعواد المشانق التى أطلقوا عليها « اراجيح الأبطال » وشهد الزحف العربى وهو يحرر تركيا من القوات التركية فى الوقت الذى كان العرب ينتظرون قيام الدولة العربية بعد مفاوضات (حسين — مكماهون) ورأى كيف خان الحلفاء العرب وخدعوهم فما أن وضعت الحرب العالمية أوزارها حتى تكشف الموقف عن تمزيق الدولة العربية الموعودة بين فرنسا وبريطانيا . ورأى كيف وقف (غورو) على قبر صلاح الدين فى دمشق ليقول :

ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين .

وسمع (اللنبى) وهو يدخل فلسطين ويصيح :
الآن انتهت الحرب الصليبية .

وكان الأمير فيصل قد دخل دمشق على رأس الجيش العربى فى أول أكتوبر ١٩١٨ بعد أن حرر شبه الجزيرة من قوات تركيا . ودخلت قبله وفى أثره قوات الحلفاء فرنسا وانجلترا . وأذاع فيصل بعد دخوله بياناً رسمياً شكر فيه عرب سوريا وأعلن عن تشكيل حكومة عربية دستورية مستقلة . وسافر فيصل إلى باريس لحضور مؤتمر السلام باسم الحكومة العربية . وكانت المؤامرات قد سبقته فقد كان الاتفاق بين الحلفاء أن تحتل فرنسا «سورية »

وفى مطلع مارس (آزار) عام ١٩٢٠ اجتمع المؤتمر السورى فأعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية وبايع فيصل ملكا عليها ورفضت فرنسا وبريطانيا الإعتراف بالدولة الجديدة . . ولكن مؤتمر سان ريمو الذى عقده الحلفاء قرر انتداب فرنسا على سورية ولبنان . ولم يلبث الجنرال غورو أن وجه انذاره المعروف إلى الحكومة السورية فى ١٤ يوليو ١٩٢٠ وتابعه بزحف الجيش الفرنسى على دمشق .

وجرت معركة ميسلون فى ٢٤ يوليو (تموز) واستشهد يوسف العظمة وكان ذلك علامة العمل عند ابراهيم هنانو .

وكان منذ صيف ١٩١٩ قد اشتغل بجمع المال والسلاح ورأس جمعية الدفاع الوطنى وأخذ يمد المناوشين فى الساحل وفى انطاكية . فلما وقعت ميسلون غادر حلب إلى معاقل الجبال نافخا فى بوق الثورة ومن جبل (الزاوية) أذاع نداءه الوطنى الذى ألهب مشاعر السوريين .

« أيها الفلاحون والقرويون . . يابنى وطنى ويا أبناء سوريا الأشاوس ، يا أباة الضيم . من قمة هذا الجبل الأشم استصرخ ضمائركم . وأقول لكم أن أن بلادنا العزيزة أصبحت اليوم محتلة مهددة من قبل المستعمرين . أولئك الذين اعتدوا على قدسية استقلالنا وحرياتنا قاصدين من وراء ذلك فرض الاستعمار

الجائر . والانتداب الممسوخ اللذين قاومهما العرب أعواما كثيرة وسفكوا الدماء الذكية فى سبيل الحرية والاستقلال التام . وها أنذا اتقلد السلاح للذود عن حياض الوطن الغالى ، والاستقلال الثمين الذى نحن له الفدى . فيا أبطال الوغى وياحماة الديار . . إلى الجهاد . . . . . إلى النضال . . عملا بقول الله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) .

وقد بدأت الثورة فى ثلاث مناطق على ارتباط لكل منها ، فقد اعتصمت القوى الوطنية فى الجبال وأخذت تلقى الحمم على قوافل الفرنسيين . وقد بلغ عدد معاركها مائة وسبعة عشر معركة مما ملأ قلوبهم رعبا وهولا . وادال منهم ضحايا كثيرة. حتى اضطروا إلى مفاوضة هنانو بشأن عقد الهدنة ومبادلة الأسرى.

غير أن هنانو أحس عند مفاوضة الجنرال (غريو) أنه إنما يريد التغرير بالحركة وخداعها . فلم يلبث أن قال له :

« إن حياتنا ليست بذات بال أمام حياة الوطن . فنحن لم نقم يا جنرال بحركتنا هذه لكسب شخصى أو غنم مادى . إننا قمنا لنحرر بلادنا المقدسة من الاستعمار ولن يثنينا عن عزمنا وعد أو وعيد » .

واستأنف القتال ولقى الفرنسيون مزيدا من الضحايا . غير أن الفرنسيين عمدوا إلى قطع الامدادات التى كانت تصله من تركيا وغيرها من الجهات واستقدمت قوات كبيرة لمحاصرته فرأى أن يخرج من سوريا فى يوليو ١٩٢٠ فى أربعين من ضباطه مستخفيا بحثا عن الأسلحة . ورصدت السلطات الفرنسية الجوائز لمن يقبض عليه .

وفى جبل الشمر ١٦ تموز ١٩٢٠ أطبقت القوات الفرنسية تريد القبض عليه فكانت معركة (مكسر الحصان) حيث قتل فريق من رجاله وأسر فريق على حين أوغل هنانو على فرسه هائما فى البادية ومعه أحد المجاهدين .

وقد واجه فى هذه المرحلة أهوالا وعنتا . ورفض الأمير عبد الله فى الأردن مساعدته فاتجه إلى فلسطين لمغادرتها إلى سوريا ، هنالك أسرعت فرنسا وعقدت مع المفوض السامى الانجليزى فى فلسطين معاهدة سرية (بتبادل المجرمين) وذلك لتسليم هنانو إليها واعتباره مجرماً عادياً .

وبينما (هنانو) فى فندق القدس فى ١٣ أغسطس ١٩٢١ إذ بالقوات تحاصر الفندق وتلقى القبض عليه .

واندلعت ثورة الشعب عندما علمت بخبر اعتقاله . واعتدى المتظاهرون على قائد انجليزى فى القدس . وخشيت السلطات الانجليزية خطر اتساع الحركة فأسرعت بتسليمه إلى السلطات الفرنسية على الحدود السورية .

وكانت هذه نهاية ثورة هنانو التى دامت عشرين شهراً والتى جمعت أكثر من ثلاثين ألف مجاهد . ودكت عدداً من معاقل الجيش الفرنسى . وسيطرت على مدينة أدلب وقضاء المعره وجسر الشاغور والتى جاهد فيها هنانو جهاد الأبطال حتى كانوا يطلقون عليه لقب « المتوكل على الله » .

* * *

وفى حلب ثار الشعب من أجل هنانو : وأعلن : إن فرنسا إذا مست شعرة من هنانو فإن البلاد ستلتهب وكانت محاكمته من المواقف التاريخية الوطنية العامة .

وبدأت المحاكمة (١٥ آزار « مارس » ١٩٢٢) وكان هنانو خلالها غاية فى الشجاعة والرجولة . فقال لقضاته فى نبرات العزم والصدق .

« أنا لا أعد مجرما . لان أمرنا سياسى صرف . أما تشكيل العصابات فلم تكن بقصد الفتك والنهب وإلا لقاومنا الشعب وسحقنا سحقا .

فقواتنا إذن مؤلفة من أفراد الشعب صاحب الحق والسلطان . اننى متهم

سياسى فقط ولو كنت مجرما عاديا كما تقولون لما فاوضنى ممثلكم الجنرال غريو بشأن عقد هدنة ومبادلة الأسرى . ولما عقدت معى حكومة أنقرة التى تعترفون بها اتفاقا . لأن الحكومتين الفرنسية والتركية أسمى وأجل من أن تتنازلا لمفاوضة مجرم شقى . ونحن لم نعمد إلى الوسائل الحربية إلا للدفاع عن أنفسنا . إنى ثائر وطنى . أدافع عن وطنى » .

قال رئيس المحكمة : إذن فأنت تتنصل من المسئولية .

قال هنانو : إن الرجل الذى قاوم الإنتداب الفرنسى لن يتنصل من مسئولية تعود تبعتها عليه .

قال رئيس المحكمة : ومن اضطرك إلى أن تحارب .

قال هنانو : عندما أهاجم أغدو مضطراً لأن أدافع عن نفسى .

وتقدم الشهود: سعد الجابرى وعبد الرحمن الكيالى وعبد الوهاب طلسى فشهدوا بوطنيته ومبادئه السامية وثقافته وذكائه .

ووقف النائب العام الفرنسى وقال :

لو كان لابراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبع لطلبت إعدام رؤوسه السبعة ولكن لا يملك إلا رأساً واحداً .

ووقف فتح الله صقال المحامى فقال : ليس ثمة ما يدعو إلى اعتبار هنانو مجرماً عاديا أو مجرماً سياسيا . أن ما دار بين هنانو وجيش فرنسا هو حرب (أصولية) وان قائد الحملة الفرنسية قابل هنانو للاتفاق معه على الهدنة وتم عقد هدنتين متواليتين بينهما تبادلا فيها الأسرى .

وقال إن أهم تهم السبعة تشكيل عصابة من الأشقياء والواقع أن ركنى جريمة الاتفاق الجنائى غير متوفرين فى القضية . ذلك أن هنانو كان

قائداً لثورة اعتنق رفاقه مبدأها ولا بد من أن ينجم عن كل ثورة تعديات على الأشخاص والأموال .

وصدر الحكم بالبراءة فى ٢٥ مارس ١٩٢٢ فقد اعتقد الفرنسيون أن أى حكم عليه سيؤدى إلى ثورة عارمة لن يستطيعوا الوقوف فى وجهها . وعندما أفرج عنه وركب عربة تجرها الخيول نزع الشعب الحصانين وجر العربة بدلا منها . وكانت النساء يزغردون على طوال الطريق الممتد من السجن إلى الدار التى لم تكن بعيدة عنه وأمطرت الجماهير موكبه بماء الزهر وعطر الورد .

* * *

ولد إبراهيم هنانو عام ١٨٦٩ فى كفر حارم بحلب ونشأ فيها وتلقى العلم فى المدرسة الملكية للحقوق والادارة بالاستانة وتقلب فى عديد من المناصب فى العهد العثمانى . وانتخب عضواً فى المؤتمر السورى بعد الحرب الكبرى الأولى .

وقد عرف بالوطنية الصادقة التى لا تعرف المرونة وكان سىء الظن فى نوايا الفرنسيين ، لا يرضى التفاهم ولا يقبل الإلتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق . وقد ظل حتى آخر أيامه على رأيه لا يريم عنه فلا يقبل المعاهدات ، ويرى أن انتخابات المجالس النيابية زائفة ما لم تجلو قوات المحتل عن البلاد .

ويرى أن اللغة العربية سوف يقضى عليها ما دامت برامج التعليم الرسمى تجعل اللغة الفرنسية مقياساً للنجاح فى المدارس وحمل حملات متعددة على وسائل الاستعمار فى الافقار المالى والتجهيل بآداب العرب وتاريخهم المجيد الحافل بالانتصارات .

* * *

وتتلخص حياة إبراهيم هنانو فى أنه ولد ١٨٦٩ فى بلدة كفر تخاريم

غربى حلب ، وعين فى وظيفة قائمقام عام ١٩٠٤ فى أحد أقضية تركيا ، ثم مستنطقا فى بلده كفر تخاريم ، ثم انتخب عضوا فى مجلس إدارة ولاية حلب ١٩١٩ فرئيسالديوان الولاية ، وصف بأنه : مديد القامة نحيف البنية ساحر الجاذبية مهيب القسمات ، خطيبا ساحر العبارة ، محاربا ومقاتلا مقداما لا يعرف الجزع إلى نفسه سبيلا ، يقول سامى السراج أنه كان سنة ١٩١٣ ينشىء مقالات لدحض ما يزعمه غلاة الترك من أن مقاطعة حلب آهلة بأصول تركية فدلوه على رجل يمده بالوثائق والأسانيد ليفند هذا الرأى يدعى إبراهيم هنانو من حلب ، وقد عاش مشاركا فى حركات المقاومة حتى توفى فى (٢١ نوفمبر ١٩٣٥) .

(٢)

ابو الـكلام ازاد

داعية الحرية والاسلام فى الهند

(توفى — ١٩٥٨)

● إنى مسلم ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وأقبحه وأشهر مساويه وأن الإسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس بالقوه ولا هو القوة بل الحق هو الحق ، وأنه ليس لأحد من من البشر أن يستعبد عباد الله ويذلهم ويسخرهم ، والناس كلهم متساوون فى الإنسانية ، متساوون فى الحق ، متساوون فى الحيا ، وليس اللون والجنس والنسل معياراً للفضل والحسب وإنما معياره العمل وحده ، أن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل فرنسا بأحدعشر عاماً .

* * *

زميل غاندى وباتل ونهرو وجناح فى الـكفاح . خاض جميع المعارك والمفاوضات التى أنتهت باستقلال الهند عام ١٩٤٧ . حمل الدعوة إلى التحرر من العبـودية والذل البريطانى ودعا الهنود أن يدركوا إنهم هنود أولا وأن الهند هى وطنهم مادة ومعنى وأن عليهم أن ينفضوا عن أرواحهم هذا الولاء لمحتلى البلاد . وقد حمل أبو الـكلام إزاد قلمه ومضى يوقظ القلوب النائمة ويهز الأرواح التى ران عليها ظلام الأيام ولـكن الاستعمار وقف له بالمرصاد وعطل مجلته « الهلال » فلما أصدر بعدها « البلاغ » عطلها أيضاً ثم لم

يلبث أن نفاه من بلده وبلغ معه غاية الاضطهاد حيث سيق إلى المحاكمة والسجن .

ولكن « أبو الكلام إزاد » كان فى كل مراحل جهاده قويا صلبا لا يلين حتى عندما وقف أمام قضاته جابهم بدفاع حار سخر فيه من قضاته ومن التهم الموجهة إليه وجهر برأيه فى الحرية فى بيان لاذع وقال « الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق . وقد أبيضت عين الدهر ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة فى إعلاء كلمة الحق التى قدمتها الأمة الإسلامية فى كل دور من أدوار حياتها . ألا فلتعلم الحكومة الانجليزية : أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ويتغلغل فى لجج الدواهى والكوارث ولا يقبل السكوت عن الحق ولا يخيفه قانون العقوبات الاستعمارى » .

وما كاد يخرج إزاد من السجن حتى كان غاندى قد أظهر دعوته ورغب فى مقابلته فلم يلبث أن أيد غاندى فى برنامج عدم التعاون ورافق غاندى فى معظم رحلاته فكان أول من ألقى القبض عليه فى البنغال حيث ظل سجينا حتى أول يناير ١٩٢٣ حيث انتخب بعد الإفراج عنه رئيسا لحزب المؤتمر وقد وصفه غاندى بأن أحداً لا يتفوق عليه فى معرفته بالإسلام وأنه باحث متعمق فى اللغة العربية وفى وطنيته قوة تبلغ قوة إيمانه بالإسلام . وقد أعلن (إزاد) أن دعوة غاندى هى دعوة كل هندى وأصدر بيانا عد ثيقة تاريخية قال فيه : أن الإسلام هو دين الحرية والديمقراطية وأن الكفاح الوطنى هو واجب مقدس على كل مسلم وأعلن على المسلمين أن يكافحوا كهنود أولا لأن الوطن وطنهم وتحرير الوطن واجب عليهم كمواطنين . وقد ذعر الاستعمار من خطة (إزاد) وعد هذا الإندماج أكبر خطر يهدد كيان الإمبراطورية .

وكان أبو الكلام إزاد قد ولد ونشأ فى الجزيرة العربية إذ ولد فى مكه عام ١٨٨٨ وعاد به والده إلى كلكتا عام ١٨٩٨ بعد أن تعلم العربية والقرآن فى كتاتيب مكه ومدارسها الدينية فلما عاد إلى الهند تعلم اللغتين الفارسية والأردية ، كما عكف على دراسة الفلسفة والتاريخ والفقه الإسلامى مما أعده لأن يقرأ فى أول سن الخامسة عشرة مقالات المصلح الهندى المسلم (سيد أحمد خان) التى تأثر بها تأثرا بالغا وقال عنها « أدركت أنه ليس لأحد أن يصبح عالماً بمعناه الحقيقى فى العالم الحاضر ؛ اللهم إلا أن يدرس العلم الحديث والفلسفة والآداب الجديدة » وقد أداه ذلك إلى دراسة اللغة الانجليزية ، وفى خلال هذه الفترة من حياة أبو الكلام إزاد بدأت تتصارع نفسه عواطف متضاربة بين الوراثيات والحضارة تدفعه إلى البحث عن الحقيقة : وقد صور هذا بقوله «وكانت الفترة لى فترة أزمة عقلية كبيرة ، فقد ولدت فى أسرة متمسكة بالتقاليد الدينية إلى آخر حد ، على أنى لم أقدر على الإنسجام مع العادات والتقاليد السائدة . وكان قلبى على العكس مفعما بفكرة ثورية ضد هذه التقاليد . ولم تعد الأفكار الموروثة أو التربية البدائية تقنعنى بها وشعرت بحافز قوى يدفعنى إلى البحث عن الحقيقة وأصبحت مدفوعا بهذا الحافز إلى تخطى الدائرة العائلية بحثا عن طريق خاص لنفسى » .

وقال إزاد الذى يعنى لقبه كلمة « الحر » أنه أمضى ثلاث سنوات قلقة نتيجة للخلافات السائدة بين المسلمين ، التى أثارت فى عقله شكوكا بالنسبة إلى الدين نفسه .

وقد دفعه ذلك إلى العمل الثورى فانضم إلى إحدى الجمعيات الثورية فى ولاية البنغال أبان ثورتها السياسية ١٩٠٥ ولم يلبث أن قام بجولات فى العراق وسوريا وتركيا ومصر فى سن العشرين . ومكث فى مصر وقتاً غير قليل وزار الجامع الازهر ولم يدرس هناك شيئاً على خلاف ما قيل عنه ، واتصل بالثوار

الاتراك والعرب . . ولعل هذا هو الذى دفعه بعد عودته إلى أن يشق نفس الطريق الذى سار فيه مصطفى كامل ومحمد فريد فكانت حركته الجديدة بين المسلمين والهنود ترسم منها جاالمستقبل قوامه تربية الرأى العام .

ولذلك أصدر جريدته « الهلال » فى يونيه ١٩١٢ فكانت مدرسة للمسلمين بدروسها الوطنية القوية ، ومنها أنبثقت حركة ثورية فلما عطلت أصدر البلاغ عام١٩١٥ ثم إخرج من كلكتا فى أبريل ١٩١٦ ثم أعتقل فبقى فى سجنه حتى ٣١ ديسمبر ١٩١٩ .

وكانت جريدته الهلال توزع ٢٥ ألف نسخة وهو رقم ضخم أخاف الاستعمار وإزعجه فقد كانت جريدته تنتقد السلطات البريطانية وبذلك أصبحت أداة فعالة فى تنظيم صفوف أبناء الهند تحت لواء الوطنية الموحدة .

وكان قد أصدر فى مطلع شبابه مجله « لسان الصديق » وفى سن الثلاثين أصدر كتابه المعروف « تذكرة » سجل فيه فاسفته الثوريةوعقيدته السياسية. وكان قد كتبه فى السجن من حافظته .

وقد كان أسلوبه فى اللغة الاورديه : آيه فى الدقة والبلاغة وروعةالاسلوب فضلا عن عمق تفكيره ، ومن خصائص نثره أنه يتعمق الآثار الكثيرة لشعراء العربية والفارسية والادريه ومن ذلك قوله :

(لا استطيع أن أؤمن بأمر واقريه قبل أن أغربله بغربال عقلى واعرضه على محك عقلى .

(أن ثمن ما قدم الإسلام للعالم رسالة الديمقراطية والتساوى بين البشر.

(اعتز بتعاليم الإسلام وتايخه وفنونه وآدابه وحضارته وهى غنائى وثروتى ويعد كتابه (ترجمة القرآن) هو أعظم اثاره الفكرية ، فقد عرض فيه

ترجمه للقرآن وتفسيرا له وله بحث هام فى تفسير القرآن فقد حقق شخصية « ذو القرنين » الواردة فى القرآن والسد الذى بناه على نحو لم يعرفه كثير من المفسرين ومنهجه فى التفسير يجرى على منوال حديث فى اللغة الارديه وقد اشتهر به وراج رواجاً بالغا فى الهند :

وقد قدم كتابه بقوله : مضى لى سبع وعشرون عاما بالتمام والقرآن موضع مطالعة ليلى ودراسة نهارى . ذهب بى الفحص والتفكير وراء سور القرآن وآياتها بل وكلماتها إلى ابعد حدوده واوسع نواحيه . فدقق فكرى سوره ، وحقق نظرى آياته آية آية ، وفحصت ألفاظه لفظا لفظا ، قرأت كل ما يوجد من الكتب والتفاسير خطية كانت أو مطبوعة اكثرها، فلم تفت تفكيرى ناحية من نواحى علوم القرآن فى مباحثها ومقالاتها) وقد حفلت مكتبته الخاصة بأحدث الكتب فى شتى اللغات : الفارسية والانجليزية والعربية والاردية والفرنسية فضلا عن صحف تركيا وإيران وافغانستان والبلاد العربية .

وقد تتلمذ أبو الكلام ازاد لجمال الدين الافغانى وحمل روحه فى الحرية ومقاومة الاستعمار وكراهية الانجليز وقد دعا المسلمين إلى الامتناع عن معاونة بريطانيا فى الحرب العالمية وطاف فى الهند يحض على مقاطعتها .

وقد وصفه يوسف مهبراتى : أنه تعمق فى فلسفات الشرق والغرب وقد أثر بقوة قلمه فى الحركة الوطنية لا فى الهند وحدها وإنما فى الخارج أيضاً وقال الصحفى البريطانى « فالنين شيرول »أن(مجلته) الهلال قدخلقت جيلا جديداً من الشباب يستطع أن يرى حقيقة السياسة البريطانية ويفهم أغراضها المزدوجة ، وإن البريطانيين ليسوا حماة الإسلام فى الهند . وإن التفرقة بين المسلمين والهندوس ، وتفضيل المسلمين على الهندوس ليس حبا فى الإسلام، وإنما تحقيقا للمصالح الإستعمارية فان بريطانيا فى مهد الإسلام وفى الشرق الاوسط تحارب الإسلام وتوقع الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين مفضلة غير المسلمين ومضطهدة للمسلمين » .

وهو الذى حمل أروع ما فى الإسلام من معانى الكرامة والبطولة والجهاد حين أعلن « أن الإسلام من اوله إلى آخره دعوة إلى البسالة والجرأة و التضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق ، وأن التوجيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون لغير الله وإن المسلم الذى أمره ربه إن يرحب بالموت الأحمر ويتغلغل فى لجج الدواهى لا يقبل السكوت عن الحق ولا يغضى على المكروه » .

كما وصف كثير من المؤرخين هذه الآراء بأنها قنبلة القيت بين المسلمين واحدثت دويا شديدا . وعندما وضعت الحكومة البريطانية « فيلبى » وهو من ابرع عملاء الانجليز لمراقبته وكتابة التقارير عنه، علمه (أبو الكلام) الإسلام والعربية والادرية .

وقد عين ازاد رئيسا لمجلس الشعب الهندى من ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٦ ووزيراً للمعارف والتعليم فى الحكومة المركزية فى الهند من ١٩٤٨ — ١٩٥٨ وقد وصف بأنه أحد العمد الأربعة للهند : « غاندى ، ازاد . نهرو . تروانى » امضى فى السجن احد عشر عاماً .. ولم يصرفه السجن والتعذيب عن هدفه فى مقاومة الانجليز . وهو على غيرته الوطنية محب للبشرية وروح التسامح ، لم يهاجم خصومه وكان يحاول دائما أن يجد الحل الوسط بين الرأيين المتعارضين وكان مع تضلعه فى اللغة الانجليزية لا يتكلم بها من حيث المبدأ حتى عندما سافر إلى بريطانيا والتقى بمستر اتلى رئيس الوزراء .

وقد توفى عن ٦٩ عاما وقال عنه نهرو بعد وفاته « الآن إلى من اذهب للمشاوره إذا عن لى مشكلا سياسيا » .

توفى « ٢٢ فبراير ١٩٥٨ »

أحمد عرابى

قائد الثورة العربية

١٨٤١ — ١٩١١

قال الخديو : ما هى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا .

فأجبته بقولى : جئنا نعرض عليك طلبات الجيش والأمة .

فقال : وما هى هذه الطلبات .

قلت : هى إسقاط الوزارة المستبدة وتأليف مجلس نواب على النسق الأوربى وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية .

قال : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

قلت : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يجعلنا تراثا ولا عقاراً فوالله الذى لا إله إلا هو، أننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم»

وبعد رجوع الخديو إلى داخل السراى قال للقنصل الانجليزى:

أعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المعلقة بالآهالى لم أعمد اليها إلا لانهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم أخواتهم وأولادهم. فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير المنفعة وأنظر إلى هؤلاء المحتشدين

خلف العساكر فهم الأهالى الذين أقامونا عنهم فى طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .

قال : ماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب .

قلت : أقول كلمة أخرى .

قال : ما هى .

قلت : لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

« مذكرات عرابى »

* * *

ما تردد إسم فى العالم العربى منذ سقطت فى قبضة الإستعمار كما تردد إسم « عرابى » الذى عاش مظلوما ، توجه اليه الإتهامات بأنه كان سبباً فى إحتلال مصر ، وبأنه أنهزم فى معركته مع بريطانيا ، وأنه كان عميلا للسلطان أو الأتراك ، ولم يكن عرابى إلا ضابطاً محباً لوطنه صادق الحب له ، يطمع فى أن يحرره من مظالم استبداد أسرة محمد على ونفوذ الاستعمار ومحب لجيشه يود أن يحرر المصرى فيه من طغيان القادة الشركسة الذين كانوا يسيطرون على كل شىء وأنه اجتهد فاخطأ ، ولم يكن الزمن فى صفه ، فى وقت كانت بريطانيا قد قررت فعلا أن تحتل مصر بعد أن أحتلت فرنسا الجزائر وتونس باعتبارها طريق مواصلاتها إلى الهند ، وقد أتخذت من ثورة عرابى فرصة لتحقيق هذا الهدف من أهداف التوسع ، وعرابى لم ينهزم إلا بفعل الخيانة فقد قاوم الإنجليز فى كفر الدوار وكبدهم خسائر فادحة وأوقف تقدمهم ثلاثة أسابيع كاملة ولولا خيانة الخديو وسلطان باشا والضابط على خنفس والأعراب الطحاوية ، فى فتح

الطريق أمام قوات بريطانيا إلى « التل الكبير » لمهاجمة قوات عرابى مفاجئه بعد أن أكد بعض قواده أن الأنجليز لن يتحركوا ذلك المساء ، لولا ذلك لما هزم عرابى.

وخاصة بعد أن إستدارت قوات بريطانيا وأقتحمت القناة التى عاهد « دلسبس » عرابى على أنها ستظل محايدة وحال بينه وبين ردمها، فالأمر كله لم يكن أكثر من مناورة ضخمة ، وغدر بالغ اشتركت فيه كل الجبهات ضد عرابى للقضاء عليه . ذلك أن المعركة فى التل الكبير لم تكن معركة بأى صورة من صور المعارك ، وإنما كانت انقضاض مفاجىء على معسكر عرابى فى لحظات مبكرة ولذلك لم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة .

وإذا كان عرابى قد هزم بفعل المؤمرات ، فإنه كان أول صوت ارتفع فى وجه الظلم ، وأول جندى فلاح وقف أمام خديو مصر ذى الهيلمان الخطير ليقول له كلمته الخالدة : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً ولاعقاراً ، فو الله الذى لا إله إلاهو : أننا سوف لا نورث بعد اليوم » لقد هزت الكلمة العالم العربى كله وكشفت عن الصوت الجديد الذى يؤمن بالحرية . .

كان ذلك يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ عندما وقف أحمد عرابى على رأس قواته فى ميدان عابدين وقدم للخديو مطالب الجيش ومطالب الشعب وكان عرابى قد اهتز لأحوال الأمة وما ترسف فيه من الظلم وماتقاسى من الآلام..وقدسجل هذا فى مذكراته حيث صور ما تطور إليه الموقف بعد تولى إسماعيل خديوية مصر ، فى حالة ما كان عليها من الديون إلا خمسة ملايين جنيه « فأخذ فى الظلم والسلب والنهب بمساعدة أعوان السوء وبطانة الغدر حتى اضطر الأهالى إلى الاستدانة بالربا الذى ما كانوا يعرفونه أصلا بإيعاز الحاكمين الخائنين،وجبرهم على الاستدانة بالربا الفاحش حتى استنزفت ثروة المصريين واستولى المرابين على كثير من أطيان الأهالى ظلماً وعدواناً وأمسى أهلها فقراء محتاجين لاقوت لهم

ولازال هذا الظلم والعدوان إلى أن جرى خلعه من الخديوية، بعد أن أثقل كاهل الحكومة بمائة مليون من الجنيهات الإنجليزية دينا لأوربا وبين سبعة عشر مليوناً من الجنيهات هى دين المقابلة للاهلين » .

وقد دارت هذه الأفكار فى ذهن عرابى ! وازدوجت مظالم الأمة فى مشاعره بمظالم الجركس والأرناءود له ولزملائه بالإضافة إلى سلطان النفوذ الأجنبى على الجيش وقد ردد عرابى هذه المعانى مع كثير من أعلام الوطن كما أورد ذلك فى مذكراته حيث قال . ثم أخذت أنشر أفكارى بين علماء الأمة وأعيانها وعند مشايخ العربان طالباً منهم مساعدتى على حفظ الأمن والراحه العمومية ، حتى يتفرغ للنظر فى مطالب البلاد ويتوفر على إنتشالها من وهدة الاضمحلال وهاوية التلاشى التى سقطت فيها مصر أو كادت بتفريط الحكومة فى حقوق الأمة وبيعها كثيرا من الأراضى للأجانب مع تعيين كثير منهم بالمرتبات الفادحة وسعيها فى رفع الأحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الإسكندرية وغير ذلك مما ينذر بأوخم العواقب ثم ثبت لنا أن سكوتنا عن حفظ حقوقنا عجز وجبن واضح ، ومشاركة للحكومة فى التفريط فى وطننا العزيز وسبيل ذلك إسقاط الوزارة الحاضرة التى لاتريد بالبلاد خيراً وتشكيل مجلس نواب يمهد إليه الوصول بنا إلى الحرية المنشودة . . »

وهكذا وصل إلى عرابى إلى قرار حاسم فى الموقف وكانت طلباته حين تقدم من الخديو فى يوم عابدين تربط بين حقوق رجال الجيش وحقوق الأمة :

١ — عزل رياض باشا رئيس الوزراء الموالى للنفوذ الأجنبى .

٢ — تشكيل مجلس النواب .

٣ — إبلاغ الجيش إلى العدد المقرر فى الفرمانات السلطانية .

فلما أنبرى له مستر كوكس القنصل البريطانى وفهم عرابى أنه إنما يريد أن يقول له أنه لا يمثل الشعب فأجاب: أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن أخوانهم وأولادهم فهم « القوة » التى ينفذ بها ما يعـود على الوطن بالخير والمنفعة .

ثم أشار إلى الأهالى المحتشدين فى ساح عابدين خلف القوات العسكرية وقال : أنظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، وأعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان مالم تنفذ . .

فلما سأله إذا كان يريد تنفيذ أوامره بالقوة قال : أن لنا حقنا فى أحوالنا الداخلية ، ولمـا سأله عن القوة : قال عند الاقتصاد نحشد مليونا من العساكر . .

فلما تحداة القنصل البريطانى عما يفعل إذا لم يجب إلى ما يطلب :

قال عرابى بدهاء : أقول كلمة أخرى .. لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط. وكان عرابى إذ ذاك واحداً من أبرز رجال الحزب الوطنى الذى أعلن عام ١٨٧٩ بقيادة سلطان باشا والذى كان ثمرة طبيعية لما آلت إليه الأمور بعد تضخم ديون إسماعيل وعزله وإزدياد النفوذ الأجنبى وقد أشار إلى ذلك عرابى فى مذكراته فقال أن تأليف هذا الحزب يرجع إلى التدهور الواقع من تغلغل النفوذ الأوربى فى الحكومة، وقد أذاع هذا الحزب عديداً من المنشورات وأبدى رأيه فى كثير من المسائل وخاصة فى مسالة الدين الممتاز وطالب بأن يعاد إلى الحكومة المصرية جميع الاملاك المسماه بالخديوية وأن تكون الديون

المتازة والسائرة والمنتظمة دينا واحداً مضمونا وقد كان الحزب الوطنى ذا أثر كبير فى هذه الحركة .

وكان عرابى ينظر فى حركته إلى ثورة الضباط على وزارة نوبار فى أواخر عهد إسماعيل كحركة أولى يستطيع أن يتمها .

وقد عرف عرابى بالبلاغة فى الخطابة، وكانت شخصيته فذة أسره، وله قدرة واضحة فى كسب الناس إلى صفه ، فى أهابه طابع الزعامه ، ولذلك فقد تجمع حوله كل الوطنيين والمتحمسين والناقمين على الازمات والظروف وجميع الذين يتطلعون فى إيمان وغيره إلى تحرير أوطانهم وغير ذوى المصالح الشخصية والاهواء ، وبالجملة فإن غالبية أهل الرأى فى الوطن كانت تقف وراء حركة عرابى وخاصة بعد هذا النجاح الذى أحرزه حين أسقط وزارة رياض وأصبح بحق من دعاة الدستور والحياة النيابيه .

وقد سجل لطفى السيد حق عرابى هذا يوم وفاته[1] فقال « لا يجوز لنا أن نغمط حق الرجل فى أنالتنا الدستور بل يجب علينا أن نردد له شكر آبائنا يوم صدور قانون الانتخاب وقانون مجلس النواب، تلك الحسنة الكبرى هى الدستور ولولا عرابى لم يكن الدستور ، فالدستور المصرى من عمله ومن صنع يده ومن آثار جرأته . طلبه عرابى لا بوصف أنه عسكرى ثائر ، ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة فى ذلك ، فإن عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من آلاف من وجهاء الأمة ومشايخها » .

وقد وصفه صديقه بلنت فى رسالة إلى مستر غلادستون[2] بأنه رجل غير عادى، قوى الحمية، واسع العلم، واسع الاختبار، عارف بأمور دينه ، إراءوه ليست مقتبسة من آراء الأوربيين ، كأنها صدى لها ، بل هى مبتكرة مبنية على

(١) الجريدة — ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١
(٢) المقتطف (إبريل سنة ١٩٠٨)

معرفة واسعة بتاريخ وتقاليد العرب الموروثة عن السلف حينما كانت حكومة الإسلام شورى ، وهو يتنصل من كل غرض شخصى ، وليس عندى شبهة فى أن البلاد كلها معه ، والجيش كل طوع أمره ، وفى قبضة يده . . »

ولقد كان نفوذ عرابى قد اتسع حين حمل لواء تحرير الوطن من قيود استبداد الخديو والنفوذ الأجنبى ، ووجد من كل مـــكان فى مصر نصيرا له ومؤازرا إياه ومؤمنا به وملتفا حوله ، ولم يتخلف عنه إلا الخونة الذين أثروا التطلع إلى المغانم كما فعل سلطان باشا ومن سار معه حول الخديو يؤيدون الانجليز ويقفون تحت العلم البريطانى بعد هزيمة عرابى .

ويتجلى مكان « عرابى » فى ذلك التأييد الشعبى الضخم الذى ظفر به عندما بدأت الثورة العرابية فقد جمعت له الأموال وتطوع الشباب من كل مكان ، وفى كل يوم كانت ترد الى معسكر الجيش إعانات الأهالى من النقود والشعير والحبوب والسمن والخضر والفاكهة والخيل والمـــواشى وقد وصف عرابى فى مذكراته مدى تأييد الشعب له فاشار إلى أن الحرب قد بدأت ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى ولا أكثر من ألف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن . وحتى هذه لم تكن كاملة ، وقال إنه لم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكن عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش ما تزيد قيمته عن مليون من الجنيهات من المـــــال والمنتجات الزراعية .

وقد تطورت مواقف الثورة يحيطها التآمر والغدر البريطانى ، فإن حوادث الإسكندرية التى مهدت للثورة كانت من ضيع الانجليز وتدبيرهم ، ولم تدخل قواتهم الاسكندرية إلا بعد أن دافع عنها المصريون دفاعاً مستميتاً وسجلوا بطولات بارعة وأعلن (ولسلى) أنه إنما جاء لتأييد سلطة « الحضرة الخديوية »

وإن عساكرهم يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه .. ووقفت البلاد كلها مع عرابى ووقف الخديو وحده مع الانجليز وقد فكر عرابى فى اغتيال الخديو وأظهر استعداده هذا لاسماعيل راغب عندما عرض عليه هذا الرأى؛ وقد حاصر العرابيون الخديو فى الإسكندرية فى أربعمائة من فرسان الجيش المصرى وأزعج الخديو هذا الاجراء فأرسل من يسأل الجنود عن مقصدهم ؛ فأجاب قائدهم بأن لديه أمراً بالحصار . . . وكانت النية متجهة إلى القبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة حتى لا يلجأ إلى الانجليز .

وقد اجمع قادة الرأى فى البلاد فى مجلس عرفى ضم أربعمائة عضو من بينهم الأمراء وشيوخ الإسلام وقضاه مصر ومفتيها وكبار علمائها ورؤسائها على تسليم عرابى حكم البلاد .

وحاول الخديو عزل عرابى ، وفعل فى ذلك مافعل ، وأعان السلطان خيانة عرابى وإذاعته جريدة الجوائب ، ولكن ذلك كله لم يفت فى عضد الثورة ، ولم يخدع الشعب ، وقد اقرت الجمعية العمومية بيعة عرابى واذيعت فتوى شرعية من الشيخ محمد عيسى وحسن العدوى ومحمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو من الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده .

ولقد كان عرابى سيد الموقف لولا خيانة على حنفى وسلطان باشا ، والحق أنه ليس فى تاريخ مصر شخصية احتملت من عنف تزييف التاريخ خلال خمسين عاماً كاملة ما احتمله عرابى ، فقد رمى بالخيانه والجهل والغرور ولم يقف فى صفه إلا القليل من المنصفين .

— ٣ —

لم يكن عرابى قبل الحركة إلا جنديا يحس بما يحس به الجنود المصريون من عسف وظلم يسلطه عليهم ضباط وشراكه واتراك لهم امتيازات غريبة ، غير أن طابعه العربى الأصيل واتصاله ابان شبابه بالأزهر — وأن لم يزد على أربع سنوات — واقتراعه فى العسكرية نفراً . . كل هذه العوامل كونت شخصيته فيما بعد ، وكانت بعيدة الأثر فى نهضته وخطته ، وقد ظل عرابى يرقى رتب الجيش فى سرعة تدل على نبوغة وذكائه ونجاحه فى عمله العسكرى ، بالرغم من الظروف التى كانت تحول دون رقى المصريين وتبريزهم ، بل أنه كان قد حدد موقفه من المعركة التى أثارها بعد سنوات طويلة حين ارتطم مع اللواء خسرو وباشا الشركسى مما أدى إلى تقديمه إلى مجلس عسكرى، غيرأن ترقى عرابى هذا توقف بعد أنه ظل تسعة عشرعاماً فى رتبه « القائمقام » وقد أشار عرابى إلى السر فى هذا هو أن الرتب العسكرية كادت تكون وقفاً على المماليك وأبنائهم من التابعين للعائلة الخديوية . .

ومن هنا ؛ واستجابة لهذه الروح من التذمر ، التى ملات نفوس الضباط المصريين ، أندلعت الثورة العرابية فى صورة واضحة ، وقد كان عرابى زعيمها لما عرف عنه من قدرة على الخطابة ولباقه وفهم لمجريات الأمور .

ولقدانتصر عرابى على الانجليز فى كفر الدوار ، وكبدهم خسائر فادحة مما حملهم على التراجع أمام قوة جيشه والجأهم إلى الغدر بأن أنزلوا قواتهم عن طريق قناة السويس بعد خديعة دلسبس لعرابى عندما تعهد له بأن لا يمر الانجليز من القناة .

وفى نفس الوقت تمكن الخديو بواسطة سلطان باشا من رشوة البدو القاطنين غرب القناة من الإسماعيلية ورأس الوادى والصالحية وما حولها .

كما رافق سلطان باشا الجيش البريطانى نائباً عن الخديو ليقدم لهم كل المساعدات ويمكنهم عن الزحف عبر تلك المناطق الصحراوية .

وهكذا ارتبطت هزيمة عرابى فى معركة (التل الكبير) بالخيانة ، وكانت الخيانة هى العامل الفعال فيها ، إذ أن المعركة لم تدم أكثر من عشرين دقيقة ، وكان سلطان باشا قد عهد إلى الأمير الاى عبد الرحمن حسن بحراسة المقدمة ، وكان (على حنفس) على قيادة خطــوط الخنادق المتوسطة — وتم إرشاد الانجليز إلى الطريق بوضع المصابيح فى مواقع الاستحكامات بعد أن أخليت من الجنود .

وقد سجل عرابى فى مذكراته أن (على خنفس) خانهم وأفضى إلى الجنرال (ولسلى) بالخطه التى وضعها عرابى وسلمه الرسم الذى أعدها . ولم يعلم عرابى بهذه الخيانة إلا بعد هزيمة التل الكبير . .

ولقد وقع هجــوم الانجليز لمعسكر المصريين فى التل الكبير فى وقت مبكر قبل الفجر ، فطوقوه قبل أن يستعد الجند للمقاومة والدفاع ، وقطع الجيش البريطانى الزاحف هـذه المسافة بين القصاصين والتل الكبير (وتبلغ خمسة عشر كيلوا متراً) دون أن تصادفهم طلائع المصريين ، وكان (يوسف خنفس) قد أعلن عرابى أول الليل إنه علم بأن الانجليز لا يخرجون هذه الليلة من مراكزهم . وإنه بناء على ذلك لم يفعل ما أمره به (على باشا الروبى) من عمل خط استحكام . فهزيمة عرابى إذن فى التل الكبير لم تأت من ناحية الشجاعة والدفاع ، وإنما جاءت من الخداع وتضافر الخليفة والخديو والانجليز والإعراب وسلطان باشا فى التآمر .

وحوكم عرابى هو وزملاؤه ، وقضت المحكمة البريطانية عليهم بالإعدام وخفف الانجليز الحكم بالنفى إلى سيلان وصودرت املاكهم وأموالهم ، ومضى

عرابى وأصحابه إلى منفاهم حيث أمضوا هناك تسعة عشر عاماً.. ثم أفرج عنه عام ١٩٠١ وكتب فى منفاه يقول : إننا أموات فى صور أحياء أو احياء فى صور أموات ، ولـكنا لسنا بآسفين لاعتقادنا اعتقاداً جازماً بأننا قمنا بما فرضه الله سبحانه علينا من الواجبات الشرعية والحقـوق الوطنية بكل نصح وإمانة جهد الاستطاعة »

وقد واجه عرابى ما تردد حوله من اتهامات وقال « ما خدمت دولة انجليز ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما ، ولا للخديو إسماعيل ولا لحليم باشا (ممثل تركيا) ولا أوحى إلى بمساعدة الدولة العلية من عرش عظمتها » .

كما أخذ عليه مؤرخوه إنه هرب من المعركة فى التل الـكبير وسلم نفسه فى القاهرة وإنه عُرف بقلة المحصول العلمى والسياسى وعـدم الـكفاية السياسية والغرور والاعتداد بالنفس ، وإنه صرف الوقت فى العبادة وعقد حلقات الذكر بالليل مما أرهق الجنود وأنه خدع لدلسبس ولو كان قد ردم قناة السويس لانقذ البلاد. أو لو أنه اتفق مع الخديو ضد الانجليز وكل هذه دعاوى تواجه المهزوم التى تتجمع حوله الاتهامات باطله وصحيحة، دون تقدير الموقف نفسه، وللظروف العامة التى كانت تحيط بالمعركة والتى لا سبيل فى اللحظات الدقيقة الحرجة إلى تداركها أو العودة بهامن الطريق الذى اندفعت فيه القوى المنطلقة ، وتلك دائماً وعيوب المنهزمين .

والناس من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

وإذا الدنيا أدبرت عن أحد سلبته محاسن نفسه وإذا أقبلت عليه إعارته محاسن غيره .

ولا شك أن لعرابى اخطاء فى القيادة وفى التصرف ولـكنها لا ترقى إلى الخيانة التى حاول خصومه وخصوم مصر الصاقها به .

وإذا كانت بعض الصحف قد وصفت عرابى عند عودته إلى مصر بعد أنتهاء نفيه بأنه « رجل حكم عليه التاريخ بالتمرد عن سيده وسلطانه وأنه حكم على وطنه بالبلاء والشقاء » على نحو ما ذكرت جريدة الأهرام ، فإن هذا فى نظر المنصفين تجاوز عن الحقيقة واملاء من المستعمر . وإذا كان عرابى قد وقف حقيقة قبل مغادرته منفاه فى سيلان « يمدح الاحتلال تملقا إليه » فماذلك مما يحسب عليه أو يحاسب عليه فى هذه السنوات الأخيرة من حياة رجل أنهكه النفى وأرتفاع السن وعوامل الضعف البشرى وعودته إلى وطن قد احتله خصومة وغيروا فيه كل شىء ، غير أن المنصفين أمثال « بلنت » وغيره فانهم يذكرون أنه كان سعيدا بما يقوم به مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى الجديد وأكدوا أن عرابى ظل حتى النهاية من أشد أنصار الحرية القومية وكان يتوقع دائما انقلابا عظيما فى حالة مصر . .

وعندما [1] عاد عرابى تطاولت الاعناق خلال الطريق من محطة القاهرة حتى بيته فى الناصرية ، إلى المركبة التى يركبها وإزدحمت الأقدام من حوله وكان يركب عربه يجرها جوادان أبيضان مزينان بالشرائط الحمراء . ولما وصل المنزل قوبل بالهتاف والأناشيد ورش عليه من النوافذ العطر والزهر . . وكان قد عاد باسرته فى عشرين فرداً وقد قابلته الجماهير على جميع المحطات من السويس إلى القاهرة وكانوا أشد حماسا عند محطة التل الـكبير وذكر أن مصطفى كامل كان يرسل إليه الرسائل فى منفاه ليسأله عن أمور كثيرة وقد توافد على عرابى أصدقائه القدماء وفى مقدمتهم حسن موسى العقاد ، وقد أدلى ببعض أحاديث إلى الصحف رد فيها بدأ الثورة إلى أيام سعيد التى كانت

---

(١) راجع الأهرام ٣٠ سبتمبر ، أول اكتوبر ١٩٠١

شديدة الوطأة بسبب العونة ، وذكر ما تحمله الفلاحون والظلم والشقاء فى حفر ترعة الإسماعيلية وترعة الإبراهيمة » وتحدث فى عن ضريبة المقابلة وقال أنها أوغرت الصدور فكانت من أشد الأسباب لتهييج النفوس . وقال أن ثورة الضباط لم تنشأ إلا لأن الضباط رأو الحيف الواقع على أهلهم فجعلوا مطالبهم ومطالب ذويهم مطلبا واحداً [١] . وذكرت الأهرام [٢] أن عرابى كان ينوى ردم قنال السويس فكتب إليه الفرد بلنت باسم الأحرار الذين كانوا يشدون ساعد عرابى إلا يفعل لما فى ذلك من المضار وإسقاط الحزب الوطنى إلى مصاف العصابات الهمجية .

وكان عرابى يملك خمسمائة فدان فى الشرقية والغربية قدرت بثلاثة ألف جنيه وقد صودرت جميعها وكان مرتبة فى سيلان ٦٠٠ جنيه فى السنة ولم يلبث بعد عودته بقليل أن عاش فى عزله تامة يخيم عليه الظلام وقد انقطعت صلات الناس به وخشوا من أن تحصى عليهم بريطانيا زياراتهم له .

غير أن الحقائق تكشفت حين سجل كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) صراحة أنه قد اسيء فهم حركة العرابيين وأنها كانت إلى حد كبير حركة من المصريين ضد الحكم التركى وأمضى عرابى السنوات الباقية من عمره فى عزلة كاملة ، وعاش فى حدود معاشه القليل وأسرته الكبيرة ، وكانت أياما قاسية قضاها وحيدا يتلو القرآن ، ويتألم من سوء فهم الناس لحركته وما كانت تنشره الصحف عنه . وزاد من اله كتب التاريخ التى كانت توزع على المدارس تتهمه بالخيانة ، وقد ظل تاريخه محرفا حتى صحيح بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وقد كشفت الحقائق عن أن عرابى فكر فى بعض الأوقات فى توحيد مصر وسوريا فى دولة واحدة وقد سجل ذلك كرومر فى كتابة مصر الحديثة

(١) الأهرام ٢ أكتوبر ١٩٠١ (٢) ٣ أكتوبر ١٩٠١

وليس من شك أن حركة عرابى قد ارتبطت إلى حد كبير بالانتفاضة التى هزت الشرق العربى والتى قادها رائد النهضة جمال الدين الأفغانى حين دعا إلى تحرير الاوطان من استبداد الملوك والأمراء والسلاطين ودعا إلى الدستور والحياة النيابية ومقاومة النفوذ الأجنبى وقد استمع عرابى إلى صوت جمال الدين واختمرت فى أعماله تلك المعانى والأراء التى كان يرددها فتهتز المشاعر وتملأ القلوب شوقا إلى الحرية .

ولا شك أن عرابى قد أوقد جذوة الوطنية التى كانت بعيدة الأثر فى مختلف حركات التحرر الوطنى فى العالم العربى . والتى ارتبطت بها ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ الكبرى التى حققت ما عجز عنه عرابى .

وملخص حياة عرابى .

أنه ولد فى قرية هرية رزنه من أعمال الزقازيق (مصر) وجاور فى الأزهر سنتين ، ثم انتظم جنديا فى الجيش أيام حكم سعيد ، وبلغ رتبه « اميرالاى » فى أيام حكم الخديو توفيق ، ولما استفحل أمر الشراكسة بزعامة عثمان رفقى ناظر الجهادية الجركسى وقرر منع ترقى المصريين ، انتدب الضباط عرابى للمطالبة بحقوقهم ، فقبض عليه ثم أفرج عنه واستطاعت قوة الجيش أن تحقق عزل عثمان رفقى من نظاره الجهادية وتولى محمود سامى البارودى ١٨٨١ وعين عرابى وكيلا للجهادية ، ثم تولى البارودى الوزارة وتولى عرابى نظارة الجهادية ثم حمل لواء الثورة عندما ضرب الإنجليز الإسكندرية ١٨٨٢ وقاومهم فى كفر الدوار وهزمهم مرتين حتى دخلوا البلاد من قناة السويس وهزموا المصريين فى معركة التل الكبير بالغدر والتآمر ، ثم حوكم عرابى ونفى إلى جزيرة سيلان حيث أقام تسعة عشر عاما وعاد سنة ١٩٠١ إلى مصر فأقام اشبه بالمغترب حتى توفى فى ٢١ سبتمبر ١٩١١

أمير بقطر

الرحالة المنقطع النطير

المتوفى عام ١٩٦٦

« السعادة راجعه إلى الفضيلة . والفضيلة وسط بين طرفين أو نقيضين فبين النقص والزيادة توجد الفضلة وبين العنف والجبن توجد الشجاعة وبين الإسراف والبخل يوجد السخاء ، وبين الطمع والخضوع يوجد الإعتدال ، وبين الملق والإحتقار توجد الصداقة ، وبين الحياء والوقاحة توجد الحشمة .

« إن آلام الحياة وأحزانها كالهوى داء تدوى به النفوس الصحاح وراحة البال الدائمة والاطمئنان المستمر وغيرهما من الأحلام والاوهام مخدرات تستهوى بهـا الأجسام العليلة والنفوس المقيمة .

« الجاه والشهرة سراب كاذب ينفح صاحبه تيار الغرور ويملأ جوه بالغيرة والحسد والإحقاد . والشهرة على حد قول من قال طعام شهى فوق طبق متحرك وهى والراحة ضدان قلما يجتمعان وما الصيت الذائع ألا أنفاس الناس والشهرة فقافيع سرعان ما تذهب فى الهواء والحصول عليها أسهل جداً من المحافظة عليها» .

تلك مفاهيم الدكتور أمير بقطر الذى ودع دنياه فى خلال شهر يوليو ١٩٦٦ ، وكان فى إحدى جولاته الصيفية ورحلاته السنوية فى النمسا ، ثم عاد إلى القاهرة جسداً محمولا على الأعناق ، ليوارى فى التراب بجوار زوجته فى مقابر القاهرة .

وقد اهتز كل من عرف الدكتور بقطر للنبأ ، فقد كان لا يزال فى دائرة السبعين لم يتعدها ، خفيفاً مرحاً لا تثقله تكاليف الحياة ولا مشاغلها ، يقضى عامه مع معهده بالقاهرة يعلم ويربى ، ثم يطير فى أوائل الصيف فيطوف بالعالم ما شاء له الله أن يطوف ، حتى ليخيل إليك أنه ماترك بلداً من بلاد أوربا وأمريكا لم يقصد إليه ولم يعش فيه أيامه ولياليه .

ولو كان الدكتور بقطر مربياً وأستاذاً بالجامعة فقط ، لما كان الحديث عنه من شأن الأدباء والنقاد والمشتغلين بالدراسات الأدبية والصحفية ، ولكان ذلك من حق العلماء والمربين والأساتذة . ولكن الدكتور بقطر قد مارس العمل فى الكتابة الأدبية ، وواجه قراءة عن طريق الصحف والمجلات أكثر من ثلاثين عاما ، واختص بأكثر إنتاجه مجلة « الهلال » التى تصدر فى القاهرة فكتب بها منذ عام ١٩٣٠ وواصل كتاباته شهراً بعد شهر لا يتخلف إلا فى بعض أشهر الصيف ، حتى عام ١٩٦٠ تقريباً . وقد أحصيت له فى هذه الفترة أكثر من ثلاث مائة مقال فى فنون منوعة من الحديث ، خفيفة طلية كظله ، حية مليئة بالحركة متصلة بكل شؤون الحياة ، فلم يكن الدكتور أمير بقطر أستاذ التربية وعميد كليتها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى هذا الجانب إلا إنساناً مثقفاً يعيش عصره على النحو الذى اعتنقه وآمن به ، من خلال ثقافته ومطالعاته واتصالاته . ولاشك أن الدكتور بقطر جانباً آخر فى الكتابة فضلا

عن العمل ، ذلك هو اصداره « مجلة التربية الحديثة » ومشاركته فيها منذ عام ١٩٢٨ ، وهى مجلة متخصصة تصدر أربع مرات فى العام وتتناول أبحاث التربية . وقـد والاها بالـكتابة فى مجاله ذلك الذى عـرف به بين الأساتذة والعلماء .

أما فى مجلة « الهلال » ، وهو فى الغالب قد قصر كل إنتاجه الأدبى عليها ، فقد كان فى إهابها « انساناً » قبل أن يكون باحثاً أو أديباً ، إنساناً يعيش حياة عصره ويتصل بكل قضاياه ومشاكله وأحداثه ، يناقش كل الأمور من وجهة نظره تلك التى كونتها ثقافته وتعلمه فى الجامعات الأمريكية واتصالاته بالجامعات الأوربية المختلفة ونمط الثقافة وطابع الذوق الذى كونه منذ الصبا بعد أن غادر بلدته « أسيوط » إلى القاهرة فالعالم الغربى ، وقد تفتحت أمامه آفاق الحياة والفـكر والثقافة . ومن ثم كانت آراؤه ونظراته كلها نابعة من هذا « النطاق » ولا ضير عليه فى هذا ولا عتاب ، فـكل إنسان هو ابن ثقافته وبيئته وتـكوينه .

ولقد نختلف مع الدكتور بقطر فى بعض آرائه ، وأهمها إغضاؤه عن فضل العرب على الحضارة خلال ألف سنة متجاوزاً هذه الفترة دائماً فى آرائه . رابطاً بين حضارة الرومان وحضارة العرب الحديثة ، لـكن هذا الموقف منه لا يدعنا ننـكر قدره كباحث وعالم ورجل حمل رسالة القلم أكثر من ثلاثين عاما . وكتب صفحات نافعة وطريفة معاً ، وتلك آية الإنصاف . أن نقول كلمة الحق ، فلا يدفعنا الخلاف فى الرأى إلى انـكار فضل ذوى الفضل ، وقد اتخذنا هذا المنهج أساسا لأبحاثنا فى موسوعة « معالم الأدب العربى المعاصر » فلم نغض عن فضل الباحثين أبداً ، ولـكننا عرضنا لأوجه الخلاف التى قد

تتعارض فيها معهم إذا أغضوا عن فضل لأمتنا ، أو نظروا وراء نظرة الباحثين الغربيين ، أو تابعوا أخطاءهم .

ولقد تناولنا الدكتور أمير بقطر بالدراسة فى كتابنا « الكتاب المعاصرون أضواء على حياتهم » الصادر عام ١٩٥٧ .

وكان من رأيى أن طبيعة العلماء تغلب طبيعة الأدباء فى كتابات هذا الرجل ، على الرغم من نفسيته الشاعرة وعاطفته المشرقة . ولعل أبرز ما يتسم به أدبه أنه يخلط العلم والأدب فى مزيج جميل ، تجد فيه العاطفة والعقل يوازنان للمعنى وينتظمان الرأى . ولست أعرف كاتباً تناول نفسية المرأة والرجل والصراع فيما بينهما كما تناولها أمير بقطر فى عشرات من المقالات . وقد أغرم فى السنوات الأخيرة من حياته بالدراسات النفسية وأوغل فيها وخصص له « الهلال » باباً يرد فيه على الأسئلة النفسية ، وقدم أغلب كتبه عن : فن الزواج ، والقصور الجنسى ، وأنت وأنا ، ومن أين جئنا ، و ٢٠ سنة فى حجرة الاعترافات .

وفى أكثر مقالاته يتناول أمور المرأة والحب والحياة على نحو مستمد من دراسات أعلام هذه المباحث الغربيين والأمريكيين بالذات ممن قرأ لهم وأعجب بهم . وعماد فلسفته فى هذا المجال مستمد من ثلاثة أعلام كبار ، جون ديوى وديل كارنيجى وفرويد ، فهو يطبق آراءهم فى الأغلب على المجتمع الشرقى والمصرى محاولا أن يجرى به فى مجرى الحضارة الحديثة حيث الاختلاف واضح فى كثير من الأمور والمسائل بين عصر وعصر وفكر وفكر . ولكنه على الرغم من أمانته لثقافته هذه ، كان خفيف الظل ، سمحاً ، لا يعارك فى عنف سلامة موسى ، ولا يدافع مدافعة المدافعين ، وإنما يجرى فى الإقناع

بأرائه على سنة المرونة والتربية ومعاودة النظرة مرة بعد أخرى ، أشبه فى ذلك بالدكتور صروف وجرجى زيدان .

ولست أود اليوم أن أناقش الدكتور بقطر رحمه الله آراءه ، وإنما أريد أن أرسم صورة لرجل عاش ثلاثين عاماً يكتب ويقرأ ويسافر ، تلك الجوانب الثلاثة البارزة فى حياته أمامى اليوم ، فإنما أردت من مراجعة سريعة لآثاره أن استخلص منها صورة نفسه .

أما الكتابة ، فقد تطور أسلوبه وتأنق وعذب فى السنوات الأخيرة، إلى حد يغرى بأساليب أقدر كتاب العربية ، وقد داخلته فنون الأساليب الغربية فأعطته ذلك اللون الطريف الطلى الذى يمزج العلم والأدب والجد بالفكاهة وهو يصور صاحبه جملة فى صورة رجل مرح منطلق باسم فكه ، وربما كانت هذه الصورة تختلف كثيراً عن صورته الحقيقيه على الطبيعة ، هادئاً منزويا لا يحب المعارك ولا يصاول فى مجالات الفكر . فإذا كان الأسلوب هو الرجل كما يقول بوفون ، فإن هذا المعنى عند أمير بقطر يتمثل فى صورة الرجل المحدث الذى يفضى إلى قارئه أكثر مما يفضى إلى محدثه والذى يضمر مشاعره ويطويها فى خجل وحياء. فإذا أتيح له أن يمسك قلمه ، نشرها فى صراحة وجرأة . ولعل أبرز ما تعطيه كتابات أمير بقطر صورة رجل محب للحياة ، كلف بها ، راغب فى مختلف متعها وأسمارها وأضوائها ، محب المرأة والجمال والحضارة . وإيمانى أنه حين يكتب ذلك ، إنما يخفف من بعض المشاعر النفسية . أما يقينى عنه فهو أنه رجل محب للحضارة متمثلة فى المتاحف والمكاتب والفنون والأنهار والبكيرات والأضواء ، ولكنه ليس كلفاً كتهالك أصحاب المتعة الحسية .

وهو يؤمن بأن الكلمة خادمة للمعنى . والأدب عنده هو ما ليس علماً

معززاً بالتجارب . ويرى أن العلم أدب فى بعض الوجوه، والأدب علم فى بعض الوجوه . وكما أن العلم فى حاجة إلى أدب يحمل رسالة إلى القراء من جميع طبقات الناس ، كذلك الأدب يحتاج إلى العلم حتى تكون عبارته مقررة مستندة إلى عمد فولاذية متينة .

لقد بدأ كتاباته فى « الهلال » فى ابريل ١٩٣٠ بمقال عنوانه « الشرق نكبته الأدب » ثم واصل كتاباته فى موضوعات تتعلق بالمال والآداب والغريزة والتناسل ومقياس الخير والشر والجمال والتجمل ، وتوالت مقالاته عن فن المشى وفن الإصغاء والجمال الروحى والجمال المادى ، وغراميات الشواطىء وهواة التشرد والسكوت والتمويه والرجل الصفيق ، وهى مقالات مطولة تدل على مطالعات واسعة وخبرة طويلة ، معروضة فى أسلوب طلى جذاب .

وعلى الرغم من إيمان الدكتور بقطر بالحضارة الغربية إيماناً كاملا ، ومتابعته للفكر الغربى متابعة شاملة ، فإن له موقفاً واحداً يخالف فيه نظرات الحضارة ، ذلك موقفه من « المرأة » ، فهو فى كل مناسبة يحاول أن يقول كلمته « مهما قيل من أن المرأة تتساوى مع الرجل كلما تقدمت الحضارة ، فإن طبيعتها الأصلية ستبقى ما بقى الزمن ، وسيظل البيت نهاية مطافها » . وأحياناً يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول « الرجل أجمل من المرأة » أو يقول « المرأة الحديثة لا تريد أن تكون امرأة » . وله فى القصة رأى ربما بدا غريباً بين مجموع آرائه ، فهو يراها « من كتب المواسم التى تقبل عليها الجماهير ثم تختفى تدريجياً ، كما تختفى أزياء الشباب » . ويقول « فى الوقت الذى تكاد فيه القصة تحتل فى البلدان العربية مكان الصدارة ، إن مصيرها كغيرها من كتب المواسم ، إخلاء مكانها لسواها » .

أما القراءة ، فهى عنده فن ، وهو يقول « لنقرأ كثيراً ونتكلم قليلا » . ومن عجب أن يكون أول مقاله فى مجلة التربية الحديثة — وهو أول ماقرأناه له على العموم فى عدد يناير ١٩٢٨ — عنوانه « القراءة الصامتة » يتحدث فيه عن أسلوب جديد للقـــراء يحقق الحصول على قدر كبير من الثقافة فى ساعات قليلة ، ويرسم تجربته الخاصة التى هدته إلى هذا الفن فيقول « إننى كنت أخجل إزاء سرعة إخوانى الفائقة فى فهمهم ومطالعتهم ونظرتهم إلى عبارات القرطاس ، كالنظرة العامة التى يلقيها الطيار الماهر من سماء طيارته إلى منازل المدن . فطنت الى ذاك وكنت حديث العهد . فاخذت أدرس السر ، وهو بسيط جداً . كنت أطالع الفصل فى الكتاب فى ساعة ، وقد كان يطالعه جارى فى الكلية أو المكتبة فى نيويورك فى عشر دقائق ، فكنت أخجل من نفسى » ... ثم يصور كيف يمكن أن يتحقق الوصول إلى السرعة المطلوبة بأن يرفع القارىء رأسه مبتعداً عن صفحات الكتاب بقدر ما يسمح له نظره وراحته فى جلوسه ، ثم يمر ببصره على الصفحة فقرة فقرة ، مهملا فى الغالب حروف العطف والجر ، فيستخلص المعنى كما تستخلص القشدة من اللبن » .

وفى أحاديث متعددة يصور انطباعاته عن « الكتاب » فيقول :

« من الكتب ما يذوقه القارىء بلسانه للتعرف على طعمه ، وما يبتلعه ابتلاعاً ومنها ما يمضغه جيداً ويهضمه وئيداً » . وعنده أن الكتب التى تبحث فى طبيعة الإنسان وأسرار الحياة ومصير الإنسان ونهايته وما بعد الموت هى أكثر المؤلفات تداولا ، وأعتقد أنه يعجب شخصياً بهذا اللون من المؤلفات ، وهى أبرز فنون كتاباته .

ويقول « وليست الكتب كلها غذاء للنفوس ، فمنها الدسم ، ومنها الهزيل ، ومنها ما يحمل راية السلام وينادى بالحب والوئام ، ومنها ما يوغر الصدور

ويثير الحقد والبغضاء ويدعو للحروب . ومن الـكتب مايقرأ للتسلية والترفيه ، ومنها ما يقرأ للزينة والتزويق ومنها مايقرأ المعرفة والقوة» وعنده أن الـكتب تصقل طبيعة الإنسان وتـكمل ما ينقصها من صفات ، ، كما إن الخبرة المـكتبية تـكمل ما فى الـكتب من نقائص . ويقول « ينبغى أن لا يكون الهدف من قراءة الـكتب إنـكار ما بها أو دحضه أو اعتناقه وأخذه قضية مسلمة وتصديقه تصديقا أعمى ، وانما ينبغى أن يكون الهدف هوالتأمل ووزن الأشياء بميزان العقل والمنطق » .

أما الرحلة ، فقد أغرم بها ، فأصبح لا يقبل الصيف الا وتـكون حقائبه معدة لرحلة فى شرق الأرض أو غربها ، وهو حين يتحدث عن البلاد التى زارها يتحدث فى حنان خافق وحب عجيب : نياجرا ، البندقية ، ملـكة الإدرياتيك ، بودابست ، الدانوب الأزرق ، هونولولو ، كابرى ، ستريزا فى إيطاليا ، بروج فى بلجيكا .

وله فى ذلك كلام رائع « فى المصايف ، سواء على الشواطى أوفى مرتفعات الجبال ، مما يغذى النفوس والعقول ويهذب العواطف والأذواق ويسمو بالأذهان والأجسام . يذكر كاتب هذه السطور فى الألب والتيرول والبرنات ليالى قضاها فى منزل صغير أو خان على ارتفاع ألفى متر أو ثلاثة آلاف ، هناك يحس بذلك الصمت الرائع الذى لا يسمع فيه سوى خرير المياه وهى تتخلل البساط السندسى الذى يكسو كل شبر من مرتفعات الأرض ومنخفضاتها ، وانسياب ماء النهيرات ومساقط المياه المتدفقة من قمم الجبال الشاهقة إلى بطون الوديان . وإذا ما طلع النهار ، تخلل هذا السكون العميق جلجلة الأجراس المدلاة من رقاب البقر بأنغامها الشجية المنوعة وهى ترعى بين الرياض والأدغال » .

وهو يستعرض فى كثير من كتاباته صور رحلاته التى مرت ، ولـكنه لم يترك لنا صوراً نفسية حية عن تلك الرحلات ولا عن رؤياه فى البواخر والمدن

والفنادق والجامعات والقرى التى زارها إلا تلك الكلمات السريعة ، ولقد كان ممكناً لو أنه كتب فى هذا بعض الصفحات التى تضاف إلى « أدب الرحلات » الذى كتب فيه كثيرون . ولعل عذيره أنه لم يكن رحالة ليكتب ، ولكنه رحالة المتاع النفسى الخالص .

وفى كلمات حاول مرة أن يصور المعالم البارزة فى المدن التى زارها فقال : « طوكيو عاصمة اليابان التى سبقت كلا من لندن ونيويورك فى عدد سكانها وانتشرت فى أحيائها أكثر مئة وخمسين كلية وجامعة ، ناطحات السحاب وعظمة برودواى والشارع الخامس وبارك أفنيو وعجائب الصناعة، النظام البالغ حد الإتقان فى لندن ، جمال الطبيعة فى لوسرن وزيوريخ وجنيف ولوزان فى سويسرا ، ولوفان فى بلجيكا ولاهاى فى هولندا ، اتساع الشوارع والميادين وكثرة الحدائق والمتنزهات فى فيينا وبرلين ، باريس الفنون الجميلة ، والأشكال الخالدة فى روما وفلورنسا والقاهرة وبومباى ، البندقية « فينيسيا » مدينة الجداول والخيال والأحلام ، كوبنهاجن المدينة المثالية تجمع كل مايشبع الأبدان ويستهوى النفوس » .

وقد ذهب أمير بقطر إلى كل مكان ، حباً للرحلة والاستطلاع ، وعاش حياته بالعرض ، وأمضى أيام صيفه تنقلات تجمع بين العلم والمتعة ، وزار فيما زار جزائر هواى ، ولكن هل صورها على النحو الذى يكشف، عن إحساس النفس ؟ كلا ، بل واجهها على ذلك النحو العلمى ، فتحدث عن أنها كانت وليدة جبال بركانية ظلت قروناً طويلة تقذف من أفواهها الحمم ، وأنها كانت خمسة عشر جبلا هى التى تمخضت فولدت عروس الباسفيكى . ولكنه لم ينس أن يقول « إن البواخر حين تقترب من ميناء هونولولو ، يشاهد المسافرون مظاهر الجمال الطبيعى الخلاب وقمم الجبال الأرجوانية وكأنها تسبح فى

قطرات الندى وفى منحدرات تختلط فيها خضرة النخيل والأشجار الاستوائية وقصب السكر وأعواد الحنطة ببياض سقوف المنازل وحمرتها وشتى ألوان لزهور والاوراق التى تتخللها » .

وبعد ، فقد بقى أن نستخلص صورة الدكتور أمير بقطر النفسية من كلماته .

« إن أسهل الأشياء الوسط ، ولكنها أقلها إنتاجاً وأسرعها زوالا وأخفها أثراً فى النفوس . الجاه والشهرة سراب كاذب ينفخ صاحبه بغار الغرور ويملأ جوه بالغيرة والحسد والأحقاد . والشهرة على حد قول من قال : طعام شهى فوق طبق متحرك ، وهى والراحة ضدان قلما يجتمعان ، وما الصيت الدائم إلا أنفاس الناس ، والشهرة فقاقيع سرعان ما تذهب فى الهواء ، والحصول عليها أسهل جداً من المحافظة عليها . السعادة راجعة إلى الفضيلة . والفضيلة وسط بين طرفين أو نقيضين وبين العنف والجبن توجد الشجاعة ، وبين الإسراف والبخل يوجد السخاء وبين الطمع والخضوع يوجد الاعتدال، وبين الملق والاحتقار توجد الصداقة ، وبين الحياء والوقاحة توجد الحشمة. إن آلام الحياة وأحزانها كالهوى ، تداوى به النفوس الصحاح ، وراحة البال الدائمة والاطمئنان المستمر وغيرهما من الأحلام والأوهام مخدرات تستهوى بها الأجسام العليلة والعليلة والنفوس السقيمة » .

ومن آيات حكمتة قوله « لتكن مطامحك ورغباتك فى الحياة منتقاة ، مختارة بحكمة وتعقل ، فلا تكن خيالياً ، بل اجعل هذه المطامح مطابقة لقدرتك ، متفقة مع مواهبك . لتكن لك فلسفة واضحة فى الحياة ، وثابر على تحقيق

مبادئها . وليكن شعارك الإعطاء أكثر من الأخذ . اهتم بالغير إهتمامك بنفسك » .

ومن خلال كتابات الدكتور بقطر ، تحس بروح التفاؤل واستشعار السعادة ، وتجد الرجل فى الستين يتحدث عما أسماه « ربيع الكهوله أو ربيع الشيخوخة » وهو عنده أعظم من ربيع الشباب. إنه عنده أكثر نضارة وأزهى لوناً وأكثر عذوبة وأعطر أروقة من الربيع الأول.

وهكذا تصورت الدكتور أمير بقطر وهو يودع دنياه ، وتلك كلمات تغلب عليها التحية والتقدير لصاحب قلم عاش أكثر من ثلاثين عاماً وهو يكتب ويقرأ ويسافر .

أمير على

مدرة الإسلام فى قلب بلاد الغرب

١٨٤٩ — ١٩٢٨

« إن المسلمين أقرب إلينا فى هذا العصر من جميع الأمم القديمة التى دفعت الفتح أى قارات شاسعة وتركت من أعمالها فى صحف التاريخ إثارا لا تمحى وافاضت على عالم التفكير من إكتشافها وعلمها ، وما زالت أوربا الحديثة تهتدى بالوصية التى تركوها وبالتراث العقلى الذى خلفوه ، فمن دواعى الأسف إذن أن يكون العلم بتاريخهم فى الغرب قاصرا فى الغالب على بعض الإخصائيين ، بينما هو لا يكاد يعرف فى الهند وهو بلد كان فى عصر من العصور ميدان نفوذهم وحضارتهم » .

* * *

فى مرحلة اليقظة ، قدم الفكر الإسلامى عدداً من النوابغ الذين حملوا لواء التجديد والبعث وكانت المدرسة الهندية الإسلاميـــة من أخصب هذه المدارس : قدمت سيد أحمد خان وأمير على وشبلى النعمانى ومحمد إقبال .

أما القاضى أمير على فقد حمل لواء الرد على مختلف ما وجه للاسلام والفكر الإسلامى من شبهات ، وخاطب الغربيين بلغتهم،فكان أول مسلم- على حد تعبير رشيد رضا - استطاع أن يخرج للغرب صورة صادقة من مبادىء الإسلام الشرعية والروحية والإجتماعية ، ويقدم صورة صادقة من هذه المبادىء تضطرم بإيمان مسلم أشربت نفسه روح الإسلام الحقة . لا يشوبها مع ذلك ذره من

الخصومة أو التحامل ، وقد استطاع عرض قيم الإسلام ومفاهيمه فى ثوب علمى حديث يوافق الذهن الغربى ولا ينكره الذهن الإسلامى .

وقد أعانه على هذا العمل الضخم الخصب عقليه قانونية نفاذة ، فقد كان محامياً فى كلكتا وأستاذاً للشريعة الإسلامية ، ثم كان قاضياً وصل إلى أرقى مناصب القضاء ، ومن خلال مفهومه الفقهى والقانونى كان دفاعه عن الإسلام وكان عرضه الرائع لمفاهيمه وقيمه وباللغة الإنجليزية ، ولقد أبرز (أمير على) دور العرب وأهمية الأمة العربية فى بناء الحضارة الإسلامية الحديثة وأشار إلى الأمل المعقود عليها لحمل لواء النهضة ، وفى هذا المعنى يقول :

إن المسلمين أقرب إلينا فى العصر من جميع الأمم القديمة التى دفعت الفتح إلى قارات شاسعة وتركت من أعمالها فى صحف التاريخ أثاراً لا تمحى وأفاضت على عالم التفكير من إكتشافها وعلمها ، وما زالت أوربا الحديثة تهتدى بالوصية التى تركوها وبالتراث العقلى الذى خلفوه ، فمن دواعى الأسف إذن أن يكون العلم بتاريخهم فى الغرب قاصراً فى الغالب على الاخصائيين بينما هو لا يكاد يعزف فى الهند وهى بلد كان فى عصر من العصور ميدان نفوذهم وحضارتهم» .

وقد أمضى العلامة أمير على نصف قرن فى مجال التعريف بالإسلام والرد على ما وجه إليه من شبهات ، والكشف عن جوهره مستهدفاً انهاض الشعوب الإسلامية .

وقد كان لنفوذه ومركزه أثرها البالغ فى الاهتمام بكتاباته وذيوعها ، وكان عمله هذا فى تقدير المنصفين جهاداً حقيقياً من أجل تعريف الغرب بالإسلام والكشف عن حقيقة المسلمين ودورهم فى وقت بلغت فيه حملات الانتقاض عليهم حداً بالغاً من السوء وفى وقت كانت حملة الغزو الغربى تطوق عالم الإسلام وتعامله بالعسف والتحامل .

ولعل هذه الغيرة البالغة التي أولاها أمير على للاسلام والفكر الإسلامى ترجع أساساً إلى وراثياته فهو عربى ينتمى إلى آل البيت من أسرة استقرت فى فارس، وأنضم أحد أجداده إلى جيش نادرشاه حينما عزا (السند) فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) ثم دخل فى خدمة سلطان دهلى .

كما كانت ثقافته الانجليزية العالية منفذاً طبيعياً للتراث الإسلامى العربى إلى الفكر الغربى ، وكان لتعمقه فى الشريعة الإسلامية والقانون ومقارناته بين التشريع الإسلامى والتشريع الرومانى القديم والقانون الحديث أبعد الأثر فى الكشف عن جوهر الإسلام .

يقول مؤرخوه : إن أمنيته الكبرى التى جاشت بها نفسه منذ مطالع شبابه كانت العمل على انهاض الشعوب الإسلامية وترقيتها من الوجهتين المادية والمعنوية ، وذلك عن طريق بث الدعوة الإسلامية والتعريف بالإسلام فى أوربا وإيجاد نوع من تصحيح المفاهيم الخاطئة بالنسبة للشعوب الإسلامية يستند إلى تقدير سليم لتراثها الروحى والعقلى ، وقد شغلت هذه المهمة نشاط المفكر الكبير حتى ملأت كل فراغ حياته الحافلة ، وغدا أسمه عالما فى الغرب ،وقد تزود لأداء هذه المهمة بخير الكفايات فقد درس فى الشرق وفى أرقى معاهد الغرب وتفقة فى الكلام والشريعة والأدب العربى وبرع فى القانون والأداب الإنجليزية وقد حرص أمير على مواجهة ما قدمته العقلية الغربية من تحامل معتمداً على مبادىء الإسلام التى أشربتها نفسه وعلى الإيمان بالروح العلمية فى البحث « فكان لهذا المزيج الخصب أثره العميق فى كل ما أخرج للغرب من آثار ترمى كلها إلى التعريف عن الإسلام وشعوبه وتراثه » .

* * *

وقد أخرج أولى أثارة وأعماله عام ١٨٧٢ فى رسالة نقديه عن حياة النبى وتعاليمه ثم أصدر عام ١٨٨٩ كتابه مختصر تاريخ المسلمين .

وقد كشف عن منهجه حين قال : نعنى با كثر من سرد مجرد الحروب والغزوات ، خصوصاً بالنسبة لشعب لم يجر التعريف به منذ الطفولة كما هو الشأن بالنسبة للرومان واليونان . ورب كتاب يعنى بدرس ما اشتقته الحضارة الحدثة من حضارة العرب والمسلمين يفيد فى إزالة كثير من ضروب التحامل وشىء من المرارة التى خلفتها خصومات القرون » .

وهكذا يكشف أمير على بجلاء عن هدفه الأساسى من عمله الكبير .

وفى مجال تخصصه القانونى كتب : الأحكام الشرعيةفى الأحوال الشخصيه و «مختصر الشريعة » وبهما استطاع أن يكشف كثيراً من الغموض الذى كان يقترن بتدريس الشريعة الإسلامية وتطبيقها على بد قضاة من الإنجليز قلما يدركون روح التشريع الإسلامى .

وفى عام ١٨٩٣ أخرج كتابه العظيم : روح الإسلام « Spirit of Islam وهو فى جزين ثالثهما أطلق عليه « أداب الإسلام » Etnies of Islam »

* * *

ولد فى ٦ أبريل ١٨٤٩ من أب مسلم هو سعادة علىوام انجليزية ، ودرس فى جامعة هوجلى فى كلكتا ، ونال أعلى درجاتها ثم نال العالمية من جامعة عليكره . وقصد إلى لندن حيث درس القانون ونال إجازته عام ١٨٧٣ وعين استاذاً للشريعة الإسلامية فى كلية الرئاسة فى كلكتا ثم مستشاراً فى محكمة البنغال العليا وفى عام ١٩٠٤ اعتزل القضاء وعاد إلى انجلترا وأقام فى لندن ومن ثم تفرغ تفرغاً كاملا للتأليف والبحث وأولى عنايته بدراسة الإسلام : مبادئه وأحكامه وتعاليمه وتاريخه .

ولم يقف عمله عند حدود البحث والتأليف بل شارك فى القضايا السياسية للمسلمين و رفع صوته فى مختلف المناسبات مدافعاً ، ففى خلال الحرب الطرابلسية والحرب البلقيانية ، ودخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ومن خلال شروط الصلح التى فرضت على تركيا واعطاء اليونان مقدونيه وازمير — فى كل هذه المواقف أعلن رأيه فى صراحة وعارض بريطانيا فى مواقفها من المسلمين والعرب وفى حروب المغرب بقيادة عبد الكريم الخطابى مع فرنسا وفى مختلف مواقف الكفاح العربى والاسلامى فى وجه الاستعمار كان لا يكف عن مؤازرة جهود المجاهدين . وكان شديد الوطاه على السياسة البريطانية وسياسة الحلفاء فى الشرق حتى أن كبار الصحفيين الانجليز كانوا يحتجون على كتاباته وينكرون على قاضى فى مجلس الملك المخصوص أن يعارض بريطانيا ويؤيد موقف العرب والمسلمين وكانت دعوته جهيرة إلى اصلاح الأوقاف وإصلاح المرأة وتعليمها .

وكان إلى ذلك خطيباً بارعاً وكاتباً بليغاً أسس الجمعة الوطنية الإسلامية عام ١٨٧٨ للدفاع عن حقوق المسلمين .

وكان منزلة فى كودوجان لمدة أعوام طويلة مؤئلا لكل أعلام العالم الإسلامى والعربى .

وقد عاش حياة باهرة فى مجال خدمة الفكر الإسلامى حيث وقف قلمه عليه فلم تكتب فى شيء غيره ، فكان نموذجاً فريدا للمفكر الإسلامى الذى أجاد أساليب البحث العلمى مصححاً أخطاء الغربين وداحضاً شبهاتهم وكانت عقيدته هى عرض الإسلام على الغرب فى ثوبه الحقيقى والذود عنه مما يرمى به وشرح مبادىء الإسلام من الوجهه العلمية . والمقارنة بينها وبين مبادىء الأديان الأخرى .

يقول الاستاذ عبدالله عنان : ليس من المبلغة أن نقول أن اسلوبه — فى الانجليزية — كثيراً ما يسمو إلى منافسة جبيون وماكولى ، خصوصاً فى وصف الأحداث العظمى كالحرب الصليبية وغزو التتار لبغداد وسقوط غرناطه .

* * *

وملخص حياة أمير على بن سعادت على الهندى ، أنه ولد من أسرة عربية تنتمى إلى آل البيت ، تعلم فى كلكتا ، ولندن ،واحرز شهادة الحقوق وتفقه فى الشريعة والآدب العربى وبرع فى القانون واحترف المحاماه ، ثم عمل استاذا للشريعة الإسلام فمديرا لمدرسة الحقوق فمستشاراً فى محكمة بنغاله العليا ، ولما اعتزل القضاء وذهب إلى لندن عام ١٩٠٩ حيث عاش هناك يؤلف متصديا للرد على كل الشبهات التى وجهت إلى الإسلام وأصدر بالإنجليزية « حياه النبى وتعاليمة ، روح الإسلام ، مختصر تاريخ المسلمين ، أداب الإسلام » .

توفى بمدينة سوكس من اعمال انجلترا فى أغسطس ١٩٢٨ عن ٧٩ عاما

اسماعيل عصبرنسكى

داعية الوحدة الاسلامية

١٨٥٩ — ١٩١٤

إن استعداد الأمة العربية للمدينة قد ثبت عندنا بتاريخها الملأى اللامع، وليس انحطاط العرب اليوم هو نقص فى فطرتهم وضعف فى إستعدادهم فالإسلام يخاطب العقل ويحث على العمل وينوط نجاح الإنسان بعمله .

* * *

إن انهزام أمة حاكمة واضمحلال أمة محكومة إنما ينشأ من عدم وجود المدارس .

* * *

أمضى وسيلة للوصول إلى الغاية المنشودة فى إصلاح المسلمين وهو عقد مؤتمر عام دائم المسلمين يجتمع فيه المسلمون من جميع الأقطار ليبسطوا أحوال بلادهم فيبحث فيه ادواؤهم المسببة لتأخرهم وانحطاطهم والأدويه الشافية من هذه الأدواء .

* * *

أن العامل القوى فى انحطاطا على ما أظن هو الجمود على بعض العادات والقواعد الواهية والأوهام والإنحرافات التى ورثناها عن أبائنا وتسربت إلينا من الأمم الأخرى .

* * *

أن هناك تهمة ألقيت على عاتق الإسلام وهو براء منها وهى أنه علة الانحاط ومدعاة التأخر ولكن التاريخ يكذب هذه الفرية وتدحضها أعمال المسلمين .

فى العقد الأول من هذا القرن كان العالم الإسلامى يواجه الغزو الاستعمارى والنفوذ الأجنبى بسلاح واحد هو « الوحدة الإسلامية » لم يكن هناك سلاح فى وجدان الأمم العزلاء ، تقابل به الخطر الزاحف ، غير هذا اللقاء بين أمم وزعماء عالم الإسلام فى محاولة لتنسيق وجهات النظر فى خطة مقاومة أو خطة نهضة .

ومن أعماق جزيرة القرم ظهر هذا المصلح الإسلامى إسماعيل عصبرنسكى صاحب جريدة الترجمان وحمل لواء خطة اصلاح كبرى فى وطنه ثم اتجه إلى القاهرة قلب العالم الإسلامى فى محاولة لإقامة ترابط إسلامى فكرى وثقافى وإجتماعى من شأنه أن يحقق للعالم الإسلامى خطوة على طريق النهضة .

كان إسماعيل عصبرنسكى يرى أن أمضى وسيلة للوصول إلى تحقيق خطة لإصلاح المجتمع الإسلامى هى عقد مؤتمر عام المسلمين يجتمع فيه أعيانهم من كافة الأقطار الإسلامية للنظر فى أحوال بلادهم وبحث ادوائهم ودراسة الأدواء التى كانت عاملا على تأخرهم والوسائل الكفيلة باليقظة والنهضة .

وقد صور عصبرنسكى مفهومه للنهضة فى عبارات واضحة صريحة .

« ليس سبب انحطاط العرب والترك والفرس والهند اليوم هو نقص فى فطرتهم وضعف فى استعدادهم ، فالدين الإسلامى الذى تدين به هو دين يخاطب العقل ويحث على العمل والدأب وينوط نجاح الإنسان لعمله .

أسباب انحطاط الأمة الإسلامية ليست فى طاقة فرد أو فردين ، بل لابد من عقد مؤتمر عام يجتمع فيه علماء الأمة وعظماؤها للتشاور فى الأمر ، وأن هذا المؤتمر غير الجامعة الإسلامية التى يخشاها الأوربيون .

نحن معشر المسلمين منذ ثمانية قرون قد تركنا لأوربا غنائم كثيرة ، هى خزائن من المعارف ولم نطالبهم أثناء هـذه المدة بردها إلينا .

أنه لا يمكن تعميم التعلم ونشره الا بوجود « كتاب » واحد لـكل

ستين أسرة من الأمة ، فلو بلغت مصاريف كل (كتاب) نحو ٤٠ جنيها يكون المجموع (كذا) الخ الخ

* * *

الإسلام نفسه ـ لانه كما أتى بالتوحيد ـ إنما يدعو إلى وجوب تعليم العالم فلقد كان من مقتضى ذلك أن المسلمين بنوا عند كل معبد تقام فيه الشعائر الإسلامية كتّاباً أو مدرسة للتعليم مجاناً فأصبح التعلم المجانى من جملة الخيرات التى انتجتها المدنية الإسلامية فى العالم الانسانى ثم انتقلت هـذه النعمة إلى الامم الغربية والمعارف التى تركها لنا الإسلام بقيت طفلة فى مهدها ولم نعمل على إنمائها.

وآسفاه على الخسارة التى لحقت بنا ، ووأسفاه على ذلك الاهمال الذى أدى بنا إلى ضياع هذه النعمة من أيدينا بعد أن ورثناها عن آبائنا ، لقد قصرنا فى حقها تقصيراً لا مزيد عليه .

فى مثل هذه المعاهد نشأ ابن سينا والفارابى وابن رشد والغزالى ومحى الدين العربى ، هذه المعاهد أصبحت منذ عدة قرون دوراً للعجزة والضعفاء ومسكنا للمتعطلين، أما اليوم فقد أقبل دور التيقظ فى الامة الإسلامية وأخذت الرغبة تتولد من كل جهة .

* * *

ليس لهذه الأمة التى ينيف عددها على ثلاثمائة مليون : شركة مؤلفة من ثلاثين سفينة ، كما أنها لا تملك مصرفا رأس ماله خمسة ملايين جنيه مثلا .

ليس فى أيدينا ما نعيش به غير الاراضى الخصبة التى ورثناها عن آبائنا، تأتى لنا هذه الاراضى بالقمح والفلفل والبن والقطن والقز والفواكه وغيرها ولـكنا نجهل أسباب بيع هذه الغلات بيعاً رابحاً ، ويذهب جزء عظيم من ربح تلك الحاصلات من أيدينا إلى أيدى التجار الأجانب .

ولا تكاد تجد تاجراً مسلماً فى البلدان الأمريكية إلا فى النادر ، وهو إما ارمنى أو رومى أو بوذى ، هندى أو صينى ، ومعظم التجارات المهمة فى البلاد

العثمانية والإيرانية ومصر والمغرب الأقصى والهند بأيدى النزلاء الذين يتقاطرون إلى البلاد الإسلامية من أقطار العالم المختلفة .

السبب هو الجهل .

على كل مسلم ناصح لأمته أن يسأل : كيف ارتقى الأرمن والروم والكرج والبلغار واليهود والهندوس الذين كانوا قبل اليوم بنصف قرن يعيشون بيننا .

* * *

إن استعداد الأمة العربية المدنية قد ثبت عندنا بتاريخها المتلألىء اللامع ، وأطلال مرصد سمرقند تشتهد بشغف هذه الأمة بالعلم والعرفان .

ليس انحطاط العرب اليوم هو نقص في فطرتهم وضعف فى استعدادهم فالإسلام يخاطب العقل ويحث على فى العمل وينوط نجاح الإنسان بعمله .

إن أسباب انحطاط الأمة الإسلامية لا يتيسر معرفتها تيسرا كاملا لفرد أو فردين فلا مندوحة من عقد مؤتمر إسلامى نجتمع فيه .

لا يفهم أحد أننى أرمى بعقد مؤتمر إلى غاية (بانسلاميزم) أى الجامعة الإسلامية التى يتشاءم منها الأوربيون .

إنما غرضى الوحيد هو البحث فى أسباب انحطاط الأمة الإسلامية وفتح أبواب النجاح فى الأمور الإقتصادية والاجتماعية . واختيار السبل القديمة التى تصل بنا إلى أخذ نصيباً من المدنية الحاضرة الغربية .

لا ننكر أن اكتشاف أمريكا ورقى الصناعات والميكانيكات فى الغرب له تأثير فى افتقار الشعوب الإسلامية وفقدان وجوه الكسب ، بين أن العامل القوى فى انحطاطنا هو الجمود على بعض العادات والقواعد الوهمية والخرافات التى ورثناها من آبائنا وتسربت إلينا من الأمم الأخرى بحكم الزمان .

* * *

لقد كان التعلم المجانى العام من مبتكرات الإسلام ، كان العلم قبل نحو أربعة

آلاف سنة محتكراً فى أيدى الكهنة وإله لنفوذهم ، فلما انتقل إلى اليونان انحصر فى دائرة الفلاسفة وأصحابهم ، فلما وصل إلى الرومانيين لم يخرج عن دائرة طبقة الحكومة والاشراف ، ولم تأت فكرة تعميم التعليم والتعليم مجاناً إلا فى الإسلام عندما وضعت هذه القاعدة موضع التنفيذ فى قول النبى : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وحرم أن يؤخذ أجر على تعليم المسلمين ، وقد وجد بجانب كل منارة للاذان كتّاب ومعهد .

لقد أثبتت تجارب أعظم الأمم المتمدنة فى هذا العصر أنه لا يمكن تعميم التعلم ونشره إلا بوجود كتاب واحد لكل ستين اسرة من الأمة . وتلك مشكلة عظمى وهى خلو اليد من النقود فما الحيلة : الجواب سهل هو أن الأمة ما دامت حية فالنقود توجد أو لابد من وجودها . النقود التى وجدت عند تأسس الأهرام الجسيمة لم لا توجد لبناء المدارس .

* * *

القصد أنه ليس سبب انحطاط العرب والترك اليوم هو نقص فى فطرتهم وضعف فى استعدادهم ، ذلك أن الإسلام الذى ندين به، هو دين يخاطب العقل ويحث على العمل وينوط نجاح الإنسان بعمله ، ولكن سيرتنا تخالف هذه الأصول الكريمة مخالفة ظاهرة .

لا مندوحة من كشف النقاب عن أسباب انحطاط الأمة الإسلامية .

* * *

نحن لا نفتأ نقول : أمطرت السماء فشربنا وأنبتت الأرض فأكلنا .

ولكن ينبغى لنا أن نعرف أننا إذا عشنا على العمل بهذه القصة فى الأيام الغابرة يستحيل أن نبقى بها فيما نستقبله من الأيام .

إذا فقدت أمة من الأمم استقلالها ووقعت تحديد حكم الأجنبى فإنها تخسر خسراناً مبيناً ، بيد أن هذا الخسران لا يقام له وزن فى مذهبى فى جانب الخسارة

التى تخسرها الأمة التى تقاعدت وتواكلت ثم سقطت من مكانتها فى ميدان العمل والاقتصاد .

ما السبب فى هذه الحالة التى وقعت فيها الأمة الإسلامية .

ليس لنا أن نقول أن السبب هو الجهل ونسكت ، وما هو سبب الجهل إذا أغضى عن ترق الأمم الافرنجية ، ألا يجب على كل مسلم ناصح لأمته أن يسأل : كيف ارتقى الأرمن والكرج والبلغار واليهود والهندوس الذين كانوا قبل اليوم بنصف قرن يعيشون بيننا ويشاركوننا فى معظم عاداتنا وآدابنا ونحن بقينا اليوم وراءهم ننظر إليهم بعين الاعجاب .

لايجوز لنا البتة كتمان حالنا ، بل يحق لنا أن نجاهر بها فى كل ناد ، ونسعى لتشخيص الداء حتى نصف له الدواء .

إن استعداد الأمة العربية المدنية قد ثبت عندنا بتاريخها المتلالىء اللامع ويرشدنا إلى استعداد الأمة التركية المدنية ما تركه لنا علماؤهم من المؤلفات النافعة وأطلال مرصد سمرقند يشهد بشغف هذه الأمة للعلم والعرفان .

* * *

نرى المسلمين اليوم تنبهوا بعض التنبه فى الأقطار الإسلامية كافة ، وهب فضلاؤهم لإنشاء الصحف والجرائد التى كان لها أثر عظيم فى تنبيه الأفكار والإرشاد إلى الخير والصلاح ، ونسمع أن مسلمى بعض البلاد ينشئون جمعيات خيرية وعلمية وهذه علائم خير يقر بها كل ناصح للانسانية .

لا جرم أن المرء يرى إذا جال طرفه فى الأقطار الإسلامية من مدينة قزان الشمالية إلى مصر الجنوبية إلى مراكش المغربية إلى جاوه المشرقية علائم الانحطاط أكثر من علائم الارتقاء ، فقد عادت معظم المدارس مثابة للعاجزين والبطالين واندثرت الصناعات الوطنية أو أشرفت على الدثور ، أصبح حظنا قليلا فى

تجارة العالم ويدنا ضئيلة في الصرف والشئون المالية ونصيبا عدما في التجارة البحرية .

وليس لهذه الأمة التي نيف عددها على ثلاثمائة مليون[1] . شركة مؤلفة من ثلاثين سفينة كما أنها لا تملك مصرفا رأس ماله خمسة ملايين جنيه مثلا ، ولا تكاد تجد تاجرا مسلماً في جميع البلاد الأمريكية والأوروبية إلا في النادر ، وإذا رأيت تاجراً شرقياً فهو إما أرمني أو رومي أو هندي أو صيني والتجارة المهمة في البلاد العثمانية والإيرانية ومصر والمغرب والهند بأيدي النزلاء وليس في أيدينا ما نعيش به غير الأراضي الخصبة ، تأتي لنا هذه الأراضي بالغلات ولكنها تجهل اساليب بيع هذه الغلات بيعاً رابحاً ، ويذهب جزء عظيم من هذه الحاصلات إلى أيدي التجار الأجانب .

وهكذا رسم المسلم الروسي صورة المسلمين في العالم الإسلامي عام ١٩٠٧ (في تقريره الذي القاه في مؤتمر القاهرة) والدور الذي يستعدون له وقد أولى أكبر اهتمامه إلى التعليم بحسبانه أداة الرقي وهو في هذا يجري في مجرى محمد عبده ، غير أن الذي زاد عليه وكان فيه رائداً هو دعوته إلى بناء الاقتصاد الإسلامي يتابعه في هذا الكواكبي في كتابه عن مؤتمر مكة الذي تخيل انعقاده ، وتوفيق البكري في كتابه المستقبل للاسلام . ثم ما كتبه ونشره عن العزيز الثعالبي

* * *

قصد إسماعيل عصبرنسكي القاهرة في أكتوبر ١٩٠٧ قادماً من بلاد القرم ، حيث اجتمع بخيرة أهل الرأي في مصر : توفيق البكري ، سليم البشري محمد بخيت ، رشيد رضا ، محمد المهدي، علي يوسف، حسين والي ، أحمد ابراهيم، عبدالوهاب النجار ، محمد حسنين العدوي ، أحمد تيمور ، إبراهيم الهلباوي ،

(١) كان هذه التقدير عام ١٩٠٧ أما المسلمون اليوم فعددهم ٦٧٠ مليونا

أحمد زكى ، على بهجت ، إسماعيل رأفت ، محمد فريد ، رفيق العظم ، طلعت حرب ، حافظ عوض .

* * *

وقد حقق الشيخ على يوسف أمل عصبرنسكى بعقد مؤتمر ضم نحو ستة آلاف من عظماء المصريين ونزلاء مصر فى فندق الكونيتال (٢٥ رمضان ١٣٢٥ — أو نوفمبر ١٩٠٧) ألقى فيها المترجم له بحثه المستفيض الذى قدمنا ملخصاً له.

وفى القاهرة أصدر عصبرنسكى مجلة باسم النهضة لبحث المسائل السياسية والإصلاحات الاجتماعية (صدرت فى ٢٨ فبراير ١٩٠٨) .

وفى المؤتمر تحدث « توفيق البكرى » فقال أن الجامعة الإسلامية قسمان : دينية وسياسية ، فالسياسية التى يعنيها الأفرنج بلفظة (بانسلاميزم) أما الجامعة الدينية فهى موجودة بوجود روابطها وهى العقيدة الإسلامية أولا وإخوة الإسلام ، أما الجامعة الإسلامية فهى غير موجودة ، ولم توجد ولن توجد كما يتوهمون لعدم وجود الرابطة فى كل أمر سياسى وقد أيد عصبرنسكى رأى البكرى فى أنه لا يدعو إلى مؤتمر سياسى للمسلمين ولكنه يدعو إلى مؤتمر اجتماعى .

وتتلخص حياة إسماعيل عصبرنسكى فى :

أنه ولد ١٨٥٩ فى شبه جزيرة القرم وتلقى العلوم فى مدينة باغجة سراى عاصمة القرم ، ثم التحق بالمدرسة الحربية الروسية بموسكو ، وتطوع فى الجيش العثمانى لإخماد ثورة كريت عام ١٨٦٨ وعمل مدرساً للغة الروسية فى القرم وبث آرائه الإصلاحية فى تلاميذه وفى استانبول عام ١٨٧٤ نشر كتابه « نظرة موازنة إلى مدنية أوروبا » .

وفى كتابه عن قصة حياته (أشرقت الشمس) قال : إن خدمة الأمة

خدمة حقة تستلزم الاطلاع على أحوالها، ولذلك عمد إلى توسيع علمه ومعارفه لحضر أفراح القرويين ومجالس العلماء والدراويش وحفلات الأعيان والأمراء وقضى نحو سنتين يسمع كثيراً ولا يتكلم إلا قليلا وفهم نقطة الضعف فيما تحتاج إليه الأمة .

أهم مؤلفاته « مسلمو روسيا » وأكبر أعماله إصدار جريدة [ترجمان] (١٨٨٣ – ١٩١٤) وقد احتلت جريدته مكاناً ممتازاً فى العالم الإسلامى حيث يقرؤها مسلمو القوقاز وقازان وسيبريا وتركستان وبعض مسلمى الصين ، وكانت توزع ١٥ ألف نسخة فى الآستانة ، وقد عنى بتوحيد اللغة وتكوين الرأى العام وطبع المصحف الشريف فى أحجامه الثلاثة

وقد أنشأ مدرسة أولية نموذجية فى باغجة سراى عام ١٨٨٤ .

وفى عام ١٩٠٥ زار بلاد كشغر فى تركستان الصينية فأنشأ وأصلح نحو خمسة آلاف مدرسة بالأموال التى جمعها من الأتراك .

ثم فكر فى توسيع دائرة دعوته حتى تشمل العالم الإسلامى كله واستقر رأيه على أن القاهرة هى المدينة الأولى التى تصلح لتكون مركزاً لنشاط دعوته .

وكان يرى أن أمضى طريقة للوصول إلى الغاية المنشودة فى إصلاح المسلمين هو عقد مؤتمر عام للمسلمين ، وفى القاهرة تعرف إلى علماء الأزهر والكتاب وأعضاء الحزب الوطنى ثم عاد عصبرنسكى من مصر إلى بلاده ، ثم واصل جولته فزار الهند حيث ظل يعمل بين مسلميها فى همة ونشاط حتى توفى فى (١١ سبتمبر ١٩١٤)

جمال الدين القاسمى

الكشف عن جوهر الإسلام

١٨٦٦ — ١٩١٤

« سمعت أن المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى مصر كان يقول : نحن فى حاجة إلى مذهب ينتخب من المذاهب الأربعة ، وهذا الكلام كان يدور معناه فى خلدى من أزمان ، إذ جمل الأمة على مذهب ، أو بلد من البلاد ، أو قوم من الناس ، فيه من الحرج والعنت ما فيه ، ودين الله يسر ، ويوجد من مجموع فروع الأمة ما يعود على الأمة باليسر والتيسير مع المحافظة على أصول الدين ولى نية بجميع كتاب فى الفروع فى ذلك . »

* * *

« إن حق من يصنف فى تراجم الرجال أن لا يترجم إلا ذوى الأثر أو التأثير ، فالأول يدخل فيه من صنف وألف فى أى فن كان، يشرط الاجتهاد لما صنفه أو اخترعه، مالم يسبق فيه ، ويدخل فى الثانى كل عالم غير مؤلف ، ولكنه أنجب تلامذة أو وقف نفسه على التعليم فى فن أو فنون، وكان سالكا سبيل السلف فى النصح والصدق والاخلاص والأخلاق .
وما عدا هذين الصنفين ، فما أجدر التواريخ ان تجرد من ذكرهم وتوفر الصحائف من تسوية وجهها بأمرهم .

(جمال الدين القاسمى)

فى عصر اليقظة العربية الإسلامية ظهر عدد من مجددى الإسلام فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى : من أبرزهم شهاب الدين الألوسى فى العراق وجمال الدين القاسمى فى الشام ورشيد رضا فى مصر وشبلى النعمانى فى الهند ، ومحمد العلوى العربى[1] فى المغرب، وقد جاء هؤلاء على أثر حركات اليقظة والكفاح التى حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب، الشوكانى والسنوسى والمهدى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد جاء هؤلاء قوة دافعة فى وجه التحدى الذى فرضه الاستعمار على الإسلام والثقافة العربية فاستطاعوا أن يصححوا المفاهيم ، وأن يجلوا طبيعة الإسلام وجوهره قوياً حياً قادراً على الحياة وأن يردوا بذلك العمل الإيجابى على شبهات المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب .

وكان مفهوم هؤلاء المجددين المصلحين جميعاً :أن الإسلام قادر على الحياة والبقاء فى مواجهة التطور والحضارة ، وأن حيويته وفاعليته وتقدميته لاتغلب وأنه قادر على أن يمد الحياة الإنسانية فى مختلف العصور والبيئات بالقوة الدافعة .

* * *

وجمال الدين القاسمى (علاّمة دمشق) منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر يكشف فى كتابه ومفاهيمه هذه الروح على نحو واضح صريح فى جماع مفهومه وفلسفته .

إذا تعارض العقل والنقل أوُل النقل بالعقل ، إذ لا يمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما ، لما يلزم عنه اجتماع النقيضين ، ولا بانتفاء ذلك ، لاستلزامه ارتفاع النقيضين ، لكن بقى أن يقوم النقل على العقل ، أو العقل

---

[1] وقد ترجمنا لهم جميعا فى هذا الكتاب

على النقل ، والأول باطل لأنه إبطال للأصل بالفرع .

ويبدو منهج (القاسمى) فى مختلف أبحاثه وكتاباته وكأنه منهج الوحدة والجمع ، فهو يرى أن مفكرى الإسلام وعلمائه وأئمته مهما اختلفت مذاهبهم بين معتزلة وسنة وقدرية وأشعرية وغيرهم ، يستقون من منبع واحد (وأن الإسلام يجمع الفرق فيعمهم ، وما منهم إلا من له فى الإسلام أعمال مشكورة وحسنات مبرورة ، ولهم فى الرد على أهل الإلحاد والبدع ، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ، مالا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بصدق وعدل وانصاف) .

ولا شك أن دعوته التى تحمل اسم (الإسلام يجمع الفرق ويعمها) من الدعوات البعيدة المدى فى تقريب وجهات النظر وقطع عوامل الخلاف التى تحاول دعوات التقريب أن توسعها لتديم شقة الخلاف بين المسلمين الذين لم يختلفوا قط فى الأصول ، وإنما كان خلافهم دائراً حول الفروع ، وهو خلاف لا يدل على الضعف بل القوة ، ولا على الجمود بل الحيوية ، وهو علامة على طابع الحرية العميق الذى يتسم به الإسلام وثقافته .

وقد ردد هذا المعنى كثير من الأعلام والأئمة .

ويتجلى إيمان القاسمى بدور العرب فى بناء الإسلام واضحاً ، كما أنه يؤكد دور العرب فى تجديد الإسلام وتنقيته وتصحيح مفاهيمه .

وقد اتسم منهج القاسمى فى فهم الإسلام بالتحرر والاجتهاد واليسر .

فالإسلام عنده عامل قوة وإيجابية وضرورة ، يقول : « لا يصان نظام المجتمع من الخلل والتفرق إلا بالدين ولا يندفع خطر الفوضى التى تهوى بالشعوب من الهلكة إلى مكان سحيق إلا بالإيمان الصحيح ، فبقدر تمكن العقيدة من نفوس أفراد الأمة يكون منهجهم وقوام حياتهم والله لم يشرع

الدين لنتفرق فيه ولـكن ليهدى إلى اتقان العمل . أن من محاسن دين الاسلام انطباق أصوله على نواميس العمران ، و وفاء مبادئه بحاجيات كل زمان ومكان وابتناء قواعده على جلب المصالح ودرء المفاسد ، وتميزه برفع الأغلال والقيود وفتحه أبواب اليسر والتيسير وسده مسالك الحرج والتعسير » .

وهو يؤمن بالعقل إيماناً صادقاً ، ويرى أنه مصدر الفهم العميق للاسلام ويرى أن غل الفـكر عن النظر والتأمل هو أعظم هادم لصرح التحقيق ، فإن الحقيقة بنت البحث ، وعنده أن جميع الأحكام المشروعة أصولها وفروعها « معقولة المعنى » .

ويؤمن القاسمى بالاجتهاد ويمارسه فى مفاهيم كثيرة ، فهو لا يحصر الانفاق فى سبيل الله فى أمر الحرب وحده ، بل يوسع تعميمه ، فيرى أن من الانفاق فى سبيل الله ، الانفاق على المشروعات العامة التى تنفع الأمة كشراء كتب طلبة العلم وإصلاح الطرق وتعميم المدارس وإجراء الماء وإقامة المساجد .

وهو فى أدق المسائل يصل إلى مفاهيم الربط بين الاسلام والعصر ، ففى التصوير مثلا ، يقول : (أن المنهى منه هو التصوير بقصد العبادة ، فإن انتفت فلا وجه للتحريم ، لأن الأصل فى الإسلام أن لا تحريم حيث لا ضرر) .

* * *

عاش جمال الدين القاسمى عمراً قصيراً شأن كثير من المصلحين النوابغ ، الذين يمرون بالفـكر الانسانى مرور الطيف ويتركون أعمق الأثر ، فقد مات فى حدود الخمسين ، غير أنه ترك ثروة ضخمة تقدر بأكثر من سبعين مؤلفاً فى مقدمتها عمل ضخم هو تفسير القرآن الذى أسماه [محاسن التأويل] ، وأتمه فى سبعة عشر مجلد وأمضى أكثر من ستة عشر عاماً فى إعداده ، هى زهرة عمره .

وقد كان القاسمى ابن عصره ، وحاجة عصره ، نشأ فى ظل مفاهيم تحرير الفكر العربى الاسلامى فأحب ابن تيمية وابن القيم وتأثر تأثرا كبيراً بالإمام

الشاطبى الذى كان من أحب العلماء إليه ، وكان هدفه الأساسى : « الكشف عن جوهر الاسلام وتجليته وإزالة غشاء الجمود والتقليد والخرافات والبدعة عنه »

وقد مهدت الطريق أمامه كتابات : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . وطاهر الجزائرى فمضى يقيم صرحاً كاملا من العمل الفكرى الضخم تمثل فى مختلف دراساته وكان من أهمها (كتاب قواعد التحديث فى فنون مصطلح الحديث) وكان به أول من ألف فى فن المصطلح ومسائل الجرح والتعديل ومباحث الاسناد وأحوال الرواية وأدب المحدث .

وهو يكمل عمله فى تفسير القرآن ، ويقيم بهما (التفسير والحديث) ، منهاجاً كاملا يكشف أسرار الشريعة الاسلامية فى مواجهة العصر والحياة وقد كانت آراؤه التى تبدو اليوم سمحة ويسيرة ، كانت فى أبانها صواعق من نار ، فى فترة الجمود العاصف الذى كان للعالم الاسلامى والفكر العربى يمران به .

وآية الآيات فى عقلية القاسمى ومنهجه ، تتمثل فى ذلك الارتفاع فوق الخلافات والمعارضات والمساجلات التى تصارعت بها الفرق والمذاهب المختلفة ، وقدرته على استخلاص عصارات الفكر الاسلامى كله وضم ثماره الزاهره بعضها إلى بعض ، وعرضها من جديد ، بوصفها جهوداً عقلية رائعة ،كان يقلل من شأنها وأهميتها لو أنها عرضت فى مجال تاريخى يصورها بصورة الخلافات والمعارضات وما أحوجنا إلى مثل هذا المنهج اليوم .

« منهج استخلاص جوهر الفكر العربى الإسلامى وتخليصه من العرض التاريخى أو الدراسات الأكاديمية الجافة التى تصوره بصورة صراع مذاهب وفرق » .

لقد مضت هذه الفرق وانتهت ؛ وبقى الفكر نفسه وما أحوج الباحثين إلى استصفائه واستخلاصه للانتفاع به كتراث للاسلام والثقافة العربية الإسلامية محررا من كل قيد .

وهذا ما فعله العلامة جمال الدين القاسمى منذ أكثر من سبعين عاما فى تفسير القرآن إذ أخذ من الائمة المجتهدين على اختلاف مذاهبهم ، أخذ من المعتزلة والزيدية والشيعة والظاهرية ، واعتبر الحقيقة ضآلته انى وجدها فهو أحق الناس بها ، وفى هذا يقول :

أن جريدة العلم التأليف تقتضى أن لا يبخل بفكر لا يضن برأى ، ومن عقل المؤلف أن يفسح المجال للبحث ويشرح صدره للحوار والنقد ، والحق فى المسائل ليس منحصراً فى قول ، ولا مذهب ما دامت اجتهادية لم يرد فيها نصوص قطعية ، وقد اختلف فيها الأئمة قديماً وحديثا ، وقد يظن البعض أن مراد دعاة الاصلاح العلمى بالاجتهاد هو اعداد مذهب جديد . والدعوى على انفراده وأى عاقل يدعو لتكثير الشيع والفرق وزيادة الانقسام ، وإنما المراد انهاض همم العلماء لتعرف المسائل بأدلتها والبحث عن مداركها ومآخذها . والتنقيب عن الأصول والفروع وتعرف طرق التخريج الاستنباط وحجج الموافق والمخالف ، ثم توخى الاقوى دليلا والا قوم قيلا .

ولو كانت الفرق التى رميت بالابتداع تهجر لمذاهبها وتعادى لاجلها لما أخرج البخارى ومسلم وأمثالهما لأمثالهم ، أن هؤلاء المبدعين لم يكونوا معصومين من الخطأ حتى يعدوهم الانتقاد ولكن لا يستطيع أحد أن يقول أنهم تعمدوا الانحراف عن الحق ومكافحة الصواب عن سوء نية وإنما غاية ما يقال أنهم إجتهدوا فيه فأخطئوا .

وقد عمل الامام القاسمى فى ميدانين : ميدان التأليف الموسوعى ، وترك

مجموعة ضخمة من الآثار ، لم يلتزم فيها بمذهب ولم يتقيد برأى معين وإنما أخذ من جوهر الاسلام نفسه وانتفع بكل رأى واجتهاد وفكر فى سبيل الكشف عن قدرة الاسلام وأهليته لمواجهة العصر والحضارة . كما عمل فى مجال الدعوة فألف من حوله تلاميذا ، وقاوم انحرافا ، واصطدم بالجامدين ، ووجد خصومه عاصفة ، فواجهها بإيمان صادق . وكان مثله الأعلى فى ذلك مثل جمال الدين ومحمد عبده فى مصر .

ولقد دفعه صدق إيمانه بالاستيعاب والتكامل الفكرى أن درس الرياضيات والفلسفة وكتب الاجتماع والقانون وكتب الديانات والفرق ، والمقابلات بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى ، ودراسات التاريخ والأدب والأخلاق .

وقد عرف الاشتراكية قبل عام ١٩١٦ وكتب عنها . وعرض لموقف الإسلام من المخترعات الحديثة ، يقول : إذا لم تطبق أمورها على الأصول المقررة بالاستنباط أو القياس فهل نجمد فى الدين ونخالف طريقة المتقدمين والمتأخرين ونضيق ما وسعه الله من الفهم والاستنباط .

وأولى اهتمامه لمسألة التفرقة العنصرية والتمييز بسبب العنصر أو العرق أو اللون وعالجه . وقال أن منشأ هذه الدعوة هو إستعباد الزنوج .

وله مؤلفات فى تاريخ دمشق وكتبا عن الشاى والقهوة والدخان وله كتاب لم يطبع فى مقارنة الشريعة الإسلامية بالشرائع الأخرى والقوانين الغربية .

وكانت له اهتمامات واسعة بفقه اللغات وأصول الكلمات المعربة عن لغاتها الأصلية اليونانية والسريانية والعبرية والفارسية الألمانية والإيطالية والفرنسية .

وترسم جماع آراء جمال الدين القاسمي صورة مصلح إسلامي متفتح الآفاق على العصر والحضارة :

إن من محاسن الإسلام انطباق أصوله على نواميس العمران ، ووفاء قواعده بحاجيات كل زمان ومكان ، وابتناء أحكامه على جلب المصالح ودرء المفاسد وتميزه برفع الأرصاد والأغلال وفتحه أبواب اليسر والتيسير وسده مسالك الحرج والتعسير ، ومن خصائصه إرشاده لمناهج الاستنباط ، وموارد التفقه والإستخراج حتى سهل على راسخيه رد كل ماينفع الناس إلى نصه ومحكمه أو مجملة وظاهره ، وتطبيقه على سماحته وتوفيقه على يسره ورحمته .

على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أو النقل بالعقل ، إذ لا يمكن حينئذ بثبوت مقتضى كل منهما . لما يلزم عنه من اجتماع النقيضين ولا بانتفاء ذلك لاستلزامه ارتفاع النقيضين ، لكن بقى أن يقدم النقل على العقل أو العقل على النقل والأول باطل لأنه إبطال للأصل بابطال للفرع .

* * *

قضت حرية العلم والتأليف فى عهد السلف أن لا يبخل بفكر ولا يضن برأى ولا على أن يهمس به همساً أو يدس بين حيطان الخلوات ، بل على أن يبث وينشر ويشرح ويفسر ، ويصدع به فى المجـــامع والجوامع ويجهر به على المسامع .

* * *

الثبات على تحمل المشاق والصبر الجميل ، من الواجبات المحتمة على كل داع إلى الحق ، والصدمات التى يجدها البطل المقدام يجب أن تقابل بثبات الجأش ، وأن تكون كلما تجددت باعثة على تجدد القوى ، ولذلك قرن تعالى فى كتابه الحكيم التواصى بالحق وبالتواصى بالصبر .

* * *

أن الحق فى المسائل ليس منحصرا فى قول ولا مذهب ، بل لا يسوغ

لأحد أن يجعل الحق عند فريق واحد فى كل مطلب ، ما دامت المسائل اجتهادية ، لم يرد فيها نصوص قطعية وقد اختلف فيها الأئمة قديماً وحديثاً ، وقد أنعم الله على الأمة بكثرة مجتهديها وبعدم انقطاع رجال الاجتهاد فيها كى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة وهاد إلى البرهان ومرشـــد إلى واضح المحجة .

* * *

من المعروف فى سنن الاجتماع أن كل طائفة قوى شأنها وكثر سوادها لا بد أن يوجد فيها الأصيل والدخيل والمعتدل والمتطرف والغالى والمتسامح وقد وجد بالاستقراء أن صوت الغالى أقوى صدى وأعظم استجابة ، لأن التوسط منزله الاعتدال ، ومن يحرص عليه قليل فى كل عصر ومصر ، أما الغلو فمشرب الأكثر ورغيبة السواد الأعظم وعليه درجت طوائف الفرق والنحل ولم تجد سبيلا لاستتباع الناس لها إلا الغلو بنفسها .

* * *

الدين بمعناه العام هو إدراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف فى الكائنات والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم فى الفكر ، وهو أمر فطرى فى البشر وأن قولهم : فلان دهرى أو طبيعى هو صفة لمن يتوهم أن تلك القوة هى الدهر أو الطبيعة فيدين لما يتوهم وليست تلك القوة حقاً إلا قوة الإله الواحد الأحد لا إله إلا هو تعالى عما يشركون .

* * *

ولا شك أن هذه العصارة تعطى طبيعة مصلح مجتهد بعيد الغور واسع الأفق . وقد أجمع مؤرخو جمال الدين القاسمى . على أنه حريصاً على أن يوفق

بين الآراء المختلفة حتى يلتقى المسلمون على وحدة فكر .

يقول كرد على : كان الشيخ جمال القاسمى يعلم مافى عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة . وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ، ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدى النبوى فيضم كلام ابن تيمية مثلا إلى كلام الشعرانى والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واحدة فى الكتاب .

وقد علق الأمير سكيب أرسلان على هذا فقال : إن الشيخ جمال القاسمى عام ١٣١٣هـ قداتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبدالرازق النيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح جمال الدين القاسمى وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدى إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، واثقاً من أن المصلحة هى فى جمع الكلمة وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوى لا تتأتى بالترجيح والتجريح .

توفى سنة ١٩١٤

خير الدين التونسى

داعية الربط بين الاسلام والعصر

(١٨١٠ — ١٨٨٩)

(قصدت) أولا إلى إغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب عدتها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات .

(وثانياً) إلى تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم فى الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى أن يهجر وتأليفهم فى ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر ، وهذا على إطلاقه خطأ محض ، فإن الأمر إن كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقا للادلة ، لا سيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره وإهماله ، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله ، وكل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالا فى ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن من نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية .

* * *

إن الشريعة الإسلامية كافلة بمصالح الدارين .

وقصدى تذكير العلماء الأعلام بما يعنيهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الأيام وإيقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام .

من كتابه « أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك »

كان القرن الثالث عشر الهجرى : القرن التاسع عشر ، من أدق مراحل اليقظة والصدام بين عالم الإسلام والأمة العربية و بين العرب والاستعمار . والصورة متماثلة فى مختلف جزاء العالم العربى = نفوذ غربى يزحف ، وقيادات فكرية سياسية تكافح وتحاول أن تصارع النفود الغربى والاستعمار فتفلح تارة وتخفق أخرى ، كانت العلامة الاولى على الصراع هى احتلال الجزائر ، وتلك المعركة الحربية التى قادها الأمير عبد القادر سبعة عشر عاماً فى مواجهة أعتى قوى الظلم ، غير أن المعركة لم تكن إذ ذاك معركة الجزائر وحدها ، بل معركة الأمة العربية كلها ، كانت تونس تحس بأنها وشيكة أن تقع فى قبضة الاستعمار الفرنسى ، وكانت مصر تمر بمرحلة مشابهة ، الديون والضغط ، والنفوذ الغربى المتساقط ، والغرب يزحف بتجارته وقواه الاقتصادية فيسيطر ويمتلك ، ويزحف بإرسالياته ومدارسه الفكرية يحطم المقومات ويدمر القيم ، فى خلال هذا القرن تتمثل الصورة القاسية لهذه الزحوف ، وتتمثل الصورة الباهرة لأعمال المقاومة ، دعوات فى تركيا ومصر وتونس تطالب بالشورى ، الدستور والنظام النيابى ، تريد به أن تحد من سلطان الاستبداد المتمثل فى النفوذ الأجنبى المختفى وراء الحكام والقادة .

وفى طرابلس وبرقة ضياء جديد يحمل شعلته مجاهد جزائرى الأصل ، هزته الأحداث فسلك إلى مقاومة النفوذ الأجنبى طريقاً بارعاً قوياً ، طريق التربية وبناء الشخصية الإسلامية ، كان الامام محمد بن على السنوسى أول من تنبه له . واتخذه سلاحاً لمقاومة النفوذ الأجنبى ، وبينما كان الأمير عبد القادر يحارب بالسيف فى الجزائر كان السنوسى يربى ويعلم ، ويمتد العمل فيظهر جمال الدين الافغانى فى ايران والهند ، ثم يقبل إلى مصر وإلى العالم العربى مؤمناً بإنه

هو « نقطة الضوء » وإنه بؤرة الصراع ، إذ أولاه الاستعمار اهتماماً أكبر وركز عليه وترك فارس وافغان وتركيا دون أن يحتلها ، بينما حرص على تطويق هذه الامة ، مصدر الرسالة التى حملت كلمة التوحيد ، وصاحبة لغة القرآن ، وفى كل قطر من أجزاء العالم العربى كان هناك المجاهد والمصلح ، بأسلوب أو بآخر ، وكان خير الدين التونسى واحداً من هؤلاء ، أصحـاب الرؤى البعيدة المدى لا لوطنه المحدود ، بل للعالم الإسلامى والأمة العربية جميعاً . لقد حاول خير الدين أن يجيب عن سؤال محير هو نقطة الانطلاق لليقظة العربية الإسلامية .

لماذا تخلف المسلمون وكيف يستردون مجدهم وقوتهم ، ومن خلال التجربة الضخمة العنيفة التى خاضها الرجل ، وزيراً وسياسياً ورحالة وصدراً أعظما ، حاول أن يضع أمام امته خطة السير ودلالة الطريق .

إن خير الدين التونسى لم يتوقف فى المغرب ، بل تقدم إلى المشرق، وتولى وزارة وأقام فى عاصمة الخلافة الإسلامية وولى أخطر مناصبها وشارك فى حل معضلة العصر : معضلة المواجهة للنفوذ الاستعمارى بسلاح صارم ، وقف فى صف مدحت ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد بن على السنوسى ، ومحمد أحمد المهدى ، وقال كلمته ، ورمى بسهمه .

وخلف أثر باقياً من آثار الفكر ما زال علامة على العمل الذى حققه المجاهدون والمصلحون فى سبيل بناء الأمة العربية من جديد .

ماذا كان باعثه على هذه الدراسة ، ومحركه لكتابة تجربته : يقول :

إن الباعث الأصلى أمران يصلان إلى مقصد واحد .

أحدهما : اغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسية والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى جس حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب تمدنها ، بمثل توسيع دوائر العلم والعرفان ، وتمهيد طريق الثروة فى الزراعة

والتجارة . وترويج سائر الصناعات ونفى أسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن ، المتولد منه الأمل ، المتولد منه اتقان العمل المشاهد فى الممالك الأوربية بالعيان .

ثانياً : تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم فى الأعراض عما يحمد من سيرة الغير ، الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى أن يهجر ، حتى أنهم يشددون الأنكار على من يستحسن شيئاً منها . هذا الانكار على اطلاقه خطأ محض ، فإنما الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صوابا فلا وجه لانكاره واهماله ، بل الواجب الحرص على استعماله ، وكل متمسك بدينه وإن كان يرى غيره ضالا فى ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن فى نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الأفرنجية ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها .

* * *

هذه هى الصيحة التى أطلقها خير الدين، فى وجه الأمة العربية عام ١٨٦٧ فى كتابه [أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك] وهو ما أطلق عليه فى الترجمة الفرنسية الاصلاحات الضرورية للدول الإسلامية .

عرض فيه فلسفته فى الاقتباس من الحضارة ، وكان أكثر جرأة من رفاعة الطهطاوى الذى أعلن عن رأيه فى هذه المعضلة ١٨٤٠ أى قبله بربع قرن وقد نعى خير الدين على المسلمين كراهية الأخذ بأساليب المدنية الحديثة الإصلاح ، والاعتقاد بأن كل ما يصدر عن أوربا حرام ، أو مخالف للشريعة الاسلامية ووضع قاعدته الأساسية :

إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والاخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمسائل الدنيوية .

وعنده أن على المسلمين الاستعداد لمقابلة العدو بمثل سلاحه . والاخذ بالعلم من أسباب العمران ولا مشاحة فى الاخذ بالاساليب الغربية فى الحكم والتنظيم والادارة والأسلحة كما أخذنا الحضارة فى الملابس والأثاث والمخترعات وعنده أن الامة التى لا تجارى جاراتها فى معداتها الحربية ونظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة فى أيديهم والاسلام لا يمنع من نقل حضارة الغرب ولا يمانع من الاخذ بنظم إدارتهم مع مراعاة الظروف ، وأن المسلمين أن ينقلوا مايستطيعون هضمه ، ثم يوسع هذا شيئاً فشيئاً بنمو أسباب التمدن ، كما دعا إلى الاخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم ، وأشار إلى عوائق التقدم فحصرها فى فئتين أو فى معادلة ، فهناك رجال الدين ورجال السياسة ، أما رجال الدين فأنهم يعرفون الشريعة ولا علم لهم بأمور الدنيا ، أما رجال السياسة فيعرفون الدنيا ولا يعلمون الدين وهم يريدون أن يطبقوا النظم الاوربية بحذافيرها من غير عودة إلى مفهوم الدين ومن هنا كان حله للمعادلة :

« نقول لرجال الدين أعرفوا ألدنيا ونقول لرجال السياسة أعرفوا الدين »

ودعا إلى امتزاج الطائفتين وتعاونهما . ولا شك أن خير الدين التونسى كان فى عرضه لمعضلة الإسلام والحضارة بارعاً وبعيد النظر وقادراً على استيعاب النظرة ، نتيجة تجربته الطويلة ومعاناته وخبرته ، وكانت نبوءته صادقة ، وارهاصه بالاحتلال صادقاً فقد وقع بعد سنوات قليلة ، وقد كان هذا الضوء الذى القاه خير الدين التونسى كاشفاً لطريق جمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وأساساً لقضية تستمد مفهومها من وسطية الإسلام وشموله وتكامله ، ولاشك أن الخطر الذى ألقاه النفوذ الاستعمارى من بعد قد زاد فى الفرقة بين رجال الدين ورجال السياسة والعزلة بين المفهومين فأقصى رجال الدين وجمدهم — وأطلق لرجال السياسة العنان ، ومن هنا تمكن النفوذ الاستعمارى من السيطرة والاستعلاء .

ويعزى المؤرخون الحافز الذى دفع « خير الدين » إلى العمل فى ميدان الاصلاح والتجديد أنه عاصر أواخر أيام نابليون وشاهد بنفسه ما أصيبت به الجزائر وما منيت به مقاومة الأمير عبد القادر ، هنالك تكشف له أن الخطر الأكبر الذى يهزم المسلمين أمام الغرب هو أمراضهم الاجتماعية والأخلاقية ، ومن هنا كان فكره متصلا بدعوات الدستور ، والإصلاح وقد حاول أن يطبق افكاره ولكنه اصطدم بنفوذ الوزير الأكبر مصطفى خازندار الذى حكم تونس مدة أربعة وثلاثين عاماً ، فضلا عما كان يتصل بالاقتباسات الغربية من توجس الأهلين لها خشية أن تقضى على كيانهم وقيمهم الأساسية ومن هنا كانت محاولة خير الدين فى الربط بين الاسلام والعصر وبين الدين والحضارة .

وقد لخص الباحثون أهداف خير الدين التونسى فى الإصلاح وإنهاض الأمة وتطوير حياتها فى خمس نقاط أساسية :

* سلطان الحاكم محدد بالقانون ومشورة العلماء والأعيان .

* نهوض الأمة متوقف على قوتها الحربية وقوتها الاقتصادية ووراء هاتين القوتين قاعدتان أساسيتان هما العلم والنظام السياسى السليم . (والعلم التجريبى الأوربى المتطور) .

* أهمية المصلحة وتغير الاحكام بتغير الأزمان .

* توحيد الفقه الإسلامى وتكييفه مع ظروف الحياة الحديثة (وقد حاول التوفيق بين المذهبين الحنفى والمالكى فى تونس) .

* تحذير الخاملين والمتعصبين من الأشاحة عن الحياة الجديدة وطرزها .

* * *

وقد حفلت حياة خير الدين التونسى بالأحداث ، فقد نشأ فى البيئة التى تصنع الأبطال والمصلحين مملوكا تحرر عام ١٨٤٥ بإبطال الرقيق فى تونس ، منحته الفرصة التعلم والثقافة فاستطاع أن يلتحق بالمدرسة العسكرية واتقن العربية والفرنسية والتركية ، واستطاع أن

يجمع بين الثقافة الإسلامية العربية وبين الثقافة الأوربية والعسكرية، ومن هنا كان صواب نظرته حين أولى اهتمامه فى نظرته الإصلاحيـــة : إلى الجيش والاقتصاد واعتبرها قوام الإصلاح .

واستطاعت تربيته العسكرية إلى أن تضفى عليه روح النظام والحزم وفى مطلع حياته العملية كان التحدى الجزائرى أمام عينيه دليلا على ما بعده ، فقد بدأ عمله فى محيط مضطرم بالأحداث ، الباى يعمل جاهدا للانفصال عن الدولة العثمانية ، والجزائر تواجه الغزو الفرنسى ، وتونس ستكون الفريسة التالية ، الباى ومشاريعه ، معاناة الشعب للظلم والجحود ، النفوذ الأجنبى يوسع لهجرات ابناء فرنسا وايطاليـا فى مجال التجارة والاقتصاد ، الصراع والتنافس بين الدول الـكبرى على تونس ، رئيس الوزراء (مصطفى خزنه دار) شبيه (مصطفى فهمى) ، فى مصر أداة فى يد النفوذ الفرنسى حيث ليس للباى معه أى سلطان ، وأعمال النهب والاسترقاق والارهاق ، والبلاد تسير إلى الخراب الشامل ، والوزراء يجمعون الأموال ويهربونها إلى فرنسا .

* * *

وفى وسط هذا الخضم المضطرب يكلفه الباى بالسفر إلى باريس لمخاصمة الوزير ابن عباد الناهب لأموال تونس ، وهناك أقام اربع سنوات واستطاع أن ينجح فى إعادة ٢٤ مليون فرنك ، غير أن إقامته فى أوربا استطاعت أن تطلعه على مدى الخطر الذى يتهدد العالم العربى والزحف المنظم لسيطرة الاستعمار الغربى عليه ، فإذا هو بعد يلى وزارة الحربية ويشارك فى قيام المجلس الدستورى بعد صدور عهد الأمان ، وهو أول دستور فى العالم العربى ١٨٥٧ ، ثم انشىء المجلس التشريعى ١٨٦٠ متمما للمجلس النيابى بوصفهما دعامة لنشر العدالة بين المواطنين ، وقد رأس خير الدين المجلس وفى كل هذه المرحلة وخلال كل

تلك الخطوات كان خير الدين يصطدم بالنفوذ الأجنبى الواغل ، ويجد العقبات الضخمة تقف أمام كل محاولة اصلاح ، ويواجه المناورات ، والمؤامرات التى تثنى عزم المجاهدين وتدبر له الدسائس لتحوطه وتدمر خطواته ، كان قبسا فى وسط الظلمة فى طريق طويل نحو الاحتلال وقد وصف موقفه خلال هذه المرحلة « حاولت أن أسير بالأمور فى طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كل مسعاى سدى ، ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبنانى بتمسكى بالمناصب ، فقدمت استقالتى ١٨٦٢ من رئاسة المجلس ووزارة الجيش وعدت إلى حياتى الخاصة » .

تلك كانت التجربة الضخمة التى عاشها خير الدين التونسى ، وكان كتابه عصارة هذه التجربة ، وهو فى هذا يشبه نفسه بالعلامة ابن خلدون بعد محنته فى الوزارة للامراء وكتابه ، مقدمة ابن خلدون ، فهو لم يلبث أن اتجه إلى البحث والتأمل محاولا كشف الأسباب والعوامل التى أصابت المجتمع الإسلامى ومجيبا على السؤال المعضى على الاجابه :

كيف ضعف المسلمون وما هى عوامل نهضتهم من جديد وكان إيمانه صادقا بأن الإسلام ، لا يحول دون العلم والحضارة ، وأن تخلف المسلمين إنما جاء حين فقدوا إيمانهم بوسائل الاسلام فى النهضة وهى القوة والوحدة والقدرة على اللحاق بالزمان وبواسائله وأساليبه واسلحته دون تخلف عنه ، وقد اتاح له عمله هذا المرير ومماناته القاسية ، بالاضافة إلى رحلاته فى مختلف بلاد أوربا فكرة شاملة . عن الخطر الذى يتهدد العالم الاسلامى وهو اتجاه أوربا إلى السيطرة عليه وكان كتابه « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » محاولة فى إلقاء الضوء على الحقيقة ، وكشف الطريق أمام المصلحين .

ومن عجب أنه أعيد بعد تسع سنوات من الاعتكاف للعمل فى محاولة للانقاذ ، ولكنه — لم يكن للمرة الثانية قادرا على الاصلاح فقد ازدادت العقبات شدة ، ولكنه حاول خلال أربعة أعوم — بعد عزل مصطفى خزنه دار — أن ينجز ما استطاع انجازه ، غير أن أوربا كانت على وشك أن تسيطر على مصر وتونس وتعد العدة لذلك ، فما زالت تعمل ضده بالدسائس حتى دفعته إلى الاستقالة عام ١٨٧٧ ، ومن ثم أحب أن يفتح افقا جديداً ، فاتجه إلى تركيا ، وهنالك حاول السلطان عبد الحميد الانتفاع به فى سبيل دعوته إلى الجامعة الاسلامية فأولاه منصب الصدارة العظمى ، غير أن خير الدين لم يبق فى منصبه غير عام واحد فقد احاطته الدسائس والاحقاد والمؤامرت مرة أخرى وحالت بينه وبين العمل على النحو الذى ارتضاه لنفسه .

حقا ، كانت الموجة الاستعمارية فى هذه المرحلة قد بلغت حدتها فى سبيل تطويق العالم الاسلامى ولذلك كان هؤلاء المصلحون كأنما يسبحون ضد التيار ولكنهم كانوا مع ذلك علامات على طريق المقاومة الطويل المستمر ، ولم يلبث خير الدين طويلا فقد توفى ١٨٨٩ .

***

ملخص حياة خير الدين فى أنه شركسى الأصل قدم صغيرا إلى تونس ، واتصل بالباى أحمد وتعلم بعض اللغات ثم تقلد مناصب عالية آخرها الوزارة وبسعيه أعلن دستور تونس عام ١٨٦٧ ، وفى عام ١٨٧٧ أبعد عن الوزرة إلى الاستانة حيث تولى الصدارة العظمى ١٨٧٨ واستقال ١٨٧٩ ونصب عضوا فى مجلس الأعيان حتى توفى .

رشيد رضا

صاحب المنار

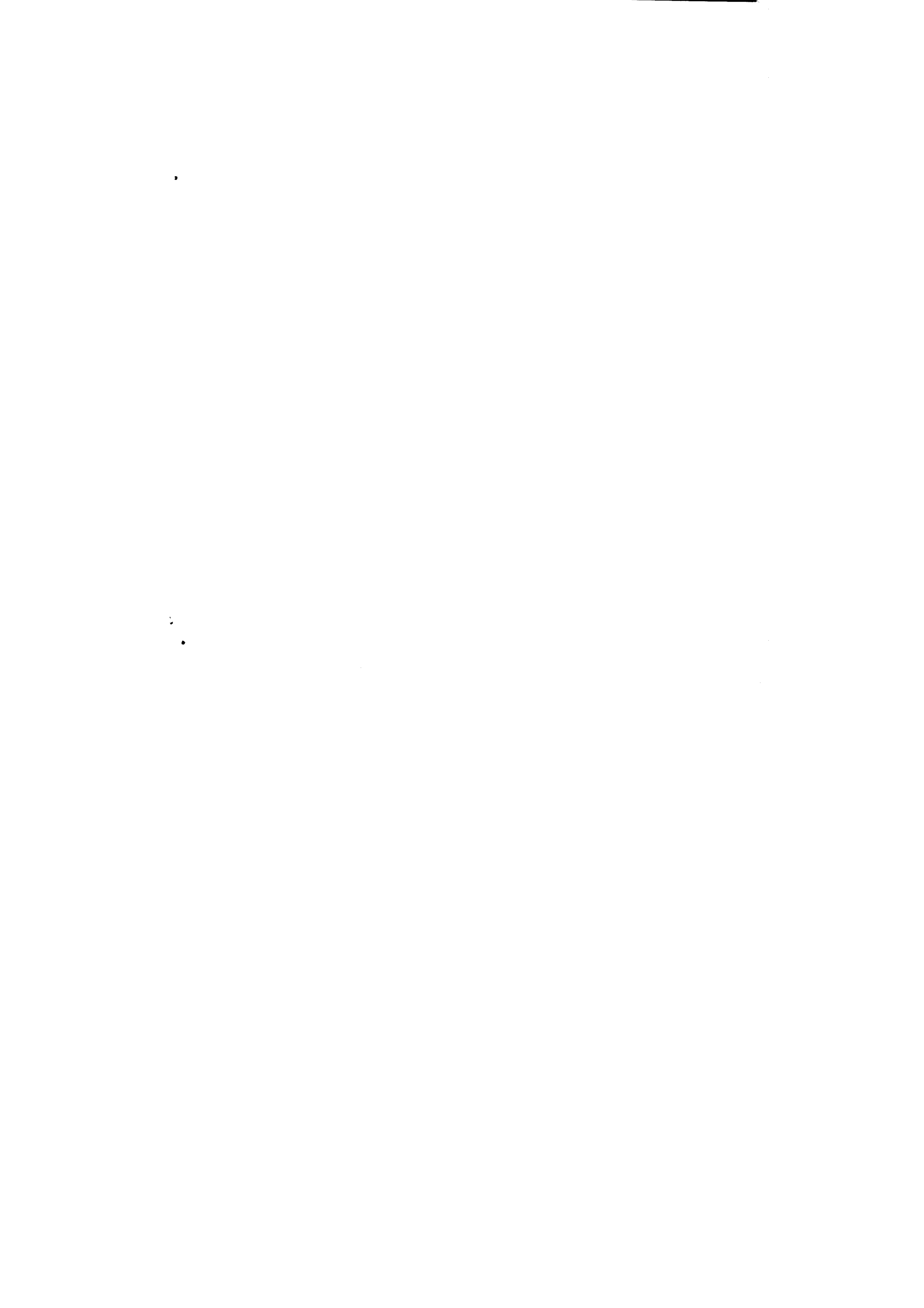
١٨٦٥ — ١٩٣٥

« إن الإسلام ليس روحانيا اخرويا فقط ، بل هو دين روحانى جسمانى ، أخروى دنيوى ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل .

« لقد كان همى محصوراً فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا ، فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملـكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة .

« لم أعد أرى الدين مجرد وعظ وإنما أعرف أن الدين أكسب عقول البشر عقائد وأودع فى نفوسهم خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبقاء الهيئة الاجتماعية »

من كتاب (المنار والأزهر)



يعد السيد رشيد رضا واحداً من كتاب الموسوعات الدورية الأربع التى عرفتها الصحافة العربية فى أوائل هذا القرن : وهم الدكتور يعقوب صروف (المقتطف) جرجى زيدان (الهلال) الاب لويس شيخو اليسوعى (المشرق) السيد رشيد رضا « المنار » وقد قامت هذه الموسوعات الدورية بالجهد الفردى سنوات طويلة وصمدت فى وجه الزمن واستطاعت ان تحقق نجاحاً كبيراً وأن تترك أثراً ضخماً فى مجال الفكر العربى كله .

ومن عجب أن ثلاثاً من هذه الموسوعات صدرت فى مصر وان أصحابها الأربعة كانوا من كتاب الشام وأصحاب الأقلام فيه الذين هاجروا إلى مصر وكان لهم فى تطور الصحافة العربية فى مصر أثر كبير ، وقد تميز السيد رشيد رضا ومناره بالعمل فى الحقل الإسلامى والإصلاح الدينى ومعالجة قضايا العروبة وتحرير الأوطان العربية والإسلامية من النفوذ الاستعمارى . واستطاع أن يرتبط بتيار ضخم له وجوده وتفاعله منذ قدم جمال الدين الأفغانى إلى مصر ١٨٧١ فأقام بها ثمانى سنوات وترك فيها مدرســـــة فكرية تعمل فى مجالين متكاملين : تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب ، وتحرير الأوطان الإسلامية من النفوذ الاستعمارى . وقد ترك جمال الدين فى مصر الشيخ محمد عبده ، امتداداً له ، ثم أتيح لهما بعد انتهاء الثورة العرابية أن يلتقيا فى باريس فيصدرا صحيفة « العروة الوثقى » عام ١٨٨٤ ، ثم يفترقا ثمة أخرى حيث يذهب الأفغانى إلى استانبول ويعود محمد عبده إلى مصر بعد أن يطوف بالشام ، وفى ظلال هذه الأحداث كان رشيد رضا المولود فى القلمون من طرابلس الشام عام ١٨٦٥ يتأهب ليستقبل دوره ليكون ثالث حبات هـــذا العقد ، ولياً للافغانى ، ولساناً للشيخ محمد عبده . ومنشئاً لمدرسة « المنار » التى امتدت بعده ثلاثين عاماً .

والصورة لا تبدو واضحة المعالم إلا إذا تصورنا العالم العربى منضوياً تحت لواء الدولة العثمانية فى مرحلة من أدق مراحل العلاقة بين عنصرى الترك والعرب ، والسلطان عبد الحميد يتولى الأمر فى استانبول منذ منتصف العقد السابع من القرن التاسع عشر ، ومصر والشام تحت سلطان العثمانين إلى أن احتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢ فانسلخت عن الدولة العثمانية حكما وان بقيت تابعة تبعية رمزية لدولة الخلافة والسلطنة .

هنالك كانت الصورة العربية قد بدأت تتضح من خلال السيطرة العثمانية تتمثل فى دعوات طابعها الدين ، ومضمونها الحرية ، وكلها تتطلع إلى التخلص من النفوذ العثمانى ، وقد بدا دور الأمة العربية يكشف من هدفه بوضوح ، بعد أن انتهى دور الدولة العثمانية فى حماية عالم الإسلام واذن بالأفول ، وقد كانت « الأمة العربية » واضحة الأثر فى بناء الإسلام منذ مشرق فجره ، فقد كان العرب هم الطليعة الأولى التى حملت لواء الإسلام ونشرته فى الافاق ، ثم توالت موجات الفرس والترك والبربر تؤدى دورهـا ، على النحو الذى أهلتها له الأحداث والمواقف ثم جاء دور العرب مرة أخرى بعد أن ضعفت الدولة العثمانية واستنفدت دورها ، وكان ذلك هو مفهوم تلك المرحلة ، من خلال التحدى الذى حاول القضاء على العرب واذابتهم فى الدعوة « الطورانية » .

وقد كان مفهوم اليقظة هو أن تتطلع الأمة العربية إلى مجدها ، وأن تنظر إلى الإسلام نظرة مجددة ، متحـــررة ، متخلصة من ركام الأهواء والبدع والقشور التى غطت مفهومة ، وأبعدته عن الإستجابة للحياة والحضارةوالتطور ولذلك فإن الدعوة إلى « التوحيد » التى انبعثت إذ ذاك إنما كانت تهدف إعطاء العقيدة الإسلامية مفهومها الأصيل ، وكانت فى الوقت نفسه دعوة إلى

تحرير النفس العربية من نفوذ أى سلطان أو سيطرة سياسية ، وقد تبلورت هذه المعانى فى كلمات جمال الدين الأفغانى، ومسامراته ومحاوراته المفتوحه ، فى قهوة متاتيا بالقاهرة كل مساء مع صفوة من شباب مصر والعرب .

كما تبلورت هذه الأفكار فى جريدة « العروة الوثقى » « باريس — ١٨٨٤ » هذه الصحيفة التى حاربها النفوذ البريطانى وحال دون دخولها الهند ومصر كما حيل دون دخولهـا الشام ، لذلك توقفت بعد أن أصدرت ثمانية عشر عدداً .

كانت جريدة العروة الوثقى صيحة إسلامية عربية ، سياسية اجتماعية دينية يتمثل فيهـا مفهوم الدعوة الإسلامية على النحو الأصيل : مفهوم الشمول والتكامل فى مختلف مجـالات الفكر والحياة ، وكانت فى تقديرى أشبه بالقانون أو الميثاق، الذى حفظه رشيد رضا عن ظهر قلب بعد أن جمعه ودرسه وراجعه ، حتى ليمكن القول ، بأن « المنار » فى خلال «٣٦ مجلداً » بلغت صفحاتهـا « ٢٧٢٠٠ » صفحة ، صدرت منذ ١٨٩٨ ، إلى ١٩٣٥ ، تكاد تكون هى التفسير والتطبيق لنصوص ميثاق العروة الوثقى .

ومن عجب أن تعطى الدعوات والحركات الإصلاحية رجالا فى مثل قوة إرادة رشيد رضا وسلامة أعصابه واتصال عمره ، وجهده ، بالإضافة إلى براعة أسلوبه وسلامة بيانه وقدرته الخارقة على التحرير والكتابة والمراجعة والتصحيح ، حتى كان ينشىء عدد المنار كله بقلمه وحده وقلما استعان فى خلال هذه السنوات للتحرير معه إلا بقلة قليلة .

فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان منوع الإنتاج فى السياسة والاجتماع والدين ، وانه كان يكتب فى الصحف اليومية « الأهرام ، والمقطم » فى مختلف القضايا الفكرية والعربية التى تثار وأنه والى ذلك كله ، لم يتوقف ، مجيبنا فعلا

لشخصية رشيد رضا » بل لعلنا إذا عرفنا إنه فى السنوات الأخيرة قد ركبته الديون وهددته تهديداً عنيفاً متصلا ، وان ذلك كله لم يصرفه عن طريقه ، ولم يكدر ذهنه ، ولم يمنعه من أن يكتب ويعلق ويستصفى الآراء الناضجة والحلول الدقيقة لما يعرض له ، لعلنا إذا عرفنا هذا عجبنا لهذه النفسية البارعة ، ولعل هذا كله يدفعنا إلى البحث عن العوامل التى كونت شخصيته وأمدته بهذه القوة العصبية والنفسية والسليمة ، خاصة إذا تصورنا أنه رجل مهاجر ، وأنه كان لذلك يلقى كثيراً من المتاعب وانه كان يتحرز فى كثير من المسائل حتى لا يغضب المسئولين الذين يعيش بينهم وإليهم مختلف أمور معاملاته وقضاياه ومصالحه .

التكوين النفسى والاجتماعى :

ولعل أبرز ما يتسم به الشيخ رشيد رضا ويختلف به من كثير من العلماء المصريين هو :

أولا : « النظرة الكلية » والقدرة على الارتفاع فوق تفاصيل الأحداث والأمور اليومية والمسائل العابرة والتطلع إلى أفق أكثر اتساعاً ، وأنه كان يلتمس مثل مكانة جمال الدين، ومحمد عبده ، وكان لهذا الطموح لا يجعل للامور المادية حظا فى نظره ، ولا للمتاعب حسابا فى حياته : يقول

« اننى لم أنشىء المنار ابتغاء ثروة اتأملها ، ولا رتبة من أمير أو سلطان أتجمل بها ولا جاه عند العامة والخاصة أباهى به الأقران وأبارى به أعلياء الشأن، بل لأنه فرض من الفروض يرجى النفع من إقامته ، فلم أكن أبالى بشىء إلا قول الحق والدعوة إلى الخير » .

ويقول أنه حين أصدر « المنار » طبع الفا وخمسمائة نسخة ، أرسل أكثرها فأعيد أكثر ما أرسله فماذا كان موقفه ؟ يقول :

« ما كان انتقاص عملى منتقصا شيئا من أملى ، ولا زهد الأمة فى المنار باعثا على جعله طعاما للنار ، ولا لفائف لبعض التجار ، كما هى سنة أصحاب الصحف فى هذه الديار — بل كنت أحرص عليه حاسبا أن الناس سيعودون إليه » .

ثانيا : أنه درس على نفسه وعلى أساتذة اختارهم ورضى عنهم وفى مقدمتهم علامة عصره ، علامة الشام : الشيخ حسين الجسر ، وعبد الغنى الرافعى ، وهى تجربة كانت بعيدة الأثر فى تكوين « رشيد رضا » حتى أنه كان يختلف اختلافا كبيراً وواضحا من حيث الاتجاه والنوعية عن علماء الأزهر فى ذلك الوقت . فقد علمه الشيخ الجسر « ان طول مدة التلقى والأخذ من المعلمين لعلوم وفنون قليلة كالعربية والشرعية يضعف فى الطالب ملكة الحكم والاستقلال فى العلم ويحصر علمه كله فيما يسمع ويقرأ »

ويقول : ان من أعظم ما استفدته من شيخنا الجسر هو حاجة علماء الدين إلى معرفة علوم العصر وعدم إمكان الدفاع عن عقائد الاسلام وشريعته بدون ذلك .

ومن هنا استطاع رشيد رضا أن يتصور مفهوم « العلم الصحيح » : بأنه ما كان صفة للنفس ، والعلم النافع ما كان باعثاً على العمل الصالح والعمل الصالح هو ما أصلحت به نفس العامل ، وكانت قدوة حسنة لكل من عرفها »

وقد نبتت عنده نتيجة لذلك كله ، القدرة على « نقد النص » ، وتوثيقه ، وتقييمه ، قبل الاعتقاد به وبذلك فهو ينصح طلاب العلم : « انصح كل طالب علم أن يتوخى الاستقلال بفهم ما يتلقاه من مسائل العلم ، ثم الاقتناع بما يفهمه ، وألا يكتفى بفهم أستاذه للعبارة دون فهمه هو ، ولا باقتناع أستاذه بأن ما فهمه هو الحق فى نفسه ، إذ لم يقتنع هو بذلك ، ولن يكون

عالماً بالشيء نفسه إلا إذا كنت مقتنعاً واثقاً به » .

ومن هنا فهو يدعو إلى نبذ « التقليد » والأخذ بالاجتهاد ، يقول : ما أنصح لك به هو الاستقلال فى فهم كل ما تلقيته ، والاقتناع بصحته ، وهذا أدنى مراتب العلم وهو مالا تكون ذا علم صحيح فى أى علم من العلوم أو فن من الفنون بدونه ، فلا تقلد من قالوا أن بعض العلوم قد أحاط به العلماء الأولون علماً ، فليس على من بعدهم إلا أن يقلدهم فى كل مادونوه فيه بغير بحث ولا محاولة تمحيص ولا تحقيق ، وإنما الإحاطة بالعلم من صفات الله، وقد أمر الله رسوله بطلب المزيد من العلم ، وكل ما كتبه البشر وكل ما يكتبون، ما كان ولن يكون إلا ناقصاً ، قابلا للكمال »

وهكذا تبدو مفاهيم « رشيد رضا » فى أوائل هذا القرن غاية فى السلامة والتجدد والحيوية المستمدة من مفهومه للاسلام نفسه . وقد صور أستاذه حسين الجسر بأنه صاحب « أسلوب خاص فى التعليم غير أسلوب الأزهر يتحرى فيه السهولة فى البيان ويتجنب المناقشات اللفظية واسطرادات الحواشى ، فلم يكن يذكر منها إلا ما لا يتم تحرير المسألة العلمية بدونه »

ثالثاً : تفتح نفسه للحياة والحضارة ، فهو قارىء ومستفيد بكل الثقافات الغربية ، متصل بكل أصحاب الآراء والأفكار على نحو من التسامح والتطلع ومعرفة الجوانب المتعددة للحياة ، وهو طامة طموح ، لم يترك فى عصره من أهل العلم قوما دون أن يتصل بهم ، فقد قصد قبل أن يرد القاهرة بيروت وجال بها جولة واسعة ، واتصل بالسيد عبد القادر القبانى محرر الثمرات ، الذى حدثه عن « محمد بيرم » الذى كان يصدر جريدة الأعلام خادمة للانجليز ، وعن « فانديك » ومشروعاته فى لبنان وتعضيد أصحاب المقتطف له ، كما التقى بالأمير شكيب أرسلان الذى حدثه عن علاقات جمال الدين مع أبى الهدى

الصيادى ، وإبراهيم المويلحى وأحداث الأستانة ، وفى مصر قابل عبد الفتاح النديم فى الأسكندرية شقيق عبد الله نديم ، وعبد الرازق القاضى فى المنصورة ، وفريد وجدى فى دمياط ، ثم هو لا يكف عن الرحلة ، فيسافر إلى أوربا ، ويسافر إلى الحجاز ، ويسافر إلى الهند ثم يسافر إلى سوريا مرات ، وهو فى كل رحلاته يقرأ ويكتب ويسجل مشاعره ، ففى الباخرة وهو فى طريقه إلى أوربا يصور الباخرة والبحر :

« كان الهواء عند سفرنا لطيفا لا يشكو منه الجالس على ظهرها ولكنه لا أثر له فى مخادع النوم ، فلم أطق النوم فى سرير مخدعنا لشدة الحر ، فنمت على ظهر الباخرة ، وفى مساء اليوم التالى برد الهواء قليلا ، وطفقت أحشاء البحر تضطرب على ما كان من خفة الهواء وضعف حركته ، ثم اشتدت الريح فى ناشئة الليل وكانت باردة ، وأنشأ البحر يعبث بالسفينة » . .

وهو يذكر فضل تعلم اللغات الأجنبية ويقول : إن الإنسان لا يعرف قدر معرفة اللغات الأجنبية كما يجب إلا إذا سافر إلى بلاد لا يعرف لغات أهلها ، فإن معرفته بذلك فى بلاده بين قومه لا تعدو النظريات الفكرية وشهوة التكمل والتوسع فى العلم ، فإذا سافر وصار بين قوم لا يعرف لغتهم شعر بنقص الجهل بتلك اللغة »

ويتحدث عن القطار وهو يتحرك فى قلب أوربا : « سافرنا من تريستة فى قطار أوربا الكبير ، سار بنا القطار فى حفيف شجير ، من ذلك الجبل النضير ، فكانت شجراؤه عن يميننا فى الجبل ، وعن يسارنا فوق البحر ، وما زال يتسلق بنا ملتويا كالأرقم فى الأجم حتى استوى على تلك السهول الفيحاء والسهوب الشجراء ، فى سهول لومبارديه وبعد أربع ساعات وصل إلى مدينة البندقية (فينسيه) أما أجمل ما صادفه من مناظر فهو « البحيرات »

« أجمل مناظر تلك البـــلاد على الإطلاق ، « البحيرات » فقد مررنا ببعضها عن بعد وبعضها عن كثب ، وإن أنس لا أنسى أصيل ذلك اليوم إذ بلغنا بحيرة « ماجورا » فراعنى ذلك المنظر البهيج الذى لم أر له فيما سبق من عمرى من شبيه ، ولا نظير ، وإنما رأيت نظيره بعد ذلك فى سويسرة ، فأقول أن مثل هذه البحيرة وبحيرة لوسرن من البحيرات التى بين الجبال هى أجمل ما خلقه الله فى الأرض »

رابعا : « مفهومه للاسلام » كان مفهومه للاسلام بسيطا سمحا يصوره فى عبارات دقيقة حيث يقول :

« على المسلمين أن يعلموا أن قيمة الدين ليست فى أسراره الروحية أو قواه الخافية ، ولـكنها تـكمن فى الحقيقة التى يعلمها اللانسانية ، وهى أن سعادة المرء فى هذه الحياة والحياة الأخرى تتوقف على معرفة سنن الله التى تضبط رقى البشر ، أفراداً وجماعات ، ويجب على المسلمين أن يدرسوا هذه السنن ، وأن يسيروا عليها فى يقين وإيمان ، وأن يعلموا أن الله لا يمنع خيرات العالم عن أولئك الذين يطلبونها بالطرق الصحيحة سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين »

وقد طلع نتيجة لقراءاته واتصالاته بأعلام هذا العصر : جمال الدين ، وحسين الجسر ، ومحمد عبده ، برأى هو : أن علة العلل فى حياة المسلمين ان الإسلام قد ابتعد عن بساطته الأولى ، وأن العلاج هو تحرير العقيدة والعودة إلى الوحدة الفـكرية والاجتماعية .

وقد صور رشيد رضا النتائج التى وصل اليها فى مفاهيمه للاسلام بعد أن استوعب « العروة الوثقى » يقول : « أكبر أثرها عندى أنها هى التى وجهت نفسى للسعى فى الإصلاح الإسلامى العام فقد هدتنى العروة الوثقى إلى مناشىء

وعلل الفساد الذى فعل فى العقائد والأخلاق ما فعل والذى دفع المسلمين إلى مزالق الزلل »

وقال ان العروة الوثقى نقلته إلى « طريق جديد فى فهم الإسلام » : وهو أنه ـ أى الإسلام ـ ليس روحانياً أخرويا فقط ، بل هو دين روحانى جسمانى، أخروى دنيوى ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل ، وأحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين ، فقد كان همى قبل ذلك محصورا فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا ، فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة »

كما اكتسب من كتابات جمال الدين الأفغانى مفهوماً واضحا : « لم أعد أرى الدين مجرد وعظ ، وإنما أعرف أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية ، والعقائد هى :

١ — التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات .

٢ — يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم .

٣ — أن الدين يؤكد أن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى .

أما الخصال الثلاث فهى : « الحياء والأمانة والصدق » .

مراحل حياته

من خلال هذا التكوين النفسى والاجتماعى يبرز دور « رشيد رضا » فى العمل كحلقة متصلة بمن سبقوه على طريق اليقظة والإصلاح والتجديد فى مجال الفكر الإسلامى ، وكرائد له طابعه الخاص الذى تفرد به ، ويبدو الأمر أكبر أهمية إذا عرفنا أن جمال الدين توفى ١٨٩٨ ، محمد عبده ١٩٠٥ ، وعبد الرحمن الكواكبى ١٩٠٢ ، أما هو فقد امتد به العمر والعمل إلى عام ١٩٣٥ وقد تغيرت المنطقة اجتماعيا وسياسياً وفكريا ، ووقعت الحرب العالمية الأولى ، وتحولت تركيا العثمانية « دولة الخلافة » إلى تركيا الحديثة ، وتمزقت الأمة العربية التى كانت حلما لدولة تقوم بعد انتصار الحلفاء إلى مجموعة من الأقطار تحت نفوذ فرنسا وانجلترا ، وغلب طابع الدعوات الأقليمية ، واختفت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وبدا الحديث عن الوحدة العربية يتجدد من خلال قضية فلسطين

ويمكن القول بأن « رشيدرضا » عاش ثلاث مراحل فى حياته الفكرية :

« المرحلة الأولى » حتى عام ١٨٩٨ ، حين وصوله إلى القاهرة

« المرحلة الثانية » : خلال حياة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حتى وفاته ١٩٠٥

« المرحلة الثالثة » : من وفاة الإمام إلى وفاته هو عام ١٩٣٥

أما المرحلة الأولى فهى مرحلة التكوين وبناء الشخصية . وتتسم هذه المرحلة للشاب الطرابلسى بمزيد من التطلع والفهم والطموح ، والقدرة على متابعة ما حوله ، ومحاولة فهم الدعوة الجديدة التى كانت فى الواقع امتدادا لدعوة ابن تيمية ، فى تحرير العقيدة الإسلامية من الجمود والتقليد . هى دعوة

« التوحيد » التى انبعثت من قلب الجزيرة العربية ، ثم تبلورت بعد ذلك إلى دعوة إلى تحرير الإسلام من مفهوم الضعف ، وتحرير المسلمين من نفوذ الغرب واعتبار هذا النفوذ الواقع نتيجة لضعف المسلمين وتخلفهم عن مفهوم الإسلام : مفهوم الوحدة والقوة واليقظة .

وقد تبلورت الدعوة إلى اليقظة الإسلامية فى مراحل متداخلة من خلال الدعاة الذين حملوها ، كانت تمثل « التوحيد » وتدعو إلى تنقية العقيدة ، وتحمل طابع المقاومة للنفوذ العثمانى ، ولكنها كانت مباعدة للحضارة والقوة العسكرية ، ثم كانت على يد « جمال الدين الأفغانى » تحمل مفهوم الوحدة الإسلامية كتجمع سياسى لمقاومة النفوذ الأجنبى والاستبداد الداخلى ، وإعادة تشكيل المجتمع الإسلامى ، غير أن فشل الدافــع السياسى السريع الذى كان يتطلع جمال الدين من خلاله إلى تغيير (حكومة ما) وجعلها منطلقا لحركته ، دفع الشيخ « محمد عبده » إلى الأخذ بأسلوب التربية بدلا من أسلوب السياسة ، فقد تبين له — وهذه نقطة الخلاف بينه وبين جمال الدين — أن العمل السياسى السريع لا يحقق الهدف ما لم تظاهره قاعدة فكرية ، هذه القاعدة لا تكون إلا بالتربية وخلق طليعة مثقفة تفهم الإسلام فهما تحرريا تقدميا ، وقد عاش الأستاذ الإمام مؤمنا بالعمل فى ميدان العلم والثقافة بوصفه أبعد أثرا من العمل فى الميدان السياسى .

أما دعوة « عبد الرحمن الكواكبى » فقد كانت تحمل طابع الإيمان بالدور الذى تعد الأحداث « الأمة العربية » من جديد للقيام به على مسرح العالم الإسلامى بعد أن ضعفت الدولة العثمانية ، ومن هنا كانت حملته على الاستبداد العثمانى والدعوة إلى مؤتمر إسلامى يدرس معضلات المجتمع ، بل لقد بلغ فى ذلك غاية أبعد ، حين تخيل أن هذا المؤتمر قد عقد فعلا ، وعرض لأمهات المشاكل والقضايا التى تواجه العالم الإسلامى .

ثم جاء « رشيد رضا » فاستقطب كل هـذه الدعوات والأفكار وبدأ يصوغها من جديد على نحو يتفق مع تـكوينه النفسي والاجتماعي ، فهو في الحق تابع موال لجمال الدين ومحمد عبده ، ولـكن له طابعه الخاص ، هـذا الطابع المتميز الذى لم يبرز على صورته الحقيقية إلا بعد وفاة الشيخ عبده .

لقد جاء رشيد رضا فبلور هذه الجوانب المختلفة لمفهوم الحرية واليقظة والعروبة والإسلام ، ولـكنه مال إلى أن تحرير الفـكر الإسلامى من قيود الجمود والتقليد هو أبرز ما كان يركز عليه .

لقد كان جمال الدين يتسلح بالفلسفة ، وكان الشيخ محمد عبده يتسلح بالمنطق ، أما هو فقد غلب عليه مفهوم « الغزالى » ، مفهوم أهل السنة الذى صاغه الغزالى حين مزج الفقه بالتصوف . ومن هنا كان أثر « الغزالى » فى كتاباته أكثر وضوحاً وكان إلى ذلك مقتفيا أثر « ابن تيمية » فى حملته على مفاهيم التوسل والبدع ، ولـكنه قد وسع آفاق عمله الصحفى والفـكرى فى مجال السياسة والاجتماع والدين والأدب ولم يكن كأستاذيه : جمال الدين ومحمد عبده متطلعاً إلى الزعامة والقيادة ، بل هو أقرب إلى المربين والمصلحين .

ولهذا الاتجاه أسبابه ، فهو إلى تـكوين السوريين المتمصرين أقرب ، وهو ليس من رجال الأزهر مقر الزعامة الإسلامية ولقد دفعه العمل فى مجال دراسات السنة والحديث ، إلى التخلص من مناهج المعتزلة التى كان الشيخ محمد عبده يؤثرها ، وأعطاه تعمقه فى التراث الإسلامى إصالة فى مجال تفسير القرآن الذى سار فيه بعد أستاذه على نهج جديد هو فى ذاته امتداد للامام ولـكنه أكثر صلة بالمضامين الفقهية والتشريعية .

مصر والمنار

(فى المرحلة الثانية) : التقى رشيد رضا بالأستاذ الإمام محمد عبده ضحوة اليوم التالى لوصوله ، وحدد موقفه إلى أبعد مدى مع شيخه الذى أحبه واجتمع

به مرتين فى الشام ، يقول صاحب المنار فى تصوير هذا اللقاء :

« مصر وما أدراك ما مصر ، وصلنا إليها قبيل العصر ، وآتينا توا للأزهر وفى ضحوة يوم الأحد ذهبت لزيارة المصلح العظيم . . قعدنا فى المندرة وأعطيت العبد بطاقة الزيارة ، فأوصلها إليه فى الحريم ، فلم يلبث أن نزل وهى فى يده ، ولم يتركها مدة جلوسنا ، بل جعل يقلبها بيده ويتكلم ، سألنا أولا عن أستاذنا الشيخ حسين الجسر ، ثم أنشأ يتكلم عن حاجة الأزهر والأمة ، فعلمنا أن ما كنا نعتقده فيه ، من أنه موجه كل همه وسعيه للأزهر صحيح ، ومن جملة كلامه أن سعادة هذه الأمة فى الأزهر ، وأن شقاءها فى أهمال الأزهر ، وأنه لا يرى نفسه سعيداً إلا إذا نجحت مساعيه فى إصلاح التعليم فيه : وأنه إذا رأى انتظامه قبل موته يموت قرير العين ، ويرى أنه ملك عظيم ، وحدثنا بأمر الامتحان فى الأزهر حديثاً كله تنديد بشيوخه ، وبتعليمهم بل قال أن الكثير من مدرسى الأزهر لا قابلية فيه الآن ، لأن يكون طالب علم ، ومنهم من يصلح اليوم لأن يطلب العلم من طريقه . . »

وقال له فيما قال : أنه يحتاج إلى مساعد حاذق أمين ، يفحص له عن النصوص فإن جميع أرباب التأليف الكثيرة كالغزالى وغيره كانوا كذلك ، فقلت له :

« ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، وربما يحصل بينى وبينك ارتباط عظيم .

قال رشيد رضا : وذكرت له أن غرضى الأولى هو تلقى الحكمة منه فى أوقات الفراغ ، فسر لذلك وعهد إلى أن أجىء لبيته صباح الجمعة وأنه يأخذنى حيث يذهب ، وقال له : أنه قال للسيد جمال الدين عندما كان فى فرنسا ، دعنا من السياسة ولنختر لنا مكاناً ، ونعلم به ونربى بعض الأولاد فلا تمضى عشر

سنين ألا ويبرع منهم جماعة على رأينا يقلدوننا فى ترك أوطاننا والهجرة فى نشر العلم والدين ، فنرسلهم إلى الجهات وأن السيد الأفغانى أبى عليه ذلك وقال : أنت مثبط ، وقال الشيخ لرشيد رضا : لو أن السيد ترك السياسة والتفت إلى التعليم لا صلح اصلاحاً عظيما » .

هذا هو الدرس الأول الذى تلقاه رشيد رضا ، والمعروف بعد ذلك أن الشيخ المفتى سعى له حتى حصل على ترخيص بإصدار « المنار » فصدر فى مارس (أذار) ١٨٩٨ فى شكل صحيفة أسبوعية ذات ثمانى صفحات كبيرة ، وفى العام التالى صدرت على هيئة مجلة شهرية ، ولم يتوقف المنار فى خلال هذه المرحلة إلى وفاة صاحبه إلا فترات قليلة ، فقد اضطرب نظامه خلال الحرب العالمية وعندما سافر صاحبه إلى سوريا مشتركا فى الحركة العربية سنة ١٩٢٠ .

ولا شك أن إصرار « رشيد رضا » على إصدار « المنار » شهرياً خلال هذه المرحلة الطويلة ، كان علامة من علامات قوة إرادته وإيمانه بفكرته وإصراره الذى لا يبارى ، وقد يرى هذا مع ضعف التوزيع والاعتماد على الاشتراكات ، وقد لقى صاحبه فى ذلك مشقات متصلة ، فقد توقف كثير من المشتركين عن الدفع ، دون أن ينقطع المنار عن الذين سماهم « المماطلين » . ثم عجز دخل المنار عن إصداره ، فكان يكمل موارده من دخل المكتبة والمطبعة « حتى إذا اشتدت العسرة وانحصر عمل المطبعة فيما نطبعه لأنفسنا وعجزت المكتبة عن نفقتها وكثر الدين علينا اضطررت إلى البحث عن مشتركى المنار ، وقد أستنجدتهم فلما أجد منجداً ، بل استغثتهم فلم أجد غوثاً ، حتى رأيتنى مضطراً إلى وقف إصدار المنار ، وقد رجحت هذا الرأى حتى إذا قاربت سنة ١٣٥٣ هـ الانتهاء عظم على الأمر ، وقد ربانى الدين على الثبات واتقاء إبطال عمل أشرع فيه ، فرأيت أخيراً أن أكاشف القراء بحقيقة الأمر فإن أكثرهم لا يعرفه .. »

ومن عجب أن هذه الصيحة كانت آخــــر ما كتبه السيد رشيد رضا قبل وفاته .

وقد بلغ المنار قدرا وافيا من الشهرة والذيوع آفاق المشرق والمغرب ووصل إلى كل مكان فى العالم الإسلامى الملايو، روسيا، جاوه، أندونيسيا، السودان، الهند، المغرب الأقصى، وبلغ الأمر به أن أصبح مدرسة فكرية كونت أجيالا من المثقفين، وكان لها أثرها فى الحركة السلفية التى ظهرت فى المغرب وحملت من بعد لواء دعوة الحرية والكفاح السياسى فى مقاومة الاستعمار الفرنسى، وكان لها أثرها فى حركة الإمام عبد الحميد بن باديس التى كان لها دورها الفعال فى حماية اللغة العربية فى الجزائر، وكان لها أثرها فى قضايا الحرية والوطنية والعروبة فى مواجهة حركات الاستعمار الفرنسى والبريطانى والهولندى فى أفريقيا وآسيا . وما زال مثقفو المغرب العربى فى الأقطار الأربعة يشيدون بالأثر الضخم الذى تركه المنار فى مفاهيمهم للاسلام وثقافتهم العربية .

وقد صور « رشيد رضا » موقفه بين العروة الوثقى والمنار فقال : « أنها ثمانية عشر عدداً هزت القلوب وأيقظت العقول، كان الغرض منها إثارت العالم الإسلامى وجمع كلمته لدفع عبودية الاستعمار الأوروبى، والحدو بدولة إسلامية عزيزة تتولى فى ظل حرمتها ما يجب من الإصلاح الدينى والدنيوى».

أما غرض « المنار » فهو إعداد الأمة لهذا التجديد وأول وسائله : بيان أمراض الأمة وأسبابها ووصف علاجها وقد بلغ أثر المنار مداه حتى « أصبح الذين اقتبسوا من نور « المنار » فى مصر، منارات صغرى فى أندونيسيا وأرخبيل الملايو . . » وحتى قيل : « لولا المنار لضاع أكثر علم الشيخ محمد عبده وحكمته وجهل إصلاحه وتاريخه . وقد أصبح من أثر المنار فى تونس والجزائر أن صار له حزب ومريدون هناك » .

وقال الشيخ محمد عبده عن رشيد رضا : « إنه ترجمان أفكارى » .

وأبرز أعمال المنار فى هذه المرحلة فى تقريرنا هو « تفسير القرآن » على هذا النحو المصرى الذى بدأ به الشيخ محمد عبده عصراً جديداً من الإصلاح الإسلامى ، ويقول رشيد رضا أنه هو الذى أقنع الشيخ المفتى به « أنا الحامل عليه والمدون لأرائه لنشرها مبسوطة فى مصر وسائر العالم » .

وكانت قد جرت مناقشات بينهما عن مطاعن الأفرنج فى الإسلام قال الامام : أن الأفرنج يأخذون مطاعنهم فى الإسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم بحقيقة الإسلام ، إذ أن القرآن نظيف والإسلام نظيف ، وإنما لونه المسلمون بأغراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفاسف الأمور .

قال رشيد رضا : أن الأمر يتطلب وضع تفسير على هذا النحو ، يقتصر فيه على حاجة العصر ، ويترك ما هو موجود فى كتب التفسير .

وقد اقتنع الشيخ عبده ، وبدأ دروسه فى التفسير « غرة المحرم ١٣١٧ » سنة ١٨٨٩ م وانتهى منه عام ١٩٠٥ عند تفسير الآية « ١٢٥ » من سورة النساء قبل وفاة الإمام بأشهر قليلة،وقد اتبع محمد عبده فى تفسيره طريقة التوسع فيا أغفله أو قصر فيه المفسرون ، وحضر رشيد رضا جميع هذه الدروس وكان يسجلها ، ثم يبيض ما يكتب ويعرضه فى تجارب الطبع .

وقد بدأ نشر دروس التفسير عام ١٩٠٠ ثم تابع الشيخ رشيد التفسير ، حتى وصل إلى سورة التوبة . وعنده أنه مع أهمية العلوم الحديثة لفهم القرآن يرى أن إستخدامها بكثرة يشغل القارىء عن القصد الحقيقى للقرآن الكريم ، وخلص إلى القول بأن التفسير الذى وضعه راعى فيه : سهولة التعبير ومراعاة أفهام صنوف القارئين .

وقد عاش المنار حتى وفاة الشيخ محمد عبده ١٩٠٥ ترجمانا لأفكاره ،

كان رشيد رضا خلالها يتابع الاستاذ الإمام فى صداقاته وعداواته ، وينشر كل آثاره ومعاركه التى هاجم فيها هانانو، وفرح أنطون ، بل أنه نشر مقالا للامام فى مسوىء حكم محمد على بإمضاء (مؤرخ) فى أبان الأحتفال بمرور مائة عام على تأسيس محمد على حكمه فى مصر .

* * *

« المرحلة الثالثة » بدأ رشيد رضا فى هذه المرحلة مشاركا فى السياسة العربية والإسلامية ، واضح المفاهيم فى إيمانه باليقظة العربية والدور الذى أخذت الأحداث فى القاء مسئوليته على الأمة العربية كواجهة تحررية للعالم الإسلامى فقد كان مؤمناً بأن العرب هم الذين سيحملون لواء اليقظة فى العالم الإسلامى ، وأن الدور الجديد هو دورهم ، ومن هنا كان موقفه من الحركة الطورانية التى حمل لواءها الاتحاديون بعد عزل السلطان عبد الحميد ، وكانت دعوته إلى الوحدة العربية بحسبانها قوة جديدة تحمل لواء الثقافة الإسلامية وتجعل منها سلاحها للحرية والوحدة والتجميع .

ومن هنا كان دفاعه عن الإسلام واللغة العربية ، ومقاومته لحركة عزل أبناء العرب عن وظائفهم فى تركيا ، ومهاجمة دعوتهم إلى أضعاف اللغة العربية واحلال اللغة التركية بديلا منها ، وأعلن أن اللغة العربية هى لغة القرآن وهى أصل الإسلام دين الدولة ، فلما بدأت الحركة بقيادة الشريف حسين أراد الانجليز فى مصر الأستفادة منه ، فلم يصلوا معه إلى رأى ، فقد كان رأيه أن يعلن الانجليز صراحة ما كانوا يذيعونه سراً دون أن يتقيدوا به من قيام دولة عربية بعد إنتصار الحلفاء ، ولذلك كان يطالبهم بموقف صريح .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أنه ذهب إلى الشريف حسين فى مكة وكشف له عن مخاوفه ، حتى يتقيها ويأخذ الأهبة لها ، وطالبه أن يجعل ثورته سبيلا لوحدة

العرب ، فى مواجهة العدو الحقيقى وهو الإستعمار ، وتحذير العرب من الاعتماد على انجلترا ، غير أنه لم يصل معه إلى رأى ، و ظل طوال فترة الحروب مراقباً موضوعاً تحت الحراسة ، فقد خشى الانجليز نفيه ، حتى لا يتصل بخصومهم .

وقد تكشف بعد الحرب العالمية الأولى بعد نظره ، وخدعة بريطانيا للعرب حين وضعت الاجـــزاء العربية كلها تحت سلطان الاحتلال البريطانى والفرنسى .

ولم يتوقف رشيد رضا عند هذا الحد من العمل السياسى ، بل سار فى طريقة الذى اختطه العمل الثقافى الإسلامى ، معمقاً له ، وشارك فى مختلف المعارك والمجالات التى اتصلت بالفكر الإسلامى وبالإجتماع والدين ، وتعددت أثاره التى كشفت عن عقلية إسلامية متحررة ، ولم يكن رشيد رضا أحد مجددى الإسلام فحسب ولكنه كان إلى ذلك كاتباً أديباً وشاعراً بارعاً ومن أبرز أثاره «المقصورة الرشيدية» التى عارض بها مقصورة بن دريد، وقد أودعها معانى كثيرة فى فلسفة العصر وفنون الأدب والاجتماع ، لا سيما الإصلاح الاجتماعى الذى وقف عليه حياته، وقد ذكر فى بعض المراجع إنها بلغت ٥٠٠ بيت ، غير الدكتور أحمد الشرباصى وهو يعد اطروحته عن رشيد رضا قد عثر على قدر كبير من شعر هذه المقصورة مما أبلغها أكثر من ألف وثلاثمائة بيت .

يقول رشيد رضا : « أذكر من صفة ذوقى للشعر أننى كنت أكره منه التكلف والمجون ، وقد مالت نفسى إلى ادخال المعانى العصرية فى الشعر »

وأهم القصائده فى نظره: «القصيدة الجمالية» التى خاطب بها الافغانى فى العام الذى بلغ فيه الاستانة .

وجملة القول أن « رشيد رضا » من أبرز الشخصيات الموسوعية التى عملت فى حقل الإسلام والفكر العربى فى النصف الأول من القرن العشرين ، وستظل

آثاره المطبوعة وموسوعته « المنار » بعيدة الأثر فى بناء التجديد الإسلامى فى العصر الجديد .

* * *

تتلخص حياة رشيد رضا فى أنه ولد فى قرية القلمون من أعمال طرابلس الشام عام ١٨٦٥ ونشأ بها وتعلم فيها وفى طرابلس نظم الشعر فى صباه وكتب فى بعض الصحف ورحل إلى مصر فاتصل بالشيخ الإمام محمد عبده وأصـــدر « المنار » وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد فى مصر وانتخب رئيساً للمؤتمر السورى فى دمشق ثم غادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها وأقام بمصر ورحل إلى الهند والحجاز وأوربا .

ومن آثاره المنـار (٣٤ مجلدا) وتفسير القرآن (١٢ مجلدا) وتاريخ الإمام الشيخ محمد عبده ومؤلفات أخرى .



رشيد الـكيلانى

قائد الثورة العراقية

١٩٠٠ — ١٩٦٥

عاش رشيد عالى الـكيلانى فى محيط الوحدة العربية منذ فجرها حيث شهد مطالع اليقظة وهو شــــاب . وعاصر خليل باشا فى العراق الذى كان شبيه جمال باشا فى سوريا فى مقاومة العرب ومحاولة القضاء على كيانهم . وارتبط بالثورة العراقية ١٩٢٠ فهو وليدها وربيبها ،ثم هو من بعد الرجل الذى وقف فى وجه مؤامرات بريطانيا فى الوزارة والبرلمان والقصر حتى قاد ثورة العراق ١٩٤١ التى هزمتها الدسائس والمؤامرات ـــ هنالك أبعد عن بلاده سبعة عشر عاما وصدر الحـكم بإعدامه ومصادرة أملاكه وثروته وكانت بريطانيا تسعى للقبض عليه لمحاكمته كمجرم حرب ولـكنه استطاع أن ينجو فلما عاد بعد ثورة العراق (تموز١٩٤٨) وجد دسائس الاستعمار البريطانى ماتزال تترصد له وتنتظره لتلقى به فى غياهب السجن .

حصل على شهادة الحقوق ولم يتجاوز التاسعة عشرة فـكان أصغر محام فى العراق كله . لم يستمر فى المحاماه أكثر من عامين وذلك عندما وقع الاختيار عليه ليعمل أستاذاً ـــ للتشريع الجنائى فى كلية الحقوق فـكان أصغر أستاذ فى الجامعة . هنالك عكف على تأليف ثلاثة مجلدات فى التشريع الجنائى .ثم رشح عضوا فى محـكمة التمييز « النقض والابرام »

ثم أصبح وزيراً لأول مرة : اشترك فى وزارة أستاذه ياسين باشا الهاشمى وزيراً للعدلية فى سن الثامنة والعشرين وعمل معه ثمانية شهور قام خلالها بتنفيذ عدة مشروعات من أهمها تنظيم المحاكم على أسس عصرية وأنشأ نقابة المحامين . ولـكن سرعان ما اختلف مع أستاذه ياسين باشا لأنه وافق عل منح الإنجليز

امتيازات استخراج البترول من لواء كركوك . وكان من رأيه أن شروط الإنجليز مجحفة بحقوق العراق ولما لم يجد أحداً يوافق على رأيه فى مجلس الوزراء قدم استقالته . وقالوا له : ما كان يجب أن تبدأ حياتك السياسية بمثل هذه المعركة وتعلن عداءك للانجليز .

ثم انتخب نائباً عن بغـداد . واشترك فى وزارة عبد المحسن السعدون فرئيساً للمجلس النيابى وهو فى التاسعة والعشرين .

وأثار ذلك سخط الإنجليز الذين وضعوه فى القائمة السوداء لأنه كان يعمل على تحرير بلاده من الاستعمار . وتدخل السفير البريطانى طالباً اختيار رئيس آخر للمجلس ورفض النواب . وظل رئيساً للمجلس ثلاث دورات .

واشترك مرة أخرى فى وزارة جعفر باشا العسكرى الذى حاول عقد معاهدة مع الإنجليز فكان أن أسرع الـكيلانى بالإستقالة بعد أن قال لرئيس الوزراء أنها معاهدة لا تحقق آمال البلاد . وأن بعض نصوصها يجعل الانتداب البريطانى إلى احتلال بمعنى الكلمة . ولما قرر نورى السعيد عقد معاهدة ١٩٣٠ قرر الـكيلانى أن يقاومه مع زملائه رضـا الشبيبى وحكمت سليمان وكامل الجادرجى حيث اتصلوا بأحرار البلاد وبزعماء القبائل وبعض رؤساء الوزارات السابقين — وقال رشيد الـكيلانى : إن المعاهدة قد أباحت لبريطانيا استخدام العراق واستغلاله ،فلما وقع نورى السعيد المعاهدة قدم مع إخوانه إستقالاتهم من المجلس النيابى .

فلما ولى رئاسة الوزارة كان أول عمل قام به هو المطالبة بتعديل المعاهدة بما يحقق آمال البلاد الوطنية . وقد أثار ذلك الإنجليز أيما إثارة وحدثت أزمة واتصل السفير البريطانى بالملك فيصل وقال له : أن المـــداد الذى كتبت به المعاهدة لم يجف بعد،فـكيف يمكن أن نبحث عن معاهدة جديدة .

فلما طلب فيصل إلى رشيد الكيلانى رفع هذه الفقرة من برنامج وزارته ثار الكيلانى وقال : إن الكرسى الوزارى لن يغير مبادئى . واننى إذا كنت راغباً فى أن أنبذ وراء ظهرى ما تعهدت به للشعب لما بقيت فى هذا الكرسى دقيقة واحدة حتى أحفظ لنفسى كرامتى وثقة الشعب بى .

وجمع مجلس الوزراء وعرض عليه الأمر وقال له الوزراء : نحن معك وقال له أستاذه ورئيسه الأول ياسين الهاشمى : هذا الإخلاص هو الذى جعلنى أعمل تحت رياستك .

وحمل رشيد الكيلانى كتاب استقالته وذهب إلى الملك .

وقال فيصل : أن الذى يجب أن يستقيل هو « أنا » أما أنت فيجب أن تبقى ، هذه الوزارة هى خلاصة تجاربى اثنى عشر عاماً ، ويجب أن تعمل من أجل خدمة هذه الأمة .

وعند ما اختاره الملك غازى رئيساً لديوانه . كان أهم ما يهدف اليه تحطيم مؤامرات نورى السعيد .

يقول الكيلانى : « وقفت بينما كنت رئيساً للديوان فى وجهه عند ما قرر أن تعلن العراق الحرب على المانيا فى نفس الأسبوع الذى نشبت فيه الحرب العالمية الثانية . لم يكن يلقى بالا إلى ألوف الشباب العراقى الذين أراد أن يلقى بهم فى أتون . ولم يكن يلقى بالا إلى الدمار الذى كان ممكناً أن يحل بالبلاد بسبب هذه الحروب . إن المعاهدة البريطانية لا تلزمنا بإعلان الحرب فى جانب بريطانيا » .

وقد كان رشيد الكيلانى أول من كشف الستار — فى مذكراته — عن أن فيصلا قتل بحقنة تحت الجلد بعد أن دعته بريطانيا أول دعوة رسمية لزيارة

لندن ذلك أن الملك فيصل فى أيامه الأخيرة كان قد نفض يده من ألاعيب بريطانيا بعد أن ضاق بها سنوات طويلة .

وأراد الإنجليز أن يدبروا فتنة مسلحة فى العراق أثناء غياب فيصل فى لندن واستطاع رشيد أن يحسم الموقف .

وقال رشيد : إن الملك فيصل يعرف أن الإنجليز هم الذين رشحوه ليكون ملكا على العراق . وكان يعرف مكانه بالضبط أنه غريب عن البلاد وحاول الإنجليز أن يدخلوا فى روع الشعب أن الملك فيصل يعمل دائماً وفقاً لمصالحهم الاستعمارية وكان هدفهم أن يوجدوا هوة بينه وبين الشعب . وأن يجبروه على أن يعتمد على قوة الاستعمار حماية لنفسه وحماية لعرشه . ولكن فيصل — على حد تعبير رشيد الكيلانى فى مذكراته السياسية — ضرب بكل هذه الاعتبارات عرض الحائط واتجه إلى الشعب وتخلى عن الإنجليز . وكان ذلك فى السنوات الأخيرة من حياته وقد أثار موقفه سخط الإنجليز وقالوا : لقد فقدناه إلى الأبد .

ويقول رشيد الكيلانى أنه عندما ولى غازى الملك بعد مقتل والده : قال للانجلـــيز انه لن يساعدهم فى الحرب إلا إذا عدلت المعاهدة . واعترفت بريطانيا باستقلال مصر وسوريا ولبنان طالب بإلغاء وعد بلفور وأدركت ساعتها أن الملك سيدفع حياته ثمناً لهذه المطالب . فقد قرروا التخلص منه بأى ثمن إذ كان عقبة فى سبيل مشروعات بريطانيا الاستعمارية . وقد كان رشيد الكيلانى من أوائل رؤساء الوزراء العرب الذين أعلنوا سياسة الحياد بين المعسكرين فى بلاده ومنع دعايات الحلفاء فى العراق واتصل بهتلر ورفض قطع العلاقات بين العراق وبين ألمانيا وإيطاليا . كما حاول أن يحرر سوريا بالتفاهم مع ألمانيا وكان لهذه الاتصالات أثرها فى أن اتجه هتلر نحو العرب وبدأ يؤيد الأمانى العربية .

وقد كان رشيد الكيلانى هو الرجل الوحيد فى العراق الذى استطاع أن يجمع حوله الشعب والجيش والقبائل . وقد حاول الإنجليز إبعاده ولكنه أصر عن أن يبقى رغم إرادتهم . ورفض إعلان الحرب على ألمانيا واستطاع أن يقنع البرلمان بذلك حتى صدر قرار بأن المعاهدة ليس فيها أى نص أو إشارة تلزم العراق بإعلان الحرب إلى جانب بريطانيا .

وطالب الإنجليز بتسليح الجيش . وماطل الإنجليز وأبرق سراً إلى اليابان وأبدت اليابان استعدادها لكى تقدم كل معونة إلى العراق ورفضت بريطانيا شراء القطن وباعه إلى اليابان .

وازدادت محاولات إحراجه ، ووقف الشعب وراءه بقوة وعزم وأراد رشيد أن يؤكد موقفه فطلب إستفتاء الأمة مرة أخرى وحل البرلمان . ولكن الوصى رفض توقيع المرسوم .

ثم هرب الوصى :

وأذاع رشيد استقالته بالراديو حتى يطمئن الوطن . وقد أصاب البلاد هياج شديد واختير طه الهاشمى لتولى الوزارة وكانت فى الجيش تلك الآونة حركة تحـــررية قوية تهدف إلى تقويته والعمل على حماية البلاد من عناصر الاستعمار التى حاولت الإيقاع بالبلاد فى أتون الحرب . وكانت حركة الجيش قد بدأت بثورة بكر صدقى ١٩٣٧ ـ وظلت تزداد قوة — فلما ولى طه الهاشمى تعهد للوصى بنقل زعماء حركة الجيش وتوزيعهم على القطاعات من أنحاء البلاد .

وكانوا أربع: ضباط . صلاح الدين الصباغ . وفهمى سعيد ومحمود سلمان وكامل الشبيب .

وبقى طه الهاشمى تسع وخمسون يوماً ثم كانت الثورة .

ورفض الضباط الأوامر الصادرة بالنقل . ونشبت الاضطرابات فى كل مكان واشتدت ثورة القبائل .

وفهم طه الهاشمى أن الضباط لن يتعاونوا معه فقدم استقالته لهم . وذهب الضباط إلى رشيد فى بيته ، فأيقظوه بعد منتصف الليل ومعهم استقالته لأنهم لا يعرفون الجهة التى يرفعونها إليه ورفعت الاستقالة إلى متصرف بغداد الذى لم يجد الوصى بعد أن حملته الطائرة الحربية البريطانية إلى مدمرة بريطانية كانت تقف أمام البصرة .

ولم يلبث نورى السعيد أن هرب إلى القاعدة البريطانية فى مطار الحبانية وأعلن الجيش تشكيل حكومة وطنية برئاسة رشيد عالى الكيلانى أطلق عليها حكومة الدفاع الوطنى وقرر البرلمان عزل الوصى وانتخب الشريف شرف وصياً جديداً على العرش .

وانتقل السفير البريطانى إلى بيت رشيد عالى يعرض عليه عرش العراق ورفض رشيد بدوره .

وأقسم الضباط لرشيد اليمين ألا يتدخلوا فى شئونه ويتركوه يسير الأمور وفق المصلحة العامة . وقال لهم : ابقوا فى حالة إنذار ، واستعداد فى ثكناتكم . وسأطلب منكم المعونة متى أحتاج اليها .

وأذاع الجيش بيانه التاريخى المعروف . وأعلن تولية مسئولية البلاد باسم الشعب وتشكيل حكومة تحت رئاسة الكيلانى .

وتعهد الجيش ورشيد بالعمل على سياسة الحياد بين المعسكرين المتحاربين ولما كان الشعب يثق فى رشيد ،فقد استقبل البيان بحماسة منقطعة النظير وأذاع فى الراديو ميثاقاً بينه وبين الشعب وكان هو رئيس الحكومة ووزير كل الوزارات . وقال للشعب أن هدفه : تحرير البلاد من الاستعمار والسير على

سياسة وطنية قومية والحياد بين المعسكرين . وتعزيز الجيش ورفع مستوى الشعب ورفاهيته .

وأرسل الإنجليز سفيراً جديداً إلى بغداد هو « لور نواليس » وبدأت المؤامرات وحاولت بريطانيا الاتصال بزعماء العشائر لتحريضهم على الثورة ورفض زعماء القبائل التعاون معهم . وأرسلوا إلى حجة الإسلام الشيخ حسين كاشف الغطاء ٢٠ الفا من الجنيهات من الذهب الخالص فرفضها .

وحاولوا إثارة القبائل فى شمال العراق . ووزعوا مئات الألوف من الجنيهات الذهب ولكن أحداً لم يقبل .

ودخلت العراق فى عهد جديد .

ولما طلب رشيد الكيلانى من بريطانيا مساعدات عسكرية أرسلوا اليه صناديق تحتوى على الأسلحة والمهمات العسكرية . ولما فتحت وجد بداخلها نصف مليون حذاء عسكرى . وقال السفير البريطانى لرشيد الكيلانى أن بريطانيا تسلم بكل ما يريد بشرط التصريح بإنشاء عدة مطارات عسكرية بين البصرة والموصل . وطرد جميع اللاجئين العرب من العراق وإبعاد الموظفين السوريين واللبنانيين والمصريين وألا يسمح للصحف والأحزاب بإثارة الدعايات وأن تحرص العراق على عدم الاندفاع وراء العصابات الوطنية فى البلاد العربية أو مهاجمة الحلفاء .

ورفض رشيد بأباء ، رفض جميع الطلبات .

ولم تلبث أبواق الدعاية البريطانية أن أخذت تردد أن حركة العراق نازية واتهم رشيد بالاتفاق مع المانيا . وكانت محطات الإذاعة العربية تحت سيطرة بريطانيا وكان هجومها على العراق تمهيداً للاعتداء المسلح على العراق .

وفجأة أخذت طائراتهم تضرب بغداد ونزلت قواتهم فى ميناء البصرة فاحتلتها وبدأت الحرب التى استمرت أكثر من شهرين . ولما جاءت الطائرات البريطانية تهدد بضرب بغداد أرسل رشيد الكيلانى إلى السفير إنذاراً وهو محجوز وأهله فى السفارة قال فيه أنه لن يتردد فى نسف السفارة البريطانية إذا ألقيت قنبلة واحدة على العاصمة .

ولم يلبث أن أعلن إلغاء المعاهدة العراقية البريطانية فى ٢ مايو ١٩٤١ وهو نفس اليوم الذى هاجمت القوات البريطانية العراق ، وكانت أسلحة الجيش قليلة ، لم يكن يمتلك دبابة واحدة ولا مدافع لمقاومة الطائرات .

يقول رشيد الكيلانى : كانت معركة شرف . كان علينا أن ندافع عنها إلى آخر طلقة . وعلينا ألا نسلم أبداً أو نموت أحراراً » .

وكان تشرشل رئيس وزراء بريطانيا يشرف بنفسه على تدبيرات الاعتداء المسلح ضد العراق وكان الغرض من إنزال القوات البريطانية هو تأسيس قاعدة حشد فى ميناء البصرة لتعمل من بعد على احتلال المدنية . وقد استعان تشرشل بقوات حملتها ثلاث بواخر من الهند وقد نزلت فى ميناء البصرة واحتلت المدينة وطردت الموظفين المدنيين .

ولم يكن أمامه إلا أن يضع خطة القتال :

ووقفت القوات العراقية فى مواجهة البصرة . كان عليها أن تمنع القوات البريطانية من التقدم وقامت القيادة البريطانية بإنشاء كوبرى جوى بين البصرة والقاعدة الجوية فى منطقة الحبانية .

وأخذت الطائرات تنقل الجنود إلى الحبانيه ، وأدرك رشيد وإخوانه خطة الإنجليز . لقد أرادوا أن يحولوا القوات البريطانية فى الحبانية إلى قوة ضاربة وبعدها يبدأون الهجوم على العراق من منطقتين فى وقت واحد .

ومن البصرة كانت الأساطيل البريطانية قد نقلت إليها قوات كبيرة بدباباتها وأسلحتها الثقيلة .

واتخذت القوات العراقية مراكزها قرب القاعدة البريطانية فى الحبانية وأطلقت القوات البريطانية نيرانها على قواتنا التى تعسكر فى ناحية الحبانية وبدأت الحرب .

وهبت القبائل كلها مع رشيد الكيلانى لنصرة بلاده .

وأعلن رشيد الكيلانى الجهاد المقدس ضد الإنجليز ووقفت القبائل وراء الجيش . وفى منطقة البصرة كانت قبائلها عوناً للجيش لأن يصمد أمام الإنجليز فبقيت محصورة لم يستطع التقدم شهراً كاملا وتكتلت الأمة كلها وراء الجيش .

وسحب رشيد جميع الخبراء والمهندسين من منطقة كركوك واحتلها الجيش العراقى وحول السفارة فى بغداد إلى معتقل للسفير ورجال سفارته وعائلات الإنجليز . وأفاده هذا المعتقل فى تهديد الإنجليز حتى تتوقف طائراتهم عن ضرب المدن والأهالى الآمنين بالقنابل .

واستولت الطائرات البريطانية على سماء العراق ، ووجه الإنجليز إنذاراً يطالبون فيه بأن يسلم رشيد الكيلانى نفسه وجميع زعماء الجيش أنفسهم فى خلال ٢٤ ساعة .

ووجه رشيد إنذاراً إلى السفير بأنه إذا ضربت الطائرات البريطانية المدن الآمنة بالقنابل فإنه سينسف دار السفارة البريطانية بمن فيها .

وحارب الجيش العراقى شهراً كاملا بالأجساد والبنادق القديمة . وكان من أهم أسباب هزيمة الجيش ، دخول « جلوب » بقواته من الحدود الأردنية فى اللحظة الأخيرة ، وطعن الجيش العراقى من الخلف وفتح ثغرة فى إحدى جبهاته .

ويقول رشيد الكيلانى أن هذا هو السبب الوحيد فى هزيمتنا فى المعركة . وقد سجل الإنجليز أنه لولا تدخل جلوب فى معركة العراق لتحول الموقف كله فى الحرب العالمية وأخذ صورة أخرى .

واتجه رشيد الكيلانى نحو دول المحور . وارسلت إليه ألمانيا طائرات حربية ولكن لم يكن فى العراق بنزين للطائرات . واتجه إلى الاتحاد السوفيتى وأخذ الجيش العراقى يتأهب لتلقى الأسلحة الروسية ولكن الوقت لم يسعفه بسبب تدخل جلوب فى المعركة واستطاع الحصول على ٢٠ طائرة من إيطاليا .

وقرر رشيد الكيلانى على أثر إعلان بريطانيا الحرب أن «الدينار العراقى» مستقل عن كتلة الجنيه الاسترلينى وأعد عملة عراقية جديدة للتداول ولم يكن لديه ذهب يكفى لتغطية إصدار هذه العملة . فأبرق إلى هتلر يعرض عليه أن يعطيه الذهب الذى يريده العراق مقابل حصول ألمانيا على فائض المنتجات العراقية . ووافق هتلر وأرسل إليه فلا ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية الخالصة فى طائرة ألمانية . وقبل أن يعود الوزير الألمانى إلى بلاده منسحباً حمل رشيد الكيلانى الذهب ووضعه فى طائرته .

ولم يغادر رشيد الكيلانى بغداد إلا بعد أن وصلت القوات البريطانية إلى مشارف المدينة وبينما كان يستقل سيارته ليعبر الحدود الإيرانية وكانت مصفحات الانجليز تدهم المدينة وتفرق اشلاء القتلى . وذبح الشعب أربعمائة يهودى فى أقل من ساعة .

ويقول رشيد الكيلانى فى مذكراته التى اعتمدنا عليها فى إعداد هذا الفصل « إننى لم أتحول تحويلا فجائياً ضد الانجليز . اقرأ ما كتبه عنى ألد أعدائى ، لقد أموت وفى دمى يقين — بامتياز العربى وبحقه فى الحرية والتقدم للوقوف فى مصاف الدول الكبرى . وقد كنت أول وزير يرفض التوقيع على إتفاقية

البترول الإنجليزية العراقية . واستقلت من الوزارة احتجاجاً على موافقة الوزراء عليها . وكنت من بين الذين استقالوا من البرلمان احتجاجا على المعاهدة وكنت الوزير الذى ألغى عقـــود رجال الجاسوسية الانجليزية فى وزارة الداخلية إننى وليد ثورة ١٩٢٠ — وربيبها . وابن كل مقـــاومة هبت فى وجه هذا العدو البغيض .

وعندما هاجر الـكيلانى إلى إيطاليا وألمانيا لم يتوقف عن العمل فى سبيل الوحدة العربية . لقد طلب من الدولتين تأكيد حق العرب فى الحرية . وعارض موسلينى عندما فكر فى أن تـكون بلاد العرب منطقة نفوذ لدولته بعد الحرب ، وعندما طلب منه الدوتشى أن يوجه نداءا إلى الشباب العربى الموجود فى إيطاليا وألمانيا لتجنيده فى فرقة اللجيون العربى رفض ، وعندما طلب منه أن يذيع بياناً على العرب المغاربة يناشدهم فيه الـكفاح ضد جيوش الحلفـــاء ومؤازرة الجيوش الإيطالية رفض الـكيلانى وطلب مقابل ذلك أن ينشر أولا تصريح من الحـكومتين الألمانية والإيطالية يخاطب العرب المغاربة بتأكيد استقلال هذه الدول وأن الجيوش هذه الدول ستنسحب على الفور بمجرد تمام هزيمة الحلفاء وإنهاء الحرب .

وقد عاشت ثورة رشيد الـكيلانى فى نفوس العراقيين حية قوية تثير النفوس وتدفع إلى العمل ، وقد توالت بعدها انتفاضات العراق ضد معاهدة بورت سموث و (صالح جبر — بيفن) كما ثار على نورى السعيد وقد ارتبطت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بثورة رشيد الـكيلانى وأعلنت أنهـــا ثمرتها وثأرها وختامها .



رفيق العظـــم

١٨٨٢ — ١٩٢٥

استفيدوا من خير ما في المدنية الغربية وهو العلم ، اهدموا كل حاجز يقوم فى سبيل نشر العلم فى بلادكم مهما كان ، عضدوا نوابغكم ، عظموا قدر علمائكم ، توفروا على التأليف والعمل بجد فى سبيل الرقى ، أنبذوا الأوهام ولا تستسلموا لليأس ، العلم به يحارب الاستبداد ، وبه يعرف كل فرد قيمة الحياة ومعنى إرادة النفس ، وحرية الوجدان ، فتعلموا ثم قاتلوا بسلاح العلم .

« رفيق العظم »

* * *

فى أبان مرحلة اليقظة كان سؤال المفكرين الأول ينصب أساساً على العوامل التى انحدرت بالمسلمين وأفقدتهم مكانتهم وأعطى النفوذ الأجنبى القدرة فى السيطرة عليهم ، حول هذا التحدى الخطير الذى واجه العالم الإسلامى والأمة العربية دارت دراسات كثيرين من الأعلام المفكرين فى مقدمتهم : فريد وجدى وشكيب أرسلان ورفيق العظم ، كان ذلك فى أوائل هذا القرن ، وكان الشيخ محمد عبده قد فتح الباب لهؤلاء جميعاً حين قعد قواعد البحث المنهجى وحين أقام حلقاته فى الرواق العباسى بالأزهر لتفسير القرآن وفى مجلة المنار ، وحين عقد جلسات ومحاضرات القراءة (مقدمة ابن خلدون)

ولذلك فإن طابع هذه المقدمة التى كتبت فى ظل تحدى خطير من تحديات الفكر الإسلامى ، هذا الطابع يبدو واضحاً من وراء كتابات هؤلاء ، وخاصة

العلامة رفيق العظم الذى عرفه الباحثون بكتابه (أشهر مشاهير الإسلام) الذى أصدره عام ١٩٠٥ وواصل إصدار أجزائه سنوات وأعيد طبعها مرات وكانت فاتحة منهج التراجم الإسلامية للشخصيات البارزة والبطولات .

غير أن رفيق العظم لم يكن مؤرخاً أو مترجماً لحسب ، ولكنه كان مصلحاً إسلامياً متكامل النظرة ، محيطاً بالقضايا الفكرية والتحديات التى يواجهها الإسلام والعرب والفكر الإسلامى العربى إحاطة شاملة . وتتجلى ذلك فى إلقاء نظرة على مؤلفاته التى اكتملت والتى لم تكتمل:

« مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام »
« البيان فى التمدن وأسباب العمران »
« الجامعة الإسلامية وأوربا »
« الجامعة العثمانية والعصبة التركية »
« تاريخ السياسة الإسلامية »
« السوانح الفكرية فى المباحث العلمية »
« الدروس الحكيمة للناشئة الإسلامية »

فمن خلال هذه الأبحاث المتواترة التى عاش لها فكريا وروحياً ـ خلال ربع قرن كامل حتى وفاته عام ١٩٢٥ ـ تلقى الضوء على إيمان هذا المصلح الإسلامى بالكلمة ، وقد سار مسار الشهرة إذا ارتبط اسم رفيق العظم ـ بالعمل العربى الذى كان يجرى فى القاهرة قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها حول الدولة العثمانية ومن رابطة الدين ورابطة الأمة ، وموقف العرب من الأتراك ، والخلافة وثمرة من القضايا وكان رفيق العظم بحسبانه من الشام له موقف يتجمع عليه ويختلف عديد من العاملين فى مجال السياسة والثقافة أمثال رشيد رضا ، وعبد القادر المغربى ، وكرد على ، وغيرهم ، غير أن هـذا الجانب لم يكن أهم

جوانبه ، وإنما كان ذلك الجانب الهام هو الفكر وهو الذى بقى اليوم يهدى الباحثين بعد أن مضت قضايا السياسة وغيرها .

* * *

والحق أن أبحاث رفيق العظم تكشف عن شخصية مصلح إسلامى بعيد النظر واضح الفكرة سليم التقدير محيط إحاطة كاملة بتحديات الفكر الإسلامى الإسلامى وقضاياه ، عميق الفهم لها . قادر على استخلاص النتائج التى وصل إليها كثيرون بعده بسنوات طويلة . فقد جاءت دراساته لأسباب تأخر المسلمين سابقة لكتاب شكيب ارسلان (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم) بأكثر من ربع قرن فهو يرى أن المسلمين قد سقطوا بين عدوين ، عدو فى الداخل وعدو فى الخارج : أما عدو الداخل فيتمثل فى البدع التى تخرج الدين عن مفهومه بالإضافة إلى حب الأثرة التى تقتل نشاط النفوس بقوة القهر الجائر ، والتى تذهب بهم مذاهب الضلال لسوء التربية على مبادىء الجهل المطبق ، أما عدو الخارج فهو يتربص بهم الدوائر ويستزيد من ضعفهم قوة .

ويرى من أدواء المسلمين انصياعهم للشهوات وذلهم لحكم القهرة والاستعباد ، فضلا عن المنافقين والزنادقة الذين لهم يدفيما أصاب المسلمين من الوهن ، بالإضافة التى تفاقم البدع والأضاليل بتحريم المتأخرين على أنفسهم فهم الدين وتقيدهم برق التقليد .

ثم يصل العلامة رفيق العظم من مطافه الطويل فى كتابه [تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الإجتماعية والإسلام] الصادر عام ١٩٠٠ إلى القول بأنه «لو اعتنى المسلمون بتفهم القرآن لما وقعوا فى هذا الخسران ، والمسئولية فى هذا راجعة إلى تقصير العلماء فى مطاردة البدع والمبتدعين وإطلاق للوعاظ للأنماط والقصاصين» .

ثم يتلفت الباحث إلى مفاهيم الإسلام ويحاول أن يعرضها فى دقة وبساطة وتنسيق رائع كحل لمشاكل المجتمع المصرى الحديث فيقول :

* يقرر الإسلام قاعدة التفاضل بالعمل والعلم ، واعتبار الإسلام أن العمل هو رأس مال كل إنسان بمفرده .

* يوفق الإسلام بين مطالب الحياة الإجتماعية على وجه عادل يمنع تصادم كل مطلب بسواه مع قصور فلاسفة هذا العصر عن التوفيق بين هذه المطالب.

* سبق الإسلام لكل ما بحث فيه فلاسفة العصر من مطالب الحياة وأنه دين العقل .

* يقسم الإسلام الثروة إلى حق ثابت هو الملك (التملك) وحق مشترك هو الثمرة .

* إطلاق الإسلام للارادة من رق السيطرة الكاذبة .

* يقرر الإسلام أن لله سنناً سنها للخلق لا يتيسر بدونها دفع الشقاء وجلب السعادة ما يترتب على وجود الإرادة من فهم كل إنسان أنه مستقل فى عمله مسئول عنه دون سواه » .

* * *

ثم يذهب إلى مقارنات بين مفاهيم الفكر الإسلامى ومفاهيم الفكر الغربى تعدفى هذا الوقت الباكر دليلا على التعمق والذكاء، فهو يشير إلى ما كان عند العرب والمسلمين من إستقلال فى الإرادة والفكر ، ويعرض للفرق بين مبدأ الاستقلال الذاتى عند العرب وعند الانجليز ويصل إلى القول بأن معنى الاجتماع فى الاسلام أن يكون المسلم مستقلا فى نفسه ، فى خصوصياته، مجتمعاً مع إخوانه فى عموميات مجتمعهم .

وعنده أن سياج المدنية هو التربية الروحية والقوانين الشرعية وأن اضطراب حال التمدن الأوربى وأهله إنما يرجع إلى فقدان التربية الروحية ، ثم يعرض لمفهوم التربية الروحية فى الاسلام فيقول إن أساسها العدل فى تعديل الشهوات إلى حد لا يفضى بقتل الهمم أو يضعف ثمرات العقول .

ثم يشير إلى موقف الإسلام من عديد من مسائل المجتمع : أهمها : أنه

أستوجب حفظ النسبة بين الدخل فى الرزق والانفاق منه ، كما نهى عن الرضا بالحرمان وتعطيل وظائف الحياة .

* * *

ويعرض العلامة رفيق العظم للرابطة بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية ، وعنده أن الأوربيون قد استفادوا من الإسلام كثيراً من أصول الترقى فى مدنيتهم الجديدة واستنبطوا ماشاءوا من أحكام الشريعة الاسلامية بترجمة كتبها المعتبرة، إلى لغاتهم العديدة، وأشار إلى إعتراف سيديو فى كتابه خلاصة تاريخ العرب بأن التمدن الإسلامى قد تحكم فى مختلف فروع التمدن الغربى وأن الغربيين كانوا عالة فى علومهم على المسلمين .

ومضى حتى استخلص أهم الفوارق بين المدنيتين : ما حققه الاسلام ولم تستطع الحضارة الغربية تحقيقه وهو المساواة العامة بين الغالب والمغلوب فى سائر الحقوق « فإن هذه القاعدة جعلت الأمم الخاضعة لسلطان الاسلام فى أقل من قرن كلها أمة واحدة »

* * *

وفن آخر أجاده العلامة رفيق العظم وقدم فى مجاله ثمرات هامة، ذلك هو التاريخ الاسلامى وتراجم أعلام الاسلام وهو مجال ضخم اقتحمه بهمة عالية فى هذا الوقت الباكر فكان رائداً فيه حيث لم يسبقه إليه أحد من الباحثين.

ويرد هو هذا الاهتمام عنده إلى أنه خلق من نعومة أظفاره متعلقاً بمطالعة التاريخ ومتابعة البحث واستقراء أحوال الأمم ولا سيما تاريخ أمة الاسلام « الذى أتى العالم بما أدهش العقول وحير الألباب » .

وعنده أن « التاريخ » من أجل العلوم التى ينبغى للانسان أن يشتغل بها « لأنه مرآة العصور التى تمثل المرء فى كل زمان صورة الماضى على أوضح مثال فيرى فيها من ماجريات الزمان وأحوال بنى الاسلام مايقف بالفكر فى مجال التأمل بسير الماضيين » .

وعندنا أن رفيق العظم شأنه شأن المصلحين فى عصره ممن حاولوا أن يتخذوا من تاريخ الاسلام سلاحا فى وجه التحديات التى فرضها الاستعمار الغربى ودعوته المضله وشبهاته المتصلة فى مهاجمة الاسلام وتاريخه ، فكان هذا من العوامل التى حدت به إلى إعادة كتابة تاريخ الاسلام من جديد والكشف عن جوانب العظمة فى هذا التاريخ ليكون المسلمين سلاحاً فى جهادهم ضد النفوذ الأجنبى. وهو فى نظرته إلى التاريخ الاسلامى يؤمن بضرورة الوصول إلى الحقائق ، وينكر التحيز ويرى أن من أكبر ما أضر بالدول الماضية «هو كثره اطراء مؤرخى كل عصر بدولتهم والمبالغة فى تتبع عورات سواها وحشد الغث فى ثنيات سطور تاريخها والداعى لمعظم المؤرخين إلى اتباع هذه القاعدة ، أما الرغبة أو الرهبة أو مجرد العصبية أو التشيع للجنسية ، مثال ذلك ماتراه من مبالغات مؤرخى العباسيين فى التشيع على بنى اميه ومؤرخى الفاطميين والشيعة من بنى العباس، ولم يظهر فى كل عصر أفراد غلبت عليهم طهارة الأمة والضمير وسلامة الاعتقاد، وقادهم مزيد الأدراك والتعقل والتنبه إلى مثل هذه الأمور واجتناب ما ينشأ منها من المحذور كالعلامه ابن خلدون وغيره من أئمة الاسلام والعلماء الاعلام »

* * *

ويرى رفيق العظم وجوب الحيطة فى الاستنتاج حين الحكم على عصر من العصور أو قائد من القادة . وأن تكون المراجع التى تستقى منها النصوص مؤصلة وجادة ، فهو ينكر مثلا الاعتماد على كتاب الألمانى كمرجع من مراجع التاريخ وأن ما ينسب إلى الرشد والمأمون من الاستماع باللذائذ أو المتاع يجب أن يحتاط فى تقديره .

وعنده « أن الحقائق التاريخية لاسيما فى تاريخ الاسلام تشبه الدر بين أشواك يحتاج إلى من يريد استخراجه من تلك الاشواك إلى اناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك . » ويرى أن كتب القصاصين قد حفلت نسبتها شيع العباسيين إلى خلفاء بنى أميه وأخبار نسبها شيع أل على إلى خلفاء

بنى العباس وهى من أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الحياة والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة فى المنزلة إلى أنزلهم إليها الوضاعون ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ » وعنده « أننا لو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والاقاصيص واعتبرناها اخباراً صحيح ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الاسلامية الأولى إلى تعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد »

وأشار العلامة رفيق العظم إلى ظاهرة القصاص والقصص الذى استشرى فى المجتمعات الاسلامية والتى كان تشغل الناس فى العصور المختلفة : وكيف أن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينة . أما الأغراض التجارية فهى الكسب والانتفاع ، إذ من المعلوم أنه لم يكن فى القرون الأولى للاسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ . ومن هنا أخذ الأذكياء فى وضع قصص تحكى فى المجتمعات فيلهو بها العامة فكان منها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع فى كتب على حده ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار وأصبحت ضروة من ضرورات الحياة تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووصفها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك، فكان منها الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة ، وقد غالى بعض الاخباريين فى ايراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالاخلاق والتجرد من معنى الأدب الذى أخذ منه الشعراء وادباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ينافى ما ينسب إليهم من إطراح رداء الحشمة والمروره » هـــذا هو الحصاد الضخم الذى أعتمد عليه أمثال الدكتور طه حسن وغيره فى محاولة رسم صورة للعصر الأموى ووصفه بأنه

عصر الشك والمجون ، وهو فى تقدير رفيق العظم إنما هو تلفيق قصص يراد به أحد أمرين : أما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وأما سد نهمات العامة إلى أمثال هذه القصص المخزية والروايات الملفقة .

* * *

ومن حق أن رفيق العظم قد استطاع بهذا الاتجاه الذى بدأه فى دراسته التى لم تكتمل عن « تاريخ السياسة الاسلامية » ونثره فى عديد من أبحاثه يكشف عن غيرة الباحث المؤرخ النزيه ، فهو لايقبل أن ينسب إلى الاسلام ماليس فيه « تغاليا » عن الحق الذى هو أقوى من كل مغالاة ، ولا « ظلما » بإضافة روايات القصاص الواهنة والتى ليس من المنهج العلمى أن تعد مراجع علمية مؤصلة موثقة .

* * *

وجانب ثالث فى أبحاث « رفيق العظم » جدير بالأهتمام ذلك هو الذى عرف به حين أصدر موسوعته « أشهر مشاهير الاسلام » وهو يتصل بالدراسة التاريخية التى أوغل فيها، ولكنه يرى أن كتابة التراجم لأعلام الاسلام وأبطالة عمل هام وخير فى مجال التربية وبناء النهضة بالتاريخ والبطولة.

وقد رسم لنفسه منهجاً واضحاً فى هذا المجال : « أخذت على نفسى أن لا أتحرى فى القول عن تراجم الرجال وذكر الأعمال إلا الحقائق التى يسلم بها الضمير الحر وتقتضيها سياسة الحياد وعدم التشيع لإنسان دون آخر أو فريق دون فريق وعنده أن البطولة هى قوام النهضة « وإنما قامت الدول واتصلت بالشعوب أسباب السعادة بأفذاذ من كل أمة معدودين ، وافراد من الرجال مشهورين ، كبرت نفوسهم عن أن تخلد إلى الدنايا وترضى بالحقد من الشهوات فطمحت بهم إلى معالى الأمور وانصرفت بهمهم إلى غايات الكمال » وعنده أنه لم يخل منهم عصر من العصور لأنهم أقطاب العلم الذين يقوم بهم أركانه ودعامة

الوجود الاجتماعى التى يشاد عليها بنيانه ، وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا ممالك الأرض .

ويشير إلى مدى النقص الذى يلمسه فى عصره فى هذا المجال من الدراسات حيث أن استقصاء أخبار هؤلاء الاعلام وأفرادهم بكتب خاصة غير متوفرة عند المسلمين ولا ملتفت له عند المؤرخين، اللهم إلا ما أوردوه من أخبار مبعثراً فى بطون التواريخ متفرقاً فى كتب التراجم . »

ثم يشير إلى أنه توجد سيرة محمود الغزنوى المشهورة بتاريخ العتبى، وسيرة تيمو رلنك المسماه عجائب المقدور ، غير أن هذه الدراسات أخرى أن تسمى فى نظره كتب أدب لا كتب سيرة وتاريخ ، لأن مؤلفيها التزما طريق « التقفية » وتكلف السجع فاخلا بأصول التاريخ .

وفضلا عن ذلك فإن هناك عدد كبير من رجال السياسة والحرب فى الاسلام) يحتاج أن تفرد بسيرة خاصة .

وهو يرى أهمية كتابة التراجم لأسباب عدة :

(أولا) أن لبعض النفوس ميلا غريزيا إلى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور، فإذا عرف أربابها كيف ساد اسلافهم واشتهر عظماء قومهم، وخاصة من انفرد بالشهرة واتصف بالفضل منهم ، فإن ذلك ينفعهم فى حياتهم متى كانوا من زعماء الأمة وقادة الأفكار السياسية مما يدعوهم إلى التشبه باؤلئك فى جلائل أعمالهم وتدقيق النظر فى سيرهم للوقوف على موضع الأصابة ونطاق الخطأ والأخذ منهم بما يصلح .

(ثانياً) أن الأوربيون قد اعتنوا عناية كبيرة بتراجم رجالهم واجتنبوا فيها استعمال « التخيلات الشعرية وإيراد الاستعارات والمجاز فى الوصف ورص الألقاب الكثيرة رصا تضيع معه صفات المترجم الفطرية وتغمض على الناقد أوصافه الحقيقية ، ودعا إلى الالتفات إلى إلتماس هذا المنهج « ليكون فى بساطة

الترجمة وقصرها على إيرادالحقائق فى شأن المترجم له ومآثره » عاملا فى « تمثيله المطالع فى قالب الوجود حتى كأنما هو يراه» .

ومن هنا فقد أتجه إلى كتابة «أشهر مشاهير الاسلام» على هدى من إيمانه بأن رجال الاسلام العظام خليقون بالعناية والتقدير، وأن الاسلام قد أنجب كثيراً من الاعلام الذين ورد ذكرهم فى بطون التواريخ متفرقافى ثناياالكتب والسير » ومن هنا فقد نهضت به « عزيمة النفس » إلى استقصاء أخبارهم وتتبع آثارهم ، ليفرد لمشاهيرهم فى الأدب والسياسة تاريخا خاصا « آتى به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياساتهم، وكل ما يتعلق بحياة كل فرد منهم على أسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل » .

وعنده أن مثل هذا العمل فى دراسة أعلام الاسلام من شأنه أن يكشف عن كثير « من الأدواء الاجتماعية التى طرأت على المسلمين ، واستطيع اسداء النصح ، ما اتقدم به فى هذا العصر إلى قومى» .

ومن منهجه الذى احتفظه لنفسه : اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثائرها فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية ، ولم أر بدا من إيراد ذكرهم مع الخليفتين (أبو بكر وعمر) لأنهما جميعاً من دعائم الاسلام التى قامت عليها حروبه ، وأعضاء الدين بان بهم صريحه ، فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة (على وعثمان ومعاويه) بما لايعلق بذكره من هذه الفتن أثر فى النفس إلا من كان فيه حجة بالغة يجرى بها القلم أو حكمة ذاخره يحتاج إليها العاقل . »

* * *

ويحاول رفيق العظم أن يعقد مقارنة بين أبطال الاسلام الذى جهلهم أهله وبين اعلام الغرب الذين فرض النفوذ الاستعمارى ذكرهم وتاريخهم فيقول: « أين نابليون الذى طبقت شهرته التاريخية الأفاق وعده الأوربيون من اشهر القواد ، من قيتبة بن مسلم فاتح السند وتركستان من أو عبدالملك بن مروان

الذى تولى الخلافة وقد تنازعتها أطماع الطامعين واشرأبت إلى التخرب والانقسام أعناق المسلمين ، فبادر إلى تلافى الخطب واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأى فذلل صعاب الأمور ، ثم بعد أن استصفى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمانينة ، أطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح.

واين (أبطال الغرب) من موسى بن نصير ، ومولاه طارق ، اللذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب ، بجندهما القليل البالغ اثنى عشر ألف مقاتل مضيق سبته إلى القارة الأوربية مقتحما مملكة الأندلس وقضيا على دول القوط بالدمار ، بل أين هو من عبد الرحمن الغافقى الذى اقتحم ماوراء البرنية فى عهد الخليفة هشام الأموى وافسح بجيشه القليل فى أحشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة ألف ميل من جبل طارق فذعرت منه سكان الممالك الأوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنسية والسكوكسون والقوط والجرمان ».

* * *

ومن حق أن يقال أن العلامة « رفيق العظم » قد أمضى حياة خصبة ، وأثرى الثقافة العربية والفكر الاسلامى بنتاج وافر كان عصارة ثقافة الخاصة التى كونتها له قراءاته ودراساته ومطالعاته.

فقد عرف أنه لم يتلق تعليما مدرسياً من أى نوع وأنه أخذ بعض مبادىء العلوم عن شيوخ عصره ، من الأدباء العلماء والمتصوفة، وأنه فى جملة ما حصله إنما أفاده بمطالعاته الشخصية حيث لم يتلق علماً ولا فناً قديماً أو حديثاً عن أستاذ على حد تعبير رشيد رضا. غير أن الرواد الذين تعرف إليهم والتمس علمهم كانوا من النماذج القليلة الرائعة أمثال : طاهر الجزائرى وسليم البخارى وتوفيق الأيوبى.

وقد ولد فى دمشق عام ١٨٨٢ من أسرة موسرة شهيرة هى أسرة العظم .

وكان حفياً بأن يعيش حياة الثراء والدعة ، لولا أنه كان قد آمن بالعمل

البناء فى مجال الفكر من أجل دفع حركة اليقظة العربية الإسلامية إلى الأمام.

وقد عمل رفيق العظم فى مجالين أساسيين : مجال السياسة والوطنية ، ومجال الفكر والتاريخ. وكان له دور بارز فيهما، فقد اشترك فى جمعيات الدستور والاتحاد والترقى وحزب اللامركزية وحزب الاتحاد السورى ، وأنفق فى سبيل هذه الجمعيات والأحزاب كثيراً فاضطر إلى المهاجرة إلى مصر عام ١٨٩٤ فأقام بها حتى توفى سنة ١٩٢٥ وفيها أصدر كل دراساته وكتب فى مختلف الصحف (الأهرام — المقطم — المؤيد — اللواء) وفى (المقتطف — الهلال — المنار) .

وكان يختلف إلى مجالس الشيخ محمد عبده وله صلات مودة مع على يوسف ومصطفى كامل ومحمد فريد ورشيد رضا (الذى التقى به عام ١٨٩٧ عندما قدم إلى مصر وأنشأ المنار) .

وكان إيمانه أساساً ببقاء الدولة العثمانية وعلى أن العرب محتاجون إلى وقت طويل لترقية أنفسهم وجمع كلمتهم واستغنائهم عن الدولة إن زالت أو بقيت» .

وكان يرى ويرى معه رشيد رضا « إن الخروج عن الدولة ضار وخطر على العرب أشد من خطره على الترك وشكل الحكم اللامركزى خير لبلادنا » .

ويقرر رشيد رضا أن رفيق العظم زار الآستانة بعد تنازل السلطان عبد الحميد وعاد منها غير راض عن سير الاتحاديين » وإنه « صدق الاتحاديين فيما أدعوه بالرغبة فى الاتفاق مع العرب وإعطائهم حقوقهم » .

وأنه « انخدع بعد مؤتمر باريس ، كما انخدع رئيس ذلك المؤتمر (عبد الحميد الزهراوى) الذى كان من اغتزاره بملايقتهم أن دعانى ودعا (رفيق العظم) إلى الذهاب إلى الآستانة للاشتراك فى توثيق روابط الآخاء والوحدة بين العرب والترك : « يقول رشيد رضا : وقد قلت لهم أنهم

يريدون أن يجمعوا الزعماء العاملين هناك ليقيموا منهم كلهم ، ولئن أجبناهم ليحطين بنا فلا ينجو منا أحد » .

ثم يقول : إن رفيق العظم لم ييأس من الدولة العثمانية كل اليأس إلا أثناء الحرب العامة ، وما كان من عمل جمال باشا فيها (يقصد قتله أحرار العرب) .

* * *

أما عمله الفكرى فقد كان قائماً على الاصلاح واستهداء التاريخ والبطولة الاسلامية والرد على ما وجه إلى الاسلام وفكره وتاريخه من شبهات : وفى ظل هذا الاتجاه كتب آثارة وأبحاثه المختلفة وأهمها : مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام وكتابه الذى ألفه للناشئة (الدروس الحكيمة للناشئة الاسلامية) وموسوعة أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة : الذى يعده الباحثون أول كتاب عربى فى تاريخ أعلام الاسلام . وقد صدر منه ٤ اجزاء فى نحو ٩٠٠ صفحة ضمت سيرة أبو بكر خالد ، عمر ، أبو عبيده — سعد بن أبى قاص — عمر بن العاص عثمان — عبد الله بن عامر ، حبيب بن مسلمه الفهرى » .

وله دراسة عن كيفية انتشار الأديان ألفها عام ١٨٩٤ رداً على بحث نشر فى الهلال زعم منه كاتبه أن الاسلام قام بالسيف .

وله بحثه عن [الجامعة العثمانية والعصبة التركية أو التأليف بين الترك والعرب] تحدث فيه عن سوء ظن الاتراك بالعرب وهاجم مسلك الاتحاديين الاتراك بعد صدور الدستور وله بحثه عن الجامعة الاسلامية وأوربا ، وفيه رد على الشبهات التى أذاعها الأوربيون عن خطر الجامعة الاسلامية : ودافع عن وجهه نظر المسلمين فيما لو اجتمعوا باسم الدين لمناهضة دول أوربا فلا يكون اجتماعهم خطراً على المدنية كما يذهب إليه سياسيو الغرب بل يكون وفاء بحق القومية ورجوعاً إلى الأعتصام بالرابطة العامة التى يمكنها أن تقابل رابطة الدول المسماه بالغربية والتى اجتاحت أغلب ممالك الاسلام وعنده أن اتحاد الاسلام والجامعة الاسلامية

ألفاظ أراد واضعوها ايغار صدور الأمم على المسلمين ، وهى من موضوعات السياسيين فى هذا العصر ولم ترد فى تاريخ الاسلام .

فالاسلام ينوه بالارتباط الأخوى بين المسلمين ارتباطاً خاصاً ، كما ينوه بالارتباط الانسانى بين الناس كافة ارتباطاً عاماً . يقول ان الاسلام له رابطتان : رابطة العواطف التى يشترك بها أرباب كل دين ورابطة التعاون والأخاء التى يدعو إليها بالفعل : تعاون على الخير دون الشر وعلى البر دون العدوان . ولا تكون جامعة الدين سبباً للعدوان على الآخرين بل وسيلة التدرج فى مدارج الانسانية فى أعم مظاهرها وهى المساواة العامة بين أفراد البشر وأقوامهم فيما تقتضيه حقوق الإنسان من الكرامة وحسن الجوار وتبادل المنافع »

* * *

ويرى العلامة رفيق العظم أن هذه الحركة إذا ظنها الأوربيون مقدمة الاتحاد الاسلامى فإنما هى اتحاد على معرفة الواجب بالبحث عن مصدر ترقى أوربا إلا وهو العلم والحرية » .

ثم هو يوجه النصح إلى المسلمين والعرب والشرقيين فيقول : استفيدوا من خير ما فى المدينة الغربية وهو العلم ، اهدموا كل حاجز يقوم فى سبيل نشر العلم فى بلادكم مهما كان ، عظموا قدر علمائكم ، توفروا على التأليف والعمل بجد فى سبيل الترقى ، انبذوا الاوهام ولا تستسلموا لليأس ، العلم به يحارب الاستبداد وبه يعرف كل فرد قيمة الحياة ، ومعنى إرادة النفس وحرية الوجدان فتعلموا ثم قاتلوا بسلاح العلم »

* * *

وبالجملة فإن رفيق العظم كان شخصية بارزة خليقة بأن تضم إلى نماذج الأعلام الذين أثروا فى جيلنا وتركوا تراثاً خصباً نافعاً .

شبــلى النعمـانى

المؤرخ والمجــــدد الاسلامى

١٩٠٠ — ١٩١٤

* * *

بدأت اليقظة الإسلامية الحديثة فى مهاد الأمة العربية . هذه الأمة التى نزل القرآن بلغتها العربية الفصحى ، وظهر محمد بن عبد الله ، رسول الإسلام من بين أظهرها ، وقام قومها العرب بالدور الأول والأكبر فى « بناء عالم الإسلام » وتوسيعه من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً .

ثم كانت دورة التاريخ فى مراحله : بين بلورة وانصهار لهذا المجتمع الإسلامى وبناء لحضارته وثقافته ، ثم مواجهة جبارة للغزو الخارجى المتقدم على ثلاث جبهات فى الأندلس والمغرب وفى الشام ومصر وفى بغداد ، من قوى ثلاث هى الصليبيين ، فى المشرق ، والفرنجة فى المغرب ، والتتار على بغداد .

ثم كانت مرحلة وحدة ويقظة تمثلها الدولة العثمانية حين امتدت على العالم العربى كله خلال فترة أربع قرون كاملة (١٥١٧ — ١٩١٨) غير أن الدولة العثمانية لم تلبث أن ضعفت خلال ذلك عن حمل رسالة الإسلام ، وغلب عليها طابع الحرب ودارت بينها وبين أوربا معركتين : إحداهما هجوم وتوسع والأخرى دفاع وانحسار .

ومن خلال هذه المرحلة التى تهاوت فيها مفاهيم الإسلام وقيمه ، وغلب طابع التعصب والجمود والجبرية ، هنالك بدأ ضياء جديد ، يحمل باسم الإسلام دعوة إلى التوحيد والحرية والحق والعدل ، تنادت به أصوات المصلحين

والمجددين ، من قلب الجزيرة العربية ، ومن قلب الأزهر ، وتنادت به أصوات المصلحين والمجددين الخافتة على توالى العصور حتى علا الصوت وظهر .

وكانت تلك مقدمة لنهضة كبرى تمثلت فى عدد كبير من المجددين والمصلحين فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى .

كان القرن الثالث عشر الهجرى هو عصر اليقظة التى أطلق عليها من بعد أسماء متعددة . كالإصلاح والاجتهاد والتجديد .

كانت كل هذه الصيحات تتمثل فى مفهوم واحد هو : « إعادة صياغة الفكر الإسلامى » على نحو يكشف عن جوهره الأصيل ، السمح ، البسيط ، الذى اختفى تحت ركام من الدعوات والحركات التى تمثلته تمثلا جزئياً ، فظنته روحياً خالصاً ، أو عقلياً خالصاً ، أو فلسفياً خالصاً ، بينما لم يكن الإسلام إلا ذلك المفهوم المتكامل الشامل الوسط : روح ومادة عقل وقلب ، دين ودنيا .

ولاشك كانت « اليقظة الإسلامية » منبعثة من أعماق المجتمع الإسلامى ، نفسه ، فى مواجهة نزعة الجمود التى سيطرت ، والتى كانت تواجه دائماً بظهور مصلح مجدد ، مرحلة بعد مرحلة ، يصحح المفاهيم ، وينقل الناس مرة أخرى من الانحراف إلى الوسطية ومن الجزئية إلى التكامل .

وقد كانت « الهند » بوصفها مجالا ضخما لقوة إسلامية كبرى ، لا يتوقف إتصالها بالأمة العربية ولا بالدولة العثمانية « دولة الخلافة » ومن هنا فقد ظهرت فيها حركة الإصلاح والتجديد واليقظة الإسلامية فى نفس الوقت الذى ظهرت فى العالم العربى وفى تركيا ، وكأنما كان العالم الإسلامى كله يتحرك فى مجال البعث مترابطاً متصلا ، ولقد كان أبرز ثمار هذه اليقظة علامتنا الكبير :

* * *

بزغ نجم هذا المجدد الاسلامى ، فى قلب القارة الهندية ، ثمرة من ثمار اليقظة الاسلامية الفكرية التى تمثلت فى كلية عليكرة وندوة العلماء ، والتى أحيت الثقافة العربية ، وكانت رمزاً قويا على رابطة الفكر الاسلامى العربى الممتد بين آسيا وأفريقيا ، والبعيد الأعماق فى الروابط الروحية والثقافية المتصلة المتجددة .

وقد اتصل العلامة « شبلى النعمانى » بالصحافة العربية فى مصر ، وكانت له ولجماعته صلات وثيقة بمدرسة « المنار » ومفكرها الأول : السيد رشيد رضا وكان ذلك الالتقاء رمزاً على وحدة الدعوة الاصلاحية الاسلامية التى قادها مجددون كثيرون . وقد كان السيد أحمد خان فى الهند هو الرجل الذى قاد حركة ربط الثقافة الغربية بالتجديد الاسلامى بانشاء جامعة عليكرة ١٨٩٦ وكان شبلى النعمانى واحداً من خريجيها . عمل مع أحمد خان فى الجامعة ، ثم شارك فى انشاء ندوة العلماء فى لكناو ، وأصدر مجلة الندوة باللغة العربية والأوردية .

وقد كانت هذه النهضة تتمثل مفهوما يرمى إلى اتخاذ العلم سلاحاً فى سبيل دعم اليقظة وتوسيع الخطوة مع ركب الحياة ، والتحرر من كثير من القيود .

وهى فى مجموعها شبيهة بالحركة التى قادها الشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه والتى كانت حتميتها تتمثل فى ضرورة الالتقاء بالفكر الغربى والانتفاع بمناهجه فى الكشف عن جوهر الاسلام وأبرز مفاهيمه بحسبان أن هذه المفاهيم قادرة على الحياة ، وذلك فى مواجهة النفوذ الاستعمارى الذى كان يرمى أساساً إلى القضاء على مفاهيم الاسلام ووصفه بالجمود والتخلف .

ومن هنا كان ذلك الالتقاء بين ندوة العلماء ومدرسة المنار بعامة ، وبين شبلى النعمانى ورشيد رضا بخاصة ، فقد تقارب منهجهما على نحو صورة رشيد رضا هو « السير بالأمة فى طريق تحتفظ به مقوماتها ومشخصاتها وتعيد الموروث النافع إلى جدته ، وتقتبس من علوم العصر وفنونه وصناعاته ما لا تقوم لأمة قائمة فى هذا العصر بدونه » .

وإذا كان هذا المفهوم يبدو اليوم سهلا ويسيراً فإنه كان يبدو فى خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى فى هذا القرن غريبا جد الغرابة.

ولقد كان للعلامة شبلى النعمانى جهد ضخم فى مجال الثقافة الاسلامية العربية فقد كان قادراً على الكتابة البليغة باللغة العربية ، وله فيها دراسات وصولات غاية فى العمق والقوة ، بالاضافة إلى تمكنه فى اللغة الأوردية ، ومن أبرز ما نشره فى مصر نقده لكتاب « التمدن الاسلامى » لجورجى زيدان واستهله على هذا النحو : « أن الغاية التى توخاها المؤلف ليس إلا تحقير الأمة العربية وابداء مساويها ولكن لما خاف ثورة الفتنة غير مجرى القول ، ولبس الباطل بالحق ، بيان ذلك أنه جعل لعصر الاسلام ثلاثة أدوار، فمدح الدور الأول ، ولما غر الناس بمدحه الخلفاء الراشدين وبمدحه لبنى العباس وهم أبناء عم النبى ورأى أن بنى أمية ليست لهم وجهة دينية فلا ناصر لهم، تفرغ لهم وحمل عليهم حملة شنعاء ، فما ترك سيئة إلا وعزاها إليهم ، وما خفى حسنة إلا وابتزها منهم » ثم قال « المؤلف حرفته تأليف الكتب مكتسباً بها وهو يعرف حق المعرفة أنه لو انتقد الخلفاء الراشدين ونال منهم تصريحاً ، كسد سوقه ، وخابت صفقته ، فدبر لذلك حيلا لا يكاد يفطن لها اللبيب فعمد إلى رؤوس المثالب ونسبها إليهم بأنواع الاحتيال ، فتارة بتبديدها فى ثنيات الكلام ، وأبعادها عن موضع العناية ، وتارة بايرادها عرضا موهما عدم الاعتناء بها ، وتارة يذكرها محتالا لها عذرا ، وإذا دققت النظر فى كلامه وتصفحت ما فيه وجمعت ما هو مبدد ونظمت ما هو معروف تكاد تستيقن أن الخلفاء كانوا أشد أعداء العلم وأنهم أبادوا الكتب والخزانات واضطهدوا أهل الذمة وجعلوهم أذلاء لا يؤذن لهم ولا يؤبه بهم »

ويصور العلامة شبلى النعمانى مفهومه لفلسفة التاريخ وتحقيقه فيقول« لقد تعود المؤلف جورجى زيدان قبول مختلقات أهل الكتاب وأوهامهم ، وسبب

ذلك أنه يزن التاريخ الإسلامى بميزان غيرنا ، ولذلك يصغى إلى كل صوت ، ويستمع لكل قائل ، لا يعرف أن هذا الفن — أى كتابة التاريخ — له أصوله وقواعده ، ما لم تكن الرواية مطابقة لهذه الأصول اليقينية فلا يتلفت إليها أصلا ، فكان الناقل للرواية لابد أن يكون قد شهد الواقعة فإن لم يشهد فليبين سند الرواية ومصدرها، حتى تصل الرواية إلى من شهدها بنفسه ومنها أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم ومنها ألا تكون الرواية مختلفة الدراية ومجارى الأحوال ، ولذلك اهتم مؤرخو الاسلام قبل كل شىء بضبط أسماء الرجال والبحث عن سيرهم وأحوالهم ودياناتهم ومحالهم من الصدق فدونوا كتب أسماء الرجال وكابدوا فى ذلك محنة يضيق عنها النطاق البشرى فعملوا كتباً غير محصورة منها الكامل لأبن عدى والثقاة لأبن حيان وتهذيب الكامل للمزى وتهذيب التهذيب لابن حجر وطبقات الصحابة لابن سعد وميزان الاعتدال للذهبى ، ونجد كتب القدماء من مؤرخى الإسلام كلها أو أكثرها كتاريخ البخارى وسيرة ابن اسحق وتاريخ الطبرى وابن قتيبة وغيره مسلسلة الأسناد مبينة الأسماء ليمكن نقد الرواية ومعرفة جيدها من زيفها » .

والحق أن هذه العبارات من دراسة مطولة للعلامة شبلى النعمانى تكشف عن شخصية هذا العالم الاسلامى المجدد ، وتحقيقه ، وفهمه للاسلام وتاريخه وعمق قدرته على نقد النصوص، والأداء باللغة العربية، ومن عجب أن يكشف هذا الرجل فى مقره فى لكناو بالهند أخطاء كاتب فى تاريخ الإسلام فى مصر بينما لا يتصدى له فى هذا أحد كتاب العرب ليكشف عن أخطائه وانحرافه .

ومصدر ذلك هو إيمان عميق يملأ نفس علامة الهند بالأمة العربية وتاريخ الاسلام ، ودراسة دقيقة مستوعبة للفكر الاسلامى والتاريخ واللغة ، فقد استطاع شبلى النعمانى من خلال عمله مع أحمد خان فى كلية عليكرة ومن

اتصالاته بالباحثين الأوربيين أن يدرس الاتجاهات الحديثة الغربية في مجال الفكر والثقافة ، وأن يكشف الشبهات المتعددة التي حوتها مؤلفات المستشرقين والمبشرين ، وأن يقدم لطلبته من شباب جامعة عليكرة حقائق ناصعة، وردوداً حاسمة،وأن ينقض هذه الشبهات والاتهامات التي كانت تغذي حركة الاستعمار في العالم الاسلامي كله ،ومن قبل واجه جمال الدين الأفغاني هذا الغزو الفكري وحركة التغريب حين رد على « النيتشريين » في كتابه « الرد على الدهريين » وهم دعاة الالحاد ، والدعوة إلى المادية ، وكان قد ورد الهند واستمع إلى الصيحات التي كانت تتعالى في أوساط المسلمين بهذه الفلسفات القديمة المستحدثة ، التي اتخذها الاستعمار سلاحا لمواجهة الاسلام وإثارة الشبهات حول مفاهيمه ، وكذلك فعل علامتنا شبلي النعماني في الكشف عن القضايا المثارة والتي تهدف إلى زلزلة ثقة الشباب المثقف بمفاهيمه وبث روح الاحتقار والكراهية لتاريخهم وماضيهم ، ومن هنا تحفز إلى عمل ضخم يهدف إلى « كتابة تاريخ الاسلام من جديد »وتأليف دراسات مبسطة عصرية في العقائد والشريعة والأدب تكشف جوهر الاسلام وبطولاته وتعيد الثقة به إلى نفوس الشباب ، وتدحض الشبهات التي يثيرها المستشرقون وتفندها بحجج قاطعة علمية .

ومن هنا أعد دراساته عن عمر بن الخطاب والمأمون وأبو حنيفة وابن تيمية ، وتوفى وهو يعمل في دراسته الكبرى عن « الرسول محمد صلى الله عليه وسلم » وكان قد عزم أن يستقصى كل صغيرة وكبيرة من آثار النبي وأقوال خصومه ، وأعلن أنه محتاج إلى خمسين ألف روبية للسفر إلى الممالك الإسلامية والأفرنجية لمطالعة كل ما كتب عن النبي . وقد أجابت طلبه « أميرة بهوبال » ولم تأذن له بالسفر لكبر سنه وعرجه وأوصت بطلب كل ما يحتاج إليه من من الكتب ، وقد عاش السنوات الثلاث الأخيرة من عمره في أعماق هذا العمل وانتهى قبل وفاته من جزء واحد ، ومن كتاباته في هذا الشأن إلى السيد رشيد

رضا خطابه (٧ مايو ١٩١١) : « طالما تاقت نفسى إلى زيارة مصر ولكن هيهات ، فإنى قد قطعت إحدى رجلى لرصاصة أصابتها فبقيت جليسا للبيت، غير قادر على تحمل أعباء الرحلة فى السفر » .

ولما عقد مؤتمر المسلمين فى لكناو عام ١٩١٣ دعى السيد رشيد رضا إليه فلما عاد صاحب المنار وصفه بأنه « عالم مستقل لا عالم رسمى مقلد » وأنه « أستاذ نفسه وتلميذ همته ، وقد استطاع بجده واجتهاده أن يصبح أشهر نوابغ علماء الهند فى هذا العصر ، لا يعرف له ضريب فى اتقان اللغة العربية وطوع الباع وحسن الذوق فى فهم منثورها ومنظومها ، والقدرة على الكتابة بها ، فأكثر علماء الهند لا يقدرون على الكتابة العربية الفصيحة ، أما هو قادر على الكتابة العربية السليمة فى مختلف الفنون والعلوم والآداب والتاريخ ، وله مشاركة فى العلوم الكونية من رياضية وطبيعية واجتماعية وقد أتقن علم التاريخ اتقانا لعله لا يوجد فى العالم الاسلامى كله من يساويه فيه الآن » ا . هـ

وقد ولد العلامة شبلى النعمانى ١٨٥٧ م عام الثورة الهندية على الاستعمار البريطانى وأتم تعليمه فى مدرسة العلوم الكلية فى كلية عليكرة ، واتصل فيها بالمستشرق البريطانى المنصف توماس أرنولد مؤلف كتاب « الدعوة إلى الإسلام » ثم ترك الكلية عام ١٨٩٨ بعد أن توفى أحمد خان وقصد إلى « حيدر أباد » فأسس الجمعية العلمية ، ثم أقام ندوة العلماء فى مدينة « لكناو » وباشر عمله فى مجال : « تصحيح المفاهيم » والرد على الشبهات على طريقته البناءة العلمية البعيدة عن الحساسيات والعاطفيات ، ويكشف الدكتور محمد إسماعيل الندوى عن جانب هام من جوانب حياته العقلية حين يقول أنه أول أديب أردى « أى يكتب بالأردية » أولى عناية خاصة إلى النقد والمقارنة والموازنة وهو الذى رفع مستوى الأدب وأعطى له مكانة كبيرة بكتبه القيمة ، كما أنه كان شاعراً عظيما من الطراز الأول فى الأردية والفارسية .

وتعد « ندوة العلماء » فى تقدير الباحثين حلقة الاتصال والالتقاء بين المحافظة والتجديد فى الفكر الإسلامى والقاعدة الصلبة فى مواجهة الجمود والتطرف جميعاً متسمة بسمة الإسلام الأصيلة « الوسطية » و « التكامل » ، وقد أتيح للعلامة شبلى النعمانى أن يحقق فى هذا المجال عملا بالغ الأهمية ، ليس فى التوفيق فقط بين المحافظين والمجددين بل فى التوفيق بين الإسلام والعلم والحديث ومن تلاميذه البارزين الذين عرفهم العالم العربى ، تكونت تلك الطبقة المثقفة الجامعة بين ثقافة الإسلام والثقافة الحديثة والتى شاركت فى دراسة معضلات الفكر الإسلامى المعاصر ، وقضايا الحضارة والعصر ، ولا شك كانت مدرسة شبلى النعمانى الفكرية مقدمة لظهور علمين من أكبر أعلام العصر : هما أبو الكلام ازاد فى مجال التربية ومحمد اقبال فى مجال الفلسفة والشعر ، ولطالما أعرب اقبال عن اعجابه بالعلامة النعمانى وبالدور الذى قام به فى هذه المرحلة الدقيقة وتعد المدارس الإسلامية الفكرية والأدبية فى الهند والباكستان اليوم امتداداً لجهود شبلى النعمانى وأحمد خان .

ويرى الأستاذ مسعود الندوى : أن ندوة العلماء التى كان شبلى النعمانى من أبرز مؤسسيها ورئيسها لفترة طويلة ، قد استطاعت أن تقضى على الخطر الذى تهدد الثقافة الاسلامية حول منهجين : أحدهما تقليدى والآخر غربى . وأن تدعو إلى « منهاج معتدل فى التعليم والثقافة ينشىء الشبيبة المسامة على الأخلاق والآداب الاسلامية المرضية وأن يكون جيلا من الشباب متضلعاً فى علوم الكتاب والسنة ، وآخذا بنصيب من العلوم العصرية واللغة الانجليزية حتى يكون أهلا لتأديه الواجب الدينى والعلمى على أحسن مايرجى من الشباب المسلم فى هذا العصر » .

ومن هنا يبدو أهمية الدور الذى قام به العلامة شبلى النعمانى فى مجال

التربية وفى مجال الثقافة ومن هنا كان من حق العارفين بقدره أن يطلقوا عليه لقب « شمس العلماء » .

* * *

ولد شبلى النعمانى الملقب بشمس العلماء فى قرية بندول من أعمال أعظم كره عام ١٨٥٨ وتعلم فى رامبور ولاهور وسهارنبور ودرس فى كلية علىكيره وشارك فى انشاء دار العلوم التابعة لندوة العلماء فى لكناو كما شارك فى إنشاء دار المصنفين فى أعظم كره

اشتغل بالعلم والأدب والتاريخ وله عديد من المؤلفات .

وقد أولى اهتمامه بالرد على الشبهات المثارة فى وجه الفكر الإسلامى وكان من أبرز أبحاثه فى هذا المجال (إنتقاد تاريخ التمدن الإسلامى) لجرجى زيدان[1] حيث تناول بالتفنيد الأخطاء التى وقع فيها وكشف عن الغاية التى قصدها جرجى زيدان فى مهاجمة بنى أميه وهى مهاجمة كل مفاهيم الفكر الاسلامى وقيمه الأساسية .

توفى عام ١٩١٤

---

(١) سيضاف فصل نقد كتاب التمدن الاسلامى إلى كتابنا عن جرجى زيدان عندما يعاد طبعه وقد اوردناه فى كتابنا (معالم الفكر العربى المعاصر)

شكيب أرسلان

موسوعة (حاضر العالم الاسلامى)

١٨٦٩ — ١٩٤٦

* * *

عاش شكيب أرسلان حياة عريضة خصبة كانت بالغة الأثر فى بروز ذاتية الشخصية العربية وتألق يقظتها، فقد كان من المفكرين العرب الذين رسموا الطريق الفكرى للنهضة وكان إلى ذلك زعيما سياسياً قاوم الإستعمار بعنف فاضطره الإستعمار أن يهجر وطنه ويعيش مغتربا فى قلب أوربا مدى ربع قرن، كانت صور وطنه وآماله وأمجاده تضطرم فى أعماق نفسه وتدفعه إلى العمل الكبير من أجل تحرير الوطن العربى وتعميق إيمانه بالوحدة والتجمع يقول: « إن تضييقات الإستعمار أمكنت دول الاستعمار من سلب حتى مع الأسف فى الشرق لا فى أوربه فأنا لا أقدر أن أطأ أرض سورية ولا أقدر أن أطأ أرض فلسطين، ولا أقدر أن أطأ أرض مصر فى ذهابى إلى الحجاز ولا فى أيابى إلا بشق الأنفس ».

وقد سجل شكيب أرسلان فى مذكراته إيمانه بالوحدة العربية قال: « أننا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا إلى إيجاد الوحدة العربية وكان دائما يردد أنه جندى من جنود الأمة العربية. وقد أعلن أن له ثلاث أهداف واضحة: أولها الإتحاد والثانى التحرر والثالث السير فى موكب النهضة والعلم والبحث. وكان يصور آماله فى مستقبل العرب والجامعة العربية فيرى أن ستون مليونا من العرب يستطيعون أن يجندوا حوالى مليون جندى على الأقل وكان

يردد دائماً: العرب أمة واحدة لها تاريخ واحد ومصالح واحدة وآمال واحدة.

وكانت مجلته « الأمة العربية La Nation Arabe التى أصدرها فى جنيف سنة ١٩٣٠ أكبر شاهد على عمله الضخم فى سبيل وحدة الأمة العربية وكان يحررها بالاشتراك مع زميله إحسان الجابرى وهى أحد أعماله البارزة فى سبيل العروبة .

وقد نشر بها عن العرب أجمل صفحات تاريخنا العربى وكان يوازن بين ربوع ليبيا وربوع الشام حتى فى أدق المشابهات : المياه والفواكه والتين والرمان والعنب والنخيل، ويقول أنها أرض أخت أرض ونفوس هى قسائم نفوس كما تحدث فى مجلته ومؤلفاته عن المدنية العربية وخدمة العرب لعلم الطب . وتحدث عن الجزائر فذكر تاريخها المجيد وأياديها فى خدمة العرب والإسلام ومما قال فى ذلك : كانت الدولة العثمانية تتوكأ دائماً فى حروبها على أسطول الجزائر وتجعله ردءاً للاسطول العثمانى فى كل موقف خطير . وصور ما كان من مقاومة وجهاد وحروب على يد الأمير عبد القادر وماوقع من فرنسا من خفر العهد والقاء الرعب .

وقد صحح الكثير مما أوردته دائرة المعارف الإسلامية وكتب المستشرقين من أقوال فيها تحامل وبغضاء على العرب والمسلمين.

وقال فى تحذيراته للشباب العرب : « من سوء الحظ أن يكون فى الشرق من يتلقى كلام كل أوربى حقيقة رياضية أو قضية مسلمة ، ولو أنه لايزال عندنا من حسن الظن فى هؤلاء القوم ماجعل التنبيه فرضا والتمحيص حتما . نعم أن افتتان الناشئة من العرب بعدل أوربه وأنصافها ومعالى نزعاتها قد خفف كثيرا بعد الحرب العامة عندما تجلت عرائس الحقائق على مناص الذبائح وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام التى كانت متلبدة فى الشرق من جهة تلك الفضائل وهياتيك المعالى كما هاجم المستشرقين المنحرفين ووصف بعدم

عن « السليقة العربية » ومعرفة «الأصيل والدخيل » . وكان شكيب أرسلان أول من نبه إلى ضرورة عدم الإنخداع بعداوة الفرنسيين للانجليز . واحتضان فرنسا بعض قضايا البـــلاد العربية . وعاش يدعو العرب إلى التضامن إزاء تضامن الاوربيين فى وجه العرب والإسلام . وقال أن البلاد العربية كانت دائمـــا مضطهدة عدا عليها الغرب فامتهن وطنها وابتز أراضيها وتصرف بحقوقها ومرافقها كما دعا إلى الجهاد والقتال والاستبسال والوقوف فى وجه الاستعمار .

كما هاجم فرنسا هجوما متصلا قوامه كشف دسائس استعمارها وأساليبها ومن ذلك قوله : وإذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أى منذ ١٩١٨ إلى اليوم لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضمائن الدنيئة بين المسلمين والنصارى فى سورية وبين النصارى والدروز فى لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن قد سكنت وتلاشت تقريبا . فنجد سورية ولبنان اليوم أسوأ حالا من هذه الجهة بما بذرته يد الإحتلال التى ظنت أنها لا تمتد إلا على بساط شقاق ولا تتمكن إلا من خلال فتنة فما ظنك بما يفعل عمال — فرنسه فى الجزائر فى تحريك الإحن بين العرب البربر .

وقدعاش شكيب أرسلان على شواطىء بحيرة لوسرن فى سويسرة كالمنار تتلاقى فى أضوائه كل أهداف العرب وحركاتهم وجهادهم . فقد كان يستقبل العرب فى كل مكان . ويتبنى كل قضاياهم ويصدر النشرات والـكتب ويرسل الرسائل وكان يسعى إلى كل المؤتمرات والأحفال التى تعقد فى مختلف أنحاء أوربا العلماء والساسة ويصحح آراؤهم ويقنعهم بحقيقة العرب وكان دفاعه عن يحمل معه دفاعه عن العرب وعن حريتهم وعن وحدتهم ويناقش فى كل مكان العرب يتمثل فى إحياء أمجادهم القديمة حيث درست آثار العرب فى الأندلس وجنوب فرنسا وجزر البليار ومنورقه وغيرها .

والف فى ذلك عددا من المؤلفات [١] .

كما ناهض الغرب المستعمر مناهضة بدأت باكرة عندما قاتل فى طرابلس الغرب مع عزيز المصرى وصالح حرب فقد أزعجه أن يعمل الطليان على انتزاع هذه الأرض العربية وذلك بانزال مليونين أو ثلاثة من الطليان لاستعمارها . ووقف إلى جانب لبنان فى الحرب العالمية الأولى يردع الحكام الظالمين ، فلما احتل الفرنسيون أرض بلاده هجرها ولجأ إلى الغرب وقد بلغت به شجاعته وثقته بفكرته أنه حارب الانجليز والفرنسيين فى أرض بلادهم بالكتابة والرأى .

وفى كل معركة من معارك العرب كحروب الريف وغيرها دعا إلى نصرة المجاهدين بالأموال والأرواح وكان يؤمن « بالموت لأجل الحياة » ويراها البطولة والفداء وهو عنده غير الموت لأجل استمرار الموت . « هذا هو الذى يموته العرب فى خدمة الدولة التى استولت على بلادهم » ويقول فى ذلك « يموت المغربى لتنتصر فرنسا على ألمانيا مثلا والحال أنه بانتصار فرنسا على أعدائها تزداد فى المغرب غطرسة وظلما وابتزازا لأملاكهم وهضما لحقوقهم .

وقد قاوم شكيب أرسلان مؤامرات الغرب ضد آسيا وأفريقيا وأعمال القتل والتعذيب فى سورية وأعمال فرنسا التبشيرية فى الجزائر واستعمار الدوتشى وعدوانه فى طرابلس الغرب .

وقد بلغت مجلة الأمة العربية خمسون مجلدا حارب بها الفرنسيين بلغتهم والأوربيين فى عقر دارهم ، كما حارب الكتاب الذين انحرفوا أو ساروا فى ركب المستشرقين .

* * *

من أبرز رحلات شكيب أرسلان رحلته إلى الأندلس . فقد كانت

---

(١) له ثلاث مؤلفات عن : الرحلة الى اسبانيا وجنوب فرنسا والأرض المقدسة

جزءا من خطته فى إحياء أمجاد الإسلام والعرب وكتابتها من جديد . وقد أتيح له خلال إقامته فى أوربا ربع قرن أن يقرأ كل ما كتب الغرب عن العرب وحضارتهم وثقافتهم . وكان مجيدا للغة الفرنسية وكان يعلن فى كل مناسبة ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ كيان الأمم ، وأن الأمة لا تشعر بذاتها إلا إذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها . وقال « إن الأمة العربية لاتنهض إلا إذا عرفت هذه الصفحات الماجدة من ماضيها فجملت الحاضر منها يخجل أن يقصر عن شأو الغابر ويستطار حين يعلم أن أباه كان سيدا فى الأوائل وهو عبد فى الأواخر ».

وقال أن مادفعه إلى تأليف كتبه عن الأندلس وحروب العرب فى جنوب فرنسا وإيطاليا هو إقامة الدليل على أن العرب جديرون بالحرية والإستقلال ،

وعندما عزم على زيارة الأندلس — حيث أمضى بها عدة سنوات كاملة فى البحث والدراسة والتنقيب، اشترى من باريس المصادر والكتب التى تعينه على البحث ثم ركب القطار إلى تولوز .

وصور ذلك فى قوله « ليس بعجيب أن يكون مثلى مغرما بالأندلس . وآثار العرب فيها وما جاورها من الاصقاع الأوروبية فإن كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالى هممهم مع أخواته ويترك من ذلك تراثا خالدا لأعقابه .

وقد شارك شكيب أرسلان فى العمل السياسى للقضية العربية مشاركة فعالة . اختاره قومه نائبا فى مجلس المبعوثان فى الأستانة . ودافع عن قضية بلاده فى سويسرا وسعى للصلح بين الملكين آل سعود ويحيى حميد الدين ورجع إليه الوفد السورى فى نصوص المعاهدة مع فرنسا .

وحين اجتمع العرب فى القاهرة وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى ١٩٢٢ وقرروا تأليف وفد عربى يدافع عن سوريا وفلسطين ويسعى لتحرير هذين القطرين من براثن الاستعمار أمام الرأى العالمى كان شكيب أرسلان فى مقدمة المدعوين لحمل هذه الأمانة .

وكان بعد الحرب العالمية الأولى يقيم فى برلين ثم انتقل منها إلى جنيف حيث بدأ حياته الجديدة فى النضال (١٩٢٥ — ١٩٤٦) واعتمد عليه العرب كرسول لهم فى مختلف قضاياهم . وكانوا يرسلون إليه شكاواهم واستشاراتهم وقد بلغ ما وجهه من المخاطبات والنداءات ما يوازى عشرون مجلدا .

وقد دعى عام ١٩٢٧ إلى زيارة عرب المهجر فسافر إليهم ورأس مؤتمرهم ونشر مذكراته فى صحيفة مرآة الغرب بنيويورك وله مذكرات أخرى ضخمة أودعها مكتب المؤتمر الإسلامى فى القدس تبلغ مائتى صفحة كبيرة .

عاش شكيب أرسلان فى مهجره عيش الكفاف فمر بفترات طويلة من الضيق ولكنه كان يتجمل بالصبر ولا يبدى الضيق . ولقد حاول الاستعمار أن يغريه بالعودة ليحتل أكبر المناصب ولكنه كان يرفض بآباء وقد صمم على ألا يعيش تحت امرتهم وانتدابهم، وكان فى سبيل ذلك ينفق كل ما يملك وقد باع معظم أملاكه فى لبنان وسوريا وعاش مع أسرته عيشاً بسيطاً رفيع النفس وكان بيته موئلا لأحرار العرب . وقد أشار الدكتور سامى الدهان إلى أن موسلينى وهتلر سعيا إليه كما خافه الفرنسيون واعتبره السياسيون فى جمعية الأمم خير من يمثل العرب وآمالهم « فكان اللسان الناطق والزعيم الحق فكم حرك قومه إلى الاستقلال وشجع الثورات ضد المستعمرين وهدى الشعوب المطلوبة فكان منارة للسفن الماخرة فى عباب النضال وكانت مقالاته وآراؤه كالشراع الهادى فى أنهار الصحف العربية لليقظة والتحرر » .

وقد صور الأمير شكيب أرسلان جوانب متعددة من حياته فى مختلف كتاباته ومؤلفاته ومن مجمل ذلك قوله : لى ماض يشهد لى وثمان وثلاثون سنة فى عالم المطبوعات من أهرام ومؤيد ومقتطف ومقتبس وجرائد ومجلات عديدة عشت فيها مع الجيل الذى أنا فيه واجتهدت أن أفهم الناس ويفهمنى الناس وحرصت على أن يظل أسلوبى عربياً . وأن أقتـــدى بنغمة السلف فى دولة فصاحتهم وألا أقطع علاقتى مع الأجيال الماضية » .

كما يومى الأديب الذى يكتب فى السياسة ويصور قيمة التاريخ والأخبار مع تطور الزمن :

« علمت الخلق التجارب أنه كلما تطاولت الأيام وتراخت الآماد على الحوادث زيد فى الأخبار ونقص فيها . وما زالت تعتورها التصورات بالقلب والإبدال إلى أن تصبح الأخبار فى واد ،ويعود التاريخ قصصا موضوعا . فالخبر أمانة فى ذمة المعاصر للحادث ولا سيما المطالع الشاهد » .

وحين يصور غرناطة فى رحلته إلى الأندلس يرسم لها صورة رائعة :

« غرناطة الحمراء مبنية على سفح جبل (البشارات)على رابيتين مسترسلتين صعدا . يفصل بينهما واد عميق والأبنية ممتدة على الصبب من الجانبين وآخذة برقاب السفوح إلى قمر الوادى على شكل يعطى البلدة للناظر هيئة الرمانة ومنها اشتق اسمها إذ معنى لفظة غرناطة : رمانة »

* * *

بدأ شكيب أرسلان حياته شاعراً يتغنى بمجد العرب وأمجادهم وقد ألقى أولى قصائده أمام الشيخ محمد عبده الذى كان منفياً فى بيروت فى ذلك الوقت . ومن شعره قوله :

يا يوم حطين كم حطمت من الإفرنج شأنا ما كان ينكسر .

هبوا من الغرب كالجراد فلم يكن لشرق يردهم قدر

وقد اهتزت نفسه فرحا بالخطوة الأولى لتجميع العرب بقيام الجامعة العربية وقال : كانت أحلام طفولتى فى الجامعة وقد تحققت ولو أن الجامعة لن تستطيع تنفيذ مبادئها إلا إذا كان لها جيش قوى مرهوب الجانب تستطيع أن تشترك فيه جميع الدول العربية . .

ولقد كان شكيب أرسلان صديقا لفيصل وزميلا له فى مجلس الأستانة وقد وقف معادياً للشريف حسين معلنا أن وعود بريطانيا له خادعة وأنهم الانجليز خونة ومخادعون لن يوفوا بوعودهم للعرب . ولكنه لم يلبث أن وقف مع العرب عندما أصبحت المعركة بينهم وبين الاستعمار وفى ذلك قوله :

« انتهت الحرب العالمية وتقاسمت دول الحلفاء البلاد العربية . وظهر ما ظهر من نكث الإنجليز بعهدهم وبقى الشريف حسين — عفا الله عنه — مستورا فى الوقيعة بى بالرغم من أنى عند تأسيس الحكومة المستقلة فى دمشق أعلنت وجوب تأييد فيصل . وكتبت إلى أصحابى بأنى كنت ضد الشريف حسين وأولاده — فى خروجهم على الدولة لأسباب يعرفها الخاص والعام . ولكن متى صارت المسألة بينهم وبين الأجانب فلا سبيل للتردد فى الانتصار لهم لأن القضية تكون حينئذ بين عربى وأجنبى » .

وهذا موقف من مواقفه المشرفة فى طريق جهاده العربى وحياته المناضلة التى كانت بعيدة الأثر فى دعم اليقظة العربية وإلقاء الأضواء الكاشفة على طريق الأمة العربية الصاعدة .

* * *

والأمير شكيب أرسلان من سلالة التنوخين ملوك الحيرة، ولد فى الشويفات بلبنان عام ١٨٦٩ وتعلم فى مدرسة دار الحكمة فى بيروت وانتخب نائبا عن حوران

فى مجلس المبعوثان العثمانى . أقام فى دمشق ثم فى برلين وانتقل منها إلى جنيف حيث قضى نحو ٢٥ عاما وعاد إلى بيروت فتوفى بها . وأصدر فى جنيف مجلة العالم الإسلامى بالفرنسية وساح فى أوربا وبلاد الغرب .

وزار أمريكا ١٩٢٨ والأندلس ١٩٣٠

وقد عاش شكيب أكثر من ستين عاما . وقدر ما كتب من المقالات بما يوازى ٢٥ الف صفحة من الحجم الكبير عدا رسائله الخاصة ، فإنه ظل عشرين سنة يكتب فى كل سنة ما يتراوح بين ١٥٠٠ والفى رسالة ومكتوب .

ولم يكن شكيب أديبا أو شاعراً فحسب بل كان ناقداً ولغوياً وكان قطباً من أقطاب السياسة والوطنية والوحدة الإسلامية خلال حياة طويلة ألف خلالها عشرات الكتب وأحيا عشرات أخرى وشغل بالقضايا العربية وكانت تعليقاته على كتاب حاضر العالم الإسلامى التى بلغت أكثر من ٥٠٠ صفحة تمهد لدائرة معارف إسلامية كاملة . وما زال كتابه « لماذا تأخر المسلمون » دعامة هامة فى البحث عن حياة المسلمين ونهضتهم فى العصر الحاضر . وكان للاندلس فى حياته وأدبه وقلمه نصيب كبير .

له : الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية (٣ مجلدات) . غزوات العرب فى فرنسه وشمال إيطاليا وسويسرا .

لماذا تأخر المسلمون، الارتسامات اللطاف:

شوقى أو صداقة أربعين سنة ، رشيد رضا أو أخاء أربعين سنة . ديوان شكيب أرسلان .

صلاح الدين الصباغ

صوت اليقظة العربية

١٨٩٩ — ١٩٤٥

«أنا عربى مسلم: لا أؤمن بديمقراطية الإنجليز ولا بنازية الألمان ولا ببلشفة الروس . ولا أريد المقارنة أو المفاضلة بين هذه وتلك ، فالمقارنة عقيمة عديمة الجدوى ، لأنى حيثما أولى وجهى أرى الذئب الأجنبى يفترس أمتى ويسومها العذاب.

«إنى مسلم والإسلام يقضى ألا يحكمنى كافر بالمثل العليا ومبادئ الإنسانية ، ولأنى عربى والعروبة تأنف أن يعيث فى بلادى جيش أجنبى . ولأنى جندى والجندية تأبى أن يقودنى أعجمى .

«لقد قال نبيك: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وما ضاع استقلالك إلا لما تناسيت مكارم الأخلاق فجهلت قرآنك المجيد وتاريخك العريق .

* * *

«لقد توليت أعلى المناصب فى الجيش، وكان لى من الراتب والمركز ما لا يحلم به أقرانى فى السن ، وكنت ذا منزلة فى قومى ، ولو لبيت رغبة الانجليز أيام حربنا كما فعل الذين جاء

بهم الإنجليز من بعدنا لكنت رئيساً لأركان الجيش .

ولما تردت حالى إلى ما ترانى عليه ولكن عقيدتى العربية أبت على أن أكون جنديا مرتزقا فأقتل بنى قومى وأكون صنيعة الإنجليز لذلك أصبحت ضحية .

أترى عجز الإنكليز عن شرائنا لو كنا نباع ونشترى لقد طرق الإنجليز هذه الأبواب فجاءهم الرد قاسيا وكان بيننا وبينهم فصل الخطاب » .

* * *

قدم الوطن العربى عدداً من الشهداء الأبطال القادة فى معاركه مع الاستعمار . ففى الثورات التى قامت فى مصر وسورية وفلسطين والعراق وتونس وليبيا ومراكش والجزائر . سقط شهداء من هؤلاء الأبطال مضرجون بالدماء . غير أن صلاح الدين الصباغ يختلف عن هؤلاء فى أنه لم يكن شهيد الثورة العراقية . وحدها . وإنما كان شهيد القومية العربية . فقد آمن بالعمل للوطن الكبير . وحمل دائما لواء إلى الدعوة الوحدة الكبرى . ولذلك تعقبه الاستعمار البريطانى فى خلال هجراته المتعددة من وجه الظلم حتى استطاع عن طريق الدس أن يقبض عليه ويعلقه على « أرجوحة الأبطال » أمام وزارة الدفاع فى بغداد ليكون على حد تعبير الشاعر « علو فى الحياة وفى للمات » .

عندما نشأ صلاح الدين الصباغ العربى الأب والأم . ابن صيدا . المولود عام ١٨٩٩ فى الموصل . تفتحت نفسه على كلمة « العرب » فعاشت معه ناراً ونورا . لقد تلقى صلاح الدين أول دروس القومية من مدرسة السلطانى ببيروت على « عادل العظمة » الذى كان يحول دروسه كلها إلى حديث عن العروبة وأمجادها . كانت البلاد العربية جزءاً من الأمبراطورية العثمانية . وقد أعلنت

الحرب العالمية ودخلت تركيا الحرب واضطر إلى أن يتجه إلى معهـد التعليم العسكرى فى استنبول حيث تخرج سريعاً (ديسمبر ١٩١٥) برتبة ضابط . وأرسل فوراً إلى جبهة « جناق قلعة » فى حرب الدردنيل .

وفى نفس هذه اللحظات وفى نفس الوقت كان العرب ينشقون عن تركيا العثمانية ويحاربونها لتحقيق أيام الدولة العربية .

ولم تلبث المعارك أن دفعت صلاح الدين إلى سيناء لمواجهة القوات الإنجليزية الزاحفة نحو الشمال (مايو ١٩١٧) وهكذا اتجه مرة أخرى إلى أرض العرب ومر بدمشق وحلب وحماة وهناك تجددت روحه . وجرى الحديث حول محاكمة الشهداء العرب الذين علقهم جمال باشا السفاح فى ساحتى دمشق وبيروت .

وفى معاركه مع الإنجليز الزاحفين شمالا أبلى بلاء حسنا .

وقد انتهت هذه المعارك بتراجع القوات العثمانية أمام المقاومة التى كانت عربية اسما ولكنها لم تكن فى الواقع إلا غزوا استعماريا جديدا للعالم العربى لنقله من سلطة الدولة العثمانية إلى « حماية » بريطانيا و « انتداب » فرنسا .

وانتهت الحرب العالمية . وسرح « صلاح » فسافر إلى الموصل فى ديسمبر سنة ١٩١٨ ومنذ ذلك اليوم دخل معركة العروبة . فإنه سرعان ما التحق بالجيش السورى الذى كان جيش الدولة العربية الأولى برياسة فيصل . وهناك تعرف بفهمى سعيد زميله فى ثورة ١٩٤١ .

وشهد صلاح الدين الصباغ معركة ميسلون وخاتمة الدولة العربية الأولى واحتلال فرنسا لدمشق واشترك فيها . يقول فى مذكراته : جمعنا ما تبقى من رجال وخيل وأمرنا بأن نعسكر فى تكية السلطان سليم وكان فوزى القاوقجى معنا . وأمرت مع زميلى بحراسة قصر فيصل . فلما ترك فيصل قصره ورحل

إلى درعا بحوران سحبت الرعيل على أن أعود إلى الجامع وفى الطريق التقيت بفهمى وكانت عيناه تفيضان بالدموع .

فسألته : خير إن شاء الله . أين أنت ذاهب برعيلك يا فهمى . قال إسمع ياصلاح، غدا يدخل الفرنسيون دمشق فى الصباح الباكر . علمت بذلك من نورى السعيد . وسوف تلقاه حتما لأنى تركته على جسر المرجة . لقد طلب منى هذا الرجل أن أحافظ على الأمن داخل البلد إلى أن تدخل الجيوش الفرنسية صباح الغد فتحتل دمشق . ولكن خاب ظنه فأنا ذاهب برعيلى للالتحاق بقوات حمص وحلب فورا . وسنمضى فى قتال الفرنسيين . وتركنى فهمى ورعيله . وبعد شهر واحد كنت أنا وفهمى أسيرين فى قلعة واحدة بجزيرة «أروادى» وكانت هذه هى بدء الانتفاضة العربية فى نفس « صلاح الصباغ » وقد انتهى الاعتقال بتسليمهما إلى الانجليز حيث نقلا إلى العراق .

وهناك تشكل الجيش العراقى عام ١٩٢١ والتحقا به . وكان صلاح هو أول معلم للفروسية فى تاريخ الجيش العراقى .

وتألق اسمه فى الجيش وبدا يأخذ مكانه الطبيعى . حيث مضى يبث روح الوحدة العربية فى الجيش العراقى بينما كانوا هم يفرضون عليه نظام التجزئة والانفصالية عن الأمة العربية والقضاء على فكرة الوحدة العربية .

يقول : « كان اختلاطى بالإنجليز يدمى قلبى ويجرح مشاعرى ويثير فى نفسى ردود فعل قوية . غير أنى كتمت ذلك عنهم سنين عديدة . فأعجبهم منى السعى والاجتهاد والانصراف عن العمل القومى والوطنى . فقد كنت أطوى الليل والنهار منكبا على أداء واجبى وفاتهم إنى كنت أبشر بمبادئنا سراً وأنشرها بين أصحابى وتلاميذى . تلك المبادىء التى يرتجف الاستعمار خوفاً منها . وغاب عنهم أنى كنت أسعى بكل قوتى لأكون أهلا لتسلم دفة

القيادة . فأكون على رأس جيش عربي لا شائبة في ظاهره وجوهره . مترقباً الفرص لإنقاذ العروبة من ذل الاستعمار . وجوره . ومن أساليبه السامة . ومخدراته المعسولة » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل إنه كتب إلى طه الهاشمي قائد عام الجيش يقول : أن الجيش العراقي لم يتشكل ليكون مطية لبريطانيا التي قتلت أحرارنا ومزقت بلادنا العربية . . وإنما ليكون سباقا إلى تحرير العرب ورفع نير الاستعمار عن كاهلهم، لا ، وإلى الأبد . لن يكون بجانب بريطانيا جندى من العرب الأباة . لأن بريطانيا هادمة صرح العروبة والإسلام .

وهكذا بدأ يعمل في الجيش العراقي على قاعدة « الوحدة » مع المربع الذهبي فهمي سعيد — ومحمود سلمان — وكامل شبيب .

وكان نوري السعيد يبث جواسيسه حول صلاح الدين ليحاول كشف خططه وهو يجهر بالعروبة والوحدة في نفس الوقت الذي كان نوري السعيد يسير إلى خطة خفية للقضاء عليهما والعمل في نطاق الإقليمية الضيقة.

كان صلاح الدين يؤمن بتسليح الجيش العراقي ليكون جيش الأمة العربية كلها . وقد نجحت خطته هذه في الاتصال بالإنجليز من ١٩٢١ إلى ١٩٤١ .

يقول : واستطعت بفضلها أن أساعد العرب وأن أغذى ثوراتهم في سورية وفلسطين من وراء الستار . ثم كان نوري السعيد أول من لفت نظر الإنجليز إلى ميولى الحقيقية وميول زملائي . فقد كان عهدي بالجنرال (ونزهاوز) صديقاً يغرقني بالمدح والثناء، وكان يظن أني من المعتدلين الذين يماشون سياسة بريطانيا الاستعمارية وينخدعون بأساليبها المعسولة . ولعله كان يظن أني من دعاة إيجاد أمة عراقية تخضع لسياسة بريطانية . فتشبع بهذا الطريق بطونهم وترضى شهواتهم . وقد رأيت الجنرال المذكور يتقلب بين عشية وضحاها عدوا

لدودا يقدم لرياسة أركان الجيش تقريراً يكيل الطعن لى . ولو علم الجنرال ونز هاوز أو السير نورى السعيد أو الوصى عبـــد الإله بأمر علاقتنا — أنا وإخوانى — بالأحرار العرب فى فلسطين عام ١٩٣٥ أو قبل ذلك لـكان السجن والطرد مصيرنا» .

هكذا تبدو صورة صلاح الدين الصباغ قبل ثورة ١٩٤١ التى قادها المربع الذهبى بالاشتراك مع رشيد الـكيلانى . والتى تعد فى نظرهم امتداداً لثورة ١٩٢٠ التى هز بها العراق جبروت بريطانيا وكبدها خسائر فادحة .

كان صلاح الدين على رأس التشكيل العربى الذى تعمقت جذوره فى جيش العراق بالرغم من تبعية نورى السعيد وعبد الإله للانجليز. وبذلك كان له دوره فى معركة فلسطين يقول: لقد كان تسعون فى المائة من القابضين على زمام الجيش من غير العرب حتى أواخر سنة ١٩٣٧ وأن هذه النسبة الساحقة المجحفة كانت فى ازدياد مطرد حتى قيض الله لى ولإخوانى أن نقبض على زمام الجيش فعارضت رغبات الإنجليز وأذنابهم الطغاة عندما حددت النسبة ، وازدهرت العروبة فى مرافق الجيش . وارتاح لهذه البادرة شباب العرب فى فلسطين وسوريا واليمن والسعودية . » وكان صلاح الدين يقول لطلبته وهو يدربهم « هـذا تراب بلادكم ، يجب أن تتعودوا على محبته والتضحية من أجله بأنفسكم وأرواحكم » .

وكان معنى هذا أن تيار القومية العربية قد أخذ يسرى سريانا قويا فى الجيش العراقى ويمهد لعمل ضخم لمقاومة بريطانيا . وكان صلاح الصباغ يعرف الأخطار التى تحيط بالعمل للقومية العربية . ويقول : « أن العالم كله يقاوم الوحدة العربية ويمنعها ويقيم العراقيل أمام تحقيقها . أن الوحدة العربية إذا تحققت ستقلب المخططات والسياسات العالمية رأسا على عقب » .

ولكنه مضى فأكد عروبة العراق . وقاوم تيار عراقية العراق . وفصله عن الأمة العربية . ووضع الميثاق القومى العربى . واشترك فى المعارك العربية فى أجزاء الوطن العربى خارج العراق . وكان له دوره فى معركة ميسلون (سوريا) ومعركة فلسطين ومحاربة الصهيونية . وتدريب المجاهدين العرب فى فلسطين ومدهم بالسلاح والذخيرة والمال .

وكان إلى ذلك قد خاض الحرب العالمية الأولى مع دولة الخلافة العثمانية ولكنه كان فى خلال ذلك كله عربياً خالص العروبة لا يقبل كلمة واحدة يشتم منها أى تهجم على العرب . حتى أنه عندما سمع القائد التركى يتحدث عن العرب قال له :

سيدى القائد : دونكم إياى فاعدمونى فوراً بلا رحمة ولا شفقة ، أنا عربى، أنا عربى فافعلوا ما تريدون. ماذا أساء العرب إليكم لكى يهانوا ويشتموا» .

لقد كان يؤمن وهو يعمل فى صف تركيا أنما يحارب الإنجليز الذين كان يكرههم طوال حياته « لقد بقيت أحارب الإنجليز حتى كانت الهدنة . ونقمتى تشتد على كل طامع باستعمار العرب . لقد كنت أومن بأن العرب أئمة الهدى . ونبراس احترق ولا يزال يحترق ليضيء لغيره . ويقول موقنا بتراثنا وأمجادنا :

« مبادئنا من تراث الأنبياء ومن وحى الإله لإسعاد كل حى على وجه الأرض وهى تكفينا عن تيارات الأخلاق المادية الغربية التى تعمل للقضاء على المثل العليا التى كان أسلافنا مبدعيها وحاملى مشعلها . فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، تحفظون تراثكم وترثون أرضهم » .

وهو يرى انجلترا عدو العرب الأول : ليس من ذنب أفتك بالعرب ولا عدو ألد للاسلام من بريطانيا. لن تقوم للعرب قائمة إلا بزوال الامبراطورية

البريطانية تعمل على تجزئة البلاد العربية وجعل أكثرية سكانها أقلية . فتبعث أقواما أندرست وأمما عفا عليها التاريخ وهى إذ تؤازر اليهودية لا تفعل ذلك حبا لليهودية بل تثبيتا لمصالحها الاستعمارية .

أنا أمقت بريطانيا وكل سائر على نهجها ليستعمر قومى .

ثم صور كيف يتهمه نورى السعيد بأنه غير عراق . ويقول أنه دخيل لأن أباه سورى : « أن غير العربى فى العراق أصيل » .

ويصور مدى إيمانه بالحرية والعروبة وكراهية الاستعمار والتبعية .

والله أنى لأفضل أن أكون حمالا (عتالا) أحمل على ظهرى متاع الناس لـكى أحصل على رزقى بدلا من أن أكون قائداً أو وزيرا أخضع للاستعمار » .

* * *

وهكذا كان هذا التيار العربى العميق يؤتى نتائجه الضخمة للأمة العربية لو لم تقم الحرب العالمية عام ١٩٣٩ . فان المعركة قد بدأت بين هذه القوة وبين الاستعمار عندما أحست بريطانيا مدى الخطر الذى سيطيح بها . عندما انتفضت العراق فى ثورة ١٩٤١ — وأعلنت الحيدة بين المعسكرات المتحاربة.

وتجمعت المؤامرات من كل ناحية لتقضى على ثورة صلاح الصباغ ورشيد الـكيلانى فلما قضى عليها بالتآمر والخيانة ـ كما حدث بالنسبة للثورة العرابية عام ١٨٨٢ فى مصر وثورة فلسطين عام ١٩٣٦ — شأنهم دائما — أعلن كبير لهم مامعناه : أن الثورة العراقية كان يمـكن أن تقلب ميزان القوى وتغير نتائج الحرب العالمية الثانية تغييرا عكسيا .

وكان حقاً على الاستعمار البريطانى أن يحكم بالاعدام على هذا البطل وأن يرفع جثمانه الطاهر فوق وزارة الدفاع فى بغداد وذلك فى محاولة يائسة

للقضاء على تيار الوحدة العربية فى العراق وتأكيدا لمعنى التجزئة والانعزالية والتبعية لبريطانيا .

يقول صلاح الدين الصباغ : « لقد سلمنى الأتراك ، فنقضوا عهود الشرف والقوانين المرعية فى بلادهم . سلمونى إلى الإنجليز على الحدود السورية بمعونة الدرك السورى فى ميدان أكبس . إن رجال سوريا والعروبة يشهدون بأنى لو كنت ذا (نزعة عراقية إقليمية) لأصبحت الآن أعلى من نورى السعيد ومن عبد الإله مقاماً عند الإنجليز وإن تضحيتى فى سبيل فلسطين وسوريا هى التى أوصلتنى إلى هذا المآل .

رحم الله صلاح الصباغ فقد كان رائداً من رواد الوحدة العربية . . وأن الشعلة التى أوقدها لم تنطفىء . ولن تنطفىء

* * *

وملخص حياة صلاح الدين الصباغ أنه ولد عام ١٨٩٩ فى الموصل ، وتعلم فى بيروت ثم سافر إلى الاستانة حيث التحق بالمدرسة الحربية عام ١٩١٤ واشترك فى الحرب العالمية الأولى ، ثم التحق بالجيش السورى فى حكومة فيصل ، حتى احتل الفرنسيون سورية وبقى أسيرا فى جزيرة ارواد ، ثم التحق بالعراق بعد قيام حكومة فيصل فكان أول معلم للخيالة فى الجيش العراقى وتخرج فى كلية الأركان الحربية فى بغداد ، وكلية الأركان فى بريطانيا وظل يترقى حتى أصبح قائد الفرقة الثالثة عام ١٩٣٧ وناهض بكر صدقى سبيل العروبة . وهو عربى الأم والأب من آل الصباغ بصيدا قرب بيروت وجده مفتى السادة الشافعية .

استشهد عام ١٩٤٥

طاهر الجزائرى

مجدد الاسلام والثقافة العربية

١٨٥٢ — ١٩٢٠

* لـكل أمة شعاراً إذا تركته طمع فيها واستضعف جانبها وربما صارت بعد مدمجة فى غيرها ، وقد سعى أناس من عهد بعيد فى أن يضعفوا ما يقوى أمر الإسلام عموماً والعـــرب خصوصاً ، فنجحوا بعض النجاح ، فطمعوا فى أن يقضوا عليه فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من أضعاف أمر اللغة العربية والسعى فى تبديل خطها والتزهيد فى الـكتب التى كتبت به ، جعلوا ذلك دأبهم وديدنهم ، حتى أثروا فى كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم فى غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الأمم ، ثم زاد الأمر فطمعوا فى تبديل التاريخ الهجرى .

* إن الأمة فى احتياج شديد إلى من يبين لهـــا الطريق الأقوم من أرباب الوقوف والاخلاص ، وأعظم ما يحتاج اليه هو أمر الأخلاق وما يتعلق بها ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالى الأمور .

* مما يهم الأمر فيه إصلاح العادات فإن فى الشرق كثيرا من العادات التى ينبغى إبطالها ، كما أن فيه كثيرا من العادات التى يجب المحافظة عليها .

« طاهر الجزائرى »

يعد العلامة طاهر الجزائرى من أبرز النوابغ فى العالم العربى فى العصر الحديث وهو من طائفة العاملين فى أبحاث الكتب والمخطوطات والتراث، وذلك فن رفيع وجد رعاية فى مطالع هذا القرن فى ظل اتجاه الحرص على بقاء كنوز الفكر العربى الاسلامى فى أرضها وحمايتها من التلف والضياع والهجرة. وعلى رأس هذا الفريق : على مبارك وطاهر الجزائرى وأحمد زكى الملقب بشيخ العروبة وأحمد تيمور وكرد على والكرملى .

وإذا كان على مبارك فى مصر قد ضم المكتبات القديمة المنشورة هنا وهناك فى دار الكتب التى أقيمت فى باب الخلق وكان يطلق عليها « الكتبخانة » فان طاهر الجزائرى فى دمشق قد قام بنفس هذا العمل . غير أن الجزائرى كان « كتابيا » أصيلا عريق المعرفة فى فنون الكتب ، جيد المعرفة لها ، فقد أغرم منذ مطالع شبابه بالمخطوطات ، وأخذ يبتاع الدشوت والرسائل المخطوطة ويكدسها ، ويقرأها ، ويعلق عليهـا ، حتى استقامت له مكتبة ضخمة .

حتى [1] قل أن يدانيه أحد فى علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وأما كن وجودها وما عرض لها وأن المخطوطات التى طالعها ولخصها فى كتانيشه وجذاذته فتعد بالمئات ، ولطالما رحل من بلد إلى بلد ليطلع على مخطوط حفظ فى بعض الخزائن الخاصة .

وقد باع قسما عظيما من مكتبته قبل أن يهاجر من دمشق إلى القاهرة ١٩٠٧ وباع القسم الآخر فى القاهرة إلى دار الكتب وإلى الخزانة التيمورية

---

(١) محمد كرد على : كنوز الأجداد

والتركية . وبقي نحو خمس عشرة سنة من عمره الأخير يعيش من كتبه ، ويرفض قبول الرواتب والمناصب، وربما باع هذه الكتب بأسعار زهيدة إلى من يحفظها في مصر والعالم العربي ورفض الأسعار العالية التي قدمت إليه من طلاب تصديرها إلى جامعات أوربا ومكتباتها .

وكانت مجالسه مع أحمد زكي وأحمد تيمور في مصر ، مجالس مذاكرة للكتب والمخطوطات وكثيرا ما يذكر لجالسيه أن الكتاب الفلاني طبع في المحل الفلاني في العام الفلاني وإذا ذكر أحدهم كتابا نادرا سأله : هل رأيته بعينيك، أم سمعت عنه — وقد ساح في طلب الكتب فقصد إلى أوربا والاستانة وجزيرة العرب

ويروي عيسى اسكندر المعلوف أن المستشرقين فاوضوه في أمر المخطوطات ومظانها يقول : كأنه مع معارفه الكثيرة ومؤلفاته العديدة ، قد اختص بفن المؤلفات ومعرفة المفيد منها ، وتميز نفائسها ونوادرها ، فكان آية في هذا العلم الذي أهتم به الافرنج وسموه « علم وصف الكتب » .

وقد كان غيورا على مشاريع احياء المكتبة العربية وقد اهتز لمشروع زكي باشا الذي حققه عن طريق أحمد حشمت ناظر المعارف باعتماد عشرة آلاف جنيه لطبع بعض المخطوطات ، فلما مضت السنون ولم يخرج زكي باشا شيئا ألغى الاعتماد باستقالة حشمت ، فقال له الشيخ الجزائري : لقد أسأت إلى الأمة العربية بإبطالك إخراج الكتب للناس ، وإذا إدعيت انك تقصد نشرها سالمة من الخطأ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق فالتأنق لأحد له ويكفي أن ينتفع الناس بالموجود .

ولم يكن لطاهر الجزائري مؤلفات ذات بال ، فقد كان معلما يؤلف الرجال ، وهو أستاذ ذلك الجيل العريق الذي ظهر من الشام وأثر في الفكر

العربى الاسلامى كله أبعد الأثر : عبد القادر المغربى ومحب الدين الخطيب ومحمد كرد على .

وكان أبرز أعماله تلك الكناشات والجذاذات التى لخص فيها قراءته فى المخطوطات وتعد بالمئات وهذه لم تطبع ، له زهاء أربعين مصنفا ورسالة وكتاب فى العلوم المختلفة، وقد أحيا من كتب القدماء عشرات ، ويرى بعض اقرانه أمثال السيد الالوسى أنه ما كان يجب أن يضع تآليف مستقلة ينسبها لنفسه وما كان يحب أن يدون آراءه وأفكاره العلمية ، وإنما كان يفضل أن يختار للقارىء أحسن وأنفع ما فى كتب العلم والتاريخ من المسائل والمباحث شأنه فى ذلك شأن كثير من علماء السلف ، وكان يحب أن يترك كنانيش أودعها أحسن ما وقع عليه نظره مدة خمسين سنة من عمره بحيث لو جمعت هذه الكنانيش وطبعت لبلغت بضعة عشر مجلدا .

أما المجال الحق للعلامة طاهر الجزائرى فقد كان مجال التربية والتعليم وبناء المثقفين الاعلام ويعزى إليه الفضل فى ظهور كثير من الادباء « فهو الذى ربى فيهم روح الاقدام والشجاعة الادبية اللتين تبنى عليها روح الأعمال ، وكان يوصى تلاميذه بقراءة مؤلفات تناسب ثقافاتهم ، ونفسياتهم » فقد أوصى « محى الدين رضا » بقراءة كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة» يقول فلما قرأته استفدت منه كثيرا ، وهو من أهم الكتب المؤثرة فى الأخلاق وآداب السلوك فضلا عن عبارته الطيبة .

وكانت نصيحة طاهر الجزائرى : « الاقلال من القراءة فى أيام العطلة والاكثار من الرياضة والتنقل فى الحدائق ،ذلك أن الانعكاف على الكتب يحبب الوحشة والانعزال عن النفس ، فتصبح نفورا من كل جليس ، وبذلك تسوء اخلاقك ويقل اعتمادك على أفكارك ، ولتكن قراءاتك أشبه بمحادثة

بينك وبين من تقرأه فلا تتخذ كل قضية بالتسليم التام ، لانك إن لم تعلل فكرك فيما تقرأ لايلبث أن يذهب كل ما يمر أمام عينيك من الصور الجميلة » .

وكان يعلم الناس على نحو من الرفق والاناة وكان يهدف إلى تجلية الفكر العربى الاسلامى من التزييف ، والكشف عن جوهره ، وإزالة ما لصق به من جمود ومبتدعات وزيوف ، وكان من أجل ذلك يستنسخ المؤلفات التى تتناول هذه الحقائق ، ويرسلها إلى أسواق الوراقين ، حتى تقع فى أيدى المثقفين ، فتحول أفكارهم ، دون أن يصطدم بهم ،وكانت له آفاق واسعة فى البحث والدراسة، ومناقشات عريضة، فقد جمع حوله أهل جيله من مختلف ألوان الدراسات والمذاهب والمفاهيم فى رحابة صدر ، ودون أن يصادمهم فى معتقداتهم ، ولكنه كان يثير فى نفوسهم المعانى الرصينة ، والأمثال العالية والقيم الايجابية المستمدة من جوهر الفكر العربى الاسلامى ، فيزحزحهم عن معتقداتهم وكان إلى ذلك يكره من علماء المسلمين إيراد ما يضيق السبل ، إذ يصرف الناس عن الدنيا ، أو يومى باليأس أو الزهد ، معلنا دائما أن فى الفكر العربى الاسلامى قوة وحركة وإيجابية ، وكان يعلم المتعلم ولا يشعره أنه يعلمه ، بل يوهمه أنه يذاكره فى مسائل التربية والتعليم أو أنه يحاول أن يتعلم منه .

وقد أعانه على ذلك ثقافة واسعة عميقة وإلمام تام باللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية ، وقد قرأ بها جميعاً فأصبح كما وصفه تلميذه كرد على أشبه بمعلمه « انسكلوبيد » و بأنه سيارة أو خزانة علم متنقلة . .

وكان عصرى الفكر يلم بالموسيقى والتمثيل والفنون ، ويصلى فى الحدائق العامة ، يحب السباحة والعوم ، ويهوى السير على الاقدام ، وكان أحياناً يجلس

فى ظل شجرة يقرأ ، ويحمل فى جيوبه كافة حاجاته : الدفاتر والرسائل والأقلام والدواة .

وكان إلى ذلك عف النفس ، عالى الهمة ، يرتفع على الدنايا ، ويستعلى عن أن يطلب من أحد شيئا، عزوفا عن مواقف الذل .

وهو جزائرى الأصل ، وفد والده مع الأمير عبد القادر الجزائرى إلى دمشق ، وولد هو بها ، وقد أتم دراسته وثقف نفسه ثقافة شاملة ، فدرس العلوم الطبيعية والفلكية والتاريخ والآثار ، واتقن اللغات ودرس العلوم الاسلامية ثم تولى التعليم فى المدرسة الظاهرية ، والجمعية الخيرية وعمل فى ديوان المعارف مفتشا عاما فى عهد مدحت باشا والى سوريا وانشا المكتبة الظاهرية فى دمشق وجمع فيها ما تفرق من المخطوطات فى عشر مدارس وسمت باسم الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ،وكان ذلك عام ١٩٢٦، ولقى فى سبيل ذلك مقاومة شديدة، كما أنشا فى القدس المكتبة الخالدية وأولع منذ صباه بكتب شيخ الاسلام « ابن تيمية »وكان الفقهاء فى عصر يكرهون هذا الإمام، فنشر من مؤلفاته، وهو فى هذا الجانب يشترك مع الشيخ محمد عبده فى دعوته إلى التوحيد الخالص ، والعودة إلى منابع الاسلام السمحة وقد جمع فى مفاهيمه بين الرواية والدراية، وأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص

ثم هاجر من دمشق عام ١٩٠٧ فأقام بها إلى عام ١٩٢٠ ، ولم يهزه نشر القانون الأساسى فى المملكة العثمانية عام ١٩٠٨ ولذلك عول على البقاء فى القاهرة حتى عاد قريبا من وفاته بأشهر قليلة . وعاش حياته فى مصر على مؤلفاته وآثاره يبيعها بالتدريج خلال نحو أربع عشرة سنة مرتفعا عن أى عطاء .

وتتكشف عصارة فلسفة « طاهر الجزائرى » ومفاهيمه من خلال كلماته الموحية المضيئة .

« أن أفضل الطرق فى إنهاض شعب ، تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين ، وهذه طريق طويلة ولـكنها أمينة الفائدة ؛ لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعى، أما القول بالتوارث وطرق العنف فقد تنجح ونجاحها قليل وليست مضمونة ».

« إذا اردتم النجاح فلا تلقوا بآذانـكم لما يقال فيـكم من مدح وقدح ، وسيروا إلى الهدف بقدم ثابتة ، تفلحوا، وتوقوا إضاعة الوقت بالقال والقيل ».

« إياكم أن تخطوا فى رسائلـكم إلى إخوانـكم ما لا تريدون أن تقولوه جهرة ، فـكل ما يـكتب لا يؤمن نشره ، يفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه».

« تعلم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ، ولا تتعب نفسك كثيراً ، فلا خير للمرء با كراهه على معاطاة أمر تضيق به نفسه » .

«تعلموا ما تيسر لـكم تعلمه ، ولو لغة مالطة ، فقد يجىء زمن تحتاجون إليها وإيا كم أن تقولوا : أنها لا تدخل فى نطاق اختصاصنا ، فالعلم كله نافع ، والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة » .

«فروا من الموتورين والسوداويين فراركم من الوحش، فهذا أحسن علاج لهم ، ولا تضيعوا أوقاتـكم فى استصلاح من لم يرزق الاستعداد الـكافى لقبوله فمن الناس من خلقوا للسكة والفدان ، ومنهم من تهيأت نفوسهم لمجالس العلم والأدب ، وللجلوس فى مقاعد دور الندوة ودواوين السياسة ».

« تعلموا العلم لله ، ولفائدة العلم ولذته، وليـكن لـكل واحد منكم صناعة أو تجارة أو زراعة تعيشون منها أحراراً حتى لا تحتاجوا إلى قرع أبواب الملوك والحـكومات ، فإذا احتاجوكم نادوكم ، وإلا فأنتم بما لـكم من أسباب المعايش لا تحتاجوهم » .

« لو بلغنى أن أهل البلد كلهم راضون عنى ، ليس لى من منهم عدو ، لعدوت نفسى ساقطاً ، لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعاً

فقاًنما ، يظهر لـكل واحد بما يرضيه ، والمصالح لا يخلو من اعــداء وأصحاب . . »

«قدر قول خصمك ، وراعى الصراحة التامة ، واترك السباب جانباً وإن وجدت فى نفسك ضعفاً فى الحجة ، فالجأ إلى العواطف الوطنية والدينية بطريقة الشعريات» .

«إن الاتقان لا حد له والأغلاط تصحح مع الزمن » .

« إن الاقتباس عن الأمم المترقية دليل على النباهة لا كما يظن البله من أن فى الاقتباس غضاضة . ونريد بالاقتباس ما يشعر به هـذا اللفظ من تلقى الأمور النافعة» .

* * *

وإذا كان طاهر الجزائرى مرجعاً فى المخطوطات لا يبارى ، ومعلماً يصنع الرجال ، وإذا كانت آثاره المطبوعة قليلة ، فقد كانت له رسائل بعث بها إلى أصدقائه وتلاميذه تمثل منهجاً عاماً المثل الأعلى ، والتربية والثقافة للعاملين فى مجال الدراسات والمعلمين والقادة ، وقد كانت آماليه فى مجالسه أيضاً غاية فى العمق والفهم للحياة والمجتمع .

ولا شك كان لظروف العصر الذى عاشه واضطرابه أبعد الأثر فى بقاء آثاره غير مطبوعة ، أو إيثارة الـكلمة المقولة على الـكلمة المكتوبة ، وكذلك كان جمال الدين الأفغانى الذى لم يؤثر عنه كثيراً من المؤلفات وان أجمع له السيد المخزومى كثيراً من خواطره وأفكاره .

ولعل تجربة الجزائرى مع تلميذه « كرد على » مثل لعمله فى بناء الشخصية عن طريق التوجيه الشفوى أو الرسالة المـكتوبة وهو فن جدير بالدراسة فى هذه المرحلة من تاريخنا .

وكان أبرز ما يعلق عليه الأمل فى بناء الأمة: « الثقافة والخلق » يقول فى خطاب لكرد على: إن الأمة فى احتياج شديد إلى من ينير لها الطريق الأقوم، من أرباب الاخلاص وأعظم ما يحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلق بها ، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالى الأمور .

أما التربية فإن مفهومه لها غاية فى التقدمية والإيجابية معاً :

« إدخال التربية العلمية فى المدرسة ، وذلك بتعود التلميذ على الصدق ، وان لا يتكلم فى شىء إلا بعد أن يختبره ، فإن الشرقى اعتاد أن يدعى كل شىء ، وأن لا يقول فى شىء لا أعلم ، وعلى ذلك يعود التلميذ على أن لا يتكلم بما لا يعلم وأن يتفكر قليلا إذا سئل عن شىء لم يسبق له به اختبار ».

ويرسم منهج البحث العلمى فيقول : من أراد وصف كتاب ينبغى له أن ينظر فيما قاله مؤلفه فى مقدمته أو فى خاتمته ، أو فيهما معاً ويأخذ خلاصة ذلك مع بيان موضوع الكتاب والداعى إلى تأليفه » .

وهو على وعى تام بدعوة التغريب حيث يقول :

عجيب لمن يسعون فى أن نهجر التاريخ الهجرى ، ويفاتحوننا فى ذلك . كأنما لا يعلمون إنا نعلم ما يرمون إليه عن بعد. لكل أمة شعار إذا ما تركته طمع فيها ، واستضعف جانبها ، وربما صارت بعد مدمجة فى غيرها ، وقد سعى أناس منذ عهد بعيد فى أن يضعفوا ما يقوى أمر الإسلام عموماً ، والعرب خصوصاً ، فنجحوا فى بعض النجاح فطمعوا فى أن يقضوا عليه ، فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية والسعى فى تبديل خطّها والتزهيد فى الكتب التى كتبت بها ، حتى أثروا فى كثير من أبناء جلدتنا

الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الأمم فكان ما كان مما هو معروف . . »

* * *

عاش طاهر الجزائرى مؤمناً بدعوته إلى تربية جيل وبناء قادة ، على نحو يربط بين الإسلام والعروبة ، ويستقبل الحضارة والفكر الإنسانى على قاعده مقومات فكرنا العربى الإسلامى ويواجه خصوم اللغة العربية والفكر العربى فيكشف شبهاتهم ويحافظ على التراث العربى ، ويحميه .

وقد كشف فى رسائله عن نجاح خطته هذه فقال : كان كثير من الحشوية يلومونى فى تبنية المؤلفين والطابعين على ما يلزمهم ، ويقولون إن هذا لا يفيد غير العـــداوة ، وأنت تضرب فى حديد بارد وما دروا أنى ممن يقول بأن العداوة فى محلها أجدى عندى من كسب المحبة على غير وجهها . . غير أن الزمان أبان لى أن كل نصيحة لا تخلو من تأثير ، ولو بعد حين ، فإن كثيراً ممن لحقتهم صدمة منا ومن إخواننا الذين أعطوا عهداً أن لا يغشوا الأمة قد صاروا يراجعون أنفسهم .

توفى بدمشق فى ٥ كانون الثانى « يناير » سنة ١٩٢٠

١ — مؤلفاته المطبوعة

* إرشاد الألبا إلى طريق بقلم ألف با .
* تسهيل المجاز إلى فنى المعمى والألغاز .
* التعريب لأصول التعريب .
* الفوائد الجسام فى معرفة خواص الأجسام .
* مراقى علم الأدب .

٢ — مؤلفاته المخطوطة :

* مقدمة معجم اللغة الذى ألفه ولم يطبع .
* الرسائل والكتب والمقالات والتعليقات .
* مذكراته البالغة عشرات من المجلدات .
* وصف الرسائل والكتب المطبوعة والمخطوطة .

(اعتمدنا فى هذا البحث على دراسات كرد على ومحب الدين الخطيب وما نشره المقتطف مجلد ١٩٢٠)

طنطاوى جوهرى

داعية السلام العالمى

١٨٧٠ — ١٩٤٠

« خلقنى المولى محبا لعجائب الدنيا ، معجبا بغرائب الطبيعة معتزاً بالجمال الذى أرى فى السماء ، فخوراً بعظمته ، ان كال الأشبال المنبثقة عن الأرض كتاب مفتوح تحت ناظرينا يتحدث الينا ، ولا شك أن فى هذا كله جمالا لمن كانت له عينان أو القى السمع وهو شهيد

« القرآن يحث على التفكير والتأمل ، ولقد حفظت القرآن عن ظهر قلب دون أن أعمل فيه العقل كما لو لم يكن هذا الكتاب مرشدا ينير العقول » .

« لم يكن لى مدرسة إلا الحقول التى كنت أعمل فيها »

« لما كنت فى الأزهر كنت أحس بميلى الشديد إلى الكواكب والنجوم ، وكم ليلة قضيتها أحملق فيها معجبا بجمالها وأحست فى نفسى بحزن عميق لجهلى بهذه الأكوان » .

« لقد أضاع الإسلام : ملك ظـــالم وصوفى طامع وفقيه جاهل » .

(طنطاوى جوهرى)

* * *

شخصية باهرة ، لفتت الأنظار بطابعها وحركتها ، وكان عمادها وهدفها هو إعطاء الإسلام مكانته فى مجال العلم الحديث والحضارة البشرية . فالاسلام فى عصارة فكرته : منبع سعادة الدنيا والآخرة ، وأن المسلم يجب عليه أن يصلح حال دنياه مع سعيه بصلاح آخرته وإن كل تقصير فى الوسائل التى ترقى الناس فى دنياهم يكون سببا فى انحطاطهم وتسجيل الشقاء عليهم » .

ولاشك أن طنطاوى جوهرى قد عاش إمتداد حركة اليقظة الإسلامية العربية ملتمسا مفاهيم جمال الدين ومحمد عبده فى فهم القرآن واضعا لبنة جديدة فى هذا البناء حيث التمس عن طريق تفسير القرآن شرح العلوم الإسلامية والكونية والسياسية والإجتماعية مركزا أكثر تركيزا على السنن الطبيعية التى تؤدى إلى نهوض الأمم وسقوطها .

وقد أمدته دراساته فى الأزهر ودار العلوم واتصالاته بمستحدثات العلوم والدراسات ومعرفته لعدد كبير من الباحثين والعلماء فى الشرق والغرب وإطلاعه على أفكار الفلاسفة فى القديم والحديث كل ذلك أمده بحصيلة ضخمة من الخبرة والتجربة التى صاغت مفهومه لنظرية «عوامل تقدم الأمم وتأخرها» ومعرفة سر تأخر المسلمين وعوامل نهضتهم .

وعنده أن السر فى تدهور المسلمين وضعفهم إنما جاء نتيجة لاقترافهم الذنب الأكبر فى تقديره وهو « الجهل بالعلوم وجعلها فرض كفاية » وأن عامل النهضة هو مكافحة الجمود والانحراف والأخذ بأسباب العلوم الحديثة .

وبين أن الإسلام سوى بين العلوم على تباين مشاربها « وأن الله لم ينزل آيات المحيض ولم يجب عن الخمر والقمار أو معاملة اليتامى إلا بعد السؤال ، ولكنه أنزل ناموس النبات وعجائبه والنجوم وغرائبها بغير سؤال من أحد .

وأولى طنطاوى جوهر دراسات الطبيعة والحيوان والطير والهوام والحشرات أهمية واسعة ، كما احتفل بأمور الفلك والكواكب .

ويمكن القول بأن رسالته التى حمل لواءها فى دراساته عن القرآن كانت محاولة التوفيق بين الدين والعلم وبين المدنية والعلم .

غير أن العلامة طنطاوى جوهرى أولى اهتمامه لأمر آخر هو « السلام العالمى » ووضع نظرية فى هذا المجال استمدها من مفاهيم القرآن وخلاصة رأيه « أن سياسة الأمم أن لم يكن بناؤها على حساب كحساب العلوم فإن النوع الإنسانى سيحل به الدمار ولايستحق البقاء» وقد جعل علوم الرياضة والفلك والنبات والكيمياء والتشريح وعلم النفس وسيلة توصل بها إلى حل مشكلة السلام العام وله فى الدعوة إلى السلام كتابان وجههما إلى العالم كله هما :

أين الإنسان و (أحلام السياسة وكيف يتحقق السلام العام).

أما كتابه «أين الإنسان» فقد صاغه المؤلف على هيئة رواية سياسية فلسفية : تناول فيها آراء الفارابى وابن طفيل وتوماس مور فى المدنيـــة الفاضلة أو (اليتوتوبيا) .

وقد تقدم عام ١٩٣٩ بكتابيه هذين إلى الدوائر الغربية لنيل جائزة نوبل للسلام لما وجد من اهتمام الباحثين الغربيين بها ، وقد رشحه للجائزة الدكتور مصطفى مشرفة بوصفه عميداً لكلية العلوم والدكتور عبد الحميد سعيد .

وقد أولى طنطاوى جوهرى سائر المعارف الإنسانية اهتمامه وتقديره فكان معنيا بالبحث فى الأرواح ، وكان يجتمع من طائفة من المثقفين وأهل الفضل فى منزل أحدهم ، ومما يروى عنه أن أحد الحاضرين طلب روح جان

دارك فلما حضرت ، وكانوا يحدثونها بالفرنسية ، ضجر الشخ وقال : إنما نريد روحا نفهم كلامها باللغة العربية ، ولكن روح هارون الرشيد مثلا !!

* * *

وبعد فالشيخ طنطاوى جوهرى واحد من جيل التحديات الذى عاشه محمد عبده وعبد العزيز جاويش ورشيد رضا فى مصر وعبد القادر المغربى وجمال القاسمى فى الشام وهو جيل ولد فى أتون معركة ضخمة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى . معركة غير متكافئة ، حيث كان الاستعمار قادراً على فرض فكره ومنهجه بقوة الإحتلال وبنفوذه السياسى والعسكرى ومن هنا فقد اتجه هؤلاء إلى كل أمر من شأنه أن يكشف الحقيقة ويزيل عن الفكر الإسلامى غبار فترة الضعف . فالطنطاوى معلم ومؤلف إنما يريد أن يوقد مصباحا فى المجال الذى يرى أنه جدير بإلقاء الضوء عليه . وقد عنى عناية كبرى بآيات القرآن فى الكون وشغل بها شغلا جما ولكنه لم يقف عندها ، فقد تخطاها إلى مجالات أخرى من الدراسات الإسلامية ، والحديثة :

(أولا) عنى بالموسيقى العربية ودرسها ، وتحدث عن علم الموسيقى حديث خبير وربطها بالفكر الإسلامى فتحدث عن موقف الاسلام من الأغانى والفنون ولم يفته أن يذكر آراء أفلاطون وفيثاغورس وهيرودتس وشكسبير وجمع نوادر الفلاسفة فى الموسيقى ، ثم تحدث عن الموسيقى والفنون فى مصر فى العصور الأخيرة .

(ثانياً) عنى بالتربية وترجم كتاب الفيلسوف الألمانى (كانت) عن الانجليزية ولم ينس فى هذا المجال عن تصوير مفهوم الإسلام للتربية ، كما

ناقش بعض آراء كانت واهتم بآرائه فى التعليم الدينى وأبرز جوهر التربية الإسلامية .

(ثالثاً) عنى بالمجتمع، وتناوله بالدراسة فى كتابين سوانح الجوهرى ونهضة الأمة وحياتها : تناول فيهما مختلف جوانب التركيب الإجماعى للامة ، وكل ما يتصل بالأنظمة النيابية ، والأزهر والحضارة ، والجندية كما تحدث عن الوطنية والاقتصاد والزراعة والتعليم .

(رابعاً) عنى بالشخصية الإنسانية ومكانها العالمى فى كتابه : أصل العالم وأين الإنسان وعلاقة الإنسان بالحضارة . ونواميس الطبيعة والنظم الفلكية والفطر الانسانية .

وقد دارت مؤلفاته العديدة التى أحصاها الأستاذ على الجبلاطى فى دراسته الموجزة فى سبع وعشرين مؤلفا حول موضوعات السلام العالمى ، والطبيعة والعلوم والكونيات . وكانت أشبه بدائرة معارف تدور حول القرآن والفكر الإسلامى كأساس لبناء النهضات وقد استخلص من دراساته منهجا للنهضة يتمثل فى عناصر أربع :

* مزج علوم الحياة بالدين .
* تعميم الأدب الاسلامى ، والربط بين علماء الدين ومشايخ الصوفية .
* الاهتمام بالصناعة والصناع .
* الاهتمام بالأدب الشعبى وشعر الربابه .

وقد رأى فى مواجهة الموجة السائدة إلى تحرير النهضة من القيم الدينية أن يؤكد ضرورة قيام النهضة على أساس الدين والأخلاق . ويلتمس من الحضارة الغربية: القوة والعلم ، وحدهما.

كما أولى الشيخ طنطاوى اهتمامه للرد على ماوجهه الغربيون للاسلام من مطاعن فاهتم بالرد على اللورد كرومر عن خطأ فهمه لطبيعة الإسلام وأثبت أن البحث العلمى الغربى الحديث إنما هو ثمرة من ثمار الإسلام نفسه.

كما عارض نظرية بعض الكتاب الغربيين فى المفاضلة بين الوطنية والدين وكشف عن أن القيم الوطنية والروحية فى الأسلام مترابطـــة لا يمكن الفصل بينها .

وقد أولى الباحثون الغربيون اهتماماً كبيراً بالعلامة طنطاوى جوهرى وتحدثوا عن مؤلفاته وآثاره، وأهتم به على اهتماماً كبيراً البارون كراديفو فى كتابه (مفكرو الإسلام) حين وصفه بأنه واحد من المصلحين الذين ربطوا بين جوهر الاسلام وبين النهضة الحديثة !

قال كراديفو : إن الأزهر أظهر ثلاثة مصابيح : هم محمد عبده ورفاعه الطهطاوى وطنطاوى جوهرى .

كما ذكره تشارلز أدمز فى كتابه (الإسلام والتجديد فى مصر) كواحد من تلاميذ محمد عبده ، فى مدرسة التوفيق بين المـــدنية الغربية والإسلام وقال الدكتور هارتمان: أن طنطاوى جوهرى يسير على نهج الإمام محمد عبده فى فهمه أن الاسلام هو دين العقل والفهم لا التقليد، وأن العلم إذا أحسن فهمه يصبح أداة صالحة لفهم الدين ومثل مناهضته للمغالاة فى تقديس الأولياء ومثل قوله بأن الاقتصار على مذهب واحد من مذاهب الفقه سبب للجمود والتأخر فى الاسلام وأن الاجتهاد هو خير حل لجميع العلل » .

* * *

والحق أن طنطاوى جوهرى قد عانى قضايا عصره وادلى فيها بدلوه على على نحو يكشف عن تقدميته الواضحة وتجديده الذكى مع المحافظة على القيم

الأساسية فهو يهاجم جمود الفقهاء وانحراف الصوفية ، ويدعو إلى التماس المسلمين للعلم بمفهومه العصرى (الطب والهندسة والعلوم الكونية) وله فى ذلك لفتة بارعة حيث يرى أن القرآن تحدث عن العلم تلقائياً وأنزل ناموس النبات وعجائبه والنجوم وغرائبها ، وقرأها النبى للمسلمين بغير سؤال من أحد ، أما آيات الخمر والمحيض والقمار ومعاملة اليتامى فان القرآن لم ينزلها إلا بعد السؤال عنها وهذا تقديم واضح لركيزة أساسية من ركائز الفكر الاسلامى والانسانى وهو « العلم » :

وقد رد جوهرى ضعف المسلمين . وانهيار دولتهم إلى الجهل بالعلوم بعد أن أصبحت فرض كفاية وكانت فى عز نهضتهم فرض عين .

كما دعا إلى تعلم اللغات الأجنبية ، والقوة ، والصناعة .

* * *

ولد طنطاوى جوهر سنة ١٨٦٢ فى قرية عوض الله حجازى من قرى الشرقية (بريف مصر) وحفظ القرآن فى مطالع حياته ثم التحق بالأزهر ١٨٧٧ حيث استكمل تعليمه فلما وقعت الثورة العرابية خلال هذه الفترة اضطر أن يقفل إلى قريته سنة ١٨٨٢ بعد خمس سنوات ، ثم عاد إلى القاهرة كرة أخرى بعد أن انقضت أحداث الثورة ثم انتقل إلى دار العلوم فالتحق بها عام ١٨٨٩ وبها تفتحت آفاقه إلى ثقافة أوسع ، فقد هزته ، دراسات العلوم الطبيعية والفلك وعلوم النظر والآلات الدقيقة التى بدأ يمارسها فى دار العلوم حتى قال : كنت فى هذه المدرسة أحس نفس إحساسى حين كنت فى الحقول ، أقرأ فيها ما يروى ظمأ روحى لما تريد »

وكان قد رافق الطبيعة فى الريف وأحبها وشغف بها وعايشها معايشة التأمل ، وذلك بالاضافة إلى اهتماماته بالحيوانات والحشرات والطيور ، هذه

الحصيلة التى عاشت فى حضانة فكره وارتبطت بالقرآن الكريم ثم كانت ولادتها فى ذلك التراث الضخم الذى أنشأه تفسيراً وعرضاً، وقد عمل طنطاوى جوهرى مدرساً فى دمنهور ، ثم انتقل إلى مدارس الجيزة والقاهرة ، حتى عاد إلى دار العلوم استاذاً ومعلماً عام ١٩١١ وكان فى ذلك الوقت قد تعلم الانجليزية وأتقنها وترجم عنها وبدأ الخيط الأول فى تفسير القرآن فى مجلة الملاجئ العباسية ثم اتصل عمله .

غير أن خطة الوطنية وإيمانه بالحرية ازعج الدولة المحتلة فاقصته عن دار العلوم سنة ١٩١٤ . وقد اتهم بإثارة روح الوطنية والحرية بين الطلاب ، ولم تتوقف متابعة الاحتلال له ولم يتوقف هو عن العمل ففى خلال أحداث ثورة ١٩١٩ فتش منزله وضيق عليه وكانت مقالاته عن (الأمم المستعبدة وكيف تقاوم) تهز قراء جريدة اللواء .

وفى عام ١٩٢٢ ترك العمل الرسمى لبلوغه سن الستين ولكنه ظل يعمل فى مجال الفكر متحرراً من كل قيد حتى توفى فى يناير ١٩٤٠ وهى فترة خصبة رائعة ، أتاحت له الفرصة لإعداد كتابه الكبير «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » فى ست وعشرين جزءاً.

وقد لخص تلميذه الاستاذ مصطفى السقا خلاصة فكرته فى تفسير القرآن على أن الدين الاسلامى منبع لسعادتى الدين والآخرة ، وأن المسلم يجب عليه أن يصلح حال دنياه مع سعيه لصلاح آخرته ، وأن كل تقصير فى الوسائل التى ترقى الناس فى دنياهم تكون سببا فى انحطاطهم وتسجيل الشقاء عليهم » وخلاصة القول أن تفسيره عصارة « تجربة عميقة » دامت نصف قرن قضاها بين الأزهر ودار العلوم والاطلاع الواسع على الأفكار الدائمة بين فلاسفة الشرق والغرب ومعرفة سر تأخر الأمم الاسلامية .

ولم يمنعه عمله فى التفسير من أن يظل موصول الأواصر بشباب العالم الاسلامى فى جماعات متعـددة منها جماعة الأخوة الاسلامية ، والشبان المسلمين ونادى دار العلوم ، وكان له دور واضح فى توجيههم وتثقيفهم .

وقد شهد لأبحاثه عشرات من علماء الغرب وتظهر هذه الأيام نغمة تقدير واضحة كما ادخله إلى تفسير القرآن من نظريات العلم الحديث الذى كان يمنعه الاستعمار عن البلاد الاسلامية والأفريقية مما نفع الـكثيرين الذين كانوا يدرسون هذه العلوم من خلال هوامش تفسيره للقرآن .

* * *

عـــزيز المصرى

رجل الحرب والعروبة

١٨٨٠ — ١٩٦٥

« لقد كانت حيـاتى كلها وقفا على خدمة بلادى منذ أيام الصبا المبكرة ، بل أن ذهابى إلى تركيا كان لخدمة الجامعة الشرقية ثم تطورت بعد أن رأيت ما رأيت وعانيت ما عانيت إلى خدمة الجامعة العربية التى يسعدنى أن كان لى جهد متواضع فى إبرازها إلى الوجود . فقد الفت جمعية العهد التى ضمت كل زعمـاء العرب فى الوقت الحاضر ، وفى كل عمل قمت به قصدت وجه الله وإنهاض العالم العربى ، ومن ذلك نصيبى المتواضع فى إبرام المعاهدة بين تركيا واليمن . وفى طرابلس كان هدفى وجهادى يرمى إلى إنقاذ الشعب العـــربى وصيانة استقلاله وكان إيمانى أنه لا يتيسر لأى شخص أن يعمل عملا نافعاً فى ظل الاحتلال .

● إن حياة الانسان كالنهر تبدأ خيطا رفيعا من المنبع ثم تقسع فى طريقه إلى المصب ذاخرا على طول الطريق بأسباب الحياة والحركة» .

عزيز المصرى

حين انطوت حياة عزيز المصرى طوى سجل ضخم لحياة عريضة خصبة عاشت متفاعلة مع أحداث العالم الإسلامى والأمة العربية أكثر من ستين عاماً ، اتصلت بأحداث الامبراطورية العثمانية وحروب طرابلس وفجر الوحدة العربية وبناء مصر وجيشها وبالحربين العالميتين وكانت لها حملتها على أسرة محمد على والملكية والدعوة إلى الثورة والهجوم على بريطانيا وربط جلاء بريطانيا عن مصر بالتخلص من أسرة محمد على .

وقد عاش (عزيز المصرى) حتى تحقق أمله ، ورأى كيف تخلصت مصر من الاستعمار والملكية، وكيف قامت الوحدة العربية وقطعت مراحل فى سبيل تحقيق هدفها . عاش عمره جريئا صريحاً يقول كلمته ولا يخشى السجن أو الاعتقال أو النفى ، واضح الخصومة للاستعمار البريطانى ، معلنا راية لا يخفيه ولا يداريه .

والحق أن (عزيز المصرى) يمثل نموذجا فذا من قادة الشرق والأمة العربية على نحو غير مسبوق ، فهو رجل الحرب والجيش المؤمن بقدرة الثورة العسكرية على تحقيق الأهداف التى تعجز الأمة عن تحقيقها عن طريق دعاة الإصلاح والرأى والفكر .

ويمكن القول بأنه أول مصرى حمل لواء الدعوة إلى (الوحدة العربية) وجهر بها، فقد ألف جمعية (العهد) التى ضمت كل زعماء العرب

ومن أجل هذا الهدف اتجه إلى الكلية العسكرية: يقول: كانت أمنيتى من التحاقى بالكلية العسكرية أن أطرد الإنجليز من مصر وقد ظلت هذه الفكرة هى القوة التى تدفعنى طوال حياتى . .

وعند ما تخرج عام ١٩٠٤ فى مدرسة أركان الحرب بالقسطنطينية (تركيا)

عمل فى هيئة أركان حرب الجيش التركى فى مقدونيا . ثم لم يلبث أسمه أن لمع خلال عمليات حربية متعددة وعند ما شكلت جماعة (تركيا الفتاة) السرية من ضباط الجيش، لم تلبث أن تحولت إلى جمعية (الاتحاد والترقى) وانضم إليها الضابط عزيز على المصرى وجماعة كبيرة من زملائه العرب مطالبين بدستور صالح للامبراطورية . واستطاعت هـذه الجمعية أن تحقق نجاحا عندما صدر الدستور العثمانى عام ١٩٠٨، وكان (عزيز) بارز الجهد فى هذا العمل، ولذلك فقد قبض عليه مع غيره عندما حاول السلطان عبد الحميد استرداد الدستور وكان ذلك علامة على نهاية حكم السلطان الذى عزل عام ١٩٠٩ ، وكان عزيز المصرى أحد الذين اشتركوا فى تخلية السلطان مع القائد محمود شوكت الذى كان أيضا عربياً ومن مصر .

غير أن عبد الحميد لم يكن هو الخطر ضد العرب وإنما كان الاتحاديون هم خصوم الوحدة العربية فقد تحولت (الاتحاد والترقى) للدعوة إلى العنصرية التركية باسم (الجامعة الطورانية) محاولة (تتريك) العناصر العربية فى الامبراطورية .

وهنا بدأت نقطة التحول فى تاريخ العرب وفى تاريخ عزيز المصرى .

فقد أخذ العرب يعملون للتحرر من السيادة العثمانية بالدعوة إلى (اللامركزية) ولم يلبث (عزيز المصرى) أن كون جمعية عربية خالصة تحمل لواء المحافظة على الكيان العربى وتحريره من المحاولة الطورانية : هى (الجمعية القحطانية) وكان عزيز إذ ذاك أستاذ فى كلية أركان الحرب وفى سن الثلاثين. وقد اشتق اسم الجمعية من اسم قبيلة (قحطان) التى تمثل جذور الأصل العربى .

وأتيح لعزيز المصرى أن يحقق بعد ذلك عملين كبيرين :

(أولا) تحقيق الصلح مع اليمين .

(ثانيا) ومحاربة العدوان الإيطالى على ليبيا،عام ففى ١٩١٠ أرسل إلى اليمن

خلال الحرب بين العثمانيين والإمام ، فاستطاع أن ينجح فى تحقيق صلح يسوى الخلافات القائمة ، ويقر الأمن فى ربوع الدولة .

وفى عام ١٩١٢ تطوع فى معركة (ليبيا) فأحرز انتصارات رائعة وقاد المقاومة العربية ضد العدوان الإيطالى مع فريق من الضباط والمجاهدين المصريين وفى مقدمتهم صالح حرب وعبد الرحمن عزام .

وهناك لم يترك عزيز المصرى دعوته ، فأخذ فى بث الفكرة العربية بين الأهلين لإنشاء دولة عربية مستقلة . ثم لم تلبث الأمور أن تعقدت بعد عودته إلى القسطنطينية صيف ١٩١٣ فقد اعتقلت الحكومة الاتحادية معظم إقصاء جمعيته (القحطانية) التى كانت نواة المؤتمر العربى الأول ، الذى عقد فى باريس برياسة (عبد الحميد الزهراوى) ثم ظهر اتجاه الاتحاديين إلى إقصاء الضباط العرب المقيمين فى العاصمة إلى الحاميات البعيدة ، فاستقال من منصبه وأخذ فى خريف ١٩١٤ فى تنفيذ خطة جديدة هى تكوين جمعية سرية تتألف من ضباط الجيش وحدهم ، وأطلق عليها جمعية (العهد) وكان برنامجها يشبه من بعض الوجوه برنامج الجمعية القحطانية مفرغة فى أسلوب عسكرى . هنالك تسرب أمر الجمعية إلى الاتحاديين فاعتقلوا عزيز المصرى وبدأت محاكمته سراً فى (مارس ١٩١٤) أمام مجلس عسكرى . ووجهت إليه عدة تهم أهمها سعيه لإقامة مملكة عربية فى شمال أفريقية يتولى سيادتها ،وتسليم برقة للاطاليين .

وقد أحدث اعتقاله ومحاكمته ضجة كبرى فى العالم العربى كله وفى مصر خرجت المظاهرات تعلن الاحتجاج العام وعقدت الاجتماعات وشنت الصحف حملات عنيفة وتألفت لجنة برياسة شيخ الأزهر للدفاع عنه. ونظم الشاعر شوقى قصيدة فى تبرئته ، وقد أشار عزيز المصرى فى أحد أحاديثه إليها فقال أنها — أى القصيدة — كانت من الأسباب الرئيسية فى إطلاق سراحه من السجن بعد أن حكم عليه بالإعدام .

وقد كان للحكم عليه بالإعدام رنة وصدى . فقد ازدادت المظاهرات والاحتجاجات وأقسم الضباط العرب على الثأر له مما اضطر الحكومة العثمانية أن تخفف الحكم إلى السجن خمسة عشر عاما ، غير أنه لم يلبث إلا قليلا حتى صدر الحكم بالعفو عنه وأطلق سراحه فأبحر إلى مصر حيث استقبل لدى وصوله استقبالا رائعاً .

* * *

وبدأت المرحلة الثانية من حياة عزيز المصرى عندما شبت الحرب العالمية فى نفس العام سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا فى صف الألمان ضد الإنجليز . وسارعت بريطانيا فعزلت عباس حلمى وعينت حسين كامل سلطانا كما أعلنت زوال السيادة العثمانية .

هنالك أرسل رسالة حاسمة إلى زعماء (جمعية العهد) طالبهم فيها بألا يقوموا بأى عمل ضد تركيا مهما كانت الدوافع ، لأن اشتراك تركيا فى الحرب سيعرض ولاياتها العربية للغزو الأجنبى وكان من رأيه الحصول من تركيا على ضمانات قاطعة تحميهم من الأطماع الأوربية . وقد ظن أن الحرب فرصة لتحقيق أمل العرب فى إقامة دولة عربية . وكأنما كان يملؤه إحساس بالدور الذى قامت به بريطانيا من بعد حين اتفقت مع الحرب ثم خدعتهم ، وأعلنت تقسيم العالم العربى بعد الحرب بينها وبين فرنسا مع اعطاء اليهود وعد بلفور ، ومن هنا كان رأيه ورأى الكثيرين أن تركيا تستطيع أن لا تقطع بينها وبين العرب حتى لا تضطرهم إلى الارتماء فى أحضان بريطانيا ولكن تركيا مضت فى خطة عدائها للعرب إلى آخر المدى — بفضل الاتحاديين — فلما وقع الاتفاق بين الشريف حسين والانجليز على معاونة العرب للحلفاء مقابل مساعدتهم على إقامة الدول العربية بعد الحرب ، سافر إلى الحجاز وكاشف الشريف حسين بالموقف على حقيقته ، ودعاه إلى التشبث بحقوق العرب وحذره من الانخداع بوعود بريطانيا التى

تمليها عليهم ضرورة الحرب، ثم لا يلبثون أن ينقضوها من بعد، ثم كانت الخطوة التالية حين اختير لقيادة الجيوش العربية بعد أن أعلن الشريف حسين الثورة، وقد كان حفيا أن يقوم بعمل عسكرى كبير فى هذا المجال ، غير أنه تأكد بنظرته الحصيفة أنه إنما استقدم إلى الحجاز ليظل محبوسا بها حتى لا يقوم بأى نشاط مضاد للانجليز ، واستطاع أن يفلت ، ويروى جورج طنوس فى كتابه (يقظة العرب) أن عزيز المصرى استكشف أن بريطانيا غير مستعدة لأن تعطى العرب عهدا صريحاً محددا بالاستقلال .

فلما أعلنت بريطانيا وعدها فى تصريح مكماهون، قبل السفر إلى جده لتولى شئون القيادة وشرع بما أوتى من همة ونشاط فى خلق نواة جيش مدرب وكانت مهمة شاقة ولكن شغفه بالكفاءة عرضه للاحتكاك بالشريف وهو رجل صلب عسير فتخلى عن القيادة . ويروى المرحوم أمين سعيد فى كتابه (الثورة العربية الكبرى) أن السر الحقيقى لانسحاب عزيز المصرى هو خلاف سرى نشب بينه وبين الانجليز ، فقد ألح على الحسين فى أن يطلب منهم إرسال المدافع التى غنموها من الترك فى ميدان فلسطين ، فلم يرسلوا شيئاً ، وهنا قال ما معناه : يلوح لى أن الانجليز يريدون القضاء على العرب والترك فى وقت واحد، وذلك بأن يتركوهما مهملين حتى يفنى بعضهم بعضا. فلا يرسلون لنا القوى والمعدات لنضرب الترك الضربة القاضية ولا هم يتركوننا وشأننا فيقضى الأتراك علينا ، ومن هنا ألح الانجليز على الشريف فى اقصائه منتحلين بعض الاعذار) .

وهكذا لم يجد عزيز المصرى الجو الصالح للثورة العربية التى كان يحلم بها إذ سرعان ما تكشفت النوايا حين نصب الشريف نفسه ملكا للعرب وبدأ (لورنس) يوجه الثورة لحساب بريطانيا ، واندفع اللورد اللنبى لاحتلال فلسطين . وتحقق ما كان يحدث به عزيز نفسه فخرج إلى أسبانيا حيث أمضى

هناك فترة فى زيارة (الأندلس) وتحول إلى ألمانيا عام ١٩١٨ وبقى بها إلى أن عاد مصر سنة ١٩٢٥ .

* * *

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة من حياته حيث عمل مديراً لمدرسة البوليس والإدارة ثم أختاره الملك احمد فؤاد مرافقا لابنه (فاروق) إلى لندن ، وكان حفيا بأن يكون (ولى العهد) على نحو يجعله صالحا لتولى الملك وخدمة الوطن ، غير أنه لم يلبث أن قطع رحلته وعاد فجأة بعد أن فشل فى توجيه الأمير ، وكان قد حاول أن يعلم فاروق عظمة (احمد عرابى) الذى أسدى لوطنه خدمة كبرى موجهاً إياه بذلك وجهة وطنية خالصة ، غير أن رفقاء فاروق كانوا يحاولون عكس ما هدف إليه ، فقد كان احمد حسنين وعمر فتحى يعارضان ما برسم له من سلوك يقوم على الجد والوطنية والمثل العليا والثقافة ، وانتصروا عليه بتوجيهه إلى ارتياد دور اللهو والاتجاه إلى مفاهيم القصر التقليدية فى كنف الولاء للانجليز .

فلما عاد فاروق لتولى العرش بعد وفاة فؤاد ذهب إليه عزيز المصرى وقال : (ارجو أن تعتبرنى فى مقام والدك وأنا مستعد لمعونتك لتكون ملكا عظيما) غير أن زميليه لم يلبثا أن سخرا مما قاله عزيز المصرى الذى مضى فى طريقة يحاول أن يجد حلا لتحرير مصر وأجلاء الاحتلال البريطانى عن طريق الشباب، عن طريق الجيش .

فقد عين مفتشا عاما للجيش المصرى ١٩٣٧ فرئيسا لهيئة أركان حرب الجيش ولكنه كان طبقاً لخطة الانجليز الذين يعرفون هدفه ويخشونه لا يكلف بأى عمل ، وقد أحاطته سيطرة الانجليز على أجهزة الإدارة المصرية بجو من الغموض . وكان عزيز المصرى يتطلع إلى أن توكل إليه وزارة الحربية مع قيادة الجيش حتى يحقق مشروعاته الاصلاحية والثورية غير أن القصر والانجليز

كانا متفقين على الوقوف فى وجهه دون إتاحة الفرصة له .

وفى عام ١٩٣٩ بدأ (عزيز المصرى) فى صورته الباهرة ، صورة الرجل ذى الخبرة الواسعة ، الخبير بكل شبر من أرض مصر وصحرائها ، فقد خالف الانجليز فى رأيهم الذى كان يقف عند (مرسى مطروح) ويصفها بأنها الموقع الاستراتيجى الهام لمقاومة الغز الإيطالى لمصر ، وأعلن فى ثقة ان (العلمين) لا مرسى مطروح هى الموقع الخطير الجدير بأن يكون موضوع الاهتمام ، وقد حاول الانجليز أن يتجاهلوا رأيه ، ولكنهم اضطروا إلى تغيير جميع خططهم العسكرية بوحى هذه الملاحظة الدقيقة .

وكانت عبارة عزيز المصرى للانجليز : (أن مرسى مطروح هى أضعف نقطة على الحدود وأنها لا تقف دقائق فى وجه الهجوم ، وإنما تكون نقطة الدفاع الحقيقية فى العلمين) وأنها (عنق الزجاجة) هنالك وصفه ويلسون قائد قوات بريطانيا فى الشرق الأوسط بأنه (واحـــد من أعظم قواد العصر الحديث) .

وفى خلال تولى (عزيز المصرى) عمله رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش ، كان جريئا فى أن يضع أمر البعثة العسكرية البريطانية فى الجيش موضع البحث . ويعلن فى صراحة تامة أنه ليس هناك حاجة إلى هذه البعثة . وذعر البريطانيون من رأى عزيز المصرى الذى أعلنه فى قادة الجيش . وأسرع الانجليز فأعطوا عزيز المصرى أجازة ولفقوا له تهمة ضخمة لمحاكمته وسجنه خلال فترة الحرب . قالوا أن خطة الدفاع عن الصحراء الغربية التى وضعها الانجليز بالاشتراك معه وجدت كاملة مع أحد القواد الإيطاليين الذين أسروا فى حرب الصحراء ، ولم يكن هذا صحيحا . وقد ظلت الحقيقة خفية حتى أعلنها الجاسوس ابلر فى مذكراته التى نشرها عام ١٩٥٨ حين أعلن أن الألمان

والإيطاليين تمكنوا من معرفة مفتاح الشفرة الانجليزية فكانوا يحلون رموز البرقيات المرسلة ويكشفون ما فيها من خطط . وهكذا كانت خطة الانجليز مدبرة بقصد الانتقام من عزيز المصرى .

* * *

وقد أمضى عزيز المصرى سنوات الحرب العالمية سجينا يدرس الفلسفة اليونانية ، ثم جرت محاولته المعروفة فى السفر بالطائرة فى ١٥ مايو ١٩٤١، وقد اضطرت هـذه الطائرة أن تهبط بجوار قليوب ، وكان للحادث هزة ضخمة فى وزارة الحرب البريطانية وظل عزيز المصرى مختفيا فترة ثم اعتقل مصادفة .

وقد تحدث عزيز المصرى عن مغامرة السفر فى حديث إلى الدكتور مصطفى مؤمن فى كتاب (صوت مصر) فقال : « لقد طردتنى حكومة بلادى تلبية لانذار الإنجليز وحرمت على العمل فى أى مصالحها ، حتى معاشى الذى استحققته منعوه عنى ، وهددوا جميع الشركات التى كانت تحاول قبولى عندها بالاضرار بمصالحها . وهكذا ضيقوا على الخناق حتى منزلى حاصروه وجعلوه تحت المراقبة، وأخيراً طلبت جواز سفر للسفر إلى استانبول بحثاً عن القوت ومحاولة لطلب الرزق فيها ، ولم يكن هناك من طريق للخروج سوى طريق فلسطين ، ولكن القنصلية البريطانية رفضت أن تعطينى (تأشيرة) المرور فيها وأخيراً لما ضاقت السبل أمامى وسدت كل الوجوه وتنكر لى حتى أقرب المحبين صممت على أن استقل طائرة وأخرج سراً والمضطر يركب الصعاب الجسام » .

* * *

وقد عاش عزيز المصرى خلال هذه الفترة ثلاث سنوات بين الاعتقال وتحديد الإقامة ، (أغسطس ١٩٤٢ — أغسطس ١٩٤٥) وفى كل حادث كان يحدث فى مصر ، كان يقبض عليه : فى حادث مقتل أحمد ماهر ، فى حادث مقتل أمين عثمان ، وحوادث عام ١٩٤٩ .

وعندما تنادى العرب لانقاذ فلسطين اتجهت الأنظار كلها إلى عزيز المصرى لقيادة جيوش إنقاذ فلسطين ولكنه كعادته كان له رأى حاسم فى هذا الأمر ، وكان يرى ضرورة انتقاء الأكفاء ذوى الماضى الناصع لهذا العمل ، ولما كانت خطة معركة فلسطين قد رسمت على نحو لا يحقق لها النجاح فقد أنكرها ، وان حرض تلاميذه وأبناءه على التطوع فيها .

غير أن (عزيز المصرى) فى خلال هذه الفترة منذ عودته إلى مصر بعد الحرب العالمية الأولى وإلى أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ كان له عمل ضخم ، وهذا العمل هو (تربية جيل جديد) فى الجيش ومن شباب الوطن بعيداً عن الأحزاب التقليدية ، ومن هنا كان إيمانه بالحركات الشابة التى قامت فى مصر فى الثلاثينيات ، ومؤازرته لها ، فقد اتصل به عشرات من الشباب والدعاة والقادة ، وكان حديثه الصريح معهم ضوءاً كاشفاً . ويصدق فى هذا قول القائل : إنه ما من شاب شارك فى الحركة الوطنية إلا وهو مدين لهذا الرجل الفذ .

كان هذا هو عمله الحقيقى ، فقد تجمع حوله عشرات من الضباط والشباب المؤمن بوطنه فكان ينفث فيهم من روحه ويوجههم ليكونوا قيادة جديدة وبذلك كان الأب الروحى لكل حركات المقاومة ضد الإنجليز وأسرة محمد على والحكم الملكى .

* * *

وقد ولد عزيز المصرى فى القاهرة عام ١٨٨٠ ومات أبوه وهو فى السادسة ولحقت به أمه بعد سنوات خمس فكفلته شقيقته ، وعندما أتم دراسة (البكالوريا) سأله أستاذه الفرنسى (بليس) أى وجهة ستتجه فى تعليمك العالى ، قال دون تردد : أريد أن أدخل الكلية الحربية لأطرد الانجليز من مصر .

ومصدر ذلك أن عزيز المصرى عاش مطالع شبابه فى ظل الاحتلال البريطانى وصادف ذلك نفساً حرة أبية .

* * *

وفى مراجعة ضخمة للصحف المصرية والمجلات والدراسات خلال أكثر من ثلاثين عاماً لا تجد عن عزيز المصرى إلا كتابات قليلة عنه ، فقد كانت الصحف تتجاهل عمداً من يكرهه الإنجليز والسلطان . ولم يجد عزيز المصرى من التقدير والاهتمام إلا فى السنوات الأخيرة حيث عرف قدره وفضله . هذا فى مصر ، أما فى خارج مصر فقد كان معدوداً من أعظم قادة الجيوش فى العالم ، حدث عندما أريد تدريب الجيش المصرى عام ١٩٢٧ أن ذهبت بعثة إلى تركيا لهذا الغرض فلما قابلهم مصطفى كمال دهش وقال : كيف تطلبون منى ضباطاً وعندكم عزيز ، إن عزيز المصرى كفيل بتنظيم جيوش أفريقيا بأسرها إذهبوا إليه فى ألمانيا .

وكان عزيز المصرى يحب الصحراء ويجيد خمس لغات ، وهو أديب كبير وثقافته العسكرية كانت تضمه فى صف كبار العسكريين عاش مؤمناً بالحرية والوحدة وقد ألقى عصارة روحه إلى الثوار الأحرار وأحس يوم خرج الإنجليز من مصر أنه حقق أملا ظل يراود نفسه عمراً طويلا من الكفاح والاضطهاد .

وأحب الكتب إليه : « تاريخ حياتى بقلم فردريك الأكبر » .

ومن خلاصة أقواله التى تلقى الأضواء على شخصيته هذه الأقوال :

● شيئان لها عندى رهبة وجلال : الحب والموت لولا العوامل الداخلية فى تاريخنا لكان لنا شأن آخر . اقرأ الكتب القديمة لأنها كالسيارة « الفورد » القديمة أكثر متانة ، أما السيارة الحديثة فإنها براقة ، ولكن مواردها الأولية ليست جيدة .

• عرضت علىّ ثلاثة عروش ورفضتها : وقلت : أننى أرفض قبول التاج من المستعمرين .

• لمدة طويلة عشت حياة جافة خشنة ، كانت كل تسليتى فيها فى الليل هى القراءة .

• كنت أنتقل من مكان إلى مكان وخلفى بغالى تحمل كتبى التى تبلغ ٣٦٠٠ كتاب .

• عشت وفكرة طرد الإنجليز من الشرق الأوسط تعيش معى :

• قلت للمندوب السامى البريطانى فى العراق : أنا لست إنجليزياً لصاً .

• أبى من قبيلة شاهلية من القوقاز ومعناها الرأس الواسع أى الذى يرى كل شىء ، واسمى (عزيز زكريا شاهلية) والأتراك هم الذين أطلقوا على اسم « المصرى » تمييزاً لى عن باقى الأتراك . كان أبى أول قوقازى ولد فى مصر ، وكنت أنا ابنه الوحيد الذى بقى له وعاش والدى فى المنوفية وتوفى وعمرى ستة أعوام وترك لى ٣٥ فداناً .

* عندما قررت السفر إلى تركيا لأدخل المدرسة الحربية : سألنى حقى العظم عن هدفى من ذلك قلت : لكى أطرد الإنجاز .

وكانت هذه الفكرة هى القوة التى ظلت تدفعنى طوال حياتى .

توفى عام ١٩٦٥

عبد الحميد بن باديس

داعية الاسلام والعروبة والجزائر

١٨٨٧ — ١٩٤٠

فى خلال سبعة وعشرين عاماً فى ختام العمر عاش عبد الحميد بن باديس يقاسى الأهوال دفاعاً عن فكرته وزياداً عن دعوته بقلب قوى شجاع غير هياب ولا وجل يقاوم الاستعمار فى عنف وصمود واصرار .

فمنذ بدأ دعوته عام ١٩١٣ إلى وفاته عام ١٩٤٠ وهو يعمل عملا لا تستطيع أن تحتمله العصبة أولو القوة : فقد كان يشرع فى الإلقاء بعد صلاة العشاء فيلقى أكثر من اثنى عشر درساً ما بين الخاص والعام . ثم يذهب بعد العشاء إلى دار « الشهاب » يكتب ويشرح ويحرر ويراسل (البصائر) ويقضى معظم الليل أو جله فى العمل حتى إذا نودى لصلاة الصبح كان فى الصف الأول .

وكان لايتلفت إلى المؤآمرات والعراقيل ويقول إن الحياة بدونها لاتساوى شيئاً وإنها من أمور الحياة الطبيعية التى لابد منها ، وكان يقول دائماً أن الحياة الخالية من الأخطار والمتاعب لا تساوى شيئاً . وكان حديدى القلب لا يبالى ما طوقته به الأحداث من جو مسموم مشحون بالأخطار » يقف فى وجه السلطة التى تريد أن تقضى على اللغة العربية فتقضى بذلك على الأمة العربية وتعزل أجزاءها بعضها عن بعض وتجعلها تسير مكممة وراء موكب الثقافة الفرنسية بانحلالها وآثامها . وقد أمن بأن السبيل الوحيد لمقاومة الاستعمار ليست هى المناورات السياسية وإنما هو العمل المنظم الممتد على الزمن فى

سبيل تعليم اللغة العربية وتحرير الأمة من الجهل ، ولذلك اندفع فى العمل منذ عام ١٩١٣ يجوب القرى والبلاد ويخطب ويحاضر ويعلم فى المساجد والنوادى والحقول يملأ النفوس بشخصيته الباهرة ويتدفق بلاغة وعمقاً وفهماً للسياسة والاجتماع والفقه .

وقد أعلن دائماً إصراره على العمل رغم كل العقبات التى وقفت أمامه فإن المستعمر لم يدعه يعمل، وإنما وقف له بالمرصاد ولكنه كان حذراً لبقا مرناً يستطيع أن يحقق هدفه ويتحرك دائماً ولا يتوقف وقد كان دائماً يردد كلمته المعروفة « من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التى نؤمن بها فقد حاول عبثاً قلب الحقائق فلن نتزحزح عن الفكرة قيد شعرة مهما طمى سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائرى من الصفات المرغوب فيها الكامنة كون النور فى الكهرباء . . » .

* * *

وأعلن ابن باديس ثورة منظمة ضد الجهل والاعتقاد الزائف والفكر الجامد وضد مركب النقص وشن غارة شعواء على ذلك الكابوس الجاثم وقال إن قوة العرب تنحصر فى سلاح اللغة العربية وتوحيد الكلمة وهو ما يمكن أن يقف أمام ماعند أعدائهم من الفن والذخيرة وقوة العدد . ويقول « إننا بهذه اللفتة القصيرة إلى تراثنا المجيد قد استطعنا أن نعلن عن وجودنا ، ونخيف بعد أن نخاف الاستعمار ما مكن لنفسه فى بلادنا إلا بقوتنا . فلو أننا قطعنا عنه قوتنا لانكمش وانقلب إلى أهله » .

وقد كشف عن خطته عندما سأله سائل بأى شىء تحارب الاستعمار فقال « أنا أحارب الاستعمار بالعلم . ومتى انتشر التعليم فى أرض أجدبت على الاستعمار وشعر فى النهاية بسوء المصير . . » .

وكان يردد « دائماً قوله : اللغة هى القوة » .

ذلك أنه كان يؤمن باللغة العربية والتراث العربي إيماناً لا يرقى إليه الشك في أنها الوسيلة المثلى في دفع الاستعمار وتحرير الوطن وقد عاش حياته معلماً وصحفياً وقائد دعوة .

ولا نستطيع أن نتصور مدى هذا الإيمان وقوة الدعوة إلا إذا تمثلنا تلك الحركة الضخمة التي كان يقودها الاستعمار الفرنسي في الجزائر للقضاء على اللغة العربية ، وهي حركة جند لها المستعمر كل قواه ، جند لها الطرقيين الذين يثق الناس بهم ويؤمنون بدعاواهم وقد كانوا صنائع الاستعمار . وجند لها الإذاعات التي كانت تذيع الأغاني القبائلية والأخبار باللسان القبائلي في راديو الجزائر . وجندوا لها النواب في قاعة المجلس الجزائري الذين كانوا يطالبون بترجمة ما يدور في الجلسات باللغة القبائلية على نفس نظام ترجمته إلى اللغة العربية وكانت معركته إيجابية بنائة قوية ، ليس مجالها الجدال أو التفاهم أو المفاوضات مع المستعمر ، بل كانت تتركز العمل الدءوب المنظم ، حمل على أرباب الطرق حملات واسعة ضخمة وكشف تعاونهم مع المستعمر — وفضحهم في تأييدهم للادارة الفرنسية والإشادة بأعمالها . وما كانوا يبيتونه الوطن واللغة العربية واستطاع أن يهزم هذه الطائفة وقد هزت مقاومته — بفتح المدارس والتعليم في قسنطينة وغيرها من مدن وبلاد الجزائر — إيمان الاستعمار بدعواه الباطلة التي كان قد أعلنها عام ١٩٣٤ على لسان الأسقف الكردينال من أن الجزائر لغتها الفرنسية وقد اندفع أبنائه في قوة يعملون في قلب باريس ، ينشئون الجمعيات العربية ويكتلون القوى وكان ثمرة عمله هذه الثورة الضخمة الممتدة في صمود وإيمان في مختلف أنحاء الجزائر تقاوم حرب الإبادة الفرنسية عن عزيمة وإصرار وتحقق كل يوم تأكيداً لشخصية الجزائر العربية القومية .

وقد عرف عبد الحميد بن باديس بالشخصية الضخمة القوية العارمة المسيطرة . عيناه النفاذتان ، ووجهه العربي ، وملامحه الحادة ، فيها العزيمة والصمود تعطي

صورة هـذه النفسية التي قاومت الأحداث ثمانية وعشرين عاماً تعمل ليلا ونهاراً . وتسافر شرقاً وغرباً ، ويشهد لها الجامع الأخضر عام ١٩٣٣ بالمواقف المشهورة حيث كان هناك ثلاثة وستون شاباً يستمعون إلى دروسه وإشاراته الواضحة ومعانيه الجريئة التي تصور مدى خطر الاستعمار والوسائل البناءة لمقاومته .

* * *

يقول تلميذه أحمد بن عاشور أنه كلما وقف خطيباً في الناس استفز مشاعرهم وهز أرواحهم وقضى على الخمول ، ولم يكن يبالي بما يصدمه من العراقيل والعوارض في سبيل تجديد روح الأمة العربية في الجزائر . وإطلاع الغرب على حقيقتهم وعظمة روحهم . وقد جمع إلى علمه رجولة مقرونة ببطولة .

ووصفه تلاميذه بأنه كان ذا شخصية فذة لها قوة المغناطيسية التي تملي عظمتها . وكان يحذر الألقاب ويقول انها علة هذا الشرق وداؤه الذي سرى في أعصابه فخدرها طيلة هذه القرون . .

وكان يوجه تلاميذه إلى أنه إذا داهمته المنية فعليهم أن يمضوا في الخطة ويواصلوا السير ولكن الله كتب له أن يعيش حتى أرسى دعائم فكرته في مجموعة ضخمة من المعاهد بلغت الثلاثمائة .

وقد كان ابن باديس موسوماً « بالاستقلال النفسي » أبرز مظاهر شخصيته التي تبدو في[1] تلك النزعة التحررية التي تجعل المرأ لا يخضع لكل مؤثر يحمل على الحيلولة بينه وبين الوصول إلى كماله الممكن له وقد وصف بأنه كان مثلا للحذر والحيطة واليقظة .

فهو يستعد للأمر قبل أن ينزل ولا يتعجل، كيسا في كفاحه متزنا كالخيزران ينثني ولا ينكسر .

---

(١) البصائر — ٥ مايو ١٩٤٨

بدأ عبدالحميد حياته على نحو طبيعى لايلفت إليه الأنظار كثيراً ، فقد ولد فى ديسمبر ١٨٩٠ بمدينة قسنطينة . ودرس العلوم بها على الشيخ حمدان الونيسى ثم التحق بالجامعة الزيتونة بتونس معهد الأعلام والأبرار من أبناء المغرب كله ، فلما أتم تعليمه أزمع الرحلة إلى الشرق فزار مصر وسوريا ولبنان وحج إلى بيت الله واتصل بعلماء هذه الأقطار وعاد إلى قسنطينة وقد تهيأت نفسه لعمل ضخم كبير أنفق فيه حياته كلها حيث بدأ الإرشاد والتعليم والكتابة . كان قلمه قوياً جزئياً نفاذاً ، وقد لقى المقاومة حين سلطت عليه الأضواء ومنع من التدريس وحيل بينه وبين العمل « وأطفئت عليه الأضواء » فكانت صدمة علمته أن بنى العم فيهم رماح وأن عليه أن يستعد لصدام أعظم وكفاح أشق فلم يلق السلاح ، بل انتقل إلى الجامع الأخضر وعرفت دروسه فى ذلك الوقت بالدروس العلمية ومضى يعمل بعزيمة لا تعرف اليأس فلم يستسلم ولم يلن ولم ييأس ولم يضعف .

وكانت دراساته فى آمالى القالى ومقدمة بن خلدون .

وفى نفس الوقت كان محيطاً إحاطة شاملة بشئون الشرق والغرب وكانت شئون الصحافة لا تشغله عن شئون التعليم ، وما من نظرية جديدة فى ميدان التربية أو الكشوف العلمية إلا أطلع عليها وما من صحيفة أو سياسة إلا نظر فيها .

وكان فطناً إلى آراء ساسة الغرب فى الشرق يتعقب أخطاءهم ويفند مزاعمهم ويكذب دعواهم فى القول بتفوق العنصر الأوربى على العنصر العربى أو أن الجزائر جزء من فرنسا .

يقول « إن هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل

هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وعنصرها وفى دينها لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى » .

وهكذا صور فلسفة دعوته رسماً واضحاً صريحاً .

وعند ما ذهبوا إليه يحدثونه فى إرسال وفد إلى فرنسا للمطالبة بحقوق الجزائر كشف فى بعد نظره ودقة فهمه لأسرار السياسة الفرنسية حيث قال : إن السياسة الاستعمارية بالجزائر لا تغير بالوفود تذهب إلى فرنسا ولا بلجان البحث ترد إلى الجزائر . ذلك لأن حكومة الجزائر الاستعمارية أقوى من حكومة فرنسا نفسها ، فلا تغيير لوضع تريد بقائه فى الجزائر .

فالوفود لا تستطيع أن تغير شيئاً ، ولكن الشعب هو الذى يستطيع أن يغير كل شيء . وأن الاستعمار قوى اليوم بجنوده وأشياعه وأعوانه من رجال الطرقية وأضرابهم المخدوعين ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة وأدرك وجوب « تيسير شئون نفسه وأخذ يضع كل شيء موضعه لم يجد أين يضع الاستعمار والطرقيين إلا حيث توضع الأطمار البالية » .

وقد كان « الشهاب » الذى أصدره ابن باديس هو المجلة الأولى بالجزائر بل بالمغرب العربى التى نادت بمقاومة التغريب والتجزئة والتجنيس ومطاردة الاستعباد . كما دعت إلى حماية الأمة العربية كوسيلة لحماية الوحدة العربية ، قد رأت فرنسا فى يقظة الأمة الجزائرية على هذا النحو الإيجابى « للتعليم والخطابة والكتابة » خطراً ، ولذلك ظلت تنظر إلى ابن باديس فى قلق بالغ وكانت تستدعيه لتحقق معه بين آن وآخر أو تحول بينه وبين التنقل بين القرى والمدن ، ولكنه كان لا يلبث أن يردد كلمته الخالدة « إن لنا فكرة معروفة ولن نحيد عنها » .

وكان ينادى الذين حملوا لواء الدعوة فسجنوا « سلام عليكم وعلى مساجينكم فى المساجن . فتهميكم فى المتهمين . ومنكوبوكم فى المنكوبين . سجون واتهامات ونكبات ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها ولاتشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدن الحقة إلا على أسسها ، ومن هو فى سجنه فى سبيل العلم والهداية ومن هو سجين فى سبيل السياسة والحقوق المغصوبة » .

وهكذا كانت الدعوة تقدم ضحاياها فى سبيل تحقيق هدفهـا وكان ابن باديس يجاهد جهاداً مستمراً مع قلب مؤمن وعقل صاف وعزيمة كالجبال لا يزعزها تهديد أو وعيد . ولباب دعوته « السعادة هى التضحية ، هذه أمة أخذت تقدم الضحايا فى سبيل سعادتها » .

ومن آيات حكمته قوله : « تستطيع الظـروف أن تكيفنا ولكنهـا لا تستطيع أن تقهرنا » ومن مواقف إبن باديس الباهرة مقاطعته الاحتفال بمرور مائة سنة على احتلال « قسنطينة » فقد عمدت فرنسا إلى محاولة تهدف لإقامة مهرجاناً بهذه المناسبة وكادت تنجح لولا بيان صدر منه أعلن فيه بصراحة وجرأة أن هذا العمل خيانة للبلاد . هنالك عجزت فرنسا أن تجد من يعاونها فى هذا العمل فانصرفت عنه .

وقد كان ابن باديس سوط نقمة على كل من يهاجم العرب أو اللغة العربية أو الإسلام ، فقد رد على كل من وجه نقداً مغرضاً أو أبدى رأياً ظالماً وفى مقدمة هؤلاء (م . أشيل) الذى تهجم على الإسلام ومقدساته و(موران) الذى ازدرى بالفقه الإسلامى وأعلامه .

وفى حياته الصحفية كان دائماً تحت السلاح . أصدر جريدة « المنتقد » واسم الصحيفة يدل على المقاومة فأحدث ضجة كبرى فعطلت بعد قليل ثم

أصدر « الشهاب » وفى اسمه روح المقاومة فهو الشهاب الراصد على كل أعداء الأمة العربية .

وعاش حياته شبيهاً بجمال الدين لم ينجب ولم يشغل نفسه بشئون الأسرة وغيرها فقد كانت دعوته تملك عليه كل قلبه ووقته . وكان يصور هذا تصويراً رائعاً حين يقول « إننى لم أنجب أولاداً . ومع ذلك فأنا أب . ولأن كل الجزائرين أبنائى . اخدموا العلم بتعليمه وانشروه وتحملوا كل بلاء ومشقة فى سبيله وليهن عليكم كل عزيز ولتهن عليكم أرواحكم من أجله » .

وأعانه هذا على تكوين طبقة ممتازة من القادة كانت هى نواة الثورة الجزائرية وقد واصل ابن باديس دعوته فى كل مناسبة ، ففى عيد الحرية الفرنسى ١٤ يوليو ١٩٣٩ كتب فى الشهاب يقول : أيتها الحرية التى يتغنى بمفاتنها الشعراء ، وتسفك فى سبيلك الدماء ، أين أنت فى هذا الوجود . كم من أمم تحتفل بعيدك وقد وضعت نير العبودية على أمم وأمم . وكم قوم نصبوا لك التماثيل فى الأرض . وقد هدموك فى القلوب والعقول . فتشت عنك فى الشعوب القوية فوجدت العتاة الطغاة قد قيدتهم الأطماع فى تراث الضعفاء .

فتشت عنك فى الشعوب الضعيفة فوجدت الأنصار المرهقين كبلهم استبداد الأقوياء .

آه أيتها الحرية المحبوبة . وأشوقاه إليك بل وأشوقاه إليهم .

المحيا محياهم والممات مماتهم » .

ولعل أبلغ صورة لدعوته هى قوله :

« إننا نريد نهضة شعبية قوية تجلى شخصية الشعب الجزائرى وتكشف له عن مجد الماضى بما ينير له طريق الحياة من جديد » .

لانريد أقوالا مكررة من سياسة انتخابية يريدها الاستعمار إدارة تزيد من تمكينه من غير أن يشعر بذلك أحد ممن راضهم عليها وسخرهم لخدمتها . بل نريد انقلاباً جزائرياً يرتكز على إعداد نشىء صالح تتمثل فيه عبقرية الجدود . فتنهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف وهى تسير فى طريق المستقبل الباسم » :

وكان يردد دائماً قوله : إن الجزائر وطنى الخاص وأنا أشعر أن كل مقوماتى الشخصية مستمدة منه ويقول : لمن أعيش : أعيش للاسلام والجزائر . .

* * *

ويمثل خطابه التاريخى فى جمعية العلماء عام ١٩٣٧ نموذجاً عالياً لدعوته ومفاهيمه :

حوربت فيكم العروبة حتى ظن أنه قد مات منكم عرقها ومسخ فيكم نطقها فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارهـا ويهدر خطباؤكم بشقاقها فتدك الحصون والمعاقل ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا والمفاصل ، وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت عقائده ومكارمه فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وكما يرضى الله ، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه .

وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم أو ما يخرج بما هو أضر من الجهل عليكم ،فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخاً وتشيدون له صرحاً سامقا فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم : جمعية العلماء المسلمين الجزائرين، وحوربت فيكم الفضيلة فسمتم الخسف ورميتم بالصغار حتى ظن أن قد زالت

منكم المروءة والنجدة وفارقتكم العزة والكرامة فارتضيتم الضيم ورضيتم الخسف وأعطيتم بالمقاده ، فجئتم بعد قرون تنفضون غبار الذل وتهزهزون أسس الظلم وتهمهمون همهمة الكريم المحنق وتزمجرون .

زمجرة الفرز المهان ، وتطالبون مطالبة من يعرف أن له حقاً لا بد أن يعطاه أو يأخذه .

نهضنا بعد أن صهرتنا نار الفتنة والامتلاء حوادث الزمان وقارعتنا الخطوب ودافعتنا الأيام ودافعناها « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » نعم نهضنا بعد قرن بعد ما متنا وأقبرنا وأحيينا وبعثنا ، سنة كونية فقهناها من القرآن ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » أو كالذى مر على قرية ، نعم نهضتنا نهضة بنينا على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية لا يخشاها والله النصرانى لنصرانيته ولا اليهودى ليهوديته ، ولا المجوسى لمجوسيته ، ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه ، والخائن لخيانته .

* * *

العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا .

وأركان جمعية العلماء التى هى مبعث حياتنا ورمز نهضتنا فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا فى الدين وتعلمنا اللغة وتثيرنا بالعلم وتحلينا بالأخلاق الإسلامية وتحفظ علينا جنسيتنا ، وقوميتنا وتربطنا بوطننا الإسلام الصادق ولم يزل كذلك بإذن الله .

عرفت الأمم من تاريخها لا تنهض إلا على صوت علمائها فهو الذى يحل الأفكار من عقالها ويزيل عن الأبصار غشاوتها ويبعث الهمم من مراقدها ، ويدفع بالأمم إلى التقدم فى جميع نواحى الحياة .

وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرانيون الذين فقهوا الدين بفقه القرآن وعرفوا السنن الأقوم بمعرفة سنة محمد صلى الله عليه وسلم وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الدين العظام .

« إن الإسلام عقد اجتماعى عام فيه جميع مايحتاج إليه الإنسان فى جميع نواحى الحياة لسعادته ورقيه ، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادىء الإسلام ، فالمسلم الفقيه فى الإسلام غنى به عن كل مذهب من مذاهب الحياة فليس للجمعية إذا من نسبة إلا إلى الإسلام وبالإسلام وحده تبقى سائرة فى طريق سعادة الجزائر .

لا نوالى الأحزاب ولكنا ننصر الحق والعدل والخير ونقاوم الباطل والعلم والشر محتفظين بشخصيتنا ومبادئنا .

* * *

ولد عبد الحميد بن باديس فى قسنطينية ١٨٨٧ وقد أتم دراسته فى الزيتونة بتونس وزار القاهرة والحجاز واتصل بكثير من العلماء والمصلحين . فلما عاد إلى الجزائر مضى فى الدعوة إلى الله حتى أنشأ جمعية العلماء المسلمين عام ١٩٣١ وأصدر مجلة الشهاب فى ١٥ مجلدا وله تفسير القرآن الكريم .

عبد الحميد الزهراوى

رئيس المؤتمر العربى الأول

١٨٨٥ — ١٩١٦

« ان الفلك دائر وبدورانه يكبر الصغير ويهرم الكبير ، وتتحول الأحوال كلها ولا يبقى شىء على حاله أبدا . فالانسان فى الحقيقة رهن الحوادث وتحولات الأحوال كلها .

« ولكن كما يتخذ الإنسان التدابير عند وقوع الواقعات الطبيعية كهبوب الرياح مثلا ، كذلك يستطيع بقدر الطاقة البشرية أن يتخذ تدابير بناء الحوادث البشرية كانتباه الأفكار مثلا أو كرقادها فالشىء الذى يقال له سياسة هو ممارسة النظر فى الحوادث من كل جهاتها ليكون التصرف على حسابها »

« إن الإنسان لا يليق أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً وبهديهى أن لا عزة مع الاستبداد »

* * *



كان عبد الحميد الزهراوى هو الرجل الذى أجمع العرب الذين عقدوا مؤتمرهم سنة ١٩١٣ فى باريس ، على اختياره رئيسا للمؤتمر . رشحه أعضاء المؤتمر تقديرا لمكانته العلمية والاجتماعية وكان الزهراوى قد عرف طوال حياته باستقلال الرأى وصدق القول وقوة الإرادة .

بدأ حياته كاتبا من أبرز حملة الأقلام فى سورية . ومن المشتغلين بالاصلاح الاجماعى وقد امضى مطلع شبابه مناضلا فى سبيل يقظة العرب وتحريرهم من العوائق التى تحول بينهم وبين النهوض .

وهو كاتب وشاعر وصحفى وخطيب . عرف بحرية الفكر والرأى ، ودافع عن حقوق العرب ، وانصرف لخدمتهم بكفاءة واستعداد ، مطالبا بالاستقلال فى ظل النظام اللامركزى للدولة العثمانية ونادى باتحاد الطوائف العربية « بعامل اللغة المشتركة والأصل والدولة » وعرف بفصاحة اللسان وقوة الحجة واستقلال الرأى وصدق القول وجرأة الجنان .

ولد بحمص ١٨٥٥ وتلقى بها علومه الأولية ثم تنقل فى البلاد طلبا للعلم فشب على حب الحرية وأصدر قبل الدستور العثمانى جريدة « المنبر » كان يطبعها على الهلام (البلوظة) ويوزعها سرا يدعو فيها لتحرير البلاد ثم سافر إلى الأستانة فساعد فى انشاء جريدة « معلومات » التركية وشن بالكتابة فيها حملات عنيفة فاعتقلته السلطات ونقلته إلى دمشق . ثم تمكن من الفرار إلى مصر عام ١٩٠٢ حيث أخذ يحرر فى المؤيد والجريدة مهاجما العثمانيين داعيا إلى حق العرب فى كيان خاص بهم . فما أعلن الدستور ١٩٠٨ عاد إلى سورية وانتخب مبعوثا عن لواء حماه فذهب إلى الاستانة واشترك فى تأسيس حزب الحرية والاعتدال وحزب الائتلاف المناوئين لحزب الاتحاديين وأصدر

جريدة الخضارة ثم اختارة زعماء حزب اللامركزية رئيسا للمؤتمر العربى الاول .

وللزهراوى مؤلفات منها كتابة عن الفقة والتصويف الذى أثار ضجة كبرى عند صدورة وأثار رجال الدين عليه فى حملة عنيفة اعتقل من أجلها وكان يوقع مقالاته فى صحف مصر ومن أهمها الجريدة بامضاء (ع ز)

يقول السيد رشيد رضا [1] « أن الزهراوى لوكان من طلاب المنافع لاستطاع أن ينال فى عهد عبد الحميد مانال من كانوا دونة من أرباب الافكار وحملة الاقلام الذين استمالهم السلطان عبد الحميد وأعوانة وغمروهم بالاموال والرتب وأوسمة الشرف . وكان جهاده أزاء جمعية الاتحاد والترقى لايقل عن جهادة الأول . وما كنت أرى أحدا من المعارضين للجمعية كان أشد معارضة لحزب الجمعية فى المجلس وجمعية الحضارة التى أسسها فى الاستانة » .

وقال رشيد رضا أنه « قتل شر قتلة وبقيت جثته مصلوبة فى الشام اثنتى عشرة ساعة ليعلم كل عربى يراها أو يسمع خبرها كيف تكون عاقبة العربى العالم المفكر عند هؤلاء القوم الذين جعلوا من أصول سياستهم محو محو العربية من سورية والعراق .

ولكى نرسم صورة صحيحة لتفكير هذا الرائد العربى الشهيد ننقل بعض عباراته فى كلمتة الرئيسية فى مؤتمر باريس بحسبان أنها وثيقة تاريخية للوحدة العربية .

« إن الفلك دائر وبدورانه يكبر الصغير ويهرم الكبير . وتتحول الأحوال كلها ولا يبقى شىء على حاله أبدا ، فالإنسان فى الحقيقة رهن الحوادث

(١) المنار — ٣٠ يونيو ١٩١٦

وتحولات الأحوال كلها . ولـكن كما يتخذ الإنسان عند التدابير عند وقوع الواقعات الطبيعية كهبوب الريح مثلا ، كذلك يستطيع بقدر الطاقة البشرية أن يتخذ تدابير بناء على الحوادث البشرية كانتباه الأفـكار مثلا أو كرقادها فالشيء الذى يقال له سياسة هو ممارسة النظر فى الحوادث من كل جهاتها ليـكون التصرف على حسبها .

« وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم . وكان الناس يسلمون لهم بهذه الدعوى وإذا عابهم عائب بالاستسلام المطلق للحاكم يقولون نحن لانفهم للسياسة وهم غافلون عن أنهم بقولهم هذا يوقعون صك الاعتراف بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم فى شىء ما .

أما الغرب فقد تخلص من هذا العيب الذى كان البشر المتحضرون كلهم مشتركون فيه . أما الشرق فلم يتخلص منه ولايزال فيه كثيرون يجهلون أن للشعوب حق مناقشة الحـكومات ولـكن يظهر أنه قد حان للشرق أن يمشى فى المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه .

« الغرب اليوم مقتدى ، ومهما أردنا فيجب أن نقول أن على الشرق أن يحتاط فيما يريد أخذه من بدع الغرب

«من حقنا أن تـكون لنا تربية سياسية لأنه قد جرب غيرنا وصحت نتيجة تلك التجارب عندنا أن الجماعات الذين لاتربية سياسية عندهم لاتثبت مصالح عامة لهم .

« إننا فى هذه المملـكة فريقان : فريق قاطن قرب سواحل البحر الأبيض وقرب سواحل البحر الأحمر وقرب سواحل الخليج الفارسى ، وفريق قاطن فى الداخل بعيداً عن السواحل . فالفريق القريب من السواحل أكثر احتـكاكا بالحضارة وأخذا بالعلوم العصرية وقدكان يقوم أفراد منه دائما يرفعون صوت

الحياة ويواجهون الظلم بالقوة والاحتقار . أما الفريق البعيد عن السواحل فإنه كان دائماً يعوض قلة نصيبه فى الحضارة مع كثرة محافظته على عزته وخيره ومع قلة ذلك النصيب من الحضارة لم يجهلوا أن يقيموا إمارات قد يعجب الناس من أن الحقوق فيها مضمونة والطرق مأمونة .

« إن العرب كانوا قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب وامتزج الفريقان امتزاجا عظيما . لكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة ، هذه الرابطة قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت مهددة من قبل .

« ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة كانت حتى اليوم بين الترك ، فما رأى العرب الآن فيما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى العمل عليها حتى الآن وكانوا حريصين على البقيه الباقية من تلك الرابطة تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين به كما ينبغى، وهو وجوب اشتراك الفريقين بسياسة البلاد وبديهى أن هذا الاشتراك لاينافى الإخاء بل الذى ينافى الإخاء هو عدم الاشتراك ، فاساس تربيتنا السياسية بعد الآن بث هذه الفكرة والتعصب لها .

وقد وجدنا « اللامركزية » من خير الوسائل لظهور أثر هذا الاشتراك خارج العاصمه ، ومعلوم أن الذين يميلون إلى هذه الفكرة من الترك أيضاً ليسوا قليلين ، لكنا أملون أن يكون قد زادوا فى هذه الأيام زيادة عظيمه ، والذى نريد الآن تنميته وتربيته فى القلوب هو الميل إلى التأليف ماوجدنا إلى ذلك سبيلا » .

هذه هى فكرة العرب فى علاقتهم بالأتراك التى أعلنها عبد الحميد الزهراوى فى هذا المؤتمر . غير أن الاتحاديين الذين رحبوا أولا بهذا الاتجاه ، عادوا فحاسبوا هولاء الذين اشتركوا فى المؤتمر بالعقوبه ، ومن هنا فقد انتهت

حياة الزهراوى فى محاكات ديوان عاليه سنة ١٩١٦ (٥ ابريل)

* * *

ولم يكن الزهراوى زعيما سياسيا بقدر ما كان مفكرا وصحفيا .

فقد عنى خلال الفترة الأولى من حياته بإنشاء الصحف والكتابة ، فأصدر مجلة المنبر فى الشام وجريدة الحضارة فى الاستانة وفى مصر حرر فى الجريدة . وله رساله فى الفقة والتصوف ودراسة عن حياة خديجة أم المؤمنين وكانت مفاهيمة : هى مفاهيم المصلحين المجددين ، دعاة الاجتهاد وبطلان التقليد وكان هذا الاتجاه فى ذلك الوقت مصدراً من مصادر الاضطهاد حيث كانت الدوله العثمانية تمر بمرحلة الجبرية الصوفية .

وقد هاجم الزهراوى حين هاجم الصوفية فى عصرة ، رجلا كان بعيد الأثر فى مجريات الأمور فى ذلك الوقت هو أبو الهدى الصيادى .

* * *

ومجلة الحضارة التى أصدرها الزهراوى فى الاستانة فى الفترة بين ١٩١١ و١٩١٢ تحمل خلاصة طيبة لافكاره ومفاهيمه التى تقوم على أساسين :

(أولا) مقاومة الاستبداد والحد من السلطة الفردية .

(ثانياً) تصحيح المفاهيم وتحرير الفكر الإسلامى من قيد التقليد وقد جرت كتاباته فى هذا المجال واضحة .

« الإنسان لايليق أن يقدم على عزة نفسة ونفوس قومة شيئا ، وبديهى إن لاعزة مع الاستبداد .

« إن الاتحاد النافع هو الذى يبقى العربى عربيا ، والرومى روميا ، وإذا كان الاتحاد لأجل الوطن فالرجل الذى يستطيع أن ينشىء قوته وقوميته

لا يأمنه على الوطنية إلا أحمق ، فإن من لاقوم له لاوطن له .

« يشكو الناس كما كانوا يشكون أمس ، ولـكن ماذا تنفع الشكوى إذا لم تـكن معها روح مقاومة ، تالله لو ظلت الأمم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ويكرهون أن يناقشوا بما يعملون » .

والمعروف أن الفترة التى صدرت فيها جريدته « الحضارة » فى الاستانة ، كانت فترة ما بعد الحـكم الحميدى، وفى خلال حكم الاتحاديين، وهى مرحلة كان العرب قد أحسوا فى مبدأها بظهور الدستور ١٩٠٨ وتنازل عبد الحميد عام ١٩٠٩ إنها ستكون مرحلة حرية ، ثم اكتشفوا من بعد أنها مرحلة أشد قسوة .

فقد انصبغت بالاتجاه إلى الدعوة الطورانية ، أو على حد تعبير من يقول : ويتطلع الشعب إلى منقذيه الجدد من ثوار سالونيك ومناستر وإذ به يفجع بآماله وأحلامه بعد أن ملأ الدنيا أفراحاً وأعياد » ومن هنا كانت مهمة الزهراوى فى هذه الفترة دقيقة غاية الدقة وهو يصدر جريدته فى قلب استانبول .

وقد حملت صحيفته الدعوة إلى القوة والحرية والعلم الحديث مع احاطه ذلك كله باطار من هدى الاخلاق والتاريخ العربى .

وهو يرى أن الطريق إلى اليقظة تقوم على أحياء الروح العامة الجماهرية ، هذه الروح العامة هى فى نظرة العامل الأقوى فى دفع الاستبداد ومقاومة الظلم وتمر هذه المرحلة فى حياة الزهراوى ، كما مرت مرحلة عمله فى مصر قبل صدور الدستور العثمانى ، حتى تصل إلى نهايتها على النحو الذى انتهت إليه .

فقد تحول الـكاتب الصحفى ، والمصلح الاجتماعى ، إلى زعيم سياسى يحمل لواء الدعوة إلى اللامركزية ويتصدر الصفوف ويرأس المؤتمر العربى الأول .

وبذلك يصبح هدفاً للعدوان الذى شنه الاتحاديون على العرب والذى كان عاملا هاما فى تأريث النهضة ودفع الفـكرة العربية إلى الإمام .

توفى (١٩١٦)

عبد الرحمن شهبندر
من قادة الحركة العربية

١٨٨٢ — ١٩٤٠

« كان شعور أحرار العرب عامة مع الدولة العثمانية ، ولـكن أخذت الأنباء تتسرب إلينا من مختلف الجهات بأن « الاتحاديين » فى الاستانة ينوون الشر بالعرب وبقوميتهم ، فـكنا نـكذب تلك الإشاعات ونعدها من باب الاختلافات التى يروجها أعداء الحرية إلى أن حدثت لى الحادثة الآتية التى أنزلت فى نفسى الشكوك لأنها كانت من مصدر رسمى ، وهى أن موظفا قضائيا كبيراً من أصدق رجالات العرب هو المرحوم كامل بك الصلح نقلته الحـكومة من مناستر إلى دمشق ، فلما مر على الاستانة ليقابل وزير العدل (الحقانية) نجم الدين ملا بك ويتلقى منه التعليمات الجديدة ، قال له هذا : « أنك ذاهب الآن إلى رئاسة محكمة الاستئناف فى الشام فاجعل المحاكمات من الآن فصاعداً بالتركية لأننا قررنا تتريك العناصر » هذا ماقصه على سراً رجل نزيه من انزه رجالنا فجاء شهادة قطعيه على عزم الاتحاديين على سلوك مسلك عنصرى جديد مع العرب ليس محكوما عليه بالفشل فقط بل محفوفاً بالأخطار .

إن هذه الجملة المقتضبة التى نقلها إلى القاضى الجليل كانت فاتحة عصر جديد فى حياتى نقلتنى من ذاك الانمـحاء فى القوميات العثمانية المتناكره إلى تأمين قوميتى العربية فى الجامعة العثمانية . وكان الاتحاديون كلما خطوا فى هذا المضمار باعا خطت العناصر الأخرى ذراعاً ، إلى أن حلت كارثة الحرب العالمية فظن العاملون فى جمعية الاتحاد والترقى أن ساعة الانتقام دنت فارتـكبوا تلك الموبقات

والجرائم التى تقشعر منها الابدان فى سوريه وسائر المناطق العربية وحسبى أن أقول هنا أن نفس الضابط الكبير الذى ندد بجمعية الأخاء العربى سنة ١٩٠٨ ذهب على أعواد المشانق التى نصبها السفاح أحمد جمال باشا لرجالات العرب فى اليوم السادس من مايو ١٩١٦ ، هذا هو التحول الذى فتح عينى على الخطر المحدق بالامة العربية فسرنا تلك السيرة القوية الجديدة ، أما الذين لعبوا هذه اللعبة العنصرية الخطيرة من الاتحاديين فقد نالوا جزاءهم على أيدى الحكومة العثمانية وغيرها ، غير أن الملاحظة التى أبداها لى الوالى الذكى خلاص بك ، تلك التى أبداها لى فى أكتوبر سنة ١٩١٥ كانت مما حملنى على مغادرة البلاد العثمانية بطريق الصحراء إلى العراق فالهند فوادى النيل »

* * *

« بقيت سورية جزءاً من المملكة العثمانية من الوجهة الاجتماعية حتى أواخر ١٩١٠ كما يبقى الطفل جزءاً من الكائنات إلى أن يدب فيه الوعى الفردى فلم يخطر ببالها طيلة قرون متوالية أنها وحدة منفصلة ، ذلك لأن أجداد السلطان عبد الحميد كانوا محتفظين بسيف الإسلام ، القاهر ، فلما وضع الاتحاديون قسمهم للعلوم وأكدوا فيه أنهم لا يفرقون بين الطوائف والعناصر فى المملكة العثمانية صادف كلامهم قبولا عند العرب عموماً والسوريين منهم خصوصاً ، وحملهم على حسن الظن بأحفاد طوران . ولكن سرعان ما تبين لهم أن هذا القسم تحول فى أدمغة زعمائهم أمثال ناظم وجمال وطلعت إلى رمز التفوق الطورانى لأن الذى عصب عيون الترك فى سالونيك والأستانة عندما حلفهم على السيف والمصحف توهم أن له بسبب ذلك حق التوفيق والسيادة . ثم ابتدأ الشعور القومى يتسرب إلى قلوب العرب والسوريون فى مقدمتهم مازال على تزايد رغم أنف المخدوعين لهم حتى كتب لهم فى أوائل الحرب العالمية أن يكون فيهم شهداء يذهبون إلى المشانق فى سبيل القومية

والحرية . وعندما احتلت فرنسا سورية لم تحفل بهذا الشعور الحى النامى بل عدت أعمال العصابات فى جبال الكلبية وعلى حدود لبنان الكبير والحرب فى ميسلون والتظاهرات فى دمشق ضرباً من ضروب الدسائس الإنجليزية والدعاية التى أثارها الفيصليون حتى استفحل الأمر وامتلأت القلوب فلم يعد فى قوس الصبر منزع ولا بد لمن أراد الإلمام بالعوامل البعيدة التى أدت إلى الثورة من الاطلاع على خبر التظاهرات الخطيرة التى حدثت فى سورية عام ١٩٢٢ والتى قتل فيها وسجن فيها وعذب ونفى فى سبيلها مئات من الرجال فقد كانت التظاهرات تمريناً عملياً على ثورة مدنية أنعشت القلوب العربية وأعادت إليها ثقتها بنفسها بعدما استولى على بعض الناس الخوف من سلطان العسكرية الاستعمارية . ويلحق بذلك تظاهرات سفكت فيها الدماء أيضاً وكان حدوثها فى دمشق أوائل عام ١٩٢٥ يوم زارها لورد بلفور بوصفه موقع صك قيام الوطن الصهيونى القومى فى فلسطين على حساب الأمة العربية .

وكان الوطنيون قد مهدوا السبيل إلى الأعمال الكبيرة بالثورات المحلية التى أحدثوها والاضطرابات العامة . وكان الاستياء المستفيض هو المادة الخام التى استخدموها فى معاملتهم » .

هـــذه مقدمات الثورة السورية ١٩٢٥ كما كتبها بطل من أبطالها هو عبد الرحمن صالح شهبندر : أحد رجال الرعيل الأول فى الحركة الوطنية ودعاة القومية العربية فى العصر الحديث .

والدكتور شهبندر طبيب تخرج فى الجامعة الأمريكية ١٨٩٦ وأحرز شهادة الطب ١٩٠٦ واشتغل بالتدريس حيناً فى بيروت ثم انتقل إلى دمشق ١٩٠٧ فاتجه بنشاطه نحو السياسة وانضم إلى حركة تركيا الفتاة ثم انضم بعد

قليل إلى الهيئة المركزية لجمعية الاتحاد والترقى لينفصل عنها بعد ثلاث سنوات حيث بدأ مع زملائه الزهراوى والقوتلى وغيرهم فى تأسيس الجمعيات العربية الحرة فى دمشق . وذلك بعدما ظهر أن برنامج الاتحاديين يهدف إلى محاربة العرب .

ولما أرسلت تركيا جمال باشا حاكما لسوريا كاد الدكتور شهبندر أن يكون واحداً من ضحاياه لولا أنه هاجر إلى الهند فمصر . ولكنه عاد إلى دمشق بعد هزيمة الأتراك وقد قطعت له الحكومة البريطانية ولستة من إخوانه[1] عهد السبعة وهو ينص على أن كل بلاد عربية يفتحها الجيش العربى تبقى عربية مستقلة . وقد أعد مع إخوانه فى نيسان ١٩١٩ الحملة الكافية لمواجهة اللجنة الأمريكية ، وقد تولى وزارة الخارجية فى الحكومة الفيصلية (آيار ١٩٢٠) وعندما دخل الفرنسيون دمشق ذهب إلى القاهرة . وفى تموز ١٩٢١ عاد إلى دمشق وقاد الحركة ضد لجنة كراين فانتهت بالحكم عليه بالسجن عشرين شهراً نفى خلالها إلى جزيرة ارواد واعتقل فى قلعتها . ولما خرج من السجن سافر إلى أوربا وأمريكا متحدثاً عن القضية السورية وفى عام ١٩٢٤ عاد إلى دمشق وألف حزب الشعب وفى عام ١٩٢٥ نشبت الثورة السورية فشارك فى إعدادها وتنظيمها وعند انتهائها قطع الصحراء إلى العراق سيراً على الأقدام ، وامتطى طائرة إلى القاهرة فقضى فيها بعيداً عن وطنه بضع عشرة سنة عاد بعدها إلى دمشق عام ١٩٣٦ حين صدر العفو عن المبعدين . وفى عام ١٩٣٧ ذهب إلى جنيف فلندن حيث ألقى خطاباً هاماً عن قضية فلسطين ولم يلبث أن عاد إلى دمشق بعد غيبة خمسة عشر عاماً حيث اغتالته عصابة هدامة قتلته وهو يؤدى عمله فى عيادته الطبية فى دمشق ، كان يكتب

---

(١) مقدمة الدكتور شهبندر عن الثورة السورية الكبرى

على معاينة مجرم من تلك العصابة ادعى المرض عندما عاجله آخر بالرصاص من خلفه فهوى صريعاً فى ٦ يوليه (تموز) ١٩٤٠ .

* * *

ويصور الدكتور شهبندر الثمرات التى حققتها شهادة الشهداء الذين علقهم أحمد جمال باشا على المشاق عام ١٩١٦ فى دعم القومية العربية : « غير نكير أنه مر علينا زمن كدنا نظن أن الشهداء الذين علقوا على المشانق باسم العروبة فى دمشق وبيروت ذهبت دماءهم هدراً وأن للأقطار العربية الشقيقة من المتاعب المحلية والمشاغل الموضوعية مايحول دون التفافها حول هذه الرابطة الوثيقة ، ولولا وحى كان يهبط علينا من حين إلى آخر من أفواه شعراء العربية لظن ضعفاء الإيمان منا أن هـذه الفـكرة قد اندثرت ، وأن الشهداء أصبحوا أطلالا بالية تدل على نظرية عنيفة كما تدل قبور الأقصر الضخمة على رأى الفراعنة فى الموت .

ولـكن العروبة ليست نظرية بائدة بل هى إيمان حى متحرك ناطق فنحن نعيش فى مجتمع واحد ونتخاطب بلغة واحدة ونتغذى من ثقافة واحدة ويحيط بنا عدو واحد . لا أدل على وحدتنا الطبيعية من التشابه التام فى ظواهرنا الاجتماعية والسياسية، فكلنا نشعر بعد آلام مبرحة بوجوب اتخاذ الوطنية رابطة للذين يعيشون على أرض الوطن .

إن مسألتنا ليست مسألة التشابه العضوى الذى يأتى من تلقاء نفسه ، وإنما هى مسألة تنظيم هذا التشابه تنظيماً إدارياً قائماً على التعاون لاكتساب هذه الوحدة الطبيعية رابطة اجتماعياً وميثاقاً سياسياً . وهذا العمل على وجه التحقيق سيكون من قضايا القرن العشرين » .

ويصور الدكتور شهبندر عيوب الثورة العربية الـكبرى ١٩١٦ فيقول :

أما عيوب الثورة العربية الكبرى فهى كبيرة فى نسبتها . فمنها أن الزعامة على ماتجلت به من وطنية صادقة وعزيمة ثابتة كانت عتيقة بالية فى تصوراتها ووسائلها ، حميدية فى نزعتها ، طافحة بالكبرياء على غير أساس تكاد تكون فكرتها ابتدائية . ومنها أن الرأى العام كان لا يزال فى كثير من الانحاء تحت كابوس الفلسفة التى أناخت بكلكلها على عقول القرون الوسطى فكان الناس يتأثرون بكلمة خلافة وإمامة أكثر مما يتأثرون بكلمة وطن وشعب » .

ويصور موقف يوسف العظمة بطل ميسلون(1) فيقول :

تقدم يوسف العظمة إلى الصف الأول فى الجبهة ، وحمل مسدسه وأخذ يلقى الحماسة فى قلوب المتطوعين والجنود النظامية من حوله للدفاع عن الوطن المقدس ، وبينما كان على تلك الحالة إذ أصابته طلقة فى ذراعه فجاء إليه المرافق يرجوه أن يعود بسيارته إلى المستشفى ليضمد جراحه فأبى . وقال إنما أتيت هنا لأموت تحت سنابك الخيل . وما زال يحارب ويجالد ويشجع جماعته على الصبر والثبات والقيام بالواجب إلى أن أصيب بعدة طلقات أردته صريعاً على الأرض منها اثنتان أو ثلاثة أصابته فى صدره فتوارى فى بطن الأرض أكبر مسئول عن الجيش السورى . وأشرف من دافع عن القضية ، لأنه حفظ سر الجيش فى صدره وأشرف مدافع لأنى لاأعرف حتى الآن سوريا غيره استشهد طوعاً واختياراً فى سبيل الوطن المفدى » .

ويصور الدكتور شهبندر الثورة السورية سنة ١٩٢٥ التى كان أحد قادتها :

« الثورة السورية سنة ١٩٢٥ قد أتت من أعمال البطولة ما يسجل

---

(١) الهلال — مارس ١٩٣٧

لسورية بمداد الفخر . لكن البطولة شىء والتنظيم شىء آخر . فقد ألجأتنا سيرة الكابتن (كاربيه) فى جبل الدروز — وخلفه الجنرال (سراى) فى بيروت إلى انتهاز الفرصة المقسمة من السخط الناشىء عنهما فباشرنا العمل وخضنا غمار الثورة قبل أن يتم تأليف حزب الشعب وتم لنا بتأليفه تنظيم البلاد من أولها إلى آخرها .

حتى إذا اقتضت الحال أن نضرب ضربتنا شددنا المطرقة وأرخيناها على الوالى بالأوامر المنظمة لتقع الضربة على الرأس المقصود فكان إسراعنا الاضطرارى هذا سبباً لحرمان الوطن من اقتطاف ثمرة جهوده بما يتكافأ مع البذل الغالى الذى بذله فى المال والرجال ،ذلك أن سورية وياللأسف لم تثر كلها بل الذى ثار جزء صغير منها وفى أوقات متقطعة » .

وتحدث الدكتور شهبندر عن الوحدة العربية[1] فقال : نظرة واحدة على المصور الجغرافى تدل على المقام الرفيع الذى يتمتع به عالمنا العربى فهو يقف جبهة واحدة منضمة متشابهة من خليج الأسكندرونة فى الطرف الشمالى للجانب الشرقى من البحر المتوسط إلى مضيق جبل طارق فى الغرب حيث يتصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطى فتشمل هذه الجبهة سورية وفلسطين وسيناء وقناة السويس ومصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش والمغرب الأقصى .

وحسبك من هذه الأقطار أن نذكر اسمها فقط لتعلم أنها أقطار تجمع بينها أواصر اللغة والعقيدة والتاريخ الشىء الكثير من لحمة النسب وهى تعلم أن ماضيها متشابك . ومستقبلها يدور حول مركز واحد.

إن هذه الجبهة العربية التى تستقل بالنصف الجنوبى من البحر المتوسط

---

(١) الهلال — نوفمبر ١٩٣٦

هى الممر الطبيعى لكنوز آسيا وافريقيا إلى أوربا . وهى نفسها تفيض بالخيرات والبركات ففيها منابع الزيت ومنابت القطن وحقول الحبوب وبساتين الثمار وحدائق الأزهار .

وهى وارثة الأمبراطوريات القديمة . وفى ظلها الوارف تم الاتصال بين الثقافات الحالية والمدنية الحاضرة فإذا قدر لأهلها أن يحصلوا أولا على حريتهم الوضعية ثم على تعاونهم الشامل فإن قسطاس السياسة العالمية يصبح بيدهم لأنهم يتحكمون حينئذ فى حوض البحر المتوسط ومن تحكم فيه تحكم فى العالم إجمالا . . . » .

وقد تنبأ عام ١٩٣٥ بما وقع فى فلسطين فقال[1] :

ماذا تقولون للأجيال اللاحقة إذا أنتم غادرتم الساحل والأماكن إلى الداخل . ثم غادرتم الداخل والحواجز فخضتم الأردن إلى عمان ومنها ضربتم مشرقين تهيمون على وجوهكم لتجدوا لكم مأوى يحميكم ويحمى أطفالكم من الحر والقر فلم تجدوه فى غير ضرائب جدودكم الأمويين فى الخرابة والأزرق وما إلى ذلك من الأطلال البالية .

ماذا تقولون إذا تركتم حدائق غزة ويافا وحيفا وعكا الغناء وجبال نابلس والقدس والخليل والخضراء وما بينها من المروج الزاهية الحصينة ونزلتم بالبلاقع الجرداء لا تجدون فيها ما يروى الظمأ ويسد الرمق .

ماذا تقولون للأجيال اللاحقة إذا أنتم خرجتم من دوركم وقصوركم ولجأتم إلى بيوت الشعر من الطراز الصغير الحقير ذات العمود الواحد والقماش المقطع المرقع من غير أن تكتسوا من هذه البداوة ما فى البداوة العريقة من شجاعة وصدق وأمانة واباء . . . . » .

---

(١) جريدة الجامعة الاسلامية (يافا) ١٩٣٥

ولما كانت كتابات الدكتور شهبندر تعتبر من وثائق القضية العربية فقد حرصنا على أن نسجل فى نهاية هـذا الفصل موقفه من أحمد جمال باشا الذى أطلق عليه لقب السفاح وهو الذى عرفه عن قرب وعمل معه فترة من الوقت وذلك حتى نرسم الصورة الـكاملة لهذه الفترة من تاريخ الأمة العربية :

« ... كان السفاح يسترشد بجنـكيزخان وهولاكو وتيمورلنك ومن حذا حذوهم ، ولم أكن مبالغاً ولا ألقيت الـكلام على عواهنه وذلك للنص الآتى الذى سمعه ألوف الناس من فمه فى الجامع الاموى فى مساء السابع والعشرين من رمضان من عام (١٩١٦) فقد حدث أن أهدى الإمبراطور غليوم (مسجد) السلطان صلاح الدين ثرياً من الذهب أرسلها مع معتمده البارون أوبنهايم . فكان من نصيبى أن أخطب فى الحفلة التى أقيمت لهـذا الغرض مع من خطبوا على دكة أقيمت فى صحن الجامع فاغتنمت تلك الفرصة لأذكره بالموقوفين فى الديوان العرفى فى عاليه من أحرار البلاد . ومما قلته « وإذا أراد أحمد جمال الدين باشا أن يحتفل الناس بذكراه على اختلاف نحلهم وأجناسهم بعد مرور القرون العديدة كما يحتفلون اليوم بصلاح الدين فماعليه إلا أن يحذوا حذوه فى إجراء العدل والبعد عن التنـكيل وضربت على ذلك بعض الأمثلة من سيرة السلطان الـكبير فما كان من السفاح إلا أن تخطىء دور من تقرر أن يخطبوا قبله ليقول : ليس السلطان صلاح الدين الخليفة الوحيد بل هناك من يضارعونه فى العظمة والمجد مثل الخليفة السلطان سليم فقد قتل هذا — أى صلاح الدين فى سبيل المملـكة إخوته وأبناءه وزوجه ... »

فقلت للواقفين بجانبى من الأحرار الموقوفين : العوض بسلامتكم .

وقلت فى نفسى مستهزئاً : نعم المثل الأعلى للاحتذاء .

« ومن بعد ظهور الثورة العربية فى أواسط ١٩١٦ وإخفاق الطاغية فى سحقها كما أوهم الآستانة وبعد الانهزام المتواصل الذى لاقته جنوده فى الجبهة

الجنوبية . وتحفز البلدان العربية من كل جهة للانتقام للدماء الشهيدة التى أهرقت ظلماً وعدواناً كفت الحكومة المركزية عن العمل فى نوفمبر ١٩١٧ وبعد حين غادر سوريا مغموماً كئيباً يعض الأرم ويلقى أحلامه الذهبية من نافذة القطار إلى أعماق نهر بردى على جانب الطريق » .

« وقال أديب خان أنه بينما كان يقطع ظهور الجبال على الحدود الروسية هو وأحمد جمال باشا على ظهور الخيل زفر هذا زفرة خرجت من أعماق صدره وقال فى ختامها : لم يفلت من يدى إلا رجل واحد . . . . . وهو الدكتور شهبندر .

وقد سجل الدكتور شهبندر شهادة المارشال هاندنبرج أكبر قائد ألمانى عن موقف العرب ونضالهم قال :

« لقد أبغض العرب الترك فى تلك الديار — العراق وسوريا — كما أبغض الترك العرب ومع ذلك فالطوابير العربية بقيت تحارب تحت الأعلام التركية ولم تنهزم جماعات إلى صفوف العدو ووراء الجيش الإنجليزى المعتدى الذى ظن أنه يحمل الحرية المنشودة للقبائل العربية التى أرهقتها مظالم الترك ، قامت هذه القبائل نفسها فانقضت على هؤلاء المدعين منقذين ، ولا بد أن هناك قوة من القوى كانت رابطة الاتحاد بين العنصرين وهى قوة والحق يقال ليست نتيجة ضغط خارجى بل نتيجة التحام داخلى وشعور بالمصلحة المشتركة . فالعرب كان فى وسعهم الإفلات بسهولة من نطاق هذه السلطة إذ كان عليهم أن يرفعوا سلاحهم فقط ويتمشوا فى خنادقهم إلى جهة العدو . أو أن يشعلوا نيران الثورة وراء صفوف الجيش التركى ولكنهم مع ذلك لم يعملوا شيئاً من هذه الأعمال » .

* * *

والدكتور شهبندر إلى جانب زعامته ودعوته للوحدة العربية وقيادته للثورة السورية عام ١٩٢٥ كاتب ومؤرخ وسياسى جاهد أيضاً فى ميدان الثورة الفكرية ، وكان واسع الاطلاع على اللغة العربية والثقافات والفلسفات الحديثة . وقد حارب بقلمه الاتحاديين والاحتلال الفرنسى وكتب عدداً من الفصول والدراسات خلال إقامته فى القاهرة نشرتها صحف المقتطف والهلال وكوكب الشرق وله مؤلفات كثيرة فى مقدمتها الثورة السورية الوطنية والسياسة الدولية والرحلة العلمية والقضايا الاجتماعية الكبرى .

* * *

وملخص حياة الدكتور عبد الرحمن شهبندر أنه ولد فى دمشق ١٨٨٢ تخرج من الجامعة الأمريكية فى بيروت سنة ١٩٠٤ ، هاجر خلال الحرب العالمية الأولى من دمشق إلى العراق فمصر ، وأقام بالقاهرة إلى ما بعد نهاية الحرب ، فعاد إلى سوريا ١٩١٤ فلما احتلها الفرنسيون غادرها إلى مصر فأقام نحو عام ورجع الشام ثم عاد كرة أخرى إلى مصر بعد إنشاء حزب الشعب وثورة سنة ١٩٢٥ ثم عاد إلى دمشق ١٩٣٨ وتوفى مقتولا سنة ١٩٤٠

عبد الرحمن الرافعى

مؤرخ الحركة الوطنية المصرية

١٨٨٩ — ١٩٦٦

« مما رغبنى فى الحياة المثالية اعتقادى أنها من أقوم السبل إلى النهوض بالأمة وتحريرها من قيود النقص والضعف التى تتعثر فيها من الوجهة الوطنية والأخلاقية والاجتماعية . وليس من الميسور أن تحرر الأمة من عيوبها ومواطن الضعف فيها بالقول والكتابة بل يجب أن تكون القدوة الصالحة هى أولى السبل فى هذا الجهاد فإنه بذلك يقيم لبنة فى صرح النهضة القومية.

« حقا إن طريق الحيـــاة المثالية ليس معبدا ولا مفروشاً بالأزهار والرياحين ، بل هو طريق قد يكون شائكا كثير المتاعب والعقبات ولكن على الإنسان أن يكون له هدف فى الحياة ، وأن يكون الهدف شريفا ، وليتذرع اليه بالشجاعة والإيمان والقناعة والإقدام .

« وكثيراً ما كان يقال لى : أنك تعيش فى جو من الأوهام وستصدمك الحقائق العملية فى الحياة وسترى أن المجتمع لا يقدر المثاليين، بل يقدر النفعيين والوصوليين، غير أن هذا لم يصرفنى عن التمسك برأى .

« اخترت المحاماة وآثرتها على الوظيفة، ووجدت أنها أقرب إلى أن أجد منها الحياة المثالية ، لمن يريد أن يحياها . .

عبد الرحمن الرافعى



عندما نعى عبد الرحمن الرافعى (٣/ ١٢ / ١٩٦٦) إلى ، كان ثبتاً لتاريخ طويل وذكريات عديدة تجرى أمام خاطرى حية متجددة ، فمنذ أيام الطلب فى الصعيد ، كنت أقرأ اسمه فى صفحات مجلة السياسة الأسبوعية ، أمام كتابه « تاريخ الحركة القومية » الذى بدأ إصداره عام ١٩٢٩ ، ووالى العمل، كل عام يصدر كتاباً حتى استوفى دراسة تاريخ مصر إلى سنوات سبع بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وكان يصدر كل حلقة من هذه الكتب فى ميعاد ذكرى شقيقه « أمين الرافعى » التى تحل فى ديسمبر ، تقديراً وإحياءاً لرجل عظيم مات فى شرخ الشباب وفى أبان المعركة الوطنية ، والحق أن اسم آل « الرافعى الفاروقى » كان علماً على تاريخ طويل قديم من العلم والفضل فى مجال الثقافة والقضاء ، ثم كانت درره الأربع فى العصر الحديث ممثلة فى (عبد الحميد الرافعى ومصطفى صادق الرافعى وأمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى) . هذا البيت من طرابلس الشام ، أبرز هؤلاء الأعلام ومن قبل أباء لهم كانوا مثلا عالياً فى العدل والقضاء ، ثم كان هؤلاء الأربعة مثلا غير مكرر فى البطولة والسماحة وفى الإباء والكرامة، هذا الطابع الذى اتسمت به الشخصية العربية الإسلامية الأنوفة عن أن تحنى رأسها ، أو تستسلم للظلم ، أو تقف موقف المهانة .

والحديث عن مواقف أمين الرافعى مع سعد زغلول ، ومعارضته فى الرأى فى عنف وإصرار ثم دفاعه عنه بعد نفيه ، ثم العودة إلى مخاصمته فيما يراه الحق واحتمال كل عنف وقسوة واضطهاد ليكشف عن إصالة عجيبة ، وإيمان يفوق الوصف فى هذا الرجل السمح النحيل ، أما عبد الرحمن الرافعى فقد كان المحامى الذى ترك قضايا الناس لقضية كبرى ، هى قضية مصر ، والذى عاش عمراً طويلاً فى صف المعارضة فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ — ١٩٥٢) صامداً فى إيمانه وموقفه ومفاهيمه ، مفاهيم الحزب الوطنى الذى أنشأه مصطفى كامل

وتفتحت عيناه عليه مؤمناً وموالياً وجارياً معه ، ومصاحباً لخليفة مصطفى : الرجل الذى أطلق عليه « قديس الوطنية » محمد فريد ، ومن خلال ذلك الحب الصادق الرجلين ، أنشأ عبد الرحمن الرافعى عمله الكبير فى مجلداته الستةعشر عن الحركة الوطنية منذ أوائل القرن التاسع عشر ماراً بعصر محمد على وإسماعيل والثورة العرابية والاحتلال البريطانى وثورة ١٩١٩ والحياة السياسية بعدها إلى ثورة ١٩٥٢ .

ومهما قيل فى تقيم هذا العمل ووصفه بأنه أشبه باليوميات الصحفية ، وأنه خلا — إلا القليل من التحليل الفلسفى للتاريخ — مهما قيل فى ذلك فإنه عمل ضخم أعطى الباحثين ثروة من الأحداث والمواقف والنصوص التى أمكن أن تكون قريبة إلى يد كل مثقف ، ويمكن القول بأن الباحثين الذين اشتغلوا بالدراسات التاريخية الوطنية المصرية — جميعاً بلا استثناء — سواء من كتب منهم مقالات صحفية وهى تعد بالآلاف ، أو أصـــدر دراسات موسعة إنما استفادوا من موسوعة الرافعى ، ولعل أبرز ما تتسم به هذه الدراسة — إذا ماقيل انها متحيزة لأن صاحبها من رجال الحزب الوطنى الذى شارك فى الحركة الوطنية وكانت له فى الأغلب وجهة نظر حزبه ، إذا ما قيل هذا قلنا أن وجهة نظر الحزب الوطنى كانت أكثر وجهات نظر الأحزاب وطنية ، وأبعدها عن التحيز للاستعمار أو القصر و انها أسلم الخطوط وأقربهـــا إلى الإيمان بالعمل الوطنى وأن أربابها بعدوا عن الحكم وظلوا بالرغم من توسع النفوذ الحزبى لأحزاب ما بعد الحرب العالمية الأولى يحتفظون بطابعهم ومفاهيمهم — إلا قليلا — وكان عبد الرحمن الرافعى بذلك من أسلم الباحثين وأكثرهم تجرداً وغيرة على عرض القضايا والأحداث ، ولعل أبرز ما تتمثل فيه نزعته التاريخية تلك القدرة التى أوتيها للكشف عن أخطاء إسماعيل وفؤاد فى ظل حكم

أسرتهما ، والكشف عن جوانب من حياة زعماء مصر لم تكن من اليسير أن يكشف عنها بعض الموالين للأحزاب السياسية التى ولت الحكم . وإذا كان العقاد قد كتب مؤلفه الضخم عن سعد زغلول زعيم الوفد ، وكتب هيكل مذكراته السياسية بوصفه ممثلا لحزب الأحرار الدستوريين ، فإن موسوعة الرافعى تتسم بطابع أكثر حياداً من موقف الكاتبين بالنسبة لحزبيهما ، ذلك أن الحزب الوطنى كان أكثر الأحزاب سلامة موقف ، وأبعدها عن الاتهام بالصلة أياً كانت هذه الصلة بالاستعمار .

ومن هنا كان ذلك الإعجاب والحب الذى قرب بينى وبين عبد الرحمن الرافعى ، فقد قدمت القاهرة عام ١٩٤٦ من الريف ، وبدأت عملى فى مجال الأدب والصحافة ، وتطلعت إلى « تصحيح المفاهيم » فى مجال السياسة والوطنية وهى القضية الأولى والكبرى فى ذلك الوقت فعكفت أدرس الحركة الوطنية فى مصر على ضوء الصراع الذى كان قائماً إذ ذاك وملت ميلا أكيداً إلى اتجاه الحزب الوطنى ، ونأيت عن صراع حزب الوفد والأحرار وما تفرع من أحزاب نبعت كلها من « الوفد » الذى تقدم عام ١٩١٨ للدفاع عن القضية المصرية وحصل على توكيل « الأمة » .

وعندما أصدرت كتابى « أخرجوا من بلادنا » وفى أعماقه ثورة على الاستعمار والنفوذ الأجنبى والاحتلال والقصر والأحزاب ، كنت قد انتفعت بآرائه وكتاباته عن سعد زغلول ، وكان ذلك متصلا بكتابات الأستاذ فتحى رضوان فى هذا المجال ، هنالك كان لا بد أن أهدى إليه مؤلفى ، وأترقب رأيه ، وقد تفضل رحمه الله فأرسل إلىّ خطاباً ما زلت أحتفظ به ،

كان أبرز ما فيه بعد الثناء على كتابى المستمد من آثاره ، هو القول بأنى أوجه التاريخ وجهة الوطنية واتخذه سلاحاً للثورة وتأجيج العواطف والمشاعر وأن على المؤرخ يجب أن يكون محايداً .

هنالك دارت بينى وبينه مناقشة فى هذا الأمر ، قلت فيها : أية قيمة لنصوص التاريخ إذا لم تكن عجينة طيعة لتوجيه العمل الوطنى ولتدفعه إلى مقاومة الاستعمار والاستبداد ، وكانت أيام ١٩٤٦ تحمل فى أطوائها كل مقدمات ثورة ١٩٥٢ التى فجرت هذه الطاقة من بعد .

وكان كتابى يحمل صورة من مواجهة عمر مكرم للحاكم العثمانى ، إلى جوار حملة مصطفى كامل ومحمد فريد على الاحتلال الإنجليزى إلى تخاذل سعد زغلول ، ومتابعته للنفوذ البريطانى، وما انشق عن مدرسته التى تكونت ١٩١٨ من أحزاب تصارعت خلال تلك الحقبة وتمزقت وشغلت بالحكم عن القضية الكبرى وحيث تحولت الحركة الوطنية من خلالها إلى عملية ممارسة سياسية ، ذلك كان المعنى الذى استنبطه كتابى « اخرجوا من بلادنا » الذى لم يرض عنه أستاذنا عبد الرحمن الرافعى. ولما تابعت هذا الكتاب بآخر عن الأحزاب السياسية، وبين لاظوغلى وقصر الدوبارة ، وغيرها كان يلقانى فى مكتبه مشفقاً يحاول أن يقول لى كلمة ما ، ولكنه يجريها فى عبارة رقيقة حين يقول : أنى أحس أنك ناقم على النظام البرلمانى والدستور والعهد كله ، عهد الملكية الدستورية وكان ذلك هو الحق ، ولكن الأستاذ الرافعى الذى هاجم سعد وهاجم الاستعمار البريطانى وهاجم إسماعيل وفؤاد ، كان يعيش فى إطار النظام الملكى البرلمانى الحزبى ، وكان عضواً فى مجلس النواب فالشيوخ خلال فترة ما بعد ثورة ١٩١٩ مشاركا فى العمل السياسى . ولقد كنت أود أن أتابع أستاذنا الرافعى فى طريق دراسة التاريخ الوطنى لولا أن توسعت

آفاق فى دراسة تاريخ الإسلام والعرب والحضارة وجريت فى مجالات عريضة .
أما أستاذنا فقد عاش فى قضية الحركة الوطنية حياته كلها ، أوقف نفسه عليها واستطاع بحق أن يكون رائد البحث فيها .

ولقد التقيت بالاستاذ الرافعى طويلا ، وأحببته ، وجلست معه كثيراً فى مكتبه ، مكتب المحامى أمام محكمة النقض ، الحافل بالمجلدات الضخمة من المؤلفات القانونية والتاريخية ، ولقد كان رحمه الله سمحاً ، مشرق الوجه ، بشوشاً ، مليئاً بالحياء ، كثير الإطراق ، والصمت . ولكنه يحمل فى أعماقه إصراراً على آرائه ، وإيماناً بها لا يتزعزع .

وكان إلى ذلك كله على قدر كبير من المروءة فقد قصدته مرة فى أن يضمننى لدى بنك مصر فى قرض مالى ، فلم يكد يسمع بالأمر حتى غادر مكتبه معى مهرولا إلى البنك راضياً ، وتلك هى المرة الوحيدة التى طلبته فى غير مطلب الفكر ، والأدب ، والتاريخ ولقد دعانى مرة السيد وجيه أباظة ، وكان مديراً لشركة كبرى من شركات النشر والإعلان ودفع إلى موسوعة الأستاذ الرافعى ، طالباً منى أن أعد كل كتاب منها للنشر مختصراً فى سلسلة كان على وشك إصدارها باسم « كتاب النيل » ورغب إلى أن أبدأ العمل فوراً ، فسارعت بتلخيص كتابه « تاريخ الحركة القومية » ثم استدعى الأمر أن أسافر إلى الإسكندرية لألقاه ، متحدثاً معه ، فى شأن أمضاء العقـــد الذى يجيز للشركة إصدار هذه السلسلة ، غير أن الاستاذ الرافعى الذى فرح بلقاء تلميذ من تلاميذه وهو يقوم بعمل يتصل بموسوعته ، أصر على « نظام معين » لإخراج هذه السلسلة .

ولم أفلح فى إقناعه بالتنازل عن رأيه ، فقد كان يخشى أن تقضى هذه الكتيبات المختصرة على الموسوعة الكبرى ، وإن كان قد رضى عن أن أقوم بتلخيصها مطمئنا إلى أن العمل سيكون كما لو قام هو به . ووقف المشروع . .

ولقد عشت حياتى الأدبية من بعد أعد الرافعى واحداً من الابرار الذين يملأون نفسى وأعتز باتصالى بهم حتى فى الأيام الأخيرة قبل وفاته كلما مررت بداره فى الدقى .

ولقد أصطبحت به ذات يوم، وأنا أركب السيارة الحافلة من أمام دارنا فى طريق الهرم ، وهو عائد من رحلة باكرة إلى الأحراش والحدائق ، يجدد يومه فكان لرفقتنا تلك الفترة – حتى أوصلته داره – صدى حلو فى نفسه ، فقد تحدثنا حديث الحب والود ، وكان على عادته مشرقا باسم الطلعة ، فكها ، لصوته رنة عجيبة ، إذا أراد أن يصور نفوره من شىء أو اعتراضه عليه ، كنت أداعبه وأقول له ، أنت الذى عارض سعد زغلول يوم كان لا أحد يستطيع أن يعارضه فى مجلس النواب حتى قال لك كلمته الخالدة : هـــل عندكم تجريدة ! (وكان الحديث عن السودان وموقف الانجليز منه) ولقد حدثنى طويلا عن تفصيلات متعددة من حياته ، عـام ١٩٥٨ وكان قد بلغ السبعين وهو المولود فى ٨ فبراير ١٨٨٩ .

قال : دعانى محمد فريد أن اشتغل بالصحافة محرراً باللواء وقبلت دعوته وكان هو الذى شجعنى على الكتابة والترجمة . غير أنى لم ألبث أن عدت إلى « المحاماة » وبقيت أكتب فى الصحافة دون أن احترفها .

وهو يعزو إلى المحاماة فضلا ، ويرى نفسه فى مجال كتابه التاريخ الوطنى محامياً يدافع عن قضية كبرى . ولم يلبث عبد الرحمن الرافعى فى خلال حديثه أن قال ما سبق أن رددت به عليه عام ١٩٣٦ قال : لقد كانت أمنيتى الأولى بكتابة التاريخ بعث الشعور الوطنى فى نفوس الناس.

وعنده أن الإنتاج الفكرى يكون فى الكهولة أقــوى منه فى الشباب ودليله أنه بدأ كتابة التاريخ القومى عام ١٩٢٩ وعمره ٤٠ عاماً .

وقد سجلت فى مذكراتى (عام ١٩٥٦) موقفى منه وموقفه من التايخ قلت : كنت لا أعجب لشىء — فى العهد الماضى الذى انتهى عام ١٩٥٢ — لكثرة ماتفشى النفاق فى الصحافة والأدب وكتابة التاريخ ، قدر عجبى لأن يقف عبد الرحمن الرافعى على قدميه، وأن يكتب تاريخ مصر فى حرية، دون أن يبالى غضب الأقوياء أو ينافق زعماء السياسة . ولكن يزول العجب عندما نعلم أن الرافعى قد رضى أن يعيش محامياً ، وأنه لم يكن يطمع أن يكون عضوا فى شركة أو رجلا من الحاشية . كان قد أعد نفسه ليكتب تاريخ مصر فى حرية دون أن يخاف شيئاً ، أو يجعل لعامل مامن العوامل أثره فى الحيلولة بينه وبين أن يقول الحق .

وليس يستطيع أى مؤرخ أن ينسى أن عبد الرحمن الرافعى كتب تاريخ فؤاد فى ظل حكم أبنه فاروق ، كما كتب تاريخ إسماعيل فى أيام ابنه فؤاد وكشف عن الأخطاء التى وقع فيها كل منهما ، وصور العوامل التى كانت من أسباب فقدان مصر استقلالها . وقد جرى بينى وبين الأستاذ الرافعى محاورة فى شأن تجريد التاريخ وتوجيه التاريخ ، وكان من رأيى أن التاريخ عجينة طيعة وأن علينا أن نستفيد منها فى التربية وبناء المثقفين . ولعل الفارق بينى وبينه فى ذلك أنه (مؤرخ) خالص بينما أحاول أن أقف فى صف المفكرين».

هذا ما كتبته منذ عشر سنوات ، والرافعى حى ، ولعل مفهومى للتاريخ قد تغير أو تطور ولكنى إذا كان لى أن أضيف شيئاً فإنما هو أن الاستاذ الرافعى يرحمه الله قد وقف فى المراحل الأخيرة من تاريخ الحركة الوطنية (فى خلال سنوات ١٩٤٥ — ١٩٥٠) موقفاً فيه بعض المجاملة لقوم ، أو بعض الخصومة لآخرين فى ظل مفهومه الشخصى ، وأنه قد تجاهل بعض الحركات الشابة التى برزت فى خلال تلك الفترة كمصر الفتاة وحزب الفلاح والأنصار

وحزب العمل وغيرها ولم يقومها تقويما كافياً

ولعل أبرز ما يتسم به عبد الرحمن الرافعى هو أنه عاش فى محيط الحركة الوطنية المصرية ووهبها عمره كله ، ولم يكتب الرافعى قبل موسوعته عن تاريخ مصر القومى غير مؤلفات ثلاث هى : حقوق الشعب، نقابات التعاون الزراعية ، الجمعيات الوطنية .

وللرافعى مذكرات مطبوعة تحدث فيها عن حياته من (١٨٨٩ إلى ١٩٥١) وفيها يرسم صورة نفسه بقلمه على هذا النحو :

« أول ما أعترف به أننى شديد الحياء ، لازمنى هذا النقص منذ صباى ولم يفارقنى فى ادوار حياتى ، وأنا لا أملك المرونة الكافية التى يقتضيها الانسجام مع المجتمع ، أنا مهذب مع الناس ، ولكنى أعترف بأنى لست مرنا كما ينبغى ، وأن لى عيباً آخر هو العناد ، على أن العناد لم يبلغ بى مبلغ التنطع والسخف ، على أنى أعاند فيما اعتقد فيه اعتقاداً راسخاً بعد دراسة عميقة وأنى حسن الظن بالناس أكثر مما يجب ، ومن عيوبى إنى أحسن الظن بالحوادث ، وإنى متفائل أكثر مما ينبغى وكثيراً ما تأتى النتائج على غير ما أتوقع ، ومع ذلك لا اتعلم ولا أغير من نظرى إلى الناس والحوادث . »

والحق أن الرافعى رحمه الله قد صور جانباً واحداً من حياته ، أما الجوانب الأخرى وهى حافلة بالإيجابية والسماحة والقوة والدأب على العمل أكثر من ثلاثين عاماً لإخراج ما لا يقل عن عشرة آلاف صفحة من تاريخ مصر مع المراجعة والبحث وتحقيق النصوص ، هذه الجوانب إن كان قد أغفلها الرافعى فإنها حقيقة واقعة . وهو بعد علم من أعلام الفكر العربى المعاصى بنى فى صرحه ركنا خالداً .

* * *

ولد عبد الرحمن الرافعى فى القاهرة عام ١٨٨٩ و كان والده الشيخ عبد اللطيف الرافعى الفاروقى من علماء الأزهر تولى مناصب القضاء الشرعى . وقد تلقى عنه المترجم له نشأته الدينية . تعلم فى مكتب الشيخ هلال بشارع درب الحصر وتعلم فى مدارس الزقازيق والقاهرة ورأس التين ، وتخرج فى مــــدرسة الحقوق الخديوية ١٩٠٨ .

فى خلال هذه الفترة تعرف بمصطفى كامل ومحمد فريد وكتب فى اللواء فى نفس عام تخرجه أول مقال له تحت عنوان « تبدد الشعور الوطنى وتجمعه » عمل فى المحاماه والصحافة ثم تحول إلى المحاماه نهائيا فاستقر بها وأتيح له أن يكتب ويؤلف حتى بدأ عام ١٩٢٩ فى اخراج موسوعته الضخمة عن تاريخ مصر القومى ، واشترك فى أعمال المجالس النيابية وكان صوتا عاليا من أصوات الوطنية والحرية ومعارضة الحكومات السياسية المختلفة .

مؤلفاته : حقوق الشعب ١٩١٢ التعاون ١٩٢٤ الجمعيات الوطنية ١٩٢٢ وذلك بالاضافة إلى موسوعة تاريخ الحركة القومية التى صدرت فى خمسة عشر مجلدا وشملت دراسة تاريخ مصر من ١٨٠٠ إلى ١٩٥٦ تقريبا .



عبد العزيز الثعالبى

تلميذ جمال الدين وخليفة الـكواكبى

١٨٧٤ — ١٩٤٤

« لنا فى ماضينا عبرة فلا نأسف عليه بقدر ما يجب أن نستفيد من الأغلاط التى ارتـكبناها فيه ومهما غالتنا الغوائل فإنا لم نزل أمة قوية عزيزة الجانب لها تأثير فعال فى ســـير السياسة العالمية . لقد استيقظ الغرب فى الساعة الأخيرة التى غفا فيها الشرق فنبذه وما عزه ، علينا إذا أردنا أن نعقد للشرق منزلته الأولى من القدم ، أن نقتبس من الغرب كل جديد نجمل به و ننبذ كل قديم رث بال عفاه الدهر وقتلته العصور ، فإن الحياة كون خاضع لناموس التغير والتجديد ، وكفانا أن نحتفظ من ماضينا : الدين والأخلاق .

على الشرقيين أن يعملوا لإصلاح النفوس، ومتى أصلحوها وثقفوها أصلحوا الشرق ، وهى لا تصلح بغير العلم الناضج والتربية الصحيحة . لست أقول بالطفرة ولا أطلب المحال ، وإنما أدعو إلى التحول من الأعمال الفـــردية إلى الجهود الاجتماعية وأحداث الأنظمة لها والمؤسسات ، أن تـكافح الأقوياء فى هـذا العصر لم يقم على الأفراد ، بل على جهود الجماعات ، والسبب فى هزائمنا هو اعتمادنا على مكافحة الفرد وذلك ما جعلنا نهزم فى الصدمة الأولى ، علينا أن نصرف العالم للتعليم والمالى للمال ، ولا نتسامح بأن نجعل الطبيب قاضياً والفقيه مهندساً فإن الشرق شرق لم يزل مشرق العظائم والـكمالات والنور ولولاه ما أدرك الغرب الفضيلة ولا عرف الأديان والفلسفة . . . » .

«انطوى[1] العرب بعد أن فقدوا صولة الحكم فى جميع الأقطار وذبلت مدنيتهم وتغلبت على لسانهم رطانة الأعاجم واستعاضوا عن أدب القوة والفلسفة الواقعية . تلك الرخاوة التى تلازم المرتزقين والمصطنعين عندما يشعرون بالخيبة والانكسار . وليس من طبيعة الصائل المتغلب أن يكف عن المغلوب حتى يتساقط عليه أو يسمنه بالانقلات من شركة بل يجد فى توهينه وتمييعه وإذابة ما كان يتحصن من أباء وخلق كريم وهذا ما نكب به العرب فى جميع الأقطار منذ تسلط عليهم الاتراك على طول عهدهم . ولما جاء دور تغلب الأربين الغربيين وجـــدوهم موطى الرقاب خاضعين للاستعباد فقراء النفوس ليستلديهم من الحصانة ما يخففون به عن أنفسهم وطاة القادمين .

من يتصدى لتنفيذ هذه المهمة الشاقة العظيمة كما وصفناهـــا منحنية الظهر مثقلة بأزرار الماضى وهى على ماهى عليه من جهل وفاقـــة وفقر فى الأخلاق والآراء ؟

هل بادية العرب يوكل إليها انقاذ ذلك التراث فى العصر الحاضر ، عصر الكهرباء والنور وهى لم تزل تتخبط فى عصر الجهل . وقد أضاعت ما كان لها من ميزات قديمة من تعقل وشيم بتأثير التقليد الأعمى . وسذاجة الفهم لروح الدين . أم نوجه الأنظار إلى الممالك الأخرى التى بدأت تضطلع بقسطها من التقويم الإجتماعى والسياسى والانتظام فى سلك الدول وهو الأقرب إلى المعقول .

أما رأيى الخاص فلست أرى لهـــا أهلا غير الجامعات التى تكون لها خطط مدققة فى الأحياء والتجديد .لا تلك المتزمتة التى لا تخرج عن عقول

---

(1) مجلة الهلال سنة ١٩٣٩

آليه تتحرك بإرادة غيرها . وتلك قد لا تتوافر لنا فى الساعة الحاضرة إلا فى مصر والعراق وفلسطين أن خرجت من محنتها غير مهيضة الجناح ومع ذلك فلى يقين لا يتزلزل فى الرجعة طال الزمان أم قصر » .

* * *

هكذا كان يفكر عبد العزيز الثعالبى الزعيم التونسى الذى جمع بين العمل الوطنى والدعوة الإصلاحية والصحفى الجرىء والكاتب البحاثة . . الذى قضى معظم حياته مجاهداً ومهاجراً ومغتربا عن وطنه . وكان كلما عاد اعتقل أو حوكم أو خرج مرة أخرى . فقد أعتبره الفرنسيون عدوهم الأول وكان طوال حياته من أعلام الأمة العربية ودعاتها والمجاهدين لها[1] .

ولد فى تونس الخضراء عام ١٨٧٣ . ونشأ فى كنف جده عبد الرحمن الثعالبى من أقطاب الجزائر وسادتها المشهورين فورث عنه أخلاقه ومبادئه وكان عبد الرحمن الثعالبى قد اشترك فى قتال الفرنسيين حين غارتهم على الجزائر وقام بدور ضخم فى المقاومة .

حفظ القرآن ودرس النحو والعقائد ودخل مدرسة باب سويقه الابتدائية فى تونس وبعد أن نال شهادتها انتقل إلى جامع الزيتونة فقضى بها سبع سنوات وتخرج ١٨٩٦

وانضم فى مطلع شبابه إلى أول حزب لتحرير تونس ومقاومة الاستعمار الفرنسى وكتب فى الصحف داعياً إلى الاستقلال والحرية .

ثم أصدر صحف المنتظر والمبشر والرشاد وقد عطلت جميعا لجرأة محررها ومقاومته الفعالة لخطط المستعمر .

ثم أنشأ الثعالبى الحزب الوطنى الذى كان يدعو إلى تحرير العالم العربى كله وقيام الوحدة بين أقطاره

---

(٢) كتاب مصادر الدراسة الأدبية ج ٢ والدولة العربية المتحدة ص ٣٦٣

ولم يلبث الثعالبي أن عزم على السفر إلى خارج بلاده لنشر الدعاية للقضية التونسية فمنعته السلطة الفرنسية من السفر . ففر إلى طرابلس ثم غادرها إلى بني غازي فأقام بها شهرا ثم قصد إلى الأستانة عن طريق اليونان وبلغاريا عام ١٨٩٨ .

ثم غادر الاستانة إلى مصر للمرة الأولى حيث اجتمع بأقطابها وطالب بفتح أبواب المدرسة الحربية العثمانية وفى وجه الطلاب التونسيين وذلك لتخريج طائفة من الشباب تكون مؤهلة لقيادة الثورة وعاد الثعالبي إلى تونس عام ١٩٠٢ بعد أربع سنوات حيث عكف على نشر الدعوة إلى الاصلاح الاجتماعي والدعوة إلى تحرير العقل ونبذ الجمود وطاف بالبلاد التونسية لهذه الغاية يلقى دروساً عامة على الناس الذين التفوا حوله وأمنوا بفكرته ممـــا الب عليه أنصار القديم فاتفقوا على مقاومته .

وقد ذهب الثعالبي فى رحلة طويلة إلى الجزائر والمغرب الأقصى والأندلس وأسبانيا وفرنسا وسويسرا وجال فى أوربا دارساً وباحثاً مستطلعاً . واجتمع بكثير من الأقطاب. ثم عاد إلى تونس يواصل بث دعوته إلى الاصلاح والتجديد والابتعاد عن الجمود ، لقى فى سبيل ذلك معاداة شديدة من الحكومة التونسية والسلطة الفرنسية وقبض عليه وسيق إلى المحـــاكمة أمام محكمة تونسية بتهمة الكفر والإلحاد فحكم عليه بالسجن لمدة شهرين . وأحدث اعتقاله ضجة. وخافت السلطة الفرنسية العاقبة فعرضت عليه اطلاق سراحه على أن يغادر تونس فرفض هذا العرض . فاضطرت إلى اطلاقه بغير قيود .

وقد ألف بعد خروجه من السجن كتاباً سماه « روح القرآن » نقله إلى الفرنسية وطبعه ونشره ، ودعا فيه إلى الإصلاح والبعد عن الجمود وأحدث كتابه ضجة بين أعضاء الجالية الفرنسية فى تونس . ومضى الثعالبي فى عمله

الـكبير فأصدر صحيفة باللغة الفرنسية دافـــع فيها عن العرب ودعا إلى جمع الصفوف ومقاومة المستعمر .

وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على ليبيا وأغارت على طرابلس عام ١٩١١ كان فى مقدمة العاملين لجمع الإعانات ومساعدة المجاهدين وقد نقم عليه الفرنسيون ذلك فقبضوا عليه وأخرجوه من تونس فسافر إلى مرسيليا وباريس وفى قلب عاصمة الفرنسيين دعا إلى حرية تونس وأعلن كلمة العرب .

وحاول الفرنسيون إغراءه فعجزوا واقترحوا أن يقلدوه منصباً علمياً على أن ينصرف عن السياسة فرفض وسافر إلى سويسرا ومنها إلى ألمانيا فتركيا . ثم رحل إلى الشرق وعاد إلى تونس ١٩١٣ وأعلنت الحرب العظمى وهو على إتصال بالتونسيين فى الاستانة وأوربا ودعا بعد الحرب مباشرة إلى عقد مؤتمر لحل قضية تونس واختير زعيما بالإجماع وفوض للعمل باسمهم ثم سافر إلى باريس للدفاع عن قضية تونس أمام مؤتمر الصلح .

ولـكن الفرنسيين قبضوا عليه هناك وسجنوه وأرسلوه مخفوراً إلى بلاده بعد أن تفننوا فى تعذيبه وقد أمضى فى معتقله ثمانية شهور عام ١٩٢١.

وفى عام ١٩٢٣ سافر الثعالبى فى رحلة جديدة إلى أوروبا وأرض الغرب فطاف بإيطاليا واليونان وتركيا ومصر وعندما أراد العودة منع ، فبقى فى مصر حتى عام ١٩٣٦ —ومنها سافر إلى الهند والشرق الأقصى ثم عاد منها إلى تونس بعد أربعة عشر عاماً قضاها بعيداً عنها .

وقد كان الثعالبى من أخطب الخطباء ولم تـكن قضية تحرير تونس إلا جزءا من العمل الـكبير الذى توفر عليه وطاف من أجله البلاد العربية والعالم الإسلامى.

ومن جماع ما ذكره العلامة محمد الفاضل بن عاشور عن الثعالبى أنه برز بعد الحرب العالمية الأولى بما له من ماض فى السياسة والإصلاح الدينى والاجتماعى فبعث

معالم النهضة التونسية وأصبح زعيم النهضة المطلق[1] وكانت مظاهر الحركة الفكرية كلها قد تركزت حول الحركة السياسية بزعامة عبد العزيز الثعالبى .

«وقد سرى فى البلاد عزم اجتماعى قوامه عقيدة وطنية مبنية على أن غاية العمل الشريف الذى ينال به الفرد منزلة الإنسانية العاملة هو العمل فى سبيل المصلحة العامة وقد تشكل حوله الشباب للعمل المنظم وقامت مظاهرة هائلة (مارس ١٩٢٠) أمام دار السفارة الفرنسية وألقى القبض على الشيخ الثعالبى فى باريس لحمل إلى تونس وتحت الحراسة وأحيل إلى المحكمة العسكرية حيث قضت بسجنه ثلاثة أشهر خرج بعدها ليشرف على توجيه الحياة السياسية والفكرية .

«وقد كان الثعالبى مصلحاً اجتماعياً. وكانت جهة النهضة الدينية والاجتماعية فى حياة الأمة آخذة بنظرة وسائدة على شعوره ومصرفه لفكرته .

وهو يؤمن بأن العرب قصروا فى أداء واجبهم وحماية الأمانة ومن ثم طغت عليهم الأمراض الإجتماعية وقامت أوربا تنازعهم السيادة وكان يردد دائماً أن تونس جزء من الأمة العربية . وأن مصر مستقر الدعوة والكفاح وعنها تلقى رجال الإصلاح بتونس دعوتهم وعلى مثالها سيروا كفاحهم .

« وقد بث الثعالبى دعوة الحرية وناضل المستعمرين فى سبيل حصول الأمم المغلوبة على حقها وأهاب بأبناء الأمم المغلوبة على حقها على إنشاء المؤسسات النافعة فلزم أن تكون دعوتها هذه راجعة إلى مبدأ يؤلف بينها وخطة توحد وجهتها نحو الغاية المثلى .

«وقد بسط الثعالبى فى عديد من كتاباته التى نشرها وفى الصحف التى

---

١ — من كتاب الحركة الأدبية والفكرية فى تونس

أصدرها وفى صحف القاهرة « المنهاج العـــربى » الذى رسمه ليقظة العرب وتحريرهم . وقد منيت الصحافة التونسية لفترة طويلة بالتعطيل بلغت ثمان سنوات كان لها أثرها السيء فى توقف الحركة الفكرية ».

يقول الثعالبى مكثنا نحو ثمان سنوات لا نذكرها اليوم بالسوء واللعنة . ويالعلم نيف وأربعون ألف صحيفة ليس لنا منها واحدة . ولما حصلنا على حق ظهور صحافتنا على مسرح الوجود رأينا أننا تحصلنا على شيء عظيم طالما تألمنا لفراقه وتطلعنا لإشراقه ، يجب علينا أن نستخدمه باقبالنا وأموالنا ونحتفظ على حياته بكل قوانا لأن الصحف أفضل الوسائل المساعدة على حفظ اللغة ونشرها وخير ذريعة لتوثيق عرى الألفة بين الناطقين بالضاد والمترجم الصادق عن احساس الأمة ورغائبها ».

ويتصف تفكير الثعالبى بالعمق والاعتدال والتجديد ويتجلى ذلك فى تصويره للنهضة التركية وما إذا كان للعرب أن يقتدوا بها : (يقول) .

« الأمم المستقلة التى تحكمها جمهرة من متعلميها ومفكريها هى التى يحق لها أن تقلد وتقتبس من نهضات الأمم التى تقدمتها فى مضمار التمدن وأنصح بأن تقتبس نظم الجيوش وإنشاء المعاهد الثقافية واستثمار المرافق العمومية .

« وإن طبيعة السلطات المتغلبة على الأمم (يقصد الاستعمار والاستبداد) سواء كانت لفرد أو جماعة لتشدد فى خنق الشعور بذاتية الأمة ومن لواحق صدها عن اقتباس التقاليد النافعة وسلبها حرية العمل فى الاصلاح لأن نمو الشعور بالحاجة إلى ذلك ينبه الأمة إلى ادراك قيمتها الذاتية واحترام الكرامة لا يتلاءم مع سياسة التغلب ذات الصبغة الشاذة والتقاليد المتحجرة . والواقع أن النهضة التركية فيها الشيء الكثير من الأغراء والفتنة للذين يتهافتون على تقليد كل جديد مهما كان أثره . ولكنها ليست فى نفس الأمر نهضة شعبية

بالمعنى الصحيح تستهوى أخيلة النقاد الاجتماعيين بل هى نزوة دكتاتورية فى أمة مستقلة انهكتها الحروب الداخلية والخارجية تحول بغرور المنتصر عقب حرب ضروس أن تطبع تركيا بطابع حضارة نابية عنها لا تمت إليها بصلة ولا تتصل منها بسبب ولا تتجانس مع ماضيها . وليس من الحصافة فى الرأى الحكم فى هذه النهضة لها أو عليها قبل مضى عهد التجربة ويلزم لمضيه جيلان كاملان ، جيل للتلقين والامتصاص وجيل للتدريب والإنتاج ، وفى حسبان العقل السائر أن الثورة الصاخبة على الماضى بكل ما احتواه من خير وشر لا تدعو إلى التفاؤل فربما تبقى إلى أمد ما بقى الجند الحافز لها شاكى السلاح . » .

ولقد أشعل الثعالبى روح القومية العربية فى تونس وفى كل مكان ذهب إليه ودعا إلى الحرية والمقاومة والتجمع وبذلك فهو واحد من أئمة الدعوة إلى الوحدة العربية وخليفة من خلفاء جمال الدين الأفغانى فى تفكيره الثورى وعبد الرحمن الكواكبى فى كتاباته الثائرة الحرة .

* * *

* أصدر فى تونس جريدة سبيل الرشاد ١٣١٣ ﻫ

* وله كتابان : روح القرآن ، وحياة سيدنا محمد .

* قضى فى المشرق من عام ١٩٢٣ إلى ١٩٣٧ بين الهند والحجاز والعراق ومصر وكتب صحف هذه البلاد ابحاثاً مطولة .



عبد القادر الجزائرى

سفير المغرب إلى المشرق

١٨٠٧ — ١٨٨٣

« يلزم العاقل أن ينظر فى القول ، ولا ينظر إلى قائله ، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفاً بالحق أو الباطل ، فإن الذهب يستخرج من التراب ، فالعاقل يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال ، و « الكلمة » من الحكمة ضالة العاقل ، يأخذها من عند كل من وجدها وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامى بأمور : إن العالم هو الذى يسهل عليه إدراك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات والمتبوعون من الناس على قسمين : قسم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره وهو الذى عرف الحق بالدليل لا بالتقليد ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه ، وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره وهو الذى قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر لعقله ودعا الناس لتقليده والأعمى لا يصلح أن يقود العميان .

وإذا كان تقليد الرجال مذموماً غير مرضى فى الاعتقادات فتقليد الكتب أولى وأحرى ، وأن أقوال العلماء متخالفة

واختيار واحد منها واتباعه بلا دليل باطل لأنه ترجيح بلا مرجح فيكون معارضاً بمثله ، وكل إنسان من حيث هو إنسان فهو مستعد لإدراك الحقائق على ماهى عليه ، لأن القلب الذى هو محل العلم بالإضافة إلى حقائق بالأشياء كالمرآة الصافية بالإضافة إلى صور المتكونات تظهر فيها كل على التعاقب ، فالقلب مرآة مستعدة لأن تتجلى فيها صور المعلومات كلها .

وإنما شرف الإنسان وخاصيته التى يتميز بها عن جميع الموجودات هى العلم وبها كماله ، أو كمال كل شىء إنما يكون لظهور خاصيته التى امتاز بهـا عن غيره ، ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية ، وخاصية الإنسان هى معرفة حقائق الأشياء على الوجه الذى هى عليه بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ويتيقن حقائقها فتنكشف له ، ولا شىء أقبح من الإنسان مع مافضله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم أن يهمل نفسه ويعريها من هذه الفضيلة .

ولما كان العلم هو كمال الإنسان كان كل إنسان محباً للعلم بالطبع ويشتهيه ويفرح إذا نسب إلى العلم ولو قليلا ويلتذ الإنسان بالعلم لذاته ولكماله لا لمعنى آخر وراء الكمال . » .

عبد القادر الجزائرى

ما تزال قصة كفاح الأمير عبد القادر وبطولته رمز على تاريخ أمة ، ومرحلة من مراحل نضال شعب فى معركة المقاومة المستمرة التى لم تتوقف للحفاظ على مقومات حياة ، هذه القصة إنما تمثل مرحلة واحدة من مراحل حياة هذا المجاهد العظيم الذى عاش حياته كلها فى نضال وكفاح لم يتوقف .

إن وجه الشبه بين شمائل الأمير عبد القادر وبين صلاح الدين الأيوبى إنما تعطى « وحدة الفكر » فى نماذج أعلام هذه الأمة ورجالها ، على نحو مستمد من القيم الأساسية الإسلامية العربية التى غرسها بطل الأبطال للعرب والمسلمين « محمد بن عبد الله » .

تضم حياة الأمير عبد القادر مرحليتين أساستين :

(أولا) مرحلة الجهاد فى سبيل مقاومة الإحتلال

(ثانياً) والجهاد الأكبر : جهاد النفس فى هجرته وإقامته الطويلة فى دمشق ، عندما هاجر إليها كسفير من أوائل سفراء العصر الحديث بين المغرب والمشرق فترك فيها آثار جلى ، ما تزال حية ، وما يزال الجزائريون أبناء عبد القادر واتباعه تملأ أسماؤهم صفحات كتب الأدب والفكر والنضال والوطنية .

وفى مقدمتهم طاهر الجزائرى وعبد القادر المغربى وسعيد الجزائرى .

* * *

فى المرحلة الأولى من حياة عبد القادر الجزائرى كان هو الأمل المرجو فى قيادة معركة المقاومة ضد الغزو الفرنسى الذى بدأ عام ١٨٣٠ عندما احتلت فرنسا أرض الجزائر فبدأت الحرب بقيادة السيد محى الدين ، وكشفت المعارك عن بسالة عبدالقادر ، واهلته بطولته إلى تسلم مقاليد قيادة المعركة حيث

كان والده محى الدين قد تقدم به السن فبويع عبد القادر فى (فبراير ١٨٣٣) الذى اتخذ مدينة المعسكر عاصمة له ،وكان فى سن الخامسة والعشرين يفيض حماسة ويفيض غيرة على وطنه وأمته ، ومالبث أن جمع القبائل لمواجهة العدو وواجه المستعمر بقوة أذهلته وخاض عددا من المعارك ، مما اضطر فرنسا إلى عقد معاهدة صلح معه عام ١٨٣٤ فمضى يعد نفسه لعمل ضخم ، مزدوج ، قوامه الإصلاح الداخلى من ناحية وانشاء مصانع الأسلحة وصب المدافع واصطناع البارود .

غير أن الفرنسيين لم يلبثوا أن نقضوا المعاهدة عام ١٨٣٥ ، هنالك حاصر عبد القادر الجيوش الفرنسية وامتـــــــدت الحرب : ومضى عبد القادر يحارب بجيوش الجزائر الباسلة ست سنوات كاملة ، بالرغم من وقوف سلطان مراكش فى صف فرنسا ، ولم يضعف من عزيمة عبد القادر ماوقع من غدر بعض القبائل التى وقعت تحت إغراء فرنسا . وكانت ابرز معاركه محاصرة وهران ، منطقة تـكتل القوة الفرنسية ، فقد دامت المعركة الدموية ست ساعات وأنتصر فيها عبد القادر بجيشه القليل وأسلحته المصنوعة فى الجزائر ، وعاد الفرنسيون إلى المفاوضة ، اضطرارا ، إزاء قوة المقاومة الجزائرية ، فى سبيل التحضير لمباغتة غادرة أخرى ، ولم يطل الوقت حتى استقدم الفرنسيون قوات جديدة ليدخلوا معركة جديدة ، وبالرغم من انتصارات الجزائريين ، فقـــد ظل الفرنسيون ينتهزون الفرص للتأليب والتحدى حتى قذفوا بكل ثقلهم فى معركة فاصـــلة حاصروا فيها الموانى حتى يحولوا بين الجزائريين وبين استيراد الذخائر ، واحتلوا بعض المواقع الهامة وأخذت الـكماشة الفرنسية الضخمة تشـــدد الضغط على القوات العربية ، وكان

فى استطاعة عبد القادر أن يمضى فى الحرب مواجهاً الفرنسيين فى صمود لولا انضمام سلطان مراكش إلى فرنسا وانضمام بعض القبائل إلى سلطان مراكش مما عدد مواقع المقاومة الجزائرية ، وضغط قوة العامة ، ومع ذلك فقد رفض عبد القادر التسليم حتى حوصر واعتقل فى ٢١ ديسمبر ١٩٤٧ .

وقد كانت معارك عبد القادر مجددة لأساليب الحروب الإسلامية مما أذهل العدو ، فقد كان يخرج بنفسه للقادة الفرنسيين فى قوة وإيمان . وكان يبدل خططه كلما رأى الفرنسيين يحاولون الغدر به .

وفى خلال المعركة الطويلة بنى الحصون وانشأ معامل الأسلحة ورتب جيشاً منظما وقسمه إلى فرسان ومشاه وسماه « الجيش المحمدى » وضرب نقوداً سماها المحمدية وأقام دهاليز لادخار الحبوب .

والواقع أن عبد القادر لم ينهزم فى معارك الحرب ، وإنما هزم فى مؤامرات الغدر والخيانة .

* * *

عاش الأمير عبد القادر ستة وسبعين عاماً ، أقضى منها فى المشرق قرابة ثلاثين عاماً ، عاشها فى دمشق تقريباً فيما عدا سنوات قضاها فى الأستانة ورحلات قام بها ، ولم تكن حياته فى دمشق حياة صامتة ولا حياة زهادة وتصوف ، وإنما كانت حياة « زعيم » يحفل بكل أحداث أمته ، ويشارك فيها ، فقد شارك فى مختلف القضايا ، وسافر مرات إلى الأستانة وإلى أوربا للمشاركة فى حل قضايا وطنه الكبير الذى أحبه وآمن به وعاش له ، وكانت له إلى ذلك مشاركة ضخمة فى مجال الفكر والثقافة الإسلامية فقد كان بطبيعته فارساً وشاعراً ، وقد أتاحت له فرصة إقامته فى دمشق أن يتفرغ للدراسات والمباحث .

وقد تكونت له فلسفة فكرية واضحة خلال دراساته تكشف عن نفسية عالم وعقلية باحث ، ومن ذلك قوله :

« يلزم العاقل أن ينظر فى القول ، ولا ينظر إلى قائله »

وهذه ولاشك نظرة واضحة التحرر والاجتهاد ، ولا تقل من حيث سلامة مفهومها عن نظرة جمال الدين ومحمد عبده ، وهى بالطبع سابقة لهما فقد كتب الأمير عبد القادر ذلك عام ١٨٥٤ ميلادية بينما تبرز نظرات جمال الدين وآرائه إلا فى عام ١٨٧١ وما بعدها ، وهو مفهوم إسلامى سابق لعصره ، فإذا ما أضيف إليه طابع الزهادة والتصوف الذى عاشه الأمير عبد القادر خلال حياته فى المشرق ، استطعنا أن نرى صورة رائعة لهذا البطل الذى بدأ حياته بالجهاد والنضال فى ساحة الوعى ثم ختم حياته بالجهاد والنضال فى مجال أكبر : « جهاد النفس » .

ولا يتخلف الأمير عبد القادر فى كتاباته عن أن يستوعب معارف عصره ويعرضها من جديد عرضا شائماً مستوعبا سليما ، عليه سمة السماحة التى عرفت به نفسيته فى مختلف المجالات .

ففى كتاب « ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل » الذى أرسله إلى علماء باريز عام ١٨٥٤ يعرض فى موضعين مختلفين لثقافات الأمم وكتاباتها فيستقصى ويوفى بالغرض .

يقول : إن الناس قسمان : إعتنى بالعلوم فظهرت منهم أنواع المعارف، منهم صفوة الله من خلقه ، وقسم لم يعتن بالعلوم ، عناية يستحق بها إسمه ، فالأول أمم منهم الهند والفرس واليونان والروم والإفرنج والعرب والعبرانيون وأهل مصر . . ، ثم يمضى فى عرض ثقافات هذه الأمم فى عمق وإيجاز وإحاطة .

ثم يعود فيعرض لـكتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب ، فيقول : إنها إثنتا عشر كتابه : الفارسية والحميرية والعربية واليونانية والسريانية والعبرانية

والرومية والقبطية والبربرية والأندلسية والصينية والهندية ، ثم يعود فيقول إن خمسة من هذه بطل استعمالها ولم يبق من يعرفها من الأمم وهى الحميرية واليونانية والقبطية والبربرية والأندلسية ، أما الباقيات فمستعملات فى بلدانها » ثم يعرض لكل واحدة فيصف خصائصها فى إفاضة وعمق .

هذا هو الوجه المضىء المشرق ، الذى لم يتحدث عنه كثير من الباحثين الذين عنوا بالدور الضخم الذى قام به الأمير عبد القادر الجزائرى فى مجال الكفاح وهو بالحق دور لا يستهان به ، بل هو نقطة إنطلاق لكفاح طويل مضن ، قام به الغرب فى مواجهة الغزو الغربى الحديث .

والحق أن الأمير عبد القادر هو من أقل عظمائنا وأعلامنا إهتماما بدراسة الدارسين فقد مرت السنوات طويلة لا يذكره ذاكر بعد وفاته عام ١٨٨٣ (بعد إحتلال مصر وتونس) وقد خلت الصحف التى نعرفها من دراسات عنه ، ومن مراجعة فى دار الكتب وفى المؤلفات لا تجد دراسة شاملة ولا ترجمة واسعة للامير المجاهد ، إلا تلك الصفحات القليلة المنشورة فى مقدمة ديوانه ومؤلفاته . وفى العصر الحديث لم تعرف ترجمة ضخمة عنه إلا ما كتبه الأمير سعيد الجزائرى .

أما فى الغرب فقد كتب عنه الكتاب كثيرا ، وعنى به الفرنسيون وترجموا له وحظى من الغربيين بتقدير بالغ لمواقفه الحاسمة التى أعطته فى نظرهم صورة «صلاح الدين» إبان الحروب الصليبية ، فقد كان طابعه الإسلامى الغالب على مختلف تصرفاته وأعماله ووعوده ، وعهوده ، مدعاة للعجب فى نظرهم وكانت فروسيته ونبالة مواقفه المتعددة ملفتة للنظر مرغمة لأكثر الناس تعصبا فى أن يعترفوا له بالفضل . وأبرز المواقف التى هزت العالمين منه ، موقفه فى فتنة عام ١٨٦٠ بين الدروز والموارنة فى دمشق ، فقد وقف خلالها موقفا إسلاميا عربيا مشرفاً لاحد لعظمته وبسالته . إذ تجلى عبد القادر الجزائرى فى ثوب الفارس العربى الذى يحمى الحمى ويزود عن العرين .

ذلك إنه عندما أحس الأمير عبدالقادر بالصراع بين الفريقين أرسل إلى كل المغـاربة والجزائريين ــ وكانت له جالية ضخمة فى دمشق ــ فاستدعاهم ووزعهم على أحياء المدينة لإنقاذ كل من يجدون من المسيحيين فـكانوا يهجمون بقلوب لاتخاف الردى ، يخلصونهم ويردونهم إلى بيت عبد القادر ، ولما علم النصارى بحماية الأمير لهم ؛ أخذوا يفرون إليه بأنفسهم ويحتمون فى بيته ، هنالك إستولى الأمير على البيوت المجاورة لبيته ، وأسكن فيها من لاذوا به ومن جملتهم قناصل الدول ، وأخذ ينفق عليهم ويرعاهم بنفسه ، ولما حاول الأكراد مهاجمتهم ردهم رجاله بقوة وصلابه وغرم ، وفى خلال أيام الثورة السبع لم ينم عبد القادر لحظة واحدة ، كان يقضى ليله ساهراً وسلاحه فى يده حرصا على من فى حماه ، ورجاله منبثون فى كل مكان ينصرون المظلومين ويطبون للجرحى ويرعون الثكالى من النساء . وبلغ من فى حماه من الملتجئين إليه أربعة آلاف كما حاصر القلعة وتسلمها ودخل من فيها إلى رعايته وكانوا سته آلاف .

وقد شهد له التاريخ بهذا الموقف البطولى الخالد ، الذى كشف مرة أخرى عن صورة رجولته وشهامته وإيمانه ، وعن طابع الإسلام والعروبة الواضح فى شمائله وخلقه ، فقد استطاع أن يحقق عمليا إسلوب الاريحية العربية فى النجدة والبذل وحماية الدماء وطابع الإيمان الإسلامى فى التسامح والإخوة الإنسانية . ولم يكن هذا التصرف كما ادعى البعض نتيجة اتصالة بالماسونية .

وقد قام عبد القادر بهذا العمل الباهر وهو أمير فى غير وطنه ، وغير صاحب سلطان ، ولـكن عاطفته الـكبيرة ، ونفسيته المؤمنة ، الصادقة ، بحب الحق والخير والعدل هى التى دفعته إلى أن يخوض معركة جديدة فى سبيل تحرير النفس البشرية من الظلم والعسف وبذلك أضاف صفحة جديدة مشرفة إلى صفحات نضاله الحربى

* * *

هذا جانب من صورة حياة الأمير عبد القادر الجزائرى سفيرا للمغرب العربى كله فى دمشق منذ غادر بلاده ، بعد قتال ضخم ونضال مستمر ، وكفاح مشرف ، ومن خلال مرحلة خصبة من حياته ، زار فيها الأستانة وباريس وبيت المقدس والحجاز حيث أقام عاما ونيف مقبلا على العبادة والخلوة وفى خلالها أنشأ قصيدته الرائية :

أمسعود جاء السعد والخير واليسر   وولت ليال النحس ليس لها ذكر

وفى خلال هذه الفترة قابل السلطانين عبد الحميد وعبد العزيز، والأمبراطور نابليون الثالث ، وذهب إلى لندن ، وفى قصره الكائن قرب قرية « دمر » التى تبعد عن دمشق مسافة ساعة ، إلتقى بعشرات من أعلام العالم الإسلامى ورجاله ، الذين كانوا يقصدونه من كل فج ، يعرضون قضاياهم ، وأمور أوطانهم فيحدثهم ويوجههم ، ويشير عليهم ويشارك فى وضع الحلول لمختلف أمور السياسة والإجتماع .

كان خلال ذلك يعيش حياة الأمير بكل مظاهرها ، يكافىء بالجوائز العظيمة ، ويقدم عطائه لكل من يحتاج إليه و« يعظم أهل العلم ، حسن المسامرة لطيف المعشر ، لا يرد سائلا ، رسائله تترى إلى جميع الجهات بحيث لو جمعت لبلغت عدة مجلدات » وقيل إنه كان يوزع مائتى ليره فى كل شهر على العلماء والفقراء ومختلف وجوه البر .

* * *

أما شخصيته فقد كان مربوع القامة معتدل الجسم أبيض اللون ، أسود الشعر ، أشهل العينين ، يمشى الهوينا ، لا يتأنق فى ملابسه ، متخففا من مطامعه ، متحققاً بالزهـــد والتواضع ، وقد زار مصر ، وشارك فى الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وكان أبلغ ما شغله خلال إقامته فى دمشق تحقيق الكتب العلمية والأدبية والمطالعة والدراسة ، ونظم الشعر والكتابة .

* * *

عاش الأمير عبد القادر قريباً من ثلاثين عاماً فى دمشق ، وتوفى بها ١٨٨٣م وكانت حياته علامة الطريق للنضال فى كفاح الأمة العربية كلها ، وقد نقلت رفاته فى العام الماضى ١٩٦٨ بعد خمس وثمانين عاماً إلى الجزائر وكان قد دفن إلى جوار الشيخ محى الدين بن عربى .

وستظل حياته فى دمشق ، بوقائعها وأحداثها علامة على ذلك اللقاء الروحى والفكرى والثقافى الذى يجمع المشرق والمغرب العربيين الإسلاميين ، وستظل حياة الأمير عبدالقادر تمثل ذلك الكفاح الذى رسمه الرسول حين قال : «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : جهاد النفس » .

فقد عاش الأمير عبد القاد يقاوم الاستعمار على ربى الجزائر منذ عام ١٨٣٣ إلى ١٨٤٦ ، لا يتوقف ولا يهن « ثلاثة عشر عاماً » .

ثم استأنف حياة جديدة فى دمشق ، لاتنفك متصلة بذلك ، ولكنه جهاد روحى وعمل وطنى وسياسى على مستوى الأمة العربية كلها ، فقد كان عبد القادر من أول دعاة الوحدة العربية ، ولد عام ١٨٠٧ فى قرية القيطنه من قرى إيالة وهران ونشأ فى ظل حياة ثقافية وفروسية وسافر مع والده فى جولة إلى الحجاز ودمشق وبغداد فى مطالع شبابه ، وتألق فى محيطه حتى إختاره أهل الجزائر وبايعوه أميراً عليهم عام ١٨٣٣ وولوه أمر الكفاح فكان زعيم الجهاد ورئيس الحكومة وحاكم الدولة ، ولم يتوقف عن النضال ضعفاً ، ولكنه هزم بالخيانة ، شأن كل معارك المقاومة فى العالم الإسلامى ، فى طرابلس والتل الكبير والريف وميسلون . . . الخ .

ولكن الله كتب له أن يبقى ، وأن يعيش فى جزء آخر من الوطن العربى فهاجر إلى دمشق فى أكثر من ثمانين من أهله وتابعيه ، سافروا أولا إلى طولون فابنواز فى فرنسا ، فأقام أربع سنين ونصف ، ثم قصد إلى الشام ، حيث كتب

له أن يخوض معركة أخرى ، وأن يؤدى للامة العربية رسالة أخرى ، تكمل رسالته الأولى ولا تنقضها ، وتقدم إلى الباحثين عن صور البطولة العربية الإسلامية فى العصر الحديث صفحة جديدة مشرفة رائعة .

* * *

اتصلت دراساته اللغوية والدينية منذ مطالع شبابه حتى أتيح له أن يرحل إلى المشرق مع والده وجماعة من أهله قاصدين الحجاز ، عن طريق مصر ودمشق وبغداد واستغرقت الرحلة أكثر من عامين . فلما عاد إلى الجزائر كان الدور الأول من حياته على وشك أن يبدأ قائداً ومجاهداً (١٨٣٠ — ١٨٤٧) .

فلما انتهى هذا الدور بدأ دور العمل الفكرى والجهاد السلمى بعد رحلة طويلة إلى فرنسا ثم إلى الاستانة فدمشق حيث استقر بها عام ١٨٥٥ عندما نزل بدار القباقيبى فقضى بقية حياته بدمشق فى محادثة العلماء والدراسات الفكرية والصوفية وفى فترة السنوات الخمس التى قضاها بين الجزائر ودمشق لم تكن مسحة الكآبة والأسى تفارق وجهه .

وقد عرف عبد القادر فى مختلف أدوار حياته بالحكمة والسداد والصلابة فى الحق ولماحية الذكاء واحكام التصرف والرأى والشجاعة إلى قوة البدن والفروسية والمهارة فى ركوب الخيل والشغف بالعلم والخلوة والتصوف .

وكان يقضى أيامه فى دمشق خلال بضعة وثلاثين عاماً فى القراءة والصلاة وحلقات العلم ، وكان يملك مكتبة ثمينة ضخمة .

* * *

وكان الأمير عبد القادر مربوع القامة معتدل الجسم أبيض اللون ، أسود الشعر ، يمشى الهوينا ويعظم أهل العلم ، عرف بحسن المسايرة ولطف المعاشرة

لا يرد سائلا ، يوزع مائتى ليرة فى كل شهر على العلماء والفقراء ووجوه البر ، ولم تتوقف رسائله وكتاباته إلى معارفه وهى رسـائل لو جمعت لبلغت عدة مجلدات .

وكان العلمــاء والأمراء والفضلاء يقصدون من كل مكان ، فيتلقاهم ويكرمهم بالجوائز ، حتى جمع له من القصائد التى مدح بها فى حياته ديوان ضخم .

عبد القادر المغربى

مجدد الإسلام واللغـــة

١٨٦٧ — ١٩٥٦

« إذا مرت ببالى ذكرى طفولتى مر بجانبها ذكرى كراسة صغيرة جمع لى والدى فيها أبياتاً شعرية تتضمن ضوابط نحوية وفقهية ومسائل شتى وفى المدرسة تنبهت إلى أنه ليس كل ما عزى إلى الدين كان صحيحاً بل أن هناك مسائل مدسوسة .

« ومن مجلة المقتطف فهمت أنه يوجد فى الدنيا علوم أخرى وراء علوم الدين وأنها تؤثر فى ارتقاء البشر . وفى مدرسة أرقى من الأولى رأيت عدداً من جريدة العروة الوثقى ففطنت إلى ما لم أكن فطنت له من قبل وقات فى نفسى أنه يجب على المسلمين إذن السعى فى حفظ استقلالهم السياسى وإلا استعبدتهم الأمم ، ثم تولد فى نفسى الميل إلى خدمة أمتى عن طريق الصحافة . »

* * *



ما ذكرت العلامة عبد القادر المغربى إلا وارتبط فى نفسى بالسيد جمال الدين الأفغانى فلعله آخر من رآه من أصدقائه وعارفيه ، وكلهم قد مضى قبله : شكيب أرسلان وسعد زغلول ولطفى السيد والمخزومى وعبد المحسن الكاظمى وكل هؤلاء قد لقى الأفغانى وتحدث اليه . وكان السيد المغربى أقرب هؤلاء إلى أيامنا ، فقد سعدت بلقائه عام ١٩٥٢ فى القاهرة وتحدثت اليه طويلا وحدثنى عن جمال الدين الأفغانى .

والحق أننى ما زلت أشعر بالسعادة فى أعماقى للقاء هذا العلامة قريبا من وفاته ، وما زلت أذكر وجهه الصبوح المشرق ، وابتسامته الحلوة ، وسماحة نفسه ، وصفاء فكره وهو فى حدود الخامسة والثمانين ، كنت أحس يوما أننى أصل حاضرى بماض طويل للامة العربية والعالم الإسلامى يمتد إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر ، بل إلى العقد السابع من ذلك القرن عند ما كان جمال الدين الأفغانى يهز العالم الإسلامى بتحركاته وكلماته .

وما زال العلامة « عبد القادر المغربى » علامة على هذه الرابطة التى تربط بينى وبينه من ناحية وبينه وبين تلك الفـــترة من التاريخ بكل ما فيها من أحداث ومواقف .

* * *

والأستاذ المغربى ثمرة من ثمار التقاء المغرب بالمشرق ، شأنه فى ذلك شأن العلامة « طاهر الجزائرى » والمغربى الجد فهو ابن عمة الأمير عبد القادر الجزائرى ، البطل المجاهد الذى قاوم الاحتـــلال الفرنسى للجزائر سبعة عشر عاما ، ثم اختار فى آخر أيامه الإقامة فى دمشق فى أواخر الأربعينيات من القرن الماضى ـ وللامير عبد القادر حديث معنا فى هذه الحلقات ـ وقد نشأ عبد القادر

المغربى فى طرابلس ، واشترك فى الحركة الفكرية فى الشام ثم قدم إلى مصر فأقام بها إلى أن صدر الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ وبذلك ارتبطت جذور الفكر العربى بين المغرب والمشرق بأقوى رباط ، ولقد كان المغربى علامة منوع الفكر والنشاط اشترك فى مجالات الفقه واللغة والتاريخ والترجمة وله نظرات فى النقد المسرحى .

وقد تربى كما تربى جيله كله على مجلة «العروة الوثقى» التى أصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس عام ١٨٨٤ وتعلم على علامه الشام الشيخ حسين الجسر وكان من رفقائه فى هذه المرحلة صديق طفولته وصباه « رشيد رضا » وبينهما مراسلات .

ومن عجب الروابط الروحية والفكرية بين المشرق والمغرب أن اختير العلامة « المغربى » عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة — وكان من أبرز رجال المجمع العلمى فى دمشق — فلما توفى ١٩٥٦ أختير بدلا منه العلامة محمد الفاسى مدير جامعة المغرب ووزير التعليم فى المغرب .

* * *

وما تزال مجلدات « مجلة المجمع العلمى العربى » فى دمشق منذ صدرت عام ١٩٢٠ إلى وفاته عام ١٩٥٦ وهى تحمل آثاره شهراً بعد شهر .وفى مقدمتها تلخيص الكتب الجديدة ونقدها على ذلك النحو الذى عرف عنه ، طابع السماحة والبساطة والنقد الهادىء الرزين .

ولكن العلامة عبد القادر المغربى كان فى مطالع هذا القرن فى القاهرة ، وكان لكلماته دوى حيث يحرر فى مجلة المؤيد ، وأبرز آثاره ترجمة رواية غادة الكاميليا من الفرنسية إلى العربية ، وقد أشار إلى ذلك صديقه لطفى جمعه فى ذكرياته حين قال أنه عرف رجلا معمما يترجم رواية فرنسية لتمثل

فى المسارح ، ولعله من أوائل من كتبوا فى النقد المسرحى عام ١٩٠٥ حين نقد تمثيل « سلامة حجازى » وقد كان فى هذا وهذا من أصحاب المدرسة الفكرية الأخلاقية التى تؤمن بتوجيه المسرح والانتفاع به فى بناء الشخصية الفردية ، والتوجيه الاجتماعى . وهى مرحلة سبقت ماتلى ذلك من مراحل فى تطور فن التمثيل ورسالته والقائمين عليه .

* * *

وللعلامة المغربى دعوة إلى المرأة وتعليمها وتحريرها فقد حمل هـذا اللواء بين عام ١٩٠٦ — ١٩١١ فى رسـائل ومقالات طال فيها الجدل بينه وبين معارضيه وخصومه من رجال الدين وله فى ذلك بحثاً مشرق الديباجة بعنوان « كلمتان فى السفور والحجاب » ومحاضرة عن الرسول والمرأة . وقد كان فى ذلك سابقاً لجيله وعصره وأترابه من أصحاب الثقافة الدينية الخالصة .

أما مجاله الأوسع فكان فى دعوته إلى « التعريب » فى اللغة العربية وكان ذلك عام ١٩٠٦ فى الوقت الذى كان أترابه وزملاؤه ينادون بتنقية اللغة العربية من المفردات المعربة الدخيلة وقصر الاشتقاق على ماسار عليه القدماء ولـكن المغربى خالفهم جميعاً ، وأكد أن اللغة العربية يجب أن تتطور مع الزمن تطوراً سليماً صحيحاً تأخذ به من اللغات الحية ما تزيد به مفرداتها زيادة تجارى بها سير العلم وركب الحضارة .

وقد جرت مساجلات فى هذا الشأن بينه وبين حفنى ناصف وجاويش والخضرى والاسكندرى وأحمد زكى وحسين والى . ولـكن المغربى الذى حمل لواء هـذه الدعوة فى مصر لم يلبث حين عاد إلى الشام أن وصل الدعوة إليها حتى تحقق ما أمن به حين اشتراك ١٩١٩ مع فارس الخورى وعبدالرحمن

شهبندر وكرد على فى استبدال الاصطلاحات التركية بكلمات عربية ووضع مع زملائه عدداً كبيراً من المفردات المعربة .

ومن ذلك الوقت عرف المغربى بأنه من رجال اللغة والمجامع .

* * *

ومجال آخر برز فيه المغربى غير الصحافة ، وتحرير المرأة ، وتطوير اللغة ذلك هو مجال الفقه والسنة ، يقول لما اتصلت بالسيد جمال الدين الأفغانى وأنعمت فى دراسة تعاليمه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى فهم النص الدينى فهماً صحيحاً مراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها مع الاستيثاق من مطابقة النص للكتاب والسنة.

وقد سجل لقائه لجمال الدين الأفغانى فى الاستانة فى عبارات شيقة قال :

قصدت إلى زيارة السيد الأفغانى فى « المسافر خانة » حيث كان ينزل المسافرون من ضيوف الخلافة ، فاستأذنت عليه ، وكان لديه طائفة من أهل الفضل والأدب ، ولم أكد أخذ مكانى فى المجلس حتى سألنى السيد عن نفسى فانسبت إليه تذكر بلدى وأسرتى وانى أخذت العلم عن شيخى الشيخ حسين الجسر فأثنى السيد على الشيخ وقال انه قرأ مؤلفه « الرسالة الحميدية » مذ كان فى البصرة .

وأشار العلامة المغربى إلى أثر أستاذه حسين الجسر وأثر جمال الدين الأفغانى فقال .

كان شيخى الجسر مصححاً دينياً دقيق النظر ، لكنه مع هذا بقى طول حياته محافظاً متحفظاً شديد الحذر . وأهم ما استفدناه من طريقه فى الاصلاح يمكن تلخيصه مما وقع لى فى زمن الحداثة وطلب العلم .

ذلك أننى بعد أن تلقيت دراستى عن والدى ورغبت إلى الإستسلام إلى كل ما جاء فى الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضيين ، والتصديق بنصوصها دون تردد ولا ارتياب ، عدت فاقتبست من شيخنا الجسر أراء فيها شيء من حرية النقد وانطلاق الفكر ، وقد تعلمنا منه أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغث وفيها السمين ، وان بينها ما هو غير صحيح ولا معقول ، ولا منطبق على القرآن ولا السنة النبوية الصحيحة فيجب الانتباه إليه والتنبيه عليه ، والتحذير منه وتمييز غثه من سمينه وحقه من باطله . وهذه هى المرحله الثانية من تطوره الفكرى ثم كانت المرحله الأخيرة عند اتصاله بالأفغانى فقد مكنه من تفهم النص الدينى فهماً صحيحاً .

* * *

وهو يصور الأفغانى فى مجلسه فيقول : أما فيلسوفنا فما كنا نراه إلا مشرق الوجه ، منبسط الأسارير ، جذاب لحظ المقلتين تبرق عيناه وهو يحدث بما يسأل عنه وتنفـــرج شفتاه عن ابتسامه لطيفة حين سماعه النوادر فى مجلسه .

ولا شك أن « عبد القادر المغربى » هو أحد أقطاب النهضة العربية التى مضت سريعة الخطا فى أواخر القرن الماضى ومن ذلك الرعيل الذى أنشأه ثلاث رجال : حسين الجسر فى دمشق وحسن الطويل فى مصر وجمال الدين الأفغانى بوصفه موقظ الشرق . وهو جيل كامل تجمع من كل أنحاء العالم الإسلامى والأمة العربية حول بناء فكره على نحو يرتبط فى الأساس تحت لواء واحد هو «إيقاظ الشرق» وإعادة المنهج الإسلامى العربى الأصيل وبناء الثقافة الحديثة العصرية ، ولذلك فإن هذا الجيل كله كان موزع العمل بين وجوه الفكر وفنونه المختلفة . فهم يعملون فى مجال السياسة الوطنية والاجتهاد الدينى والاصلاح الاجتماعى وتجديد اللغة ، وعبد القادر المغربى واحد من هؤلاء احتمل الهجرة

والنفى والسجن فى سبيل كلمة الحق والحرية ، وهو فى هذا يمضى فى نفس الطريق : طريق شكيب أرسلان ورشيد رضا وعبد العزيز جاويش والخضر حسين ومحمدعبده، غير ان عمله من أجل اللغة العربية كان مقدماعلى هذه الفنون جميعا ،فقد بدأ كتابة مؤلفه عن «الاشتقاق والتعريب»عام ١٩٠٨ وأمضى بعد ذلك نصف قرن فى هذا المجال مشاركا فى أعمال المجامع اللغوية الثلاث فى دمشق والقاهرة وبغداد .

ولقدانتفع المغرب بآثار « المغربى » كما انتفع المشرق ، وكان له دوره ومواقفه بالنسبة لقضايا شمال افريقيا فى الدفاع عنها وكذلك كان الخضر حسين فى مصر ، وكان فى الصف الأول من المناضلين عن حق المغرب العربى كله من الحرية والكرامة ، وما زال شباب المغرب العربى كله ينتفعون بكتابه « الأخلاق والواجبات » وخاصة فى المغرب الأقصى إذ كان له أحسن الأثر على الناشئة لما يمتاز به من الأسلوب السهل وروح الحماس التى تسوده وذلك « على حدتعبير الأستاذ محمد القاسى » .

* * *

ولقد أحب المغربى السيد الأفغانى واتصل به فى دار الخلافة ١٨٩٢ ثم عاد إلى طرابلس الشام ، ولم يلبث أن قدم إلى مصر عام ١٩٠٥ ليتصل بتلميذه الأول « محمد عبده » والقول بأن الشيخ الإمام قد استدعاه إلى مصر ليعمل فى مجال الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى غير أنه توفى فى نفس العام ، فاتجه المغربى الى العمل فى الصحافة محرراً فى مجلة الظاهر التى كان يصدرها محمد ابو شادى ثم فى جريدة المؤيد .

فلما أعلن الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ عاد إلى طرابلس الشام ثم لم يلبث أن أنشأ جريدة البرهان التى استمرت حتى عام ١٩١٤ واشترك عام ١٩١٥ فى

تأسيس الكلية الصلاحية فى القدس لتخريج دعاة الإسلام، ثم عمل مديراً لجريدة الشرق التى أنشأتها الحكومة العثمانية سنة ١٩١٦ .

وكان صديقه الشيخ رشيد قد قدم قبله إلى القاهرة عام ١٨٩٨ وأنشأ جريدة المنار ، أما صديقهما الثالث الأمير شكيب أرسلان فقد كان مقيما فى جنيف وقد كتب فى البرهان التى أصدرها المغربى فى طرابلس كما كتب فى المنار التى أصدرها رشيد فى القاهرة .

* * *

وبعد فإن النظر إلى تراث المغربى يكشف عن صورة رجل مجدد سابق لمصره فى مجالات ثلاث : الترجمة ونقد المسرح ، الدعوة إلى تحرير المرأة ، الدعوة فى تجديد اللغة .

لقد لاقت كتاباته جميعاً صدى واسعا وأثارت قضايا ومعارك متصله ، وكان فى كل نظراته مؤمناً بفتح باب الاجتهاد ، الدينى واللغوى ، داعياً إلى التأليف بين المذاهب والفرق الإسلامية .

أما موقفة من القصة فقد ترجم القصة الفرنسية (غادة الكاميليا) من الفرنسية إلى العربية وأطلق عليها اسم « النجم الأفل » وقد أشار فى بحثه له أنه اشترك مع اميل شبطنى فى ترجمتها وأتماها فى أربعة أشهر وانهما تصرفا فيها بعض التصرف فكانا يحذفان ما لا يتفق وذوقهما مراعين الأخلاق الإسلامية وأساليب التفكير فلما أتما ترجمتها أعاد المغربى قراءتها فحرر عبارتها وأضاف إليها بعضا من الأشعار والأدوار الغنائية ما رآه لازماً فى بعض فصولها ، حتى إذا فرغت سماها « النجم الآفل » إشارة إلى إفول نجم مرغريت بطلة الرواية ، ثم قصد بعد إتمام الترجمة والتصنيف إلى زيارة الشيخ سلامه حجازى الممثل المصرى المعروف فتلاها عليه فى عدة جلسات وأعجب بها الشيخ سلامه وقدمها للتمثيل فى أكتوبر ١٩٠٨ وكان

الإقبال عليها عظيما ، وقد نظم المغربى أغانيها ووضع أدوارها الغنائية ولـكنه رفض من بعد أن يطبعها ، واحتفظ بها فى خزائنه ، وما تزال حتى اليوم ، ولعله خشى أن يوجه إليه النقد لما ورد فى الرواية من بعض العبارات .

* * *

وكما تنوعت أعمال المغربى بين الصحافة والإصلاح والفقه واللغة ، تنوعت مؤلفاته ، فله مؤلفات فى فنون الفكر الإسلامى العربى المختلفة :

(أولا) فى اللغة : الاشتقاق فى التعريب ، وعثرات اللسان فى اللغة .

(ثانيا) فى الاصلاح الاجتماعى والنقد : كتابة « البينات » فى جزأين يضم مقالاته المنوعة التى نشرها فى الصحف .

(ثالثا) فى التربية : كتابه «الأخلاق والواجبات» ضمنه الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية والمدنية للفرد .

(رابعا) تفسير القرآن : وله كتابين : تفسير جزء تبارك و « على هامش التفسير » وقد تابع فيهما منهج الإمام الشيخ محمد عبده .

(خامسا) القصص الإسلامى : وله كتاب أحسن القصص ، أو التاريخ النبوى (وما زال هذا الـكتاب مخطوطاً) .

(سادسا) أدب اللغة : وله تاريخ آداب اللغة العربية ، وكتاب الآداب العربية وهما لم يطبعا .

(سابعا) الفقه : وله كتاب فى أصول الفقه ، (لم يطبع) .

* * *

وبعد فما العلامة المغربى «الإنسان» ! ، انه آية فى نبالة الخلق وصفاء الطبع ، وصفه الدكتور محمد أسعد طلس فى دراسة عنه فقال : كان حر الفكر صريحاً متشدداً فى رأيه لا يحيد عنه ، كان بعيداً عن الدنيا وحطامها لم يسع قط إلى منصب أو فائدة مادية مهما عظمت ، كان أسلوبه بعيداً عن الاسفاف ، كما كان يتصف بصفة قلما جاراه فيها أحد من العلماء فى عصره ، وهى الصبر على العلم والبحث ، والتأليف ساعات ، معتزلا فى غرفة عمله ، مكباً على كتبه وقراطيسه بلا كلل ولا ملل »

وكان للمغربى فى محاضراته العامة ودروسه أسلوب هو الغاية فى الطلاوة ، كما كان له صوت حسن الجرس جهورى المقاطع ، ينحدر كأنه السيل بلا يتلعثم ولا يتوقف ، كل ذلك ببيان مشرق وأسلوب أخاذ لا يمل سامعه مهما أطال .

والحق أن العلامة « عبد القادر المغربى » كان علماً على امتزاج العقل العربى الإسلامى بين المشرق والمغرب فى الأمة العربية وعلامة على روح الوحدة الفكرية والروحية التى ربطت العالم الإسلامى فى وقت كان الاستعمار حريصاً على تمزيقها وتقسيمها .

* * *

وخلاصة حياة عبد القادر بن مصطفى المغربى ، أنه تونسى الأصل ، ولد بطرابلس الشام ١٨٦٧ وتلقى العلم على والده والعلامة حسين الجسر ، ونزح إلى مصر ، وحرر فى جريدة المؤيد ، ثم عاد إلى طرابلس الشام وأصدر جريدة

البرهان واشترك مع عبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان فى تأسيس كلية الفنون بالمدينة وساهم فى تأسيس الـكلية الصلاحية بالقدس .

ثم استوطن دمشق ، وانتخب عضواً عاملا فى مجامع اللغة العربية فى دمشق ، والقاهرة وبغداد .

توفى عام ١٩٥٦

عبد القادر الحسينى

أول شهداء معركة فلسطين

١٩٠٨ — ١٩٤٨

« أبى : لقد بلغت من العمر مايشتهيه الكثيرون .

« أبى : اختم حياتك بقيادة أمتك فى ثورة ضد الظلم واخرج على قوانين الاستعمار وان لم يمت مثلك فى سبيل وطنه ، فمن ذا الذى يموت » .

* * *

تعطى مطالع حياته صورة نهايتها ، ذلك الشاب المؤمن القوى الذى يريد أن يهب حياته لوطنه مصراً على الشهادة متطلعاً إلى الجهاد كسبيل لا سبيل غيره لتحقيق آمال الأمة العربية .

قيل له ما تتمنى : قال أرجو أن أفوز بنعمة الشهادة . وقيل له ماذا تفعل بعد أن تتحرر فلسطين : قال اذهب إلى افريقيا لأحارب الاستعمار الفرنسى فى الجزائر .

واليوم والجزائر تتحرر وفلسطين تتطلع إلى الحرية نذكر عبد القادر الحسينى . أنه شبه بمحمد عبيد فى معركة التل الكبير . ويوسف العظمة فى معركة ميسلون، كذلك كان عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل .

لقد أراد ألا يرى فلسطين وقد احتلها اليهود .

كان أبوه « موسى كاظم الحسينى » أول من حمل لواء المعركة فى وجه

اليهود والإنجليز معاً فى فلسطين. وشب عبد القادر فى هذه البيئة المليئة بالأحاسيس الرهيبة . أن وطنه يراد به أن يغتال.

كان فى سن العاشرة عندما صدر وعد بلفور : لذلك فقد عاش مطالع صباه فى ظل الأحداث ، ورأى جموع اليهود من مختلف أنحاء العالم وهى ترد إلى فلسطين فى ظل حماية بريطانيا التى تعين هؤلاء الدخلاء على التجمع والتسلط وامتلاك أراضى العرب . ورأى كيف كان سلطان الاحتلال ونفوذ الصهيونية يسحق العرب سحقاً . فيحرق قراهم ويدمر بيوتهم .

أرسله أبوه إلى القاهرة لاتمام تعليمه فى أحد المعاهد الأجنبية ، وجاء اليوم الذى يحتفل فيه بتسليمه الشهادة . فهل مضى فى الطريق الذى مضى فيه غيره . صعد المنبر وهو يحمل شهادته فى يده ليلقى كلمة يتهم فيها هذه الجامعة بالنزعة الاستعمارية والدعوة إلى التبشير .

وكتبت جريدة البلاغ فى يوم ٢٧ مايو ١٩٣٢ : أن عبد القادر الحسينى وقف على ملأ من ألوف المدعوين والعلماء والوجهاء فقال : إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس فى مظهر المدرسة العلمية ولكنها فى الحقيقة تعمل لافساد العقائد ونصح الحاضرين بأن لا يدفعوا أولادهم إلى هذه المدرسة . وقامت ضجة عنيفة : واضطرب نظام الحفل . وأرصدت الجامعة أحد موظفيها على الباب لينتزع منه الشهادة ويعتدى عليه . وكانت حكومة مصر قبل الثورة فى تبعيتها للاستعمار عوناً على إقصاء عبد القادر الحسينى من القاهرة إرضاء لذلك النفوذ .

هذه صورة عبد القادر الحسينى فى مطلع شبابه . الرجل القوى الحر الذى لا يقبل المهانة لأمته فى كرامتها وعزتها . والذى كشف مخازى المعاهد الأجنبية ورفض أن يقبل التدليس على ضميره اليقظ .

* * *

وفى عام ١٩٣٣ بدأ معركة جديدة فى القدس على نفس الطريق ، طريق الوطنية الصادقة فقد حدث أن قرر شباب فلسطين القيام بمظاهرات فى القدس ضد هجرة اليهود والانتداب البريطانى ، وحمل المتظاهرون قرارهم إلى « موسى كاظم الحسينى » والده ، وكان حاضراً معهم . فلما وجد والده متردداً بين الرفض والقبول لم يلبث أن قال له :

« اختم حياتك يا أبى بقيادة أمتك فى ثورة ضد الظلم » .

فلما أرسل المندوب البريطانى وفداً إلى والده يدعوه إلى العدول عن القرار إنبرى يقول لهم : إنكم تريدون أن يكف « أبى » عن دعوته . إنه لن يكون خائناً لوطنه والله لو أن والدى قبل وساطتكم فإنى سأكون أول من يخرج عليه ، إنى أحب أمتى أكبر من حبى لأبى

وهنا أطرق والده وقال : هذا ما تقوله يابنى ، فماذا يقول الناس .

ولم يجد المندب السامى إزاء ذلك إلا أن يرسل وفداً غير رسمى من رجال الجالية البريطانية على رأسه مس نيوتن صديقة العرب لإلغاء القرار وعند درجات المنزل قابلها عبد القادر فأمسكها بشدة من ذراعها وقال لها :

يا سيدتى : إنى أربأ بك أن تسعى إلى والدى ليكف عن دعوته . إنه لن يكون خائناً لوطنه ، والله لو أن أبى قبل وساطتكم فإنى سأكون أول من يخرج عليه فإن حبى لأمتى يفوق حبى لأبى .

ومضى أبوه يحمل اللواء ويقود المعركة حتى سقط فى الميدان وهو

يحارب ، هنالك حمل عبد القادر اللواء واندفع يكمل الشوط .

خرج عبد القـادر الحسينى فى ثورة فلسطين الـكبرى عام ١٩٣٦ إلى الجبال بسيفه وبندقيته والتحق بالثائرين فى منطقة القدس وخاض للمرة الأولى غمار المعارك مع قائد المنطقة « محمد سعيد العاصى »

وعرف له زملاؤه فى هذه المعارك روحه الحربية . وشجاعته وذكاؤه وقدرته على العمل ، ولـكن الثائرين لم يلبثوا أن ألقوا السلاح إلى حـــين ، إجابة لرغبة الملوك والحـكام الذين فرضوا الصلح على مجاهـــدى فلسطين لحساب بريطانيا . وأوقفوا الثورة بعد أن بلغت غايتها من القوة .

وأسره الإنجليز ولـكنه استطاع أن يفر من أيديهم وهو جريح ، حيث سافر إلى بغداد ودمشق وظل يعمل على تدريب المجاهدين حتى عام ١٩٣٨ حيث عاد إلى فلسطين وراح يهاجم مستعمرات اليهود ويناضل فى معـــارك متعددة .

وكانت الأمم المتحدة قد أصدرت عام ١٩٣٧ قراراً بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية . فـكان عبد القادر الحسينى أول الثائرين على هذا القرار ، فقد راح يكيل الضربات لليهود واستطاع أن يعزل مستعمراتهم بعضها عن بعض . ويدمر بعضها الآخر . وينسف عدداً من معاقلهم .

وبينما كان يقود فصيلة من المجاهدين فى جبل الخليل . وقد اتخذ من قرية بنى نعيم مقراً للقيادة ، أرسل إليه الإنجليز قوة كبيرة من الجنود أحاطت بوكره واستمرت المعركة ثلاثة أيام،استطاع الإنجليز خلالها أن يعزلوه ويمنعوا عنه النجدات والذخيرة . وفى مساء اليوم الثالث هجم الإنجليز على معقله . فسقط عبد القادر صريعاً بعد أن اخترقت رصاصة قاتلة رئته اليمنى . وسقط إلى جواره عشرات من فتيان العرب . ولمـا فتش قائد الحملة جثمان عبد القادر ظن

أنه مات فأذاع الخبر . وجمع الشهداء وعبد القــادر من بينهم ، غير أن الأنين رجع إليه بعد ثلاثة أيام ونقل إلى المستشفى .

وما كاد يعى عبد القادر نفسه حتى هرب على ظهر جمل إلى دمشق .

وعندما رأى زوجته قال : آسف؛لم أنل هذه المرة شرف الاستشهاد .

ثم عاد إلى فلسطين ليستأنف جهاده .

وفى عام ١٩٤١ حمل روحه على كفه ليحارب معركة المصير فى العراق واستطاع أن يؤخر دخول الإنجليز إلى بغداد عشرة أيام كاملة . فقد حاربهم فى معركة (صدر أبى غريب) عند ضواحى بغداد ليفسح الوقت لرشيد الكيلانى ورجاله للاستعداد لمقاومة القوات الزاحفة .

فى خلال هذه الفترة حتى عام ١٩٤٥ ظل مبعداً عن وطنه فى السعودية وغيرها من البلاد العربية حتى قدم القاهرة وألف بهــا جيش الجهــاد المقدس ونظم الـكتائب السرية .

وفى عام ١٩٤٦ أصدر أمره إلى رجاله بدخول فلسطين . فتألفت جماعات ثلاث حملت أسماء الحرية والثأر والقوة .

وكان أول من دخل فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بعد صدور قرار التقسيم فجعل مركز قيادته العامة فى بلدة « بِئْر زيت » من قضاء(رام الله) لقربها من القدس وتمكن من تطويق العاصمة المقدسة ودارت بينه وبين الإنجليز واليهود معارك متعددة .

طلب اليهود جعل القدس : منطقة مفتوحة ورفض عبد القادر وحين بدأت ذخيرته تنفذ أحسس بالخطر ، فذهب إلى اللجنة العسكرية بدمشق يطلب الامدادات ولم يكن لدى اللجنة أى سلاح ثقيل . وأعطوه خمسين بندقية .

وسقطت « القسطل » فى أيدى اليهود وزلزل الحادث كيانه ، فاستقال من القيادة ولكنهم وعدوه بأن يعود . ثم قرر أن يعود كجندى صغير . ومضى يهاجم القسطل بسلاحه الضئيل وإيمانه الكبير . خاض المعركة بقميصه ودمه دون سلاح .

كانت خطته هى محاصرة القدس والمستعمرات اليهودية وقطع التموين والماء عنها وضرب القوافل القادمة عليها . ونجح فى هذه اللحظة ولكن معركة القسطل كانت بالنسبة اليه هى كل شىء .

قال لا يمكننى استرجاع القسطل بالبنادق الإيطالية والذخائر القديمة التى احضرتها من مصر . وكان خطته هى محاصرة القدس والمستعمرات اليهودية وقطع التموين والماء عنها ، وضرب القوافل القادمة إليها ، وقد نجحت الخطة وأدت باليهود الى طلب الهدنة فى القدس وبالولايات المتحدة إلى العدول عن مشروع التقسيم غير انه كان يعلم أنه لا يمكن مهاجمة القدس والمستعمرات أو استرجاع القسطل بالبنادق الإيطالية والذخائر القديمة التى احضرها من مصر ، وكان مطلبه من القيادة العسكرية « إذا قدمتم مدفعية فإنى على استعداد لاسترجاع القسطل واحتلال مدينة القدس والمستعمرات المحيطة بها على أن أسلمها لكم قبل ١٥ مايو ، وان عجزت عن ذلك فيمكنكم محاكمتى عسكريا وشنقى فى وسط مدينة دمشق » فلما لم يجد ما يريد . قرر أن يعود إلى فلسطين ، وخاض معركة القسطل . وبينما كانوا يهتفون بسقوط الحصن . كان يجود بآخر أنفاسه مستشهداً ، لقـــد آن له أن يحقق أمله فى الشهادة . لقد قتله الخلاف بين العسكريين والسياسيين بين مؤامرات الاستعمار وتعدد القيادات .

مات فى قلب المعركة محارباً لليهود والإنجليز معا . فقد كان يبغضهم جميعا . مات وفياً صادق الوفاء لوطنه الذى أحبه . مات وهو فى الرابعة والثلاثين ملىء القلب بالإيمان والصدق .

أراد أن يموت حتى لا ترى عينيه عدوه وهو يسيطر على بلده وكانت تلك إحدى أمانيه .

* * *

ولد عبد القادر الحسينى ١٩٠٨ فى القدس وتعلم فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وشارك فى كثير من الثورات على الحكومة البريطانية فى عهد احتلال فلسطين.

دخل الكلية الحربية فى بغداد ثم عمل فى الجيش العراقى وأشترك فى ثورة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ ثم توجه إلى الحجاز وانتقل إلى مصر وأشرك فى معركة فلسطين واستشهد على أبواب القسطل وهو محاصرها فى ٨ أبريل ١٩٤٨ وخلف ذكراً عاطراً وإسماً لامعاً .



عبد الكريم الخطابى

بطل تحرير المغرب

١٨٨٣ — ١٩٦٣

عندما قبضت القوات الأسبانية عليه عام ١٩١٥ وهو قاضى القضاة فى مليله باسم خليفة تطوان حيث تألف مجلس عسكرى لمحاكمته قال : إن الخليفة نادى بالجهاد ضد الحلفاء وأنا مستقيل من الوظيفة إذا كان ذلك يمنعنى من القيام بالواجب الوطنى المحتم على .

يقول الأمير عبد الكريم فى مذكراته « كان الريف طوال أيام الاحتلال الأسبانى مستقلا ، ولم تحتله أسبانيا بعساكرها،وكانت دائما تخشى سطوة أهله، ولكن مظالمهم كانت تمتد شرق الريف وغربه ولجأ الأهالى إلى والدى مستغيثين فأرسل والدى للاسبان مهدداً بأنه إذا لم تعدل أسبانيا عن سياستها الحمقاء والكف عن إيذاء الأهالى فى المنطقة التى يحتلونها شرقاً وغرباً فإنه سيحاربهم، هنالك أسرعت أسبانيا بالقبض على »

ولما انتهت المحاكمة الصورية التى قاموا بها معه ، نقل إلى المعتقل ، حيث وضع فى قلعة (مليلة) وامضى أحدعشر يوما فى السجن الانفرادى ، وقد استولوا على جميع الأوراق الخاصة به والتى كانت تحوى تفاصيل الوضع الحربى القائم فى الريف .

وعلم أن نتيجة محاكمته كانت البراءة ، إذ لا توجد فى القانون مادة تدينه لأن جنسيته مراكشى ، ولكنهم استمروا فى حبسه رهينة عن والده ، عندئذ

قرر الهروب من السجن حيث قام بالقفز من أعلى برج فى القلعة إلى الأرض وبقى فترة معلقاً فى الفضاء فلما أراد أن يقفز المسافة الباقية وكانت الريح شديدة عاصفة ، فسقط على رجله اليسرى فكسرت وبقى على الأرض فترة طويلة فى حالة إغماء ، عندئذ أعيد إلى السجن مرة أخرى حيث فرض عليه السجن أربعة شهور .

ولكن والد الأمير عبد الكريم لم يمنعه سجن ابنه من مواصلة العمل ضد احتلال أسبانيا ،وما أجدت التهديدات التى وجهت إليه ، وكانت أصوات المواطنين قد ارتفعت بالشكوى من ظلم الأسبان وعسفهم .

وفى عام ١٩٢٠ أنذر والد الأمير الأسبان بايقاف أعمال العسف والإرهاب فلما لم يجد استجابة كافية منهم ، بدأ إعداد جيش كامل العدة حيث دارت المعارك بينه وبين الأسبان .

وهكذا عاش الأمير عبد الكريم فى محيط الأحداث منذ مطالع شبابه حيث تولى بعد وفاة والده مقاومة الأسبان الذين كانوا يحتلون شرق الريف وغربه ، بينما كان الفرنسيون يحتلون جنوب الريف .

ولم يلبث الأسبان أن سيروا جيشاً كبيراً من مليلة لاحتلال الأجزاء الحرة من الريف . هنالك دعا عبد الكريم رجاله إلى العمل والمقاومة فاحتشد حوالى ألف مجاهد لمقابلة جيش الأسبان الذى يضم ٢٥ ألفاً من الجنود المزودين بالعتاد والذخيرة .

وعندما احتل الأسبان بلدة (أنوال) اندفع عبد الكريم ورجاله فاسترد المركز الحصين وأفنى حاميته وغنم كل ما به من ذخيرة ومؤن ولم يكن مع أبطال الريف قبل المعركة سوى مدفع واحد غنموه من أعدائهم .

وكان من نتيجة معركة أنوال ١٩٢١ أن اهتزت أسبانيا رعباً وفزعاً وأخذت تحشد جيشاً جديداً فى مائة ألف مقاتل لتطبق به من الشرق والغرب على (اجدير) بلدة عبد الكريم .

ولم يلبث زعماء القبائل أن تقدموا إلى عبد الكريم بالتأييد والعمل معه وإنضم شبابهم إلى المعركة فبلغ الجيش العربى ألفاً وستمائة رجل وقد رؤى أن يقسم إلى جزئين أحدهما تحت أمرة عبد الكريم فى الشرق والآخر تحت قيادة شقيقه محمد فى الغرب .

ولم يكن فى يد المجاهدين موارد كافية ، وكانت الرقعة التى يسيطرون عليها قليلة الموارد بينما العدو يسيطر على المناطق الغنية بثرواتها فضلا عن أنه يسيطر على البحر .

وقد استخدم الأسبان بعض الرؤساء والشيوخ للافساد والتفرقة والخيانة .

وقد صور المراسلون الأجانب عمل عبد الكريم الخطابى فى هذه المعركة فقالوا :

إن غرفة إستقبال الأمير التى خرجت منها شعلة أنارت الوطن والهبت قلوب بنيه والتى هى محط أنظار الأمة وهيكل تاريخها وهى غرفة عمله أيضاً فإنها لا تزيد مساحتها على عشرين قدماً مربعاً ولا يزيد إرتفاع جدرانها على ستة أقدام ، وقد نشرت على جدرانها خريطتان أسبانيتان لبلاد الريف ، أما أرض الغرفة فمفروشة ببساط وفيها كراسى ومنضدة من الخشب عليها رسائل وتقارير وجرائد ومجلات عربية وأفرنجية ويجلس الأمير عبد الكريم على هذه المنضدة ولا يساعده فى أعماله سوى شقيقه محمد عبد الكريم .

ولم تكن الأعمال الحربية لتنسى الأمير أمر الإصلاحات التى تحتاج اليها

البلاد أشد الحاجة ، وما كان توطيد الأمن ليشغله عمـا يحقق لشعبه المستقبل المجيد ، فقام باصلاحات فى كل الفروع ، ونظم مالية البلاد وأصلح الإدارة ونظم التجارة والزراعة وأسس المدارس وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا ، وعنى بإصلاح حالة الريف الصحية وعمل على تعبيد الطرق وربطها بعضها ببعض إلى غير ذلك من الإصلاحات التى ستكون نواة لنهضة قومية ثابتة فى المستقبل .

وكانت لدى قيادة الجيش الريفى العليا مصلحة إستعلامات متقنة تعرف منها أسرار حركات الجيش الأسبانى واستعداداته ، وتقف على الحالة الداخلية فى أسبانيا وقوفاً تاماً .

وقد ثبت أن عبد الـكريم قائد الجيش العام كان شديد الحذر والانتباه لا يبوح بخطته إلا عند تنفيذها ، وخططه الحربية قريبة الشبه بالخطط الأوربية وكثيراً مايجارى الأسبان فى خططهم ويظل فى أخذ ورد معهم يتقدم تارة ويتراجع أخرى .

ولم يلبث الأمير عبد الـكريم أن استولى على جزيرتين مواجهتين كان العدو قد اتخذهما مركزاً للتجسس، فقد عبر المجاهدون البحر واستولوا على إحدى الجزيرتين وتحصنوا بها، وأمكن لهم إبتكار وسيلة للاتصال بالشاطىء الزاخر بقوات العدو ، إذ أقاموا بين الجزيرة والشاطىء حبلا كانوا يرسلون بواسطته قربا يضعون بداخلها الخبز الجاف والفاكهة الجافة والذخيرة اللازمة من الرصاص .

وفى الوقت الذى أحست فيه فرنسا بانتصارات عبد الـكريم على الأسبان بدأت تنشط وتتحفــز للعمل ضده ، فقد أحست أن الخطر سيحوطها قطعاً فأخذت تستأجر الخونة والمترددين ودعاة الهزيمة فى كل مكان، واتجه الفرنسيون إلى العمل لمساعدة المستعمرين الأسبان وانتهزوا فرصة انشغال الوطنيين بأمر الأســبان فاحتلوا (ورغة) فأحكموا بذلك الحصار على الوطنيين

(مايو ١٩٢٤) وكان هذا تعاوناً من فرنسا وأسبانيا فى سبيل القضاء على حرية البلاد .

وفى يوليو ١٩٢٤ أعاد الأسبان تنظيم قواتهم من الغرب وعززوها بالامدادات والذخائر والمؤن وأرادوا الزحف شرقاً ليلتقوا بالجيش الأسبانى القادم من مليلة ؛ واستمر هجوم الأسبان ثلاثة أسابيع كان خلالها عبد الكريم ورجاله يقاومون بعزيمة وصمود حتى انكسر جيش أسبانيا وانسحب مرة أخرى بعد أن فقد أربعة آلاف من رجاله .

واستمرت المعركة إلى ١٥ أغسطس ١٩٢٤ وانهزم الأسبان مرة أخرى وفى أبريل ١٩٢٥ فتح الفرنسيون جبهة جديدة للتخفيف عن الأسبان مفاجئين الوطنيين بعد أن بلغت انتصارات العرب حداً خطيراً ،فكان على عبدالكريم ورجاله أن يواجهوا فرنسا وهم فى ذروة القتال مع الأسبان الذين نزلوا فى أدير بعد مقاومة شديدة وكانت هذه هى الجبهة الرابعة التى فتحت على قوات عبد الكريم وبذلك امتدت جبهة القتال مسافة ٣٠٠ كيلو .

وعرض الصلح على عبد الكريم أكثر من مرة ولكنه رفض وكان يعلم فى الفترة الأخيرة من المعركة أنه يحارب حرباً خاسرة ولكنه أبى أن يوقع معاهدة تنقص حقوق بلاده وفضل لنفسه الأسر بشرف .

ولم يكن جنود عبد الكريم يزيدون على خمسه آلاف ضد ربع مليون جندى بطائراتها وبوارجها وغازاتها السامة فضلا عن حصار الأسطول البريطانى الشواطىء المنطقة التى يحارب فيها عبد الكريم .

وقد خدعت فرنسا الأمير بعد أن قدمت له عهداً مكتوباً بالأمان ولكنه ما كاد يقع فى قبضتها حتى قامت بنفيه وباقى أفراد أسرته إلى جزيرة (ريئنون)

حيث قضى عشرين عاماً بها ثم تقرر نقله إلى باريس للاقامة بها ومرت السفينة « كانوما » التى تحمله بقناة السويس فى طريقه إلى جنوب فرنسا . . . . .
وفى يوم ٢٩ مايو ١٩٤٧ نزل الأمير من الباخرة إلى شاطىء بور سعيد واتخذ مصر مهجراً له .

* * *

ولد الأمير عبد الكريم الخطابى عام ١٨٨٣ فى قرية « أجادير » على شاطىء البحر الأبيض بين تطوان ومليله ، وهو من أحفاد السلالة الإدريسية ، وقد شب الأمير فى ظروف الصراع بين أصحاب الأرض العربية وبين الاستعمار ، وفى نفس الوقت الذى كان الاستعمار يتآمر لتقسيم مناطق النفوذ .

هنالك أحس الأمير بالواجب الذى تفرضه الأوضاع عليه فى مقاومة الاستعمار وكانت معركة أنوال كبرى معاركه التى انتصر فيها حيث كبد العدو خسائر فادحة ، هذه المعركة التى أعادت صورة بطولة العرب فى الأندلس فقد ضرجت خمسة أميال من الأرض بجثث القتلى والجرحى والغنائم وحيث استولى عبد الكريم ورجاله على أكثر من عشرين ألف بندقية وبضعة ملايين من الطلقات .

ثم حمل عبد الكريم فى ١٠ أكتوبر ١٩٢٦ إلى المنفى فى جزيرة رئينون التى تقع على المحيط الهندى شرق مدغشقر أعدتها فرنسا لنفى الابطال المهاجرين فى حراسة فصيلة كبيرة من الجنود الفرنسيين وهناك منعت عنه الصحف والمجلات والكتب عشر سنوات قاسى فيها مع أهله مرارة النفى والتعذيب ، ولكنه اتجه إلى العبادة والزهادة فقد أقام بالجزيرة واحد وعشرين عاما بعيدا عن العالم كله .

وقد كان عبد الكريم الخطابى خلال تاريخه الطويل مؤمنا بالوحدة العربية وفى كل عباراته يصور ايمانه بالامة العربية وثقته بها : « نحن نحب السلام ونأبى المذلة والضيم وقد عاهدنا الله والعرب — ان ندافع عن استقلالنا الذى يهدده الاجنبى الغاصب »

وقد رسم المعلقون والخبراء السياسيون لشخصية عبد الكريم الخطابى صورةواضحةالملامح . قالوا : إن عبدالكريم رجل حرب وجلاد وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه حتى صار الناس فى الهند وبغداد والقاهرة يرون فيه قائداً جباراً ، فإذا أصبح والحالة هذه فى مركز يدعو فيه إلى الجهاد فى افريقيا الشمالية وبلاد العرب والأناضول فإن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تتعرض لأخطار جسيمة .

« وإذا نظر الإنسان إلى الأمير لأول وهلة لا بد يحار فى أن يكون لهذا الرجل اللطيف المنظر ذلك التأثير العظيم على قبائل الريف الشديدة المراس ، ولكن من يعرفه يعلم أنه ذو شخصية عظيمة فهو أحد أولئك الذين يولدون زعماء فى أزمنة مختلفة بين الأمم ليكونوا مصيرها ، ويتركوا أثرهم فى تاريخ العالم وهو ليس زعيما فحسب ، بل هو مصلح أيضاً وتأثير حكمه قد بلغ مدى يفوق حد التصديق فى خلق الريف خلقاً جديداً » .

عبد المحسن الكاظمى

شاعر النفس الطويل

١٨٧٠ — ١٩٣٥

كانت أول قصيدة لى ظهرت وسنى وقتئذ ستة عشر عاما قصيدة غزلية لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول وهو : «أيها الرامى وما أجرى دماً »

لقد كان شعرى فى ذلك الوقت بين الغزل والفخر والمراثى، ثم بدأت أنظر إلى الحالة الإسلامية وألفت كتاب « البيان الصادق فى كشف الحقائق » وكتاب « تنبيه الغافلين » وجعلت أستحث الجمهور إلى إصلاح حال المسلمين وكنت لا آمن أحد على ما أقول به سراً غير الاخصاء . وحدث أن حضر الأستاذ جمال الدين الأفغانى إلى العراق منفياً من إيران فاجتمعت به وجعلت أناصره ، ومن ذلك الحين تنبهت أعين البوليس إلى ، فقلت فى نفسى : ما دامت هذه الأعين قد تنبهت إلى فلابد من الرحيل إلى بنى لام، وأودعت صـــديقا لى أوراق وفيها قصائدى ما نشر منها وما لم ينشر فخاف الصديق من البوليس فرمى الصندوق فى نهر دجلة .

إنى لم أتألم لفقد شىء فى الحياة كما تألمت لفقدهذا الصندوق الذى ذهب بتراث الشباب .

« الـكاظمى »

* * *

لقد ضحى[1] بما عرف عنه من إخلاص وصدق فى سبيل أمته وكان أقوى مثل للتضحية هو هجرته من وطنه وتحمل الصعاب والآلام . فهذا الرصافى مثلا والزهاوى والشبيبى إلى غــيرهم من الرجال الذين أصبحوا دعائم ارتــكزت عليهم سياسة الدولة وثقــافة الأمة إلا « الــكاظمى » الذى ذاق الأمرين من العذاب من تنــكيل وتشريد واختفاء وغربة وعوز ما لم يذقه غيره . لقد مات الــكاظمى وهو محاط بضباب كثيف من النسيان والبؤس ممن لاقى من أجلهم هذا التشريد وهذه الغربة حتى أصبح مضرباً للامثال فى النسيان .

ويعد عبد المحسن الــكاظمى أول من دعا إلى الوحدة العربية ، دعــــوة واضحة جلية برزت فى كل بيت من شعره وقد جمله هذا مطــارداً من قبل السلطات العثمانية واشتدت دعوته حماساً عندما خاب أمل العرب فى الحصول على تحقيق إنشاء الدولة العربية . وقد قاوم الــكاظمى استبداد الاتحاديين نحو أحرارالعرب . وكان يشيد دائما بمفاخر العروبة فىالاسلام ويبكى سالف مجدهم ويدعوهمإلىالاتحاد تحت لواء واحد وسلطة واحدة وقد خولههذا النضال وهذا الكفاح وما تحمله من مشاق أن يصبح بحق « شاعرالعرب »

أحن إذا قيل العراق وانحنى	وأشهق ان قيل الشام وأزفر
وأطرق أن قيل الحجاز على جوى	وأعجب أما قيل مصر وأبهر
منى النفس أن يلقى العراق وغيره	من الخير ما يهوى وما يتخير
جميع بلاد العرب فى القدر واحد	إذا وزنوا لبلدان يوما وقدروا
إذا نحن وحدنا القلوب فلم ينل	إذا ما غــدت أجسامنا تتعثر
وما نزعات العرب مرئى حالم	يعبر فيها ما يشاء المعــــــبر
ولــكنها آمال قوم تضــامنوا	ينصر ومن يمشى مع الله ينصر

(١) عن الرحيم محمد على - (ط) الــكاظمى شاعر العرب

وعندما كان العراقيون يزورنه فى القاهرة كان حريصاً حين يتحدث إليهم (يقول كمال[1] ابراهيم أحد كتاب بغداد) « على أن يكشف عن صفحات القضية العربية فى عهدها الأخير . ويجردها بغير طلاء ويجـلو حقائق التاريخ ناصعة غير مموهة ويبعث فينا من روحه لمواصلة العمل والجهاد .

وما بك يامصر ببغداد نازل وفى	جلق أدهى وفى القدس أجسم
هنالك أحشاء تذوب وهنا	قلوب متى حركتها تتضرم
إذا ما توالى جرحنا وتعذرت	مراهمه فالجرح للجـرح مرهم
سيجمعنا الأيام والخير ضاحك	يعم الورى والبشر يبكى ويلطم
وللعدل فى كل المواضع موسم	وللظـلم فى كل المواقع مأتم

ويقول روفائيل بطى : أن المصريين يعدون عبد المحسن الكاظمى ترجمان العروبة الصادق ويهول المتصفح لفيض طبعه ودعوته الصارخة . هذا الأمر الطويل إلى إحياء مجد العرب واستجلاء ألواح تاريخنا المجيد فيعد مؤرخ الغد الـكاظمى من مؤسسى الجامعة العربية وبناء وحدة الناطقين بالضاد :

أيها العـام كلنا اليوم عرب	وإلى العرب يطمح العالمونا
ليـكن كلنا كما كان قحطان	أبا جدنا وجـــــــدا أبينا
بعضنا فى الخطوب عون لبعض	إن أردنا على الخطوب معينا
فعراقينـا متى اشتد خطب	رد سورينا الشدائد لينـــا
وكذلك النجدى أن ربع يوما	فالتهامى كان ركنا ركينا

* * *

ولد عبد المحسن الـكاظمى فى محلة دهنة بالعراق ١٨٦٥ وينتهى نسبه إلى الإمام موسى الـكاظمى جد الشريف الرضى . تعلم الفارسية قبل العربية . وقد أحب الأدب وشغف به وحفظ فى مطلع صباه أكثر من عشرة آلاف بيت

(١) الرسالة — ٨ يوليو ١٩٥٣

من الشعر وجرى الشعر على لسانه طبعا فطريا . وكانت أولى قصائده « أيها الرامى وما أجرى دما » وأتيح له أن يقول الشعر فى كل فنونه ماعدا الهجاء . وكان الهتاف بالحرية ونقد المستبدين أبرز أهدافه . وقد أصاب ما يصيب دعاة الحرية من كيد وأذى ولما لاحقه الطغاة أودع صندوق أوراقه أمانة عند صديق رمى به إلى نهر دجله فذهبت قصائده إلى اليم . ولما حاق به الخطر من كل جانب لاذ بالوكالة الإيرانية فى بغداد وهاجر من وطنه العراق عام ١٨٩٧ إلى إيران فالهند وانتهى به المطاف إلى مصر عام ١٨٩٩ فرحب به أهلها فاختارها موطناً ثانياً له وقال فيها :

إلى كم تجيل الطرف والدار بلقع أما شغلت عينيك بالجزع ادمع
أأنت معيرى عبرة كلما دنت يحفزها برح الغــرام فتسرع

وعندما نفى جمال الدين الأفغانى من بلاد إيران أقام بالعراق قليلا فأتيحت له الفرصة للاتصال به . فأكتسبت من روح الرائد العملاق قوة دافعة جعلت من الشاب العراقى الوديع ربيب النعمة بطلا من أبطال الحرية يتغنى بأناشيدها ويرفع لواءها .

وقد صقلت الأسفار ذوق الشاعر الموهوب وأذكت خياله وأفاده التنقل بين البلاد، إذ أحس بحاجة الشرق إلى دعوة الإصلاح والحرية، وفى سبيل هـذه الحرية التى كان ينشدها هاجر من وطنه وفارق أهله وماله وعاش غريباً فقيراً يحلم بالوطن العربى الـكبير .

عسى[1] بغــداد يوقظها بيانى فتقرأ فيه أبـكار المعــــانى
مضى أمس فلا يرجى لأمس مآب أو يؤدى الفـــارطان

(١) مقدمة ديوان الكاظمى — دمشق ١٩٤٠

عسى بغداد تسمع من بعيـــد فتاها أو يقـــــر الناظران
وتلفتهـا غطات من خطوب تعوض بالفقـــــار وبالجران

ولعل أبرز معالم حياته الفكرية هى طول النفس على الشعر وارتجال الشعر على البديهة ارتجالا غاية فى القوة والسلاسة حتى لقد كان يرتجل خمسين أو ستين بيتاً بل مائة ومائة وخمسين . وكان يكفى أن يدعى فى أى مقام للقول فيمر بيده على جبهته لحظات، ثم يرتجل فيأتى بالعجب العجاب .

يقول مصطفى عبد الرازق : كان شعر الكاظمى من الطراز الأول فى روعة أسلوبه وفى سلطانه على القلوب . وهو من شعراء الطبقة الأولى بين دعاة الحرية وشهداء الحرية فى بلاد الشرق . وقد رأيناه يحضر الحفل العام أو لمجلس وتطرؤ مناسبة يدعى لأن ينشد فيها شعراً فما هو إلا أن يطرق أطراقه تسكن أطرافه فيها لحظة ثم يأخذ فى الانشاد فلا تلمح أثر الارتجال فى تلك القصائد الطوال المجددة ولا تلمح أثرا للتكلف والجهد فى ذلك الشاعر العربى الذى ينبض شعره عن بديهة وكأنه إلهام .

قد عرف الكاظمى بالأباء والعزة والترفع عما كان عليه الشعراء فى عهده بالرغم من أنه كان فى حاجة شديدة إلى المال ، وقد أمضى الفترة الأخيرة من حياته فى فقر مدقع دون أن يمد يده لأحد، بل أنه أصيب فى أواخر أيامه بضعف فى قلبه وقصر فى نظره .

لبلغت ما بلـغ الابى من المنى لولا أبائى منـــه واستنكافى
ورأيت أرغد ما رأى متنعم لولا اعتراض قناعتى وكفافى

وقد عاش ينادى بالعلا والمجد والأمة العربية ولعل قصيدته التى ألقاها على البداهة فى حفل تكريم جعفر باشا العسكرى فبلغت مائة وأربعين بيتاً تصور قدرة هذا الشاعر الموهوب .

ولابد من حدين للطالب العلى طريرين لايفريهما ما يغـــرر
فاما يراع يكتب المجـــد والعلى وأما حسام للبـــلاد محرر
وأسعـد أوقات المجاهد ساعة بها السيف يملى واليراع يسطر
وإن لم تنل عز الحيـــاة بصارم ولا قلم فالمـــوت أبقى وأستر

وقد عاش محبا لمصر ولـكنه لم ينس العراق :

أن يكن بات فى الـكنانة جسمى ففؤادى بالـكرخ ظل رهينـــا
أرفاق الصبـــا وليس حراما أن أنادى رفاقنا الأقـــدمينا

ويصور وصوله إلى أرض الـكنانة :

ولمـا نقلنا للبـــواخر رحلنا وعفنا المطايا وهى حرى وظلع
هجمنا على جيش من الموج ضارب بزخاره نحـــو السماء يرتفع
يطالعنا من كل فـــج كأنه جبـــال شرورى أقبلت تتقلع
ولمـا تبينت السويس وسار بى إلى النيل سيار من البرق أسرع
هرعت إليه ثانيا عن حشاشتى وقلت لصبحى هذه مصر فأهرعوا

وقال فى أهل مصر :

نعم أهل مصر أنتمو خير أمـة وما الخـــير إلا منكم يتفرع
خذوا حذركم فالـكاشحون بمرصد وأنتم كما شاء الـكواشح هجع
ولـكننى أرجو انتباهـــة حازم تصرف عنا هـــول ما يتوقع
دعوا عنكم مر الهوان وعرجوا على جنبات العز من حيث تنصع

وقد وصف النقاد شعره بمتانة الأسلوب وحسن السبك والسلالة وقالوا أنه من الطراز الأول فى روعة أسلوبه وسلطانه على القلوب وأخـذوا عن شعره البداوة والأخذ بأساليب القدماء حيث كان يذكر الرسوم البالية والإطلال الدارسة . وقالوا أنه كان ينظم كمن يتحدث على مهل وفى بعض أملائه يسبق

من يكتب فكان يستعيد الأبيات حينا بعد حين ليربط بينها دون تبديل أو تغيير . وكان يترنم بشعره فى نسق بدوى حلو يهز النفس هزا وقد أخذ عنه حافظ إبراهيم هذه الطريقة .

ويقول المازنى[1] أن حظ الكاظمى من وفاء التعبير ودقة الترجمة هو الحظ الأجزل ونصيبه فى هذه الترجمة ليس أتم منه . لأن صدره كان رائداً لقلمه . وقلبه صورة للسانه . وقد أحسن فى تخير الألفاظ لمعانيه وأغراضه فسلم من الأغراب والاسفاف جميعاً وجاءت عبارته مشرقة محكمة الأداء والأحكام .

* * *

وقد ترجم الكاظمى لحياته فقال[2] : مما أذكر عن أيام الطفولة وأنا لم أبلغ بعد السنة الثانية أننى كنت محمولا على يد جارية حين ماتت جدتى . فنزلت الجارية لتشاهد الجنازة وتركتنى فدرجت فى بؤرة يبلغ عمقها نصف متر ولقد ادخلت فى أوائل صباى فى مكتب فقيهة بالبلدة فمكثت مدة ثم خرجت من عندها إلى معلم فارسى كى أدرس اللغة الفارسية لأن آبائى تجار وللعراق صلة تجارية بإيران والأفغان والهند فمكثت عنده ستة أشهر أمكننى بعدها أن اقرأ وا كتب . ثم أخذت أنظر فى المخطوطات العربية والفارسية وكنت أعتقد وقتئذ أنه ليس فى الدنيا أحسن من أبى وجدى .

ولما بلغت الثانية عشرة تطلعت إلى موائد العلم فى الكاظمية فرحب أهلها بى . وكان أخى محمد حسن مشتهرا وقتئذ بالأدب . ووجدت فى نفسى شوقا إلى الأدب فصرت أكب على مطالعته يومى الخميس والجمعة واكتب القصائد واحفظها سراً دون أن يعلم أخى حتى حفظت نحو عشرة آلاف بيت .

---

(١) البلاغ — ١٧ يونيه ١٩٣٥

(٢) مجلة كل شىء : ديسمبر ١٩٢٩

وبدأت المطارحة وكانت سنى ستة عشر عاما ونظمت قصيدة غزلية عدد أبياتها خمسة وخمسون بيتاً . وقد بلغ من الأمر أنى عندما أنشدت أول قصيدة لم ينسبوها إلى ونسبوها إلى أديب كبير هو إبراهيم الطباطبائى فحزنت وطربت فى وقت واحد . حزنت لأن قومى لايفرقوا بين قائل وقائل. وطربت لاشتباه شعرى بشعر أديب كبير . ولكن لم تمض مدة حتى ظهر اسمى وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إلى كل ما يستحسنونه من الشعر الذى لم يعرفوا قائله . وحدث أن جاء الأستاذ جمال الدين الأفغانى إلى العراق منفياً من إيران فاحتفيت به وجعلت أناصره .

ومنذ ذلك الحين التفتت إلى الأنظار فقلت فى نفسى . ما دام النظر قد التفت إلى فسأرحل إلى بنى لام . ولكن البـوليس أدركنى فى الطريق فوضعت صندوق أوراقى عند صديق لى فخاف من الاعتداء فرمى به فى دجله فأسفت عليها لأنها كانت تحوى كثيرا من شعرى ونثرى وبعدها ذهبت إلى الخليج الفارسى ثم إلى الهند ولى فى الهند شعر كثير .

وفى عام ١٨٩٩ رجعت من الهند إلى مصر على أن أمكث بضعة أشهر ثم أسافر إلى أوربا . وما نزلت بها حتى زارنى كثيرون وفى مقدمتهم الشيخ على يوسف . وقد سألنى الشيخ على متجاهلا إياى : من الأستاذ وماذا يقصد من زيارة مصر ؟

فقلت غريب جاء إلى هذه الديار ليستشفى بهوائها .

وفى اليوم رددت الزيارة إلى الشيخ على هذه بالمؤيد . وفى الأثناء جاءت سيرة أحمد بك شوقى فتجاهلته ، وسألت الشيخ عنه فقال : شاب ينظم الشعر . فقلت هل له ديوان ؟ فقال نعم .

واسمعنى شيئاً منه . فلما أخذ ينشد قصيـــدة « خف كأسها الحبب » حتى قال :

عاطـــــل ومختصب فقلت له لو قال :

« ناصل ومختصب »

لـكان أحسن لأن المختصب يقابله الناصل .

وفى موضع آخر قرأ :

بارد ومــــن عجب يشتهى ويطلـــب

فقلت له : ولماذا العجب . أولا يحسن أن يقول ولا عجب وصار الشيخ يقرأ وأنا أبدى بعض ملاحظاتى . ثم سكت :

فقال لى : لماذا سكت ؟

قلت : هذا كلام عرفناه من أفواه الناس .

قال : رائحة الزهر تنم عليه ياشيخ عبد المحسن ، هل تظن إننى لا أعرفك، وهنا جاء شوقى فتعارفنا ومن هـــذا الوقت ابتدأ عهدى بمصر . ولعل أبلغ ما وصفت به شخصية الـكاظمى ما قاله المرحوم المازنى فى ذكراه :

« ظل يقول الشعر نصف قرن أو يزيد والناس يقرؤونه ويكبرونه . ويعجبون به ويقولون هذا شاعر العرب وبقية السلف الأول . ولا يخطر ببالهم أن الإنسان — ولو كان شاعراً — يقتات بشىء آخر غير الثناء . وقد أقيمت فى مصر وحدها مائة حفلة وحفلة لتكريم زيد أو عمر من رجال السياسة أو الحرب ممن سيمضون وينسون ويبقى ذكر الـكاظمى أو لمؤازره عمل من أعمال الخير أو البر أو الوطنية أو الإجتماع . وكان الـكاظمى يدعى إليها ويستدرج فيها إلى كلام فيقول ويستحث فيفيض . ويستزاد فيهضب ويسح .

ثم ينقلب إلى بيته ناشف الريق . جاف اللسان . موجع القلب مطوى الأضالع على الكمد الوحيد الذى تعييه العبارة عنه ويعترضه أباؤه إذا هم بالجهر به ، لقد كان هو أولى بالتكريم واحق باستيجاب التعظيم واخلق بالموازرة والإسعاف لو أنصف الناس واعتدلت الدنيا » .

وقدعرف كتاب العراق من الشباب هذا المعنى حيث يقول كال إبراهيم: « لقد كان الكاظمى ذخراً لأمته ولكنه كان مضاعاً تنكر له وطنه الأول كما تنكر له دهره ، وظل وفيا لهذا الوطن يلاحى عنه بمهجته على حين لم يجد منه طوال حياته غير الجفاء ونكران الجميل وقد ظل وفيا له حتى قضى نحبه » .

ولقد مات الكاظمى وبقى شعره حياً ما زال يهز القلوب ويدفعها إلى الإيمان بالأمة العربية والتجمع حول أهدافها الكبرى .

* * *

ولد عبد المحسن الكاظمى فى محلة الدهان ببغداد ونشأ فى الكاظمية فنسب إليها ، استهواه الأدب وحفظ شعراً كثيراً ، وأول ما نظم فى الغزل والرثاء والفخر ، هاجر إلى مصر ١٣١٦هـ على أن يواصل سفره إلى أوربا فلقى من ود الشيخ محمد عبده ما حبب إليه الإقامة فأقام بها إلى أن توفى . له ديوان شعر ومعلقات الكاظمى . وله :البيان الصادق فى كشف الحقائق ، وتنبيه الغافلين.



علی مبارك

بناء المعاهد والمدارس والمكتبات

١٨٢٤ — ١٨٩٣

« من الخير أن يصبر المصلح وأن يتربص ثلاث أجيال حتى ينقرض الجيل الذى عاش فيه والذى لا يرى أن يصدمه بفرض الحضارة عليه وهو غير مستعد لها وغير راض عنها .

ولا يخفى أن تربية الشعوب أمر صعب يلزم لها زمن طويل لأن هناك عوائد قديمة وأخلاقاً راسخة فى الأذهان ذميمة وأفكاراً فاسدة واعتقادات كاسدة ، فلا تزول بمجرد بعض التجددات ، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم فى السن إلى الممات ، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا تنعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو أكثرهم ، فعلى حكم العقل يلزم التربص إلى انقضاء ثلاث أجيال » .

على مبارك من كتاب « علم الدين »

* * *

لم يكن على مبارك كاتباً أو مفكراً بقدر ما كان بانيا من بناة التعليم والتربية والثقافة ، فإن عمله فى مجال انشاء المدارس وتنسيق المكتبات وإنشاء أول مدرسة لتعليم البنات ١٨٧٣ هى مدرسة السيوفية التى أصبحت المدرسة السنية فيما بعد ، وإنشاء دار الكتب وجمع الكتب المتناثرة فى المساجد والوقيفيات وإنشاء دار العلوم ١٨٧٢ وإنشاء مجلة روضة المدراس ١٨٧٠ وانشاء

مدرسة المعلمين . وكل هذه الأعمال أعطت على مبارك ذلك الإسم الرنان فقد كان علامة على دور هام وخطير فى حياتنا الفكرية والثقافية وله إلى ذلك فى مجال الكتاب عملين كبيرين أحدهما :الخطط التوفيقية فى ٢٠ جزءاً وقصة «علم الدين» وله مؤلفات أخرى أقل شهره منها كتابه « حقائق الأخبار فى أوصاف البحار .

وقد ظل إسم على مبارك ورفاعه الطهطاوى يترددان خلال حقبة طويلة من تاريخ مصر ، كفرسى رهان فى مجال قيادة شئون التربية والتعليم وإن وصل على مبارك إلى منصب الوزير دون أن يبلغه رفاعه .

وقد تعلم رفاعه فى الأزهر ثم سافر إلى باريس ، وتعلم على مبارك فى مدرسة المهند سخانه ببولاق ثم سافر أيضاً إلى باريس .

وبينما اختط رفاعه طريق الثقافة والفكر والترجمة ، اختط على مبارك طريق الدراسات الهندسية والعسكرية ، ودراسة الأستحكامات والمفرقعات وفن الحرب ، غير أن على مبارك قد عمل فى مجالين معا هما نظارة الأشغال ونظارة المعارف ، وتفتق ذهنه على أعمال كثيرة نافعة فقد شرع فى بناء المدارس ، وأنشأ لها ديواناً ، وأولى اهتمامه لترتيب المدرسين وأدوات التعليم وبالرغم من وقوع أحداث كبرى كالثورة العرابية والاحتلال البريطانى فقد اتصل عمله فى هذا المجال فاشترك فى مختلف الوزارات التى تتالت بعد الاحتلال مذ وزارة شريف ١٨٨٣ إلى أن توفى ١٨٩٣ .

* * *

وتعطى حياة على مبارك صورة عالية للعصامية والجهد المضنى والقدرة على التبريز بالرغم من العوائق القاسية التى تحول دون الصدارة ، فقد كافح كفاحا ضخما قاسياً فى سبيل العلم ورسم فى الخطط التوفيقية صورة لنفسه بالغة العجب ، وترجم للظروف العصيبة التى مر بها حتى إستطاع أن يصل إلى التعليم العالى .

وكيف أنه عارض الأتجاه الدينى فى الدراسة وصمم على الأتجاه المدنى

يقول : سألنى إخوتى عن مرغوبى فى التربية فاخترت أن لا أكون فقيهاً بهذه المثابة ، وإنما أكون كاتباً ، لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام ، وكان لوالدى صاحب من الكتاب فأسلمنى إليه فرأيته رجلا حسن الهيئة نظيف الثياب جميل الخط فأقمت عنده مدة ولى من والدى مرتب يكفينى فدخلت بيته وخالطت عياله ، فإذا هو مجمل الظاهر فقير فى بيته وله ثلاث زوجات ، فكنت فى غالب أيامى أبيت طاوياً من الجوع ، وكان أغلب تعليمه إياى على قلته فى البيت أمام نسائه .

« وكان يؤذينى دائماً إلى أن كنا يوماً فى قرية المفاجاة فسألنى أمام الناظر وجماعة حضور عن الواحد فى الواحد فقلت له باثنين فضربنى بمقلاة بن فشجنى فى رأسى فلامه الحاضرون وذهبت إلى والدى أشكو إليه فلم أنل منه إلا الأذية .

« ثم هربت قاصداً المطرية جهة المنزلة ، فرضت بالريح الأصفر فأخذنى رجل من أهلها لا أعرفه فتمرضت عنده أربعين يوما ، وقد سألونى عن أهلى ، فقلت : أنا يتيم مقطوع ، وكان والدى فى تلك المدة وأحد إخوتى يفتشان علىّ فى البلاد فلما رأيته من بعد هربت ونزلت بمنية طريف فأخذنى رجل عربى ولم أقم عنده إلا قليلا وهربت منه ولحقت بأخ لى فى بلدة برنبال .

« وبعد أيام قدم أخى الذى كان يفتش علىّ فأخذنى بالحيلة إلى والدى وقد أشكل عليه أمرى وذهبوا كل مذهب فى كيفية تربيتى وما يصنعون وجعلوا يعرضون علىّ القراء والكتاب فلم أقبل . وقلت أن المعلم لاأستفيد منه إلا الضرب والكاتب لا يفيدنى إلى الضياع والأذية .

« وبقيت فى بيتنا أقرأ على أبى ويستصحبنى فى قبض الأموال الأميرية فكنت أباشر الكتابة وبعض المحاسبات ، ثم بعد نحو سنة جعلنى مساعداً عند كاتب

فى مأمورية أبى كبير بماهية خمسين قرشاً أبيض له الدفاتر فأقمت عنده نحو ثلاثة أشهر » .

ويمضى على مبارك فى شرح تفاصيل حياته الأولى فى دقة بالغة ويكشف عن تطلعاته التى ترمى إلى دخول المدارس حين كانت المدارس لايدخلها الفلاحون ، ولا تقبل إلا بالواسطة .

وكانت رغبته أن يقصد إلى مدرسة قصر العينى (وكانت فى ذلك الوقت مدرسة) . ولكن دون ذلك خرط القتاد ، ولا بد من هروب وسفر طويل إلى القاهرة ، فلما عرف أهله رغبته حالوا دون تحقيقها :

يقول: « اصطحبنى والدى إلى بلدتنا ، وحبسنى فى البيت وكانت لنا غنمات صرت أرعاها ، وأبعدونى عن حرفة الكتابة وبقيت مدة حتى أطمأن خاطرهم ، إلى أن انتهزت فرصة فى ليلة من الليالى وأخذت دواتى وأدواتى وخرجت خائفاً أترقب . وكانت ليلة مقمرة فمشيت حتى أصبحت فدخلت « منية العز » ضحى ولم يرنى الناظر إلا وأنا مع الأطفال ، وجاء ناظر مكتب الخانقاة عصمت أفندى فقرر إرسال التلامذة إلى القصر العينى فكنت ممن اختير لذلك ، وخيرونى فاخترت المدارس ، وأغرى والدى جماعة من المعلمين ليستميلونى فلم أصغ لهم ، وكان ماقدر الله ولا راد لقدره فدخلت مدرسة القصر العينى ١٢٥١ هـ ، وأنا يومئذ فى سن المراهقة وصرت فى فرقة برعى أفندى ، ووجدت المدارس على خلاف ما كنت أظن ، جل عنايتهم بتعليم المشى العسكرى وقت الصبح والظهر ، وكانت مفروشاتهم حصر الحلفا وأحزمة الصوف الغليظ ، من شغل بولاق .

وفى آخر عام ١٢٥١ هـ نقلونا إلى مدرسة أبى زعبل وجعلوا القصر العينى

لمدرسة الطب خاصة ، واعتنى بالتعليم شيئاً فشيئاً بسبب ناظرها إبراهيم بك رأفت ، وكان أثقل الفنون وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو فكنت أراها كالطلاسم وأرى كلام المعلمين فيها كـكلام السحرة ، وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع متأخرى التلامذة وجعلهم فرقة مستقلة فكنت أنا فيهم وجعل هو نفسه المعلم لهذه الفرقة ، ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغـرض المقصود من الهندسة فانفتح من حسن بيانه قفل قلبى ووعيت ما يقول وكانت طريقته هى باب الفتوح علىّ ولم أقم من أول درس إلا على فائدة ، وهكذا جميع دروسه ، فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى ، وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين ، وإن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة .

وفرزوا منا تلامذة لمدرسـة المهندسخانة ببولاق فاختارونى فيما اختاروا فأقمت بها خمس سنين ، وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقتى .

وتلقيت الجبر والميكانيكا وعلم الديناميكا وتركيب الآلات والجبر العالى وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى .

وفى عام ١٢٦٠ عزم العزيز على إرسال أنجاله إلى مملكة فرنسا ليتعلموا بها وصدر أمر بانتخاب جماعة من نجباء المدارس ليكونوا معهم ، وكنت فيهم . وصممت على السفر مع أنى أعلم أن أهلى فقراء ورأيت الكثير الآجل خيراً من القليل العاجل » .

وهكذا أفلت على مبارك من مدارس المعلمين التى كان أهله يطمعون أن يتمها ليكون مصدر رزق لهم . . .

واستطاع ابن برنبال من أعمال الدقهلية مركز دكرنس أن يصبح علماً

فإنه سرعان ما برز بعد عودته وتصدر الأعمال الكبرى . وتقلب فى الوظائف العسكرية وبلغ رتبة أميرالاى وحضر الحرب التركية الروسية ثم عمل ناظراً للأوقاف والمعارف وقام بدوره الضخم فى مجال تأسيس المدارس ودار الكتب .

ولعل إحساسه الكامن فى نفسه بالحاجة إلى التعليم وما احتمل فى سبيله كان دافعه إلى العمل فى إنشاء المدارس والعناية بالتلاميذ حتى كان يعلمهم بنفسه يقول « كنت أكتب لهم حروف الهجاء بيدى ولعدم الثبات فى مكان واحد كنت أذهب إليهم فى خيامهم وتاره يكون التعليم بتخطيط الحروف على الأرض وتاره بالفحم على بلاط المحلات ، ويقول وكانت كثرة أشغالى لا تشغلنى عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين فكنت أدخل عندهم كل يوم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت ورواحى ، وأعملت فكرى فى ما يحصل من نشر المعارف وحسن التربية » ا . هـ .

* * *

ولعلى مبارك : عملان كبيران : الخطط التوفيقية وقصة علم الدين أما الخطط التوفيقية . فتقع فى عشرين مجلداً وقد تناولت تفاصيل جميع قرى مصر وبنادرها وما يتصل بها من أعلام ومواقع وأحداث تاريخية .

أما قصة علم الدين فهى عمل جماعى أيضاً شارك فيه عدد كبير من رجال العلم ، حيث وضع خطتها وحاول أن تجمع مظاهر المدنية الحديثة من خلال المعلومات العامة ، وقد وصفت بأنها أول قصة فى الأدب العربى الحديث .

وتقع فى ألف وخمسمائة صفحة فى أربعة أجزاء . ولم تتم . وقد حوت أشهر النباتات والموضوعات الإجتماعية وعادات الأوربيين ، والموالد والأعياد ، ويقول الأستاذ أحمد أمين أن على مبارك وضع فكرة القصة وعهد بها إلى عبد الله فكرى وكيله فى المعارف ليشرف على لغتها ويهذب معانيها .

وبطل القصة شيخ من الأزهر اسمه علم الدين ، كان أبوه معلم كتاب فى

قرية من القرى ، ذهب إلى الأزهر وأتم دراسته ، وكان قد حضر إلى القاهرة رجل إنجليزى من المشتغلين باللغة العربية ، دلوه على الشيخ علم الدين لينشر كتاب لسان العرب لابن منظور ، وأعجب الإنجليزى بالشيخ علم الدين وسافر معه إلى انجلترا ومضى منذ ركب القطار يروى القصة ، ويصور مايراه ، ففى طنطا تحدث عن السيد البدوى ومولده ، ثم هيرودت وتاريخه والسكك الحديدية وتاريخها ، وفى الإسكندرية كان الحديث عن الميناء ، ثم ركبوا البحر فتحدث الإنجليزى عن غرائب البحر وأنواع مخلوقاته ، وفى مرسيليا يذهب إلى التياترو بعمته وجبته وقفطانه ، ثم يصلون إلى باريس ويتخطر الشيخ فى حدائق لكسمبرج وفرساى وتنقطع القصة عند هذا الحد فلا تتم رحلتهم إلى انجلترا ولا يعود الشيخ إلى مصر .

وتألفت القصة عام ١٢٩٦ وطبعت فى مطبعة المحروسة عام ١٢٩٩ فى أربعة أجزاء .

ويبدو أن على مبارك قد اهتم بمفاهيم الفكر العربى الحديث التى ترمى إلى استعمال أسلوب القصة فى بث الآراء الجديدة والقصة فى الجملة نقد للحياة الإجتماعية العربية ودعوة لاقتباس الحضارة الغربية وتضم حصيلة ضخمة من المعلومات والمعارف المتعددة . وهى قصة استعراضية لا فنية .

* * *

وصف على مبارك بأنه كان طويل القامة أسمر اللون تلوح على وجهه ملامح الوطنية وقد أثرت عنه قصص كثيرة متعددة ترسم حرية فكرة ودفعه للشباب إلى الصراحه والقوة والعمل وكانت له ندوة فى منزله بالحلمية الجديدة يردها أعلام الفكر والثقافة ، وكثيراً ما حضرها بعض الشباب فوجههم ودعاهم أن يذهبوا إلى قراهم فى الصيف ليعلموا الفلاحين ويهذبوهم .

وله عبارات وكلمات تدل على مدى خبرته وفهمه للحياة يقول :

«من الخير أن يصبر المصلح وأن يتربص ثلاثة أجيال ، حتى ينقرض الجيل الذى عاش فيه ، والذى لا يرى أنه يصدمه بفرض الحضارة عليه وهو غير مستعد لها وغير راض عنها ، ولا يخفى أن تربية الأمم والشعوب أمر صعب يلزم لها زمن طويل ، لأن هناك عوائد قديمة وأخلاقاً ذميمة راسخة فى الأذهان وأفكاراً فاسدة واعتقادات كاسدة ، فلا تزول بمجرد بعض التجددات ، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم فى السن إلى الممات ، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا تنعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو أكثرهم ، فعلى حكم العقل يلزم التربص إلى انقضاء ثلاثة أجيال .

(علم الدين ج ١ ص ٣١٨)

ولد على مبارك فى قرية برنبال (الدقهلية) مصر عام ١٨٢٤ وعاش حياة عريضة فى مجال الوظائف العسكرية والمدنية ، وعمل ناظراً لوزارات ثلاث : (الأشغال والأوقاف والمعارف) وأنشأ مدارس كثيرة ووضع برامج التعليم ، وجمع الكتب فى دار واحدة (دار الكتب) ووضع من المؤلفات : الخطط التوفيقية فى عشرين جزءاً وقصة علم الدين ، وله حقائق الأخبار فى أوصاف البحار وكان أحد رجلين بلغت شهرتهما مداها فى هذه المرحلة : رفاعه رافع الطهطاوى وعلى مبارك ، الأول تعلم فى الأزهر ثم سافر إلى فرنسا فى بعثة ثقافية ، والثانى لم يتعلم فى الأزهر وإنما فى المدارس المدنية والعسكرية وسافر إلى فرنسا فى بعثة هندسية .

ولكن رفاعه وقف عند مناصب التعليم دون النظارة ، أما على مبارك فقد ولى نظارة أكثر من وزارة ، وكان جهد رفاعه ثقافيا علميا وكان جهد على مبارك تنظيمياً فنيا ، استطاع أن ينظم مناهج التعليم ويوثق المخطوطات

والكتب ، فهو إدارى أكثر منه باحث ، وكلاهما خرج من البيئة الفقيرة البسيطة واستطاع أن يتألق وكلاهما صنع أجيالا فى ميدانه وترك آثاره وبصماته على أشياء كثيرة . وكلاهما مثل على العصامية والتبريز بين الفقراء ، وكلاهما عرف بالصبر والصمود الذى يحقق النجاح .

انشأ (على مبارك) دار الكتب من الكتب الموزعة فى المساجد والوقفيات كما انشأ مدرجا للمحاضرات العامة فى مختلف الفنون والعلم بدرب الجماميز واختار للمحاضرات اسماعيل الفلكى ، حسين المرصفى ، منصور أحمد ، الشيخ النحراوى وأطلق على هذا المدرج اسم دار العلوم وكان نواة دار العلوم التى انشأها بعد عام واحد (١٨٧٢) كما أصدر مجلة روضة المعارف ١٨٧٠ وهى أول مجلة تصدر عن ورارة المعارف تحت رئاسة رفاعه الطهطارى ثم أبنه على رفاعه واشترك فيها كثيرون منهم : حسين المرصفى ومحمود الفلكى وصالح مجدى وعبد الله أبو السعود وحسونه النواوى وحمزه فتح الله وكان توزع بالمجان خدمة للثقافة العامة كما أنشأ مدرسة المعلمين ، وفتح عدداً من المدارس استثمر لها جانباً من أموال الأوقاف الخيرية .

* * *

ولاشك فى أهمية العملين الكبيرين اللذين قام بهما : إنشاء دار العلوم وإنشاء دار الكتب ، وكان مفهومه من إنشاء دار العلوم العمل على تغطية النقص فى دراسات الأزهر يقول : استحدثت مدرسة دار العلوم وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا فى هذه المدرسة بعض الفنون المفقودة من الازهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب أبى حنيفة

النعمان ونجمل منهم معلمون فى المكاتب الاهلية .

ولما لم يكن بمصر دار جامعة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم فقد عمد إلى إنشاء « كتبخانه عمومية » تجمع فيها الكتب المتفرقة فى المساجد والأوقاف وجعل لها ناظر وخدمة ومغير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية وأخر لمباشرة الكتب التركية وقد أشار إليها فى مذكراته فقال .

جاءت من أنفع الإنشاءات إذ تخلصت بها الكتب من أيدى الضياع وتطرق الأطماع ، فقد كانت تحت تصرف نظار أكثرهم يجهلون ما بها ولا يحسنون التصرف فيها ولا يقومون بواجباتها بل أهملوها وتركوها فسطت عليها عوارض متنوعة أتلفت كثيراً منها ، حتى صار السالم من الضياع مخربا بعضه بأكل الأرض وبعضه يأكل الأرضة وزاد أن تصرفوا فى أجودها بالبيع للأغراب بثمن بخس وحرموا الأهلين من الانتفاع بها » .

* * *

ولم يقف إنشاءات على مبارك عند مجال التربية والتعليم ، بل إنه فى مجال الهندسة والأشغال : أنشأ جسر قصر النيل بين القاهرة والجيزة وأوقد شوارع القاهرة بغاز الاستصباح ورفع إلى بيوتها المياه النقية وغرس آلافا من الأشجار وشق فى القاهره كثيراً من الشوارع والميادين وشق فى الريف كثيرا من الترع والمصارف ، منها أكبر ترعتين : الإبراهيمية والاسماعيلية .

* * *

وقد أثيرت حول على مبـــارك شبهات الموالاه للاستعمار البريطانى بعد احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وموقفه من الثورة العرابية ويمكن أن يوجه إلى الشيخ محمد عبده من الاتهام مثل يوجه إلى على مبارك ، والحق أن الرجلين كانا مناصرين للحركة العرابية فى مقدماتها الأولى ، فلما دخلت فى مرحلتها الأخيرة

نصحوا لها بخطر الثورة والنتائج التى قد تمكن بريطانيا من احتلال البلاد .

ويمكن القول إن طبيعة على مبارك ومحمد عبده هى من طبيعة المصلح وليست من طبيعة الثائر ، ولذلك فقد حرصا على العمل بعد الاحتلال بما يعوض البلاد بعض ما فقدته .

وكانت فلسفة على مبارك تقوم على الإعجاب بالحضارة الأوربية وما حققت لأهلها ، مما يمكن أن يغير وجه الحياة فى مصر والشرق ، ولكنه كان يؤمن بالتدرج ومراعاة البيئة حتى أنه يرى من الخير أن يصبر المصلح وأن يتربص حتى يجد جيلا جديدا ، وكان فهمه فى الإصلاح قائما على التلطف والتبشير وعدم المجابهة على حد تعبير محمود الشرقاوى .

فقد دعا أهل الشرق أن يتخذوا العلم الأوربى سبيلا إلى التقدم والقوة . وطالب بتعلم اللغات الأوربية ، والعلوم الحديثة وفى مقدمتها الهندسة والكيمياء والطب والفلك ودعا إلى الصناعة ، ورغب فى الجندية وصناعة الحرب .

وكانت دعوته إلى التجديد مقرونة بالمحافظة على القيم الإنسانية للخلق العربى الإسلامى يقول :

« لكل أمة عاداتها وطرائق حياتها وما علينا إلا أن نأخذ من ذلك ما ينفعنا وكانت له دعوة إلى مهاجمة الزهادة والجبرية التى تصرف عن الجد والعمل الدائب ، وبالجملة فقد كان داعياً إلى الجمع بين التماس حاجة أمتنا فى العلوم والثقافات الغربية مع المحافظة على القيم الأصيلة والانتفاع بالتاريخ واستنباط عبره « أن تأخر المسلمين سببه الجهل بالتاريخ » وكان قوام دعوته : النظام والتفاؤل .

ويمكن القول أن على مبارك دعا إلى تحرير المرأة الشرقية فى كتابه علم

الدين ، وأنشأ أول مدرسة للبنات فى العـــالم الإسلامى كله ، وهى مدرسة السيوفية ثم مدرسة القربية للبنات وبالجملة فقد كانت حياة على مبارك خصبة عامرة بالبناء والإنشاء فى كل مجال عمل فيه .

ويمكن أن ينطبق عليه قول (الفرد أدلر) حين قال :

إن أروع مميزات الإنسان قدرته على تحويل السالب إلى موجب .

توفى فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣

على يوسف

رائد الصحافة العربية فى مصر

١٨٨٠ — ١٩٦٥

« بين جواذب الأنصار ودوافع الأعداء أعمل جهدى لكى يثبت «المؤيد» ويعيش فلا يكون العار على المصرى أن يسجل عليه الفشل كلما شرع فى عمل .

إن اليد التى أوجدت «المؤيد» فى أشد الظروف حرجاً على الصحفى المسلم هى يد صاحبه ، لم يكن لمصرى مسلم فى بلاده جريدة لأنه كان قد قدر على أقلامه أن تتكسر بعد الثورة العرابية وقضى على الجرائد الإسلامية أن لا يكون لها فى مصر وجود ، فقد قام صاحب المؤيد بواجب كبير على الأمة الإسلامية فى مصر لم يقم بمثله هذا الجم من سراة القطر ولا أمثاله ، وسد نقصاً كان واجباً على القادرين وفتح طريقاً كان مسدوداً فى وجه كل عالم وفاضل وأديب ، وقاوم من الصعوبات التى اعترضته فى طريق عمله بالصبر والثبات والعمل ، مالو حاول غيره مقاومته لتحطم وتلاشى أمام القوى الهائلة .

على يوسف

حياة قصيرة خصبة عاشها «على يوسف» ، حافلة عريضة مليئة بالأحداث ، ترسم صورة رجل عنيد مكافح ، له مقدرة نفسية على الصمود والمقـــاومة للتحديات ، فليس على يوسف صحفياً عادياً أتاحت له الظروف إنشاء جريدة يومية وإنما هو بحق مؤسس الصحافة المصرية بعد الاحتلال فى مواجهة تحديات الصحافة التى كانت ذات ولاء معين غير خالص للوطنية المصرية وغير مشوب بالروح المصرية الخالصة . بل أن إنشاء « المؤيد » إنما كان يمثل الرد على أخطر تحد واجهته الوطنية المصرية بعد الاحتلال وهو إنشاء جريدة المقطم لساناً للانجليز .

ولقد كان « على يوسف » من الشخصيات القليلة القادرة على مواجهة هذا الموقف بصمود وصبر ، وقدرة على العمل ، وتـكشف لمختلف التيارات والمؤامرات التى كانت حريصة على ألا تنجح جريدة مصرية ولا يـكتب لها الاستمرار ، حتى تظل الصحافة فى يد غير المصريين من أولياء الإنجليز أو الفرنسيين . فـكان صمود على يوسف فى المرحلة الأولى من انشاء المؤيد ، عملا بطولياً جديراً بالتقدير والاعجاب .

ومن هنا نستطيع أن نقول أن على يوسف لم يكن صحفيا عادياً استطاع أن ينشىء صحيفة يومية لتقف فى صف « الاهرام » ذات التاريخ الطويل والجاه العريض ، و « المقطم » ربيبة كرومر وموضع اهتمامه والتى كانت تفتح لها أبواب الوزارات بالاخبار ، وأبواب بيوت العمد والأعيان بالاشتراكات ، ثم تتمثل شخصية على يوسف فى مقدرته على الصمود أحـــد عشر عاماً فى مواجهة الاحتلال ، وقضايا الحرية والوطنية بمفرده ، حتى ظهر « اللواء » عام ١٩٠٠ وهو وهو فى خلال هذه الفترة يصارع المقطم ويدخل معه فى كل يوم معركة . فإذا صدر اللواء فقد انقسم قراء المؤيد بينه وبين اللواء ، وإذا به فى

معارك جديدة معه ، حيث تختلف وجهات النظر ، وحيث منهج اللواء العاطفى الحماسى الثائر ، ومنهج المؤيد الهادىء المتزن .

ويمضى « المؤيد » فى طريقه حتى عام ١٩٠٧ حيث تصدر « الجريدة » وتبدأ معارك جديدة بينه وبين صحيفة حزب الأمة ، ثم تظل الصحف الأربع تتصارع ولكل منها لونه ومزاجه وطابعه ومفهومه للوطنية .

ويمضى على يوسف مشاركاً فى العمل الصحفى فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة مصر حتى عام ١٩١٣ عندما يودع الصحافة تاركاً مكانه فى صدر المويد إلى منصب شيخ السادة الوفائية ، ثم لايطول به العمر إلا قليلا حتى يسلم الروح .. وهو فى الخمسين من العمر وقد أمضى فى العمل الصحفى نصف هذا العمر « ١٨٨٩ — ١٩١٣ » .

وليس أقدر من « على يوسف » نفسه فى تصوير هذا التحدى الذى ليس هو الوحيد فى حياته :

كنت بين جواذب الأنصار ودوافع الأعداء أعمل جهدى لكى يثبت « المؤيد » ويعيش ، فلا يكون العار على المصرى أن يسجل عليه الفشل كلما شرع فى عمل ، والحقيقة أن المؤيد لم يقم إلا بصاحبه ، وأنه لولا ما وجد المؤيد فى عالم الصحافة لدام العار الذى كان لاحقا بالوطنيين لعدم وجود صحيفة لهم زمناً طويلا . سبعة أعوام ونصف عام « بعد الاحتلال » من سبتمبر ١٨٨٢ ـ إلى ديسمبر ١٨٨٩ لم يكن لمصرى مسلم فى بلادنا جريدة ، لأنه كان قد قدر على أقلامه أن تكسر بعد الثورة العرابية وقضى على الجرائد الإسلامية ألا يكون لهـــــا فى مصر وجود خشية أن تثير ثائرة التعصب الدينى ، كما كانوا يزعمون ، حتى أن صاحب المؤيد قضى نصف عام يطرق باب قلم المطبوعات

وهو يطلب رخصة بإنشاء جريدة علمية فلم ينل الاختبار بها وتحقيقها إلا بعد شق الأنفس » .

* * *

ويصور على يوسف كيف واجهته المؤامرات من كل جانب عند إصدار المؤيد :

«أن أصحاب الجرائد العربية قاموا قومة واحدة وكانوا كلهم من السوريين واتفقوا وهم فى أمرهم على بعضهم مختلفون على أن يزهقوا روح المؤيد وليدا فصاروا يسدون عليه كل طريق ، ويتعقبون له كل أثر لشدة ما كانوا يخشون من قيام صحافة « مصرية » إسلامية تأخذ بزمام الرأى العام فلا يكون لصحافتهم بعد ذلك السلطان الذى كان لها وأعظم به من سلطان . ولطالما استعان أولئك الرصفاء بسلطة القناصل ، وللضرورات أحكام ولتنازع البقاء قرائن ، ولطالما استعملوا الصحافة الأفرنجية المحلية لتحريف أقوال المؤيد التى أوجفت القلوب وكانت التلغرافات تغدو وتروح بين مصر وأوربا ، قائلة حذار حذار مما وراء الستار . والحكومة فى أدوار كثيرة تساعد هذه الحملات وتضاعف مكائد الكائدين تارة بمضايقة الرقابة أو إقفال أبواب الدواوين دون المؤيد .

وكان كثيرون من المعممين والمطربشين يوارون وجوههم من بعيد ، وفى مقدمتهم بعض أعضاء مجلس شورى القوانين حتى لا يتهموا بإعطاء الأخبار ، أو الاتحاد فى الأفكار مع المؤيد ، كل هذا وصاحب المؤيد صابر على هذه المكائد محتاط لها ، ساع ليل نهار لإحباط المساعى المضرة به حتى تغلب عليها ، وبهذا تمهد السبيل لكل مصرى قادر على أن يصدر صحيفة ولو يوماً واحداً أن يصدرها ، وإذا صح أن يقال أن للمقطم فضلا فى وجود المؤيد واشتهاره ، فإنما مثله فى هذا مثل المبارز المغلوب فى إعلان فضل غالبه ،

إن روح المناظرات التى قامت بين المؤيد والمقطم سنين عديدة ، كان المقطم فيها من أكفأ المناظرين ، أى كانت منحصرة فى تنازع أولية المقام فى الصحافة المصرية ، وقد انتهى التنازع وأخذت الصحافة الإسلامية مكانتها اللائقة بها فى الأمة ، وصار المؤيد لسان حال أرباب الأقلام .

اسلوب عصره

ليس هذا هو التحدى الوحيد الذى واجه « على يوسف » وإنما كان هناك تحد ثان وثالث ، واجهت هذا الإنسان النحيل الضامر ، الواسع العينين ، العصبى المزاج ، المولود فى بلصفورة من أعمال سوهاج بالصعيد ، حيث الوراثات العربية القبلية ، تخرج الرجال ذوى العناد والصلابة ، وقد جمع على يوسف بين الذكاء والدهاء ، وبين الصبر والطموح .

ومن هنا كان التحدى الذى واجهه شاب فى الثالثة والعشرين ، لم يكمل تعليمه فى الأزهر ، يستطيع أن يشق طريقه ليرأس تحرير صحيفة يومية ويقف فى صف دكتور فارس نمر فى « المقطم » ولطفى السيد فى « الجريدة » ومصطفى كامل فى « اللواء » ، وينازلهم فى مختلف مجالات الكتابة السياسية والقانونية ، هذا هو التحدى الثانى الخطير الذى واجهه على يوسف .

يقول سليم سركيس رفيقه فى تحرير المؤيد أربع سنوات : « لا يعرف حرفا واحداً من لغة أجنبية ، ومع ذلك فإن من يقرأ مقالاته لا يصدق أنه هو الذى كتبها ، لأنها لا تختلف شيئاً عما يكتبه لطفى السيد ويعقوب صروف ، وهما قد برعا فى اللغات ، وللشيخ على يوسف مزية مدهشة عرفتها فى كل هذه السنوات هى أنه أقدر كاتب على الاقتباس ، وأن له ذاكرة ليس أقوى منها فى استيعاب ما يعرض لها ، ويدهشني منه مقدرته النادرة على الكتابة فى أى

موضوع خطير مهما كانت الظروف المحيطة به ، وأغرب من هذا أنه إذا حادث أميراً أو وزيراً أو صحفياً ثم أراد بعد أسبوع كامل أن يدون ما سمعه من محدثه فإنه يستطيع أن ينقل ما سمعه صحيحا ، وقد يظن قوم أن كل الذى يفعله الرجل أنه يكتب مقالة افتتاحية لجريدته ، وهذا خطأ فاضح ، فهو دون سواه من الصحفيين الذين أعرفهم يقرأ كل سطر ينشر فى جريدته قبل نشره وقت تسليمه إلى مرتبى الحروف ؛ حتى ليقرأ إعلان « فقد ختمى » ورسالة فاقوس ، ولا يقرؤها فقط ، بل يمر بقلمه على أكثر الكلمات إيضاحاً لكتابتها وتسهيلا لمرتبى الحروف » .

وقد سأله جرجس زنانيرى عن السر فى طلاوة أسلوبه ، فقال : إنه تعود أن يطالع التآليف الفرنسية المترجمة إلى اللغة العربية ترجمة دقيقة . فيجيل النظر فيها ويطيل التمعن فى أساليبها الفكرية وكذلك استطاع أن ينسج على غرار تلك الأساليب .

ومن لطائف كتاباته ما وجهه إلى مراسلى المؤيد :

«أيها الأفاضل الكاتبون الذين يعتمد المؤيد عليكم ، ويدع ثقته بأخبار البلاد مستندة إليكم — لا تحملوه أن يعتذر بلا ذنب ، أو أن يصلح خطأ يقع ، ففى إصلاحه خطأ سواكم . تنزهوا عن الغايات وتنبهوا لمصادر الأخبار والأعمال ، وأخبروا حقيقة البلاد وحاجاتها ، وأدرسوا أخلاق الأهالى وعوائدها»

وقد بلغ على يوسف فى عمق فهمه للأسلوب قدراً كبيراً ، فأحسن الأساليب عنده « ما طابق مقتضى الحال ، وقد يكون المعنى متفقاً بين خطيبين أو شاعرين أو كاتبين . ولكن أحدهما يسرق السامع ويسحر الألباب ويستولى على حواس السامعين . والقراء ، والآخر تلوى عنه الوجوه ، وتنثنى عنه

المعاطف ، وتنفر منه القلوب وتجفوه المسامع وإذا بحثنا عن سر ذلك لم نجد سوى دقة ذوق الكاتب أو الخطيب . فربما كان أعظم عالم لا يجتذب النفوس إليه كمن له قليل إلمام بها . وهذه اللغة العربية أعظم لغة تتبين فيها الفروق ويظهر فيها النسب .

المؤيد :

قدم على يوسف إلى القاهرة فى التاسعة عشرة من عمره ، فالتحق بالأزهر فلم يطل به المقام وكان حفياً بالشعر ، فأخرج عام ١٨٨٥ ديوانه « نسمة السحر » ثم اتجه إلى الكتابة فى جريدة مرآة الشرق . ولم يلبث أن طلب من نظارة الداخلية ترخيصاً بجريدة سماها « جريدة الآداب » فى ٣ فبراير ١٨٨٧ أصدرها نحو عامين ، ثم كان صدور المقطم عاملا فى تفكير الكثيرين بإصدار جريدة يومية مصرية أولا ووطنية ثانياً ، ولم يكن من الصحف فى هذه الفترة غير الأهرام وأصحابها سوريون ولهم هوى مع الفرنسيين .

وقد اشترك فى تحرير المؤيد مع زميله أحمد ماضى الذى كان فى الأغلب ممولا له ، إذ أمده بمائة جنيه فصدر العدد الأول فى أول ديسمبر ١٨٨٩ . ثم لم يلبث الخلاف أن وقع بينهما وتدخل سعد زغلول فى الأمر ففصل بين المتخاصمين وأرضى أحمد ماضى بقدر من المال وحمله على ترك الجريدة نهائياً ليستقل بها على يوسف . ثم أمد الشيخ بقدر من المال ليستعين به على استئناف العمل .

ولم تكن جريدة المؤيد فى الحق صحيفة بقدر ما كانت « مدرسة » لها ماضيها المتصل بمدرسة جمال الدين الأفغانى وأعلامها أمثال : محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وعبد الكريم سليمان وتوفيق البكرى وفتحى زغلول وإبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى . وكان لها تلاميذها الذين خرجتهم وكان لهم من بعد أثرهم فى تطور الصحافة : حافظ عوض ومحمد مسعود ومحب الدين

الخطيب وسيد كامل وعباس العقاد والمنفلوطى .

هؤلاء الذين زخرت بهم صفحات المؤيد فى هذه الفترة وكانوا فى مختلف كتاباتهم وخطواتهم يتمثلون مجلة « العروة الوثقى » ويعتبرون أنفسهم امتداداً لها . وبذلك كانت المؤيد تصحيحاً للانحراف الذى حاوله الاستعمار بفرض أسلوب جديد فى الكتابة السياسية بإنشاء المقطم وبإعلاء نغمات جديدة تدين بالولاء للانجليز وتجرى مع منطقهم ، وكان مفهوم المؤيد يتمثل فى وطنية مصرية مع ارتباط بالوحدة الإسلامية العثمانية . ثم كان موقف الخديو عباس فى مبدأ توليه الحكم ١٨٩٢ موالياً للحركة الوطنية مستغلا لها معارضاً للاستعمار ومن ثم فقد جرى المؤيد مع التيار الجديد التى بلغ غايته عام ١٩٠٤ عندما تم توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا ، وأصبح الخديو رجلا بادى الضعف ظاهر الاستسلام للانجليز ، وهنالك أدار الخديو ظهره للحركة الوطنية التى كان يقودها المؤيد حتى عام ١٩٠٠ ، واللواء معها بعد ذلك ، وقد اختار على يوسف أن يمضى مع اتجاه الخديو ، حيث اختلف مصطفى كامل واللواء ورأى من الخير للحركة الوطنية أن تتحرر من ولائها للخديو بعد أن تحول الخديو عن خطه الأول .

ولعل الشيخ على يوسف قد تحول حثيثا من خطة العنف فى مهاجمة الاستعمار تحت ضغط عوامل عدة أهمها محافظته على المكاسب التى حققها بعد عمل متواصل فى مجال الصحافة ؛ والمكانة التى وصل إليها كأبرز قادة الرأى فى مصر والعالم الإسلامى وما بلغته صحيفته من الذيوع والانتشار من طنجة إلى الهند ومن تركيا إلى زنجبار .

ولقد كان « على يوسف » من الطامحين الذين حققوا بصبر ودأب متصل جهداً كبيراً فى سبيل دعم مركز المؤيد واستطاع أن يسير به حثيثا حتى أبلغه

أرقى مكانة حين استطاع عام ١٩٠٦ ولأول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية أن يشترى ماكينة روتاتيف ، فقد وجه الدعوة يوم ٢ أكتوبر « إلى حضرات العلماء والذوات والأعيان لتشريف إدارة الجريدة وقت الشروع فى الطبع « الساعة الثالثة بعد الظهر » لمشاهدة الآلة الروتاتيف تطبع بواسطة صناعة جديدة غير الحروف المعتادة وتنجز فى الساعة الواحدة طبع اثنى عشر ألف نسخة من الجريدة ذات الثمانى صفحات مقطوعة ملصوقة مطوية معددة » وكان هذا نجاحاً بالغاً بعد أن طبع المؤيد على المكبس وعلى آلة تدار باليد .

وكان على يوسف قد زار إنجلترا عام ١٩٠٣ وأعلن « أن لندن هى كعبة المصريين السياسية » ومنذ ذلك الوقت اتضح خطه فى الاعتدال مع المحتلين ، والولاء للخديو ، ويرى كثيرون أن صلة على يوسف بالشيخ محمد عبده كانت من العوامل التى خففت من خصومته للانجليز ، وهدأت من لهجته .

يقول جورجى زيدان : إن على يوسف كان مثالا واضحاً فى الاجتهاد والثبات لأنه نشأ عصامياً وارتقى بجده وثباته ، من فقير أزهرى بسيط ، إلى كبير من كبار الأمة ، وتقرب من الجناب الخديو ونال التفاته العالى فأصبح وجيهاً كبيراً يزوره الوزراء والأمراء ويتملقه طلاب الوساطة ، إلى ما أحرزه من الرتب والأوسمة من الدولة العثمانية ، وهو لم ينل ذلك بالصدفة أو الارث ، وإنما ناله بما فطر عليه من المواهب المؤهلة لذلك .

ويقول أحمد شفيق فى مذكراته : بقيت الصداقة بين عباس وعلى يوسف تنمو على الأيام حتى أصبح الشيخ جليس الأمير ومستشاره ، وحافظ أسراره لا يعمل الأمير عملا إلا بمشورته ولا يقدم على خطة إلا بعد أخذ رأيه ، حتى الرتب والألقاب لا يمنحها أصحابها إلا بجهود الشيخ على .

وكان هـذا هو التحدى الثالث الذى واجه على يوسف ، كيف يحتفظ

بمكانته التى بناها بالعرق والجهد طوال هـذه الأعوام مصارعاً مع خصومه ، حتى استوى له هذا المجد ، فأصبح من علية القوم وقادة الرأى ، ولـكن على يوسف لم يكن فى الحق إلا مناضلا له مواقف مشهورة فى عديد من معضلات السياسـة المصرية فى هـذه المرحلة وفى علاقات مصر بالدولة العثمانية وبالإنجليز .

وفى عشرات من المواقف والقضايا يبدو الرجل وهو كفء للتحدى وقادر على قول الـكلمة الحرة الجريئة .

فى الجمعية العمومية سنة ١٩٠٧ يتقدم باقتراح يرمى إلى أن يكون التعليم فى جميع مراحله باللغة العربية ويعارض سعد زغلول ناظر المعارف ويفتح باب المناقشة واسعاً فى المؤيد ، ويدخل فيه بقدرة وإصالة حتى يحرج سعداً ويضطره إلى قبول رأيه . وكان تعبيره الذى تناقله الناس : « إن تعليم اللغة بلغة أجنبية عن الأمة ، ينقل الأمة كلها إلى العلم ولا ينقل العلم إلى الأمة كلها .

* وهو من أوائل من طالبوا بالدستور ، وله أحاديث مع جريدة نيويورك هيرالد فى مارس ١٨٩٥ يلح فيها بطلب الدستور كما والى طلب الدستور سنوات ١٩٠٤ و ١٩٠٧ .

* وفى جريدة المؤيد ظهرت صفحات كتاب طبائع الاستبداد للـكواكبى وكتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين .

مواقف هامة :

وإذا كان على يوسف قد استطاع أن يقيم « دولة المؤيد » خمسة وعشرين عاماً بالصبر والمطاولة والمثابرة فإن ذلك لا يخليه من مواقف متناقضة تـكشف عن طابع الذكاء والدهاء .

ففى الوقت الذى هو صديق الخديو المقرب إليه ، فهو صديق الشيخ محمد عبده خصم الخديو ، وهو قادر على أن يوازن فى الأمر ، فلا ينحرف ولا يحمل على الإمام بل ويرى الكثيرون أن لهذه الصلة أثرها فى طابع الاعتدال الذى عرف به فى كتاباته ومواجهته للاحتلال البريطانى حتى أطلق على حزبه اسم « الاصلاح » وقد كان منهجه فى الكتابة السياسية هو منهج الاستاذ الامام ، وفق خطة « العروة الوثقى » بمفهومها الواسع

يقول مؤرخوه : أنه اتخذ موقفا وسطا بين الخديو والامام وظلا وفيا لهذا الأخير مواليا له ولرجال حزبه ولا سيما حسن عاصم وسعد زغلول ولا يطعن فى أحد من هؤلاء الرجال ، وربما كان الشيخ محمد عبده حريصا على هذا الموقف حيث يروى أحمد حافظ عوض فى مذكراته كيف كان على يوسف ينصحه — وهو يعمل معه فى المؤيد — ألا يكثر الاتصال بالشيخ محمد عبده ، وان الإمام كان يؤيد ذلك وقد وصفه رشيد رضا بقوله : «إن على يوسف كان أخلص للخديو من مصطفى كامل . ولكنه كان موالياً وافياً للشيخ محمد عبده ورجال حزبه » .

ويبدو « على يوسف » وهو حريص على هدم خصومه والإدالة منهم فى حادث « الكف » فقد قام تنافس خطير بين المؤيد وعلى يوسف من ناحية وبين جريدة مصباح الشرق وصاحبها إبراهيم المويلحى وإبنه محمد المويلحى ، وحدث أن كان محمد المويلحى جالساً ذات يوم من أيام ١٩٠٢ فى قهوة « باركتوس » إذا دخل عليه محمد نشأت فاستقبله المويلحى قائلا : أهلا بالفتان . فظن محمد نشأت أن المويلحى يعرض به ، فلم يلبث أن صفعه على وجهه وهم المويلحى أن ينتقم لنفسه فخرج نشأت هارباً ، وهنا تتلقف جريدة المؤيد الحادث ويرويه الشيخ على يوسف بأسلوب ملىء بالمكر والدهاء ، والغمز واللمز ، ويرد عليه محمد المويلحى فى مصباح الشرق تحت عنوان

« الجرائد العامية » حيث ينتقص من المؤيد ويزرى بصاحبه ، ثم تتسع المعركة فينشر المؤيد مقالا عنيفاً فى الرد على مصباح الشرق ويغرى الأدباء والشعراء بالنظم فى الحادثة ويفتح بابا يومياً فى الجريدة تحت عنوان « عام الـكف » ينشر فيه شعراً للكاظمى وشوقى واسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وشعراء غيرهم بدون توقيع .

ثم تحدث بعد ذلك قضية الزوجية الشهيرة ، عندما خطب على يوسف إبنة الشيخ عبد الخالق السادات وعقد العقد من غير علم الأب فثار الوالد ورفع الأمر إلى المحكمة الشرعية طالباً فسخ العقد لعدم الكفاءة فى النسب ، وقال الشيخ على يوسف إنه من الأشراف ولكن المحكمة قضت بفسخ العقد فى أغسطس ١٩٠٤ . وهنا يبدأ المويلحى فى نشر ما سماه « عام الكفء » رداً على باب « عام الكف » الذى نشره المؤيد عام ١٩٠٢ ومعنى الكفء أن الشيخ على ليس كفئاً فى الزوجية لآل السادات .

ومن مواقفه الحزبية العنيفة ، مطالبته بالعقوبة والسجن للشيخ على الغاياتى على أثر إصداره ديوانه « وطنيتى » وكان الشيخ قد ذهب إلى إدارة المؤيد وأهدى نسخة لصاحبه ظناً أنه سيكتب عنها تقريظاً . وإذا بالشيخ يجد فى الديوان قصائد عنيفة كانت قد نشرت فى اللواء . والمعروف أن الشيخ على كان يعمل فى صحيفة الحزب الوطنى . وهنا يندد الشيخ فى صفحة كاملة بالديوان ويعده تحريضاً على الثورة ولا تلبث الحكومة أن تتخذ الإجراءات لمحاكمة الشيخ الغاياتى الذى يهاجر إلى تركيا وألمانيا ولا يعود إلا بعد ذلك بربع قرن .

غير أن له إلى جانب ذلك موقفاً مشرفاً هو موقفه فى قضية « التلغرافات » فقد حدث عام ١٨٦٦ حينما كان الجيش المصرى زاحفاً مع الجيش البريطانى

لاسترجاع السودان أن أرسل قائد الجيش فى السودان إلى السردار البريطانى تلغرافاً بواسطة الشفرة ، وقد سلم التلغراف للانجليز ولم يبلغ به ناظر الحربية المصرية . ولما سألت « عابدين » عنه قيل لها أنه لم يصل . وظهــر المؤيد فى المساء وفيه نص التلغراف حرفياً ، ولما رأت المقطم ما فعله المؤيد شنت الغارة . وقالت إن المؤيد جواسيس فى دور الحـكومة ينقلون إليه الأخبار ، ووجهت التهمة إلى مصلحة التلغراف واتهم « توفيق كيرلس » عامل التلغراف بأنه هو الذى تسلم الإشارة ، وأدانت المحـكمة الشاب وبرأت المؤيد . وفى الاستئناف برىء عامل التلغــراف . وإن كانت الحـكومة قد فصلته من الخدمة . وظل على يوسف طوال حياته حتى توفى يدفع من جيبه الخاص مرتباً لتوفيق كيرلس .

وبعد فلعل هذه المواقف المختلفة تـكشف بوضوح عن شخصية على يوسف الشاب الأزهرى الذى لم يعرف لغة أجنبية ، ولم يتلق دراسات عليا فى السياسة أو الفلسفة أو القانون وهو يحاذى بمنـكبيه أعلاماً من قادة الفـكر ويصل إلى مكان الصدارة فى الصحافة وفى السياسة ، ويستطيع أن يسيطر على قيادة المؤيد بضعة وعشرين عاماً « ١٨٨٩ — ١٩١٣ » يواجه فيها من الصعوبات والتحديات ما لا قبل لأحد به . إلا إذا كان على قدر كبير من الصلابة والمرونة والذكاء والدهاء ، وقد استطاع المؤيد أن يبلغ ذروة فى التوزيع لم يبلغها غيره فى عصره « ٤٩ ألف نسخة » ولم ير بأساً فى أن يلبس لـكل حالة لبوسها — على حد تعبير تلميذه لطفى جمعه — وأنه اتخذ حيال كل ذى سلطة الوسائل والحالات التى تؤدى لنجاح خطته بحكمة وحصافة ، ولم يكن مبدؤه « الغاية تبرر الواسطة » تماماً ولـكن أعماله كانت تبدو للغريب كأنها مستوحاة من تلك القاعدة الذهبية » .

من الصحافة الى السجادة :

غير أن طموح على يوسف لم يتوقف عندما بلغه من مكانة ، عضواً فى مجلس الأمة وزعيم حزب الإصلاح ومؤسس أكبر جريدة إسلامية ، فتطلع إلى منصب شيخ السجادة الوفائية ، وطلبها بعودة المصاهرة ، وثارت لذلك ثائرة الصحف وكثر خصومه ، ورفضت المحكمة الشرعية العقد، ثم لم يلبث أن توصل إلى إعادة كتابة العقد فى بيت السيد وبإذن منه . وأصبح صهراً للسادات ثم خلفه على السجادة الوفائية.

غير أن ذلك كان مصدر المتاعب على حياته وعلى المؤيد نفسه ، فقد كدرت السيدة حياته ، وطفقت تتعالى عليه بصلف وجبروت شديد فكان يقضى فى المؤيد نحو عشرين ساعة فى اليوم والليلة « وقد وقف أمام هذه النوازل رابط الجأش ، غير أنها شغلته عن ضبط إدارة المؤيد ، ومنذ عام ١٩٠٧ وكان الشيخ قد أثرى ثراء عظيما أقحم نفسه فى مضاربات عقارية لبيع الأراضى فقد فيها معظم ثروته ، وكان حزنه على ضياع ماله ، مصدراً للهم والقلق وزاده ضيقاً سوء معاملة زوجته له ، فلم يلبث أن أصيب بذبحة صدرية كادت تقضى عليه ولكنه نجا من الموت ، وإن لم ينج من الضعف الذى لازمه وحد من نشاطه .

ولعله قد وجد فى منصب السجادة الوفائية فرصة ليلقى عصاه ويستريح من جهاد طويل شاق، ومن ثم ترك العمل الذى توفر له فى المؤيد وقد أقيم له فى ١٦ مارس ١٩١٢ حفل تقليدى فى سراى عابدين بهذه المناسبة . ولم يلبث أن وجه إلى قراء المؤيد كلمة وداع :

« بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها المؤيد وقمت بتحريره مسئولا عنه، قد اضطررت منذ أمس بمقتضى أسباب عائلية قوية أن أودع مهنة الصحافة التى

أحترمها وأعتبرها من أشرف الأعمـــال المفيدة كثيراً للهيئة الاجتماعية بل اضطررت أن أودعكم راجياً أن تـكونوا حفظة كراماً خيرين تذكرون الحسنة وتنسون السيئة .

اترك المؤيد وقد صار قوة كبرى فى خدمة الأمة وانى إذا تركت قلبى بجانبى فلم أكسره ، وإن عطلت وظيفة لى فى المؤيد فلن أعطل فـكرى وضميرى وسأقوم بما يجب لوطنى كما دعانى » .

غير أن الشيخ لم يلبث أن استسلم لقدره بعد أشهر قليلة ومات فى نحو الخمسين ، وقد ترك تراثاً ضخماً من العمل الصحفى ، جدير بأن يضعه فى صفوف الرواد والقادة الأعلام المرموقين .

* * *

ولد على يوسف فى بلصفورة من أعمال مديرية جرجا سنة ١٨٦٣ ونشأ يتيما ، وانتقل إلى القاهرة فتعلم فى الأزهر وأنشأ مجلة أسبوعية سماها «الآداب» ثم أصدر الجريدة اليومية الـكبرى «المؤيد» فـكان لها شأن يذكر فى سياسة مصر والعالم الإسلامى ثم ولى مشيخة السجادة الوفائية .

ومن مؤلفاته : نسيم السحر : ديوان شعر

: مقالات قصر الدوبارة

: التعليم فى مصر وحظ المسلمين والأقباط منه

: بيان خطة المؤيد تجاه الدولة العثمانية .

عمر مكرم

حامل لواء الشعب

— ١٨٢٢ م

« إنما أولو الأمر هم حملة الشريعة ، والسلطان العادل ولقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه .

إن الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور والظلم كان لهم عزله وخلعه .

عمر مكرم

* * *

يمثل «عمر مكرم» الزعامة الإسلامية الجامعة بين الدين والسياسة والواعية التى إرتفعت فوق المطامع والأهواء ، والتى آمنت بحق الشعب ودافعت عنه وحرصت على الوقوف بينه وبين ظلم المماليك ، وإستبداد الأتراك ، وطغيان الفرنسيين . فقدعاش عمر مكرم فى فترة دقيقة حرجة من حياة مصر والشرق ، حيث كانت تتصارع القوى المختلفة للسيطرة على هذا الجزء من العالم العربى واستلاب حقه فى الحرية فقد كانت فرنسا وتركيا وبريطانيا تتصارع فى مصر ، وكان المماليك يحكمون البلاد ويذيقون أهلها الهوان ويعتصرون ثرواتها وأقواتها ، وكانت فرنسا تتطلع إلى إقامة إمبراطورية فى قلب الشرق تحجب بها بريطانيا التى تسيطر على الهند وتسيطر على طرق مواصلاتها .

ومنذ شب عمر مكرم وقد تطلع إليه الشعب وارتجى على يديه الخير، ورفع الظلم، فكان يناديه ويلجأ إليه كلما ضاق بمظالم المماليك والأتراك، ووقف عمر مكرم مع الشعب دون مظالم مراد وإبراهيم من جهه. والألفى عميل بريطانيا من جهة أخرى وشارك فى كتابة الوثيقة التى حدت من الظلم، فلما أقبلت الحملة الفرنسية لم يجد الشعب من ينصره غير عمر مكرم الذى وقف فى صفه وعمل معه، وحفر الخنادق حول القاهرة من ناحية بولاق وإمبابه، وعاش مع الشعب فى المعركة يقاتل ويوجه ويرسم الخطط وينفذها.

فلما سيطر الفرنسيون رفض أن يتعاون معهم، أو يشترك فى مجالسهم، وهاجر من مصر. ولما عاد لم يتوقف عن المقاومة بل واصلها فلما لم يتحقق النصر هاجر ثانية ولم يرجع إلا بعد أن أظعن الفرنسيون، هنالك أسلمت الأمة مقاليدها إليه فى زعامة جامعة، استطاع بقوتها أن يواجه الوالى التركى الظالم خورشيد باشا وأن يحاربه حرباً عنيفة وأن يعزله ويختار الضابط الألبانى محمد على القرجى والياً على مصر بعد أخذ العهود والمواثيق عليه ليحكم بالعدل ويسير بين الناس بالحق، وأن يستشير الزعماء المقاومة الشعبية فى كل أمر.. غير أن محمد على لم يلبث أن سيطر واستبد ومزق جبهة الزعماء، وضاق بالرجل الذى ولاه، وأوقع بينه وبين العلماء، الذين أغراهم بصرره وذهبه، حتى استطاع أن يعزله عن منصبه وأن ينفيه إلى دمياط ليمضى بها ما تبقى من حياته.

* * *

تلك حياه عريضة، عاشها عمر مكرم فى أدق مراحل حياة أمه كانت تضطرب بين المماليك والأتراك والفرنسيين والانجليز، وقد اشترك فى مقاومتهم جميعاً واحتمل فى سبيل ذلك عنتا وظلما كبيراً، حيث هاجر وصودرت أملاكه، ووقف عند كلمة الحق، برفض الإغراء والتهديد، وبرفض ذهب محمد على ويفطم

نفسه عن الأهواء ، ويحمل لواء مقاومة الظلم ، دون أن يخشى فى سبيل كلمة الحق لوما أو عنتا .

وقد شارك عمر مكرم فى أربعة أعمال كبرى قام فيها بدوره كزعيم صادق المحبة للشعب متجرد عن الهوى والمطمع الشخصى ، فضحى بما يملك من ثروة ومال فى سبيل الأمة التى نادته دائما وتطامت إليه فى الملمات وهذه الأعمال هى :

أولا: وثيقة حقوق الإنسان .

ثانياً: مقاومة الحملة الفرنسية .

ثالثاً : ثورة القاهرة مارس ١٨٠٠ .

رابعاً: إسقاط الوالى التركى خورشيد .

— ٢ —

اشترك عمر مكرم عام ١٧٩٥ فى كتابه « الوثيقة السياسية » الكبرى التى تعهد فيها مراد وإبراهيم وباقى الأمراء المماليك بالعدل والرجوع عن المظالم . وفى هذه الوثيقة تعهد الأمراء بالعدل والتوبة عن المظالم ، والقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم القانون والعرف ، ومن صرف الأموال على مستحقيها وإرسال غلال الحرمين إليهما ، ورفع الضرائب الجديدة ، وكف أتباعهم عن إمتداد أيديهم إلى أموال الناس وقد تم عقد هذه الوثيقة على أثر الاضطرابات التى وقعت على أهل بلبيس من بعض الأمراء فى تحصيل الأموال ، وقد تزعم هذه الحركة الشيخ الشرقاوى الذى كان قد أصابه بعض الضرر ، فقاد الثورة فاجتمع له كثير من أهل القاهرة والأقاليم واضطربت القاهرة ثلاثة أيام حيث أصبح الأزهر موئلا لطلاب العدل الذين لم تتوقف صيحاتهم عن مطالبة الأمراء والمماليك بالعودة إلى حدود الحق والعدل . وقد تم عقد اجتماع

فى بيت إبراهيم واشترك المشايخ فى هذا الاجتماع وعرضوا لمظالم الأمراء الذين أعلنوا توبتهم ورجعوا والتزموا بما شرطه العلمـــاء عليهم ، وكتبت الحجة عليهم بذلك . وقد اشترك عمر مكرم فى تحرير هذه الوثيقة ، وكان مشاركته مجردة لوجه الحق والشعب إذ لم يكن له غرض خاص كما كان للشيخ الشرقاوى.

— ٣ —

ثم كانت قيـــادة عمر مكرم للشعب عندما نزل الفرنسيون الشواطىء المصرية فى ٢ يوليه ١٧٩٨ وقد صور الجبرتى كيف أن عمر مكرم نقيب الأشراف عندما علم بوصول الفرنسيين لم ينتظر إلا قليلا حتى صعد إلى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيراً أسمته العامة « البيرق النبوى » فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وقد تجمعت حوله الألوف المؤلفة تهتف بالجهـاد وتتأهب لعمل حاسم فى سبيل مقاومة دخول الفرنسيين إلى القاهرة « وعندما وصل نقيب الأشراف إلى بولاق تجاه إمبابه غرس بيرقه على ربوة عالية ودعا إلى حمل الفؤوس لحفر خنـدق كبير يحول دون دخول الـكفار » وبذلك كان عمر مكرم فى مقدمة الصفوف عندما ظهر الخطر ، فلما إنتهت معركة الأهرام بالهزيمة ودخل الفرنسيون القاهرة رفض البقاء فيها وهاجر إلى « يافا » وترك أملاكه وأمواله نهباً للفرنسيين ورفض أن يفاوض فى تسليم بلاده واستعلى عن قبول عضوية الديوان بعد ما سجل إسمه ، ترفعا عن قبول المشاركة فى ظلم الإستعمار ، وقد حاولوا إعادته فاشترط أن تـكون عودته على جهاد ، وقد ظل عمر مكرم فى منفاه مختاراً حتى وصل نابليون « يافا » وأمر بإعادته معززاً إلى القاهرة فعاد إليها واعتزل فى بيته ، يعد للثورة الثانية التى إندلع أوارها فى مارس ١٨٠٠ .

وفشلت كل محاولة لإستمالته ، وقد رفض أن يطالب نابليون بأملاكه

ولم يشترك فى أى حفل أو مهرجان أو ديوان فى خلال فترة إقامته فى مصر بعد عودته .

وقد حمل عمر مكرم فى هذه الثورة لواء المقاومة وعبأ مشاعر الشعب ودعاهم إلى التضحية ، والبذل بما يستطيع واستطاع أن يجمع من أموال الشعب القليلة ما اشترى به السلاح والخيام والدخيرة ، كما لبى نداءه الشباب الذى هب لحمل السلاح ، وقد إمتدت الثورة سبعة وثلاثين يوما فعل فيها الشعب مع عمر مكرم الأعاجيب فقد صنع القنابل من حــديد المساجد ، وحاصر المدينة للحيلوله دون خروج أحد منها ، ولم يثنه حرق منزله عن ترك موقفه فى قلب المعركة وحماية المتاريس .

وقد استطاع أن ينشىء مصانع للبارود وصنع آلات الحرب من مدافع وذخائر واتخذ من بيت القاضى وما جاوره مصانع للذخائر والأسلحة .

وعمل مع عمر مكرم حسن البشتيلى وأحمد المحروقى وحسنى الحداوى . فلما سنحت الفرصة لمفاوضة الفرنسيين رفض التفاهم فلما إنتهت الثورة آثر الهجرة مرة أخرى ، وكان أول من عاد بين خروج الفرنسيين ، وكان حريصاً على أن لا يرضى عن مظالم العثمانيين ، أو مطامع المماليك ، فأصبحت له الزعامة بعد عودته وخرج الناس للقائه والترحيب به على نحو لم يسبق لغيره من القادة وقضى فترة عزلة أخرى إمتدت ثلاث سنوات بعــد خروج الفرنسيين من مصر ، إلى أن خرج إبراهيم بك والبرديسى من القاهرة ، وقام الشعب يطالب بحكومة جديدة .

— ٤ —

وكانت معركه عمر مكرم الـكبرى مع الوالى الظالم « خورشيد » على أثر العسف والظلم وفرض الضرائب الثقيلة على الأهالى وجمع المال من صغار

التجار ، ومصادرة السلع القادمة مع القوافل من الخارج . وإتخاذه من جنده قوة لضرب الشعب والأمراء واستنزاف موارد الشعب وحبس الخيرات عن الفقراء ، وسجن العلماء ووضعهم فى الأصفاد .

هنالك دعا عمر مكرم إلى مؤتمر ١٢ مايو ١٨٠٥ فى دار المحكمة الشرعية بالقاهرة حيث عرض على ممثلى الشعب وجبهة المقاومة الشعبية مظالم خورشيد ، وكان قد احتشد فى فنائها ما يقرب من أربعين ألفاً ، كلها تنادى بالتحرر من الحكم التركى وتعلن السخط على مظالمه .

قال الجبرتى : لما أصبح الأحد ثانى عشر من مايو (١٢٢٠ هـ) ركب المشايخ إلى بيت القاضى ، واجتمع به الكثير المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش بالناس وصرخوا بقولهم : شرع الله بيننا وبين هـذا الباشا الظالم . ويقولون « يارب يا متجلى ، أهلك العثمالى » .

واتفقوا على كتابة عرضحال ؛ ذكروا فيه تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم للناس وإخراجهم من مساكنهم ، والمظالم والغزو وقبض مال الميرى المسجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعوى الكاذبة ، وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسـلة إلى القاضى يرقق فيها الجواب ويظهر الإمتثال ، ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلماء للمشورة ، فلما وصلته التذكرة حضر بها إلى السيد « عمر أفندى » واستشاروا فى الذهاب ثم إتفقوا على عـدم التوجه إليه ، وغلب على ظنهم أنها منه خديعـة وفى عزمه شىء آخر . .

وقال أحمد باشا (خورشيد) : أنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطان .

وأصبح الناس وتجمعوا أيضاً ، فركب المشايخ ، ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم الأسلحة والعصى ، وذهبوا إلى بركة الأزبكية حتى ملأوها ،

واجتهد السيد عمر النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد ، وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على ، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت ، ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات ، يسرحون أحزاباً وطوائف ومعهم المشاعل ، ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور ، ثم اتفقوا على محاصرة القلعة ، وعملوا متاريس فى تلك الجهات ، وذلك فى تاسع عشرة ، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة .

وفى ذلك اليوم ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس ، وذهب إلى بيت حسن أفندى أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة .

ومن جملة ما قال : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى « وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » فقال له : إنما أولوا الأمر هم حملة الشريعة والسلطان العادل . وهذا رجل ظالم خارج عن قانون البلاد وشريعتها وقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على إنى أذكر لك أن الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور والظلم كان لهم عزله وخلعه ، وأنه ما دام العلماء قد أفتوا بوجوب مقاتلة الوالى وأعوانه لإفتئاتهم على حقوق الناس فقد أصبح فى حل هو ورجاله من مقاتلتهم» .

وقد بدأت المعركة بين السلطان والشعب واستمرت شهرين كاملين ، حاصر القلعة فيها عمر مكرم ورجاله أمثال حجاج الخضرى وابن شمعه الجزار وقطعوا عنها الإمدادات واضطروا خورشيد إلى التسليم ، وقد تحقق ما كان يخشاه ، عندما أنزله الفلاحون بالقوة من مقره بالقلعة . .

واختار عمر مكرم مع قادة الشعب لولاية مصر « محمد على » وألبساه هو والشيخ الشرقاوى الكرك والقفطان بعد أن أخذا عليه المواثيق أن يسير في الناس بالعدل وألا يفرض عليهم أى ضرائب أو مكوس وأن يستشير قادة المقاومة الشعبية فى أمر الرعيـــة وينزل عند نصائحهم ، باعتبارهم نواب عن الشعب .

وقد قبل محمد على الأمر خدعة وتقية ، غير أنه لم يكن جاداً مخلصاً فى التسليم للشعب وقادته ، بل كان هدفه أن يقضى على هذه الجبهة التى عزلت خورشيد والتى يمكن أن تعزله إذا سار سـيرة الظلم والعسف ، ولذلك كان حريصا على أن يفتت شملها ويفرق بين أعضائها وأن يوقع الإنقسام بين أفرادها ، فبدأ يستميل إليه منهم من يغريه بالصرر الذهبية ورفع الضرائب والحصول على ما يشاء من الأرض أو الأملاك ، وفى خلال ذلك استطاعت المقاومة الشعبية وعلى رأسها عمر مكرم أن تصد هجوماً ضخما هو حملة فريزر الإنجليزية التى نزلت شواطىء البلاد عام ١٨٠٧ وكانت تستطيع أن تتوغل فى أرض مصر لولا عزيمة عمر مكرم ورجال المقاومة الشعبية وجهـاد أهل الحماد ورشيد .

وقد مضى محمد على فى خطته فبدأ يستأثر بكل شىء ، ولا يستمع إلى آراء عمر مكرم ، ويتوسع فى فرض الضرائب وينفرد برأيه فى شئون الحـكم ، وكان موقف عمر مكرم معه شبيها بموقف مدحت مع السلطان عبد الحميـد وزادت الجفوة عندما رفض عمر مكرم أن يضع اسمه مع أسماء المشايخ على حساب مقدم منه إلى الدولة العثمانية رأى فيه رأيه ، وهكذا وقع الخلاف بين الزعيم والوالى . . وكان الشعب إلى ذلك الوقت لا يزال يتطلع إلى عمر مكرم كلما ألمت به ملمة ، أو زاد عليه ضغط المظالم والأتاوات . .

ولم يلبث محمد على حين تأكد تمزق جبهة زعماء المقـــاومة الشعبية ، أن أعلن فى اجتماع عقده فى منزل إبنه إبراهيم فى ٩ أغسطس عام ١٨٠٩ أنه عزل عمر مكرم عن منصبه كنقيب للأشراف ، وإن لم يستطع عن عزله عن منصب آخر أجل قدراً لايملكه هو زعامته للشعب ، وتاريخه الضخم فى المقاومة والعمل لدفع المظالم عن الوطن ، ثم نفاه إلى دمياط فى ١٣ أغسطس عام ١٨٠٩ .

— ٥ —

كان من الطبيعى أن يقع الخلاف بين الوالى والزعيم ، فذلك يمثل سلطة الحكم وهذا يمثل سلطة الأمة ، وقد خشى محمد على — الذى كان ديكتاتوراً بطبعه — هذه القوة التى أعلنت إصرارها عند اسقاط خورشيد ، على أنها تستطيع أن تسقط الخليفة والسلطان نفسه إذا سار سيرة الظلم ، وأن هذا كان من حق شعب مصر دائما . .

ولذلك عمد محمد على إلى أن يحرر نفسه من هذا القيد بالقضاء على هذه الجبهة التى قاومت الفرنسيين وهزمت حملة فريزر الإنجليزية ، وأسقطت الوالى خورشيد . ليكون حراً فى وضع النظام الذى إرتضاه لحكمه ، وفق المطامع التى رسم خطتها .

وقد تم له ذلك بالتفريق بين الزعماء وإستماله بعضهم ، وقد كان الشيخ الشرقاوى ينفس على « عمر مكرم » مكانته فى القيادة وتألق إسمه وإلتفاف الشعب حوله ، ويترقب الفرص لإسقاطه والتخلص منه ، أما مجموعة المشايخ أمثال السادات والدواخلى والمهدى والشامى فقد سارعوا بالإنحياز إلى محمد على وانتفعوا بعطاءه الجزيل . .

فلما أثقلت الضرائب كاهل الشعب ، وضج بالشكوى ، بعد أن أعفى

منها كبار الملاك وقصرها على الفقراء ، وتوالى إلحاح الشعب على « عمر مكرم » أنه يواجه الموقف ، كان لا بد أن يلبى ، كانت خشيته مع موقف العلماء واضحة حين جمعهم ليرى إلى أى حد هم مستعدون للمعارضة فى هذه المظالم الفادحة ، وقد استكشف فى هذا الإجتماع تحولهم وتملصهم بعد استمالة محمد على لهم ، فإنهم لم يجمعوا معه على أمر بالنسبة لمواجهة محمد على والإعتراض عليه .

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إذ نقلوا خطته إلى محمد على ، وأوغلوا فى التشهير به ، فقال الدواخلى والمهدى : إن عمر مكرم إلا صاحب حرفة أو جابى وقف ، يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين وليس له قدر إلا بمؤازرتنا فإذا نحن تخلينا عنه لم يكن بعد إنصرافنا عنه قدر ولا خطر . .

وكان موقف عمر مكرم بالرغم من إنصراف العلماء عن جبهة المقاومة عنيفاً وصادقاً ، فقد رفض مفاوضة محمد على فى أمر يرى أنه لا حق له فيه ، وكان إصراره على أن يعدل « الباشا » أولا عن موقفه ويعلن أن لا حق له فى تغيير نظام الضرائب بإرادته على حد تعبير فريد أبو حديد .

وقد إحتال محمد على لإرضاء عمر مكرم بمختلف الحيل ، أنفذ إليه من يغريه بعطاء كيس كل يوم (٤٠ جنيها) وأن يهديه ثلاثمائة كيس عطاءاً معجلا فرفض ذلك ، كما رفض مقابلة محمد على فى الديوان : وقال إذا أراد مقابلتى فلينزل هو من القلعة إلى بيت السادات وأسعى أنا من بيتى إلى هذا المكان لتكون المقابلة على سواء ، فلما رفض توقيع حساب الدولة العثمانية ، كان ذلك غاية ما بين الرجلين من خصومة ، هنالك أنهى محمد على أمره فيه بالإقصاء عن المنصب والنفى عن القاهرة . .

وسافر عمر مكرم إلى منفاه فى نفس الأيام التى عزل فيها خورشيد منذ أربع سنوات ، وسارت به السفينة من بولاق إلى دمياط ، وعادت نقابة

الأشراف إلى الشيخ السادات ولم يلبث محمد على أن أوقع بالعلماء الذين كانوا يدافعون عن أموالهم حين خاصموا عمر مكرم وسلب منهم ما كان قد أعطاهم، وبذلك حطم هذه الجبهة نهائياً وقضى عليها . .

وظل عمر مكرم فى دمياط مبعداً عن الناس لا يباح له الاتصال بهم مقيما تحت المراقبة وملازمة الحرس له . حتى عام ١٨١٢ حينما خلص الملك لمحمد على من منافسيه المماليك وبعد القضاء عليهم بمذبحة القلعة ، حيث سمح لعمر مكرم أن ينتقل إلى طنطا .

وظل عمر مكرم خلال السنوات العشر ، رفيعاً متعاليا ، عن أن يلتمس عفواً أو يطلب شيئا ، أو يشكو ضعفاً أو ألما بالرغم من تقدم السن به إلى السبعين .

ولما عاد إلى القاهرة (يناير عام ١٨١٩) إهتزت جنباتها وخرجت صادقة الحب به ، هاتفة له ، ملتفة حوله ، هنالك أحس محمد على بخطر عمر مكرم ومدى ما زال يكنه الشعب له من حب وإيمان ، وإذ أقام عمر مكرم فى القاهرة بعد عودته من الحج معتزلا فى داره فى أطراف مصر القديمة ، بعيداً عن الظهور ولقاء الناس ، فإنه ما كاد محمد على يفرض ضريبة مساكن القاهرة لتمويل الأسطول العثمانى حتى ضج الناس وخرجوا صارخين ، ورددوا إسم عمر مكرم هنالك أسرع محمد على بإعادته إلى المنفى فى طنطا فى أبريل عام ١٨٢٢ .

ولم يقم طويلا بها فقد أفضى إلى ما قدم قبل نهاية العام .

وإنتهت حياة رجل مجاهد قوى العارضة صادق الإخلاص للشعب أمضى ثلاثون عاما كاملة فى جهاد متصل منذ وقع وثيقة حقوق الإنسان فى مطلع كفاحه ، وقاد المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين والإنجليز والأتراك والمماليك ، وقاوم حملة فريزر ، وقاوم الحاكم التركى الظالم ، وقاوم محمد على ورفض أن

يستسلم لذهبه أو لوعيده . ووقف وحده فى صف ، معتزاً بإيمانه بالله وثقته بنفسه وصدق هدفه .

ولعله ندم على أن ولّى « محمد على » دون أن يأخذ عليه ميثاقاً مكتوباً ، أو اختار غيره من أبناء مصر .

وقد ولد عمر مكرم فى أسيوط عام ١٧٥٠ فى أواخر حكم إبراهيم ، وقد شهد عهد على بك الكبير وإنقلاب محمد أبو الدهب ومظالم إبراهيم ومراد ، والتحق بالأزهر فى مطلع شبابه وتخرج فيه ، ولجأ إليه إبراهيم ومراد عام ١٧٩١ أثناء فرارهما بالصعيد ليكون رسولهما فى مفاوضة مع الوالى الجديد . وأسندت إليه نقابة الأشراف عام ١٧٩٣ .

وقد عاش حياة حصينة عريضة كلها عمل لوجهة واحدة ، من أجلها هاجر مرتين ونفى عشر سنين ، وجاهد وأمضى لياليه يقظاً فى ثورة القاهرة الأولى والثانية وعاش اسمه وما زال يعيش علما على مقاومة الحاكم المستبد ونبراساً لكفاح الاستعمار والإستبداد وتكفى كلمته الخالدة التى ذهبت مثلا :

« لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء » .

* * *

وملخص حياة عمر مكرم بن حسين السيوطى أنه ولد فى أسيوط وتعلم بالأزهر وولى نقابة الأشراف ، وحين بلغت الحملة الفرنسية ميناء الاسكندرية وزحفت على القاهرة تقدم على رأس أهل القاهرة لمقاومتهم ، وكان الفرنسيون يظنون أن المقاومة ستقتصر على المماليك . وكانت شخصية عمر مكرم على رأس مقاومة المماليك والترك ومحمد على بعد خروج الفرنسيين ، حيث وقف إلى جانب

الشعب ضد الحكام العثمانيين ، وقاد الثورة الشعبية ضد المماليك عام ١٨٠٤ وضد الوالى خورشيد عام ١٨٠٥ وقاوم مظالم محمد على الذى عزله عن نقابة الأشراف ونفاه إلى دمياط وقد قابل المحنة بالثبات ورباطة الجأش وعاش تحت الرقابة سنوات أربع وعاد إلى مصر وتحددت إقامته فيها ثم أعيـد نفيه إلى طنطا .

(توفى عام ١٨٢٢)

فارس الخورى

عبقرية البيان والقانون

١٨٧٧ — ١٩٦٢

« لقد أخذت خبرتى من الحياة ومن الكتب ، ولقد كانت عادتى باستمرار أن أتريث وأتفحص قبل أن أحكم على أى شىء . أننى أرى البريق الذى كان يومض فى خاطرى وأنا فى سجون الأتراك وفى معتقلات الفرنسيين ، أننى أرى فيه العوض عن العذاب والهول الذى عشته مع زوجتى من منفى إلى منفى ، ومن سجن إلى سجن » .

* * *

علم من أعلام البيان والسياسة والقانون ، سورى الأصل من جيل كرد على وعبد القادر المغربى . عاش حياته بين منصات المحاماة ونصوص القانون وندوات السياسة .

اشترك فى المجمع العلمى العربى ، وساهم فى مناصب العمل الوطنى فى بلاده : التعليم ، البرلمان ، الوزارة ، الحكومة ، السفارة ، مجلس الأمن .

وعرف بأحاديثه الطيبة وأبحاثه القيمة ، وخطبه الرنانة .

وصفه[1] أحد تلاميذه فى كلية الحقوق فقال :

(١) على الطنطاوى (مجلة الرسالة) ٨ سبتمبر عام ١٩٤٧

« رأيت فيه رجلا وديعاً طريفاً ، حليماً واسع الصدر ، ولـكنه مع هذا كله هائلا مخيفاً ، تراه أبداً كالجبل الوقور على ظهر الفلاه لا يهزه شيء ولا يغضبه ، ولا يميل به إلى الحدة والهياج ، يدخل أعنف المناقشات بوجه طلق ، وأعصاب هادئة ، يفسد على خصومه المسالك ويقيم السدود من المنطق المحـكم ، والنـكتة الحاضرة ، والسخرية النادرة ، والعلم الفياض ، والأمثال والحـكم والشواهد .

« كنت تلميذه فى السنة الأخيرة فى كلية الحقوق عام ١٩٣٢ كان يدرس علم المالية وأصول المحاكمات المدنية ، يلقى درسه إلقاء ، لا تدرى أأنت تعجب وتطرب ، لفصاحة لهجته ، أم لغزارته مادته ، إلقاء غير محتفل به ولا متجمع له » .

وقد ألم فارس الخورى باللغات التركية والفرنسية والإنجليزية ، واستطاع أن يملك ناصيتها كما يملك ناصية اللغة العربية ويخطب بها فى المحاكم وفى المجالس النيابية بل انه تعلم الفرنسية بعد أن جاوز الخمسين وأصبح من خطبائها المعدودين ، وهو كاتب وشاعر ، له نثر فني وشعر رائع يضمه فى صفوف بلغاء العربية .

* * *

يقول : لقد أخذت خبرتى من الحياة ومن الـكتب ، وكانت عادتى باستمرار أن أتريث وأتفحص قبل أن أحكم على أى شيء ، وصدقنى أن حكمى لم يخب ولا مرة فى تقديره ، اننى أرى البريق الذى كان يومض فى خاطرى ، وأنا فى سجون الأتراك وفى معتقلات الفرنسيين ، انى أرى فيه العوض عن العـذاب والهول الذى عشته مع زوجتى من منفى إلى منفى ومن سجن إلى سجن » .

وقد حفلت حياته بمواقف حاسمة كان أشدها محاكمته أمام جمال باشا حاكم سوريا الذى علق أحرار العرب على المشانق عام ١٩١٦ فقد كشف ذلك عن جوهر نفسه، المتمثل فى الثقة والثبات : قال له جمال : إذهب إلى الديوان واثبت براءتك .

قال : إن البراءة أصل فعلى المدعى إثبات إجرامى ، لقد خدمت الدولة كاتباً ونائباً ولديكم مجلس حربى جمع كل شاردة وواردة من الجنايات والإرتباكات وعندكم أسماء ألوف من لكم فى أمانتهم ريبة ، فهل ورد إسمى فى كل ما أجريتموه من تحقيقات ، إن مثلى لا يسأل عن هذه الوشاية الملفقة ، لأنى أكبر من أن أسعى فى الظلام !

* * *

وإذا كان فارس الخورى واضح فى مجاله القانونى : أستاذاً فى كلية الحقوق ، فى علوم السياسة والإقتصاد فإنه كان قاسماً مشتركاً على مختلف أوجه النشاط الثقافى العربى : فهو عضو فى حلقة طاهر الجزائرى مع كرد على ورفيق العظم والزهراوى وشهبندر وسليم الجزائرى ، وهو واحد من مؤسسى المجمع العلمى العربى ، وهو المطلع واسع الاطلاع على علوم اللغة العربية وآدابها وتاريخ العرب والإسلام .

وعندما دخل الفرنسيين الشام كان استاذاً فى معهد الحقوق فى دمشق ، فحاولوا إقصائه إذ لمسوا فى محاضراته روح الإيقاظ والوعى عن طريق الدفاع عن الحقوق المسلوبة وقد ظل رجل قانون يعتمد على البيان والحجة والبرهان، بعيداً عن التملق ودون فرض رأيه وقد عرف بحبه للمطالعة والبحث ، وله إلى ذلك ذاكرة يقظى سريعة الحفظ ، تستقر فيها المعلومات ، فإذا هو قادر على إستعادتها متى أراد .

كان يجمع الأخلاق إلى الذكاء ، فى طابع من الإستقامة فى الحيـاة والاعتدال فى الرأى والعدالة فى الحكم وإستقلال الذات .

ولعل هذه الشخصية فى تـكوينها الرائع الذى أتاح لها التبريز فى كل مجالات الحياة ومكن لها العمل بنجاح فى كل مناصب الثقافة والسياسة : أستاذاً ، ومحامياً ونقيباً للمحامين ، ووزيراً ، ونائباً ، ورئيساً المجلس النيابى ، ورئيساً للوزارة ، ورئيساً لمجلس الأمن ، هذه الشخصية تحتاج إلى مزيد من إلقاء الضوء على شمائلها ، ولنعتمد على (جورج حداد) تلميذه الذى رافقه عن قرب فى رسم هذه الصورة .

فهو يرجع مكانته إلى الحرص والثقة : فهو حريص على صحته وماله وعمله وقوته ، حريص على الحق والصواب وغيرها من الفضـــائل التى كان لها اليد البيضاء فى رفعته فهو لا ينفق الدرهم إلا فيما يفيد ولا يضر وليس حرصه على ماله ومواهبه بحرص ضعيف يخشى الحاجة بل حرص عاقل يقدر الواجب.

« أما ثقته بنفســه فترفعه فوق شهوة الشهرة والامتداح ، وهو سيد نفسه بعيد عن الدعوى الفارغة والفضول ، وقد عرف باسـتقلال ذاتيته ، وله خصوصيات لا تدخل فى متناول غيره ولا يعرض بشىء من خصوصياته ، فلم يسمعه أحد يتحدث عن بيته أو عمله أو ماله ، وهو متواضع إلى أبعد حدود التواضع ، ولا يعرف التبذل إليه سبيلا . والذى يجملك تهيبه هو ذلك الحاجز المتين الموضوع بين ذاتيته وبين كل إنسان ، على أن تواضعه يعزز ذاته فهو لا يتصاغر امام جليس ، ولم يشعر أحد ممن جالسه بأنه أعظم منه ذاتية ، ولم يذكر له موقف ذل لدى كبير أو صغير ، ولذا كان على الدوام سيداً ومهيباً ، واثقاً من نفسه شاعراً بذاتيته ، محتفظاً بمكانته ، يتحدث عن سعة وفيض علم

واختبار ، لم يلامس مركب النقص نفسه فلم يحسد أو يزاحم ولا تحسر عن نعمة نالها غيره . » ا . هـ

* * *

ويقف فارس الخورى من الشريعة الإسلامية ونبى الإسلام محمداً ، موقف العربى الأصيل والمثقف الفاهم لعظمة هذا التراث البعيد المدى فى حياة البشرية والمسلمين (يقول) :

أن محمداً أعظم عظماء العـــالم ولم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأكملها . ان محمداً أورد فى شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علمـــاء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التى دعا الناس اليها باسم الله وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم .

« إن محمداً أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم ، فقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد أرقى دساتير العالم وأكملها » .

* * *

وله فى المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى وجهة نظر غاية فى العمق والسلامة حيث يقول :

أن المقايسة بين الشرع الإســـلامى والقانون الرومانى لا تستقيم بالنظر لاختلاف الهدف والسنة بين الشرعين .

فالأول : قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول .

والثانى : قائم على المصالح والمنافع الدنيوية .

وقد انبنى على هذا التحالف أن الأساس فى الشرع الإسلامى مصلحة الفرد فى الدنيا وفى الآخرة ، وفى الشرع الرومانى مصلح الجماعة فقط .

فالشرع الإسلامى لا يمكن أن يقول بسقوط الحق لأن الحق يبقى فى الذمة، والفرد لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء والإبراء مهما مر من الزمان على الحق ، ولذلك قال : إن الحق لا يسقط بتقادم الزمن ، ولم يكتف الشارع الإسلامى بتأمين مصلحة الدنيا بل استهدف مصلحة الآخرة ، فى حين أن الشارع الرومانى إتخذ الجانب الآخر وقال أن الحق المتروك يسقط والساقط لا يعود

ومما يستوقف النظر فكرة العدل الراسخة فى الشريعة الإسلامية : ومن ذلك هذه الأصول التى وضعت للنبذ فى الحرب ، فإذا فسخوا الصلح وأصبحوا فى حالة حرب لا يفاجزون خصومهم إلا بعد اعلامهم بالفسخ ومضى الوقت الكافى ليخبر باالملك رعاه فى أطراف البلاد وعند تخوم المسلمين حتى إذا هاجمهم هؤلاء لا يكونون مأخوذين على غرة وغفلة وهذه درجة من الإنصاف قصر عنها أهل زماننا ، فإن دول العصر الحاضر تبدأ بالهجوم وسائر أعمال الاعتداء حالما تعلن الحرب دون أن تكون مجبرة على الانتظار .

ومن ذلك قاعدة : عدم أخذ العامة بجرائر الخاصة فى تحميل المغارم أهل القرى بالجملة لأجل الجرائم التى يقترفها أفراد منهم « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ومن ذلك أيضاً : اعتبار خروج الشراذم من المعاهدين واعتداءهم على بلاد المسلمين بغير إذن ملكهم لا يعد نقضاً للعهد ولا يوجب العزم على الملك المعاهد أو على قومه بصورة عامة .

ومن مبادىء الشريعة الإسلامية : اجتناب قتل الأطفال والنساء وهو ما فاخرت به المدنية الحديثة .

* * *

لقد كانت حياة « فارس الخورى » خصبة عريضة فقد شهد عصر الأتراك وعصر الاحتلال الفرنسى وعصر الاستقلال .

وهو من مواليد (قرية الكفير قضاء حاصبيا) تعلم فى مدرسة صيدا ثم فى الجامعة الأمريكية وتخرج بها وعين مدرساً للرياضيات ثم أحرز اجازة بممارسة مهنة المحاماه ، وقدم إلى دمشق عام ١٨٩٩ واستقر بها وشهد حلقة طاهر الجزائرى ، وعاشر : القاسمى والبيطار والبخارى وكان صديقا لكرد على ورفيق العظم ، والزهراوى وشهبندر وسليم الجزائرى .

واختير نائباً فى البرلمان العثمانى ، وقبض عليه والى تركيا جمال باشا وسجنه مدة طويلة ، من سنة ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ثم أفرج عنه بعد أن تبين برائته مما اتهم به ، وفى أبان الثورة السورية عام ١٩٢٥ قبض عليه الفرنسيون ونفوه إلى جزيرة ارواد وسجنوه فى كهف منفرد وقد جمع فارس الخورى بين العمل الرائد فى المجالين السياسى والثقافى :
« فكان على اتصال بالشباب القوميين العرب منذ زمن السلطان عبد الحميد يعمل معهم حتى آخر الحكم التركى وطيلة مدة الانتداب الفرنسى على سوريا » فلما شارك فى العمل الوطنى كان لثقافته الواسعة وحجته القوية وبديهيته الحاضرة أثر فى الحركة الفكرية والاقتصادية ، فى مناصب الوزارة والمجلس النيابى وفى منظمة الأمم المتحدة .

وهو شاعر عده مترجموه من الفحول وله تخميس لنونية ابن زيدون المشهورة وله ملحمة شعرية من قصائد أربعة نظمها فى معركة ميناء أرثور عام ١٩٠٥ فى المعركة بين روسيا واليابان .

ومن أبيات شعره قوله فى أحد الأزمات السياسية التى مرت بوطنه :

كان التجلد فى البلوى يواتينى فماله حين أدعو لا يلبينى

ضاق الفؤاد بآلام تبرحني ... وفاجعات بنار الوجد تكويني
وطارد الهم فى عينى الرقاد ... وهل تنام مقلة موتور ومغبون
كيف السبيل إلى يوم تصح به ... جروح قلب برمح الجورمطعون
بل كيف يهنأ لى عيش ويسعدنى ... دهرى وتبعثنى الدنيا وترضينى
ومعشرى بين مطرود ومنتبذ ... عبر الفيافى ومصلوب ومسجون

* * *

ومن أبرز مواقف فارس الخورى صيحاته المدوية فى مجلس الأمن فى الدفاع عن قضية فلسطين والجلاء عن مصر ، فقد كانت خطاباته بما تحويه من بلاغة المنطق وبراعة القانونى تهز النفوس هزا .

* * *

وقد حقق فارس الخورى بنهجه الذى استنه لنفسه بالاعتدال والحرص ، الثقة والقدرة على التماسك حتى آخر أيامه فكان فى سن الثمانين كامل القوى الأخلاقية والعقلية ، لم يخرج عن منهجه ومبادئه واستقامته ، وظلت له مقدرته العقلية حتى يومه الأخير

توفى عام (١٩٦٢)

مؤلفات فارس الخورى :

أصول المحاكمات الحقوقية : دروس نظرية وعملية . دمشق سنة ١٩٣٦
مرشد الطالب فى صرف ونحو اللغة العثمانية سنة ١٨٧٢
موجز فى علوم المالية : دمشق سنة ١٩٢٤
وقائع الحرب سنة ١٩٠٦ : القاهرة مطبعة الأخبار
وله ملحمة وتخميس لنونية ابن زيدون الشهيرة .

فريد وجدى

مؤلف دائرة المعارف

١٨٧٦ — ١٩٥٢

نحن بازاء شخصية خصبة ، غاية الخصوبة ، عميقة غاية العمق ، شخصية مفكر وفيلسوف وباحث متجرد لفكرة واحدة عاش لها حياته كلها ، وما أطولها ، بعيداً عن مجالات الشهرة والتألق ، أو أحداث الدوى ، كأنما هو زاهد لا يتطلع إلى أى شىء فى هذه الحياة ، غير أمر واحد ، هو أن يقول كلمته . إنه من النماذج القلائل التى تظهر فى تاريخ الفكر الإنسانى ، بين آن وآخر ، لتكون مهيأة بالعقل والقلم على أداء دور كبير ليس على مسرح الحياة وإنما فى أعماقها. من أولئك القادرين على استيعاب مفاهيم عصرهم من أجل الدفاع عن دعوة إنسانية رفيعة يحملون لواءها مدى حياتهم . لا يصيبهم اليأس ولا التحول ، ولا تزيدهم الأيام والأحداث إلا قوة على الاستمرار ، فكأنما هذه الحياة عندهم مجرى طويل ممتد ، يبدأ أول أمره عادياً لا يلفت النظر ثم لا يلبث أن يزداد عمقاً وما يزال يمتد ويتسع حتى إذا أوفى على الغاية اكتمل وتضخم وأحال كل ما حوله خصباً وحياة .

كذلك كانت حياة « فريد وجدى » فى مطالعها قبل أن ينتهى القرن الماضى بخمس سنوات . شاب فى العشرين من عمره ، ولد فى الإسكندرية وتنقل بينها وبين دمياط ثم استقر فى السويس مع والده الذى كان يشغل منصب وكيل المحافظة بها . قد أكمل تعليمه فى مكتبة والده متفوقاً فى اللغة

الفرنسية ، وقارنًا بها ، مازجاً ذلك بثقافة عربية إسلامية أصيلة قوامها دراسات فى الأدب والعلوم والفقة والتاريخ والسنة والشرائع والقرآن ، موجهاً قلمه إلى قضية عصره : مواجهة تحديات الفلسفة المادية داعياً إلى الإيمان بالأديان، مقدماً إلى أهل عصره عصارة الثقافات القديمة والمستحدثة الشرقية والغربية على السواء، من أجل بناء ثقافة عربية إسلامية عصرية . وكان قمة عمله فى هذا « دائرة معارف القرن العشرين » .

وتجرى حياة فريد وجدى الطويلة العميقة التى امتدت قريب الثمانين عاما على أرجح الأقوال فى أربع مراحل كبرى :

* مرحلة بناء الشخصية .
* العمل الصحفى .
* الموسوعة والأعمال الكبرى .
* الصحافة الإسلامية ومجلة الأزهر .

مرحلة بناء الشخصية

أما فى المرحلة الأولى فقد أخذ فريد وجدى يكتب رسائله التى تتناول الكون وإثبات وجود الله ، وتطبيق الديانة الإسلامية على النواميس الحديثة . وفى هذه المرحلة أصدر عدداً من المؤلفات ، كما أصدر (مجلة الحياة) التى كان يضمنها هذه الأبحاث على هيئة مقالات ثم يعود فيصدرها فى مؤلفات .

وتتسم هذه المرحلة بوضوح الفكرة وعذوبة الأسلوب والقدرة على الأداء فى مجال الدراسات الروحية والدينية والإسلامية على نحو عصرى ، يختلف اختلافاً واضحاً عما كان عليه أسلوب الكتاب فى اللغة العربية فى هذه المجالات . ولقد أفاد من طريقة الشيخ محمد عبده ومنهجه فى فهم الإسلام وزاد أنه

استطاع أن يستشهد من كتابات الغربيين بما يذهب إليه من وجود الخالق وفضل العرب والمسلمين على الحضارة الحديثة . غير أنه فى نهاية هـذه المرحلة أخذ نفسه بعملين موسوعيين كانا علامة على طريقته فيما بعد ، هو كتابه « كنز العلوم واللغة » الذى أصدره عام ١٩٠٥ وحشد فيه طائفة من عصارات الآداب والعلوم والفنون والفلسفات التى تضمها الموسوعات الكبرى واستفاد فى إعداده من الموسوعات العربية القديمة ودائرة معارف لاروس ، ثم كتابه (صفوة العرفان فى تفسير القرآن) وهو تفسير مختصر للقرآن يشرح على كل صفحة منه كلماته ومعانيه فى إيجاز ويسر .

العمل الصحفى

ثم لم يلبث فريد وجدى أن انتقل إلى المرحلة الثانية وهى العمل الصحفى وذلك بإنشائه عام ١٩٠٧ جريدة « الدستور » التى عاشت بضع سنوات وتوقفت عام ١٩١٠ ، وكانت مدرسة جديدة فى الصحافة اليومية من ناحيتين : من ناحية كرامة الكلمة وارتفاعها عن السجال الهدام والجدل المغرق فى الهجاء ، ومحاولة إدخال شذرات مختلفة من الصحف العالمية عن الحضارة وتطور العلم والمذهب والأفكار الحادثة فى الغرب بأسلوب سهل مبسط يقربها للقارىء . كما قدمت الدستور عدداً من الكتاب كان فى مقدمتهم الأستاذ العقاد الذى عمل فى هـذه الصحيفة محرراً أساسياً طوال فترة حياتها .

الموسوعة :

ولم يلبث فريد وجدى أن أوقف صحيفته ، حيث لم تطاول نفسيته — السمحة المطبوعة على الدراسات العلمية — العمل الصحفى فى اضطرابه ومشاقه وأساليبه المختلفة ، وعاد إلى فطرته فى العمل الموسوعى والعلمى بعد أن كسب

من وراء العمل الصحفى اليومى شهرة واسعة فى العالم الإسلامى كله . كانت ذاتها تعميقاً لعمله الفكرى وامتداد له . ولم يلبث بعد أن واصل أيامه فى مشروعه الضخم « دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى والعشرين الميلادى » فانتهى منها عام ١٩١٨ وكان يواصل إصدارها على أجزاء صغيرة باشتراكات زهيدة ومن أجل دعم هذا المشروع اشترى مطبعة خاصة أطلق عليها مطبعة (دائرة معارف القرن العشرين) ثم أعاد طبعها بعد ذلك عام ١٩٢٣ ، مما أكد مدى أهميتها فى هـذه الفترة كمرجع سريع منوع لثقافات العصر والسلف ممتزجة مرتبطة من وجهة نظم عربية تؤمن ببناء الفكر العربى الحديث على أساس من قيمه ومفاهيمه مع انفتاحه لتقبل كل جديد وحادث فى مجريات النهضة وتطور الحضارة الإنسانية .

وفى هـذه المرحلة ملأ فريد وجدى الدنيا وشغل الناس ، فقد كتب فى مختلف الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية وفى مقدمتها « الأهرام » و « المقتطف » و « الهلال » وعالج عشرات من القضايا ، وواجه مختلف تطورات العصر الفكرية والسياسية والإجتماعية ودخل كثيراً من المساجلات والمعارك فى إعتزاز بالعلم وترفع عن الكلمة النابية ، وكان خط فكره فى مختلف كتاباته « تغليب العلم والعقل وفق مفهوم الإسلام على ما سواهما » .

الصحافة الاسلامية

وفى عام ١٩٣٣ بدأت المرحلة الرابعة من حياته وهى إشرافه على تحرير مجلة « الأزهر » . وكانت تسمى (نور الإسلام) ثم أبدلت باسم مجلة « الأزهر » وقد إمتدت هذه المرحلة حتى عام ١٩٥٢ ظل خلالها دائباً على العمل فى ذلك المجرى الذى يتصل بدراسته وفكره . وقد قدم فى هذه المرحلة ما يقرب

من خمسمائة بحث ، فقد كان أحياناً يكتب مقالين أو ثلاثة فى العدد الواحد .
وأبرز أعمال هـذه المرحلة هى إهتمامه بموالاة كل ما يكتب عن الثقافة العربية والإسلام والشرق والروحية فى صحف الغرب ، وفى مؤلفات كتّابه ، فيعرض له وينتفع به فى مجال دعوته إلى الروحية ومقاومة الفلسفة المادية أو يرد على ما فيه من شبهه أو خطأ .

وفى خلال هذه الحياة الفكرية العقلية لفريد وجدى التى بدأت عام ١٨٩٦ بكتابه « الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان » وانتهت عام ١٩٥٢ بآخر مقال له فى مجلة « الأزهر » ، تبدو صورة باهرة لعمل ضخم امتد خلال سبعة وخمسين عاماً لم يتوقف ولم يفتر من أجل رسالة التنوير واليقظة وبناء الفكر العربى الإسلامى المعاصر على أساس العلم والعقل . ومقاومة الجمود من ناحية ومقاومة المادية من ناحية أخرى ، ورد هذا الفكر إلى مقوماته الأساسية التى تمتزج فيها الروح والمادية والعقل والقلب .

ولم تكن مؤلفات فريد وجدى المنشورة باسمه وهى تربو على عشرين كتاباً هى كل آثاره وإنتاجه بل ان آثاره المطمورة فى بطون الصحف والدوريات لتزيد على هذا القدر . ولعلها أكثر أهمية وخطراً . فقد اتصلت بالقضايا الفكرية واليومية التى دارت فى العالم الإسلامى خلال هـذه الفترة من حياته ، فقد شهد حربين عالميتين وتابع تطور الفكر الإنسانى فيما قبل القرن العشرين وخلال نصفه الأول متابعة راشدة يقظى ، من خلال زاويته الإنسانية الروحية ، المدافعة عن الدين ، المشدودة إلى حاجة البشرية إليه ، المتخذة من سلاح العلم والعقل وسيلتها إلى كل رأى تراه ، أو وجهة نظر تصل إليه .

فإذا أضيف إلى هذا موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين) التى

صدرت فى ٨٤١٦ صفحة فى عشرة مجلدات وضمت آلاف المواد فى العلوم النقلية والعقلية والكونية وتاريخ المذاهب والتفسير والحديث والتاريخ العام وتراجم مشهورى الشرق والغرب والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخصائص العقاقير والاحصاءات، تبين مدى هذا الجهد الضخم، الذى استطاع به باحث فرد دون معونة من أى نوع أن يقدم هذا العمل للفكر العربى المعاصر فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن. ومازالت هذه الموسوعة مرجعاً حيا نافعا إلى اليوم.

ولا يمكن أن تكتمل صورة هذه الحياة العريضة الخصبة التى إمتدت طولا وعمقاً إلا حين نواجه « شخصية » هذا العالم الباحث السمح، وحياته المضطردة كالنهر الجارى، لاصخور ولاجنادل، حيث تتمثل من خلال شخصيته مفهوم صاحب الرسالة الذى يقول كلمته ولا يطلب عليها أى جزاء، لا من الشهرة ولا من المادة، بل ربما ينفق عليها مما يملك حتى تصل إلى الناس. ولطالما فعل ذلك « فريد وجدى »، ولقد أتاحت له بعض الموارد التى كان يملكها أن يرتفع فوق مطالب الرزق الماسة، ومطالبه العاجلة. وكان فى أغلب أمره عازفا عن ترف الحياة مكتفياً بالقليل الذى يقيم الأود وفق فلسفة صادقة الإيمان بالمذهب النباتى، وبإيمان كامل بأن المفكر والكاتب يكفيه مثل زاد الراكب حتى يظل عقله يقظا محرراً من أبخرة الأطعمة التى تفسد عليه منطلق فكره. ومن هنا كان ذلك الإستعلاء الرفيع المتواضع — إن صح هـذا التعبير — عن مطالب الحياة، ومجالسها ومناعمها، مكتفياً فى ذلك بمتاع الفكر وغـذاء الثقافة، وفى مجالها لا يبخل بشىء على شراء ما يستحدث من أبحاث العلوم والمعرفة. كما عرف بتنظيم حياته تنظيما دقيقاً، فى مواعيد طعامه ونومه ويقظته وكانت رياضة المشى من الأمور الأساسية فى حياته لا يتخلف موعدها. وكان

غير مسرف ولا شحيح ، ولـكن إعتدال واضح ، وتوسط وسماحة فى كل أمر ، وكذلك كان فى كتاباته وآثاره ومعالجته للأمور . ومن عجب أنه كان غاية التواضع مع كل من يعرف ويعامل . يقابل زائره واقفا ولو كان عامل المطبعة . وكان مجلسه يضم عشرات من المثقفين والإعلام ، ويزوره كثير من أبناء العالم الإسلامى ، وقد عاشت معه زوجته التى قضت قبله بقريب من عام ، دون أن ينجبا ذرية ، وكان له فى مجال الإنجاب الفكرى خير عوض .

وقد كان للنهج الذى سلكه فريد وجدى فى حياته ، نهج الاعتدال فى مقارفة الحياة ، أبعد الأثر فى تلك القدرة الوافرة على العمل العقلى حتى الأيام الأخيرة من حياته ، وما تزال كتاباته فى الأعوام الأخيرة تـكشف عن تألق هذا العقل وقدرته على المتابعة والبحث والعمل . وهذا فى بابه غاية العجب إذ لم تطرد القاعدة فيه للكثير من المعمرين ، وقلما عرفنا معمرا استطاع أن يستمر قادراً فى مجال العقل والبحث كما نجد فى فريد وجدى ، وليست العبرة بطول العمر ولـكن بالقدرة على العمل العقلى فيه . ولقد شهدنا معمرين انتهت حياتهم الفكرية قبل فريد وجدى بأكثر من عشرين عاما ولم تـكن لهم بعدها آثار أو دراسات .

وقد كان فريد وجدى مؤمنا بحاجة المفكر إلى تخليص (دماغه) للعمل الذهنى ، ومن هنا حرر نفسه من قيود كثيرة . أهمها قيود العمل الوظيفى الذى رفضه فى أول حياته وقيود العمل الرتيب فى الصحافة ، وهو عمل شاق مرهق يقتل الأعصاب ، ومن ثم فقد أمضى حياته منطلقا إلى غايته فى البحث عن المعرفة والتماس الحقيقة ، فيلسوفا لا يذهب مذهب الاغراب ، وباحثا لا يستعلى بعلمه ، ومساجلا سمحا ، ما أن يدخل فى جدل مع كاتب أو باحث حتى تراه مثلا عاليا للخلق والإنصـــاف ، فهو يستقبل باحثه بالتحية ، ويعرض آراءه فى تلخيص واف

أمين يسبق به الرد عليه، ثم يرد على كل جزئية ، دون أن يثير حفيظة أو يبدو فى مظهر الإستعلاء ، حتى استطاع بهذا المنهج أن ينتزع من أكبر المصاولين المجادلين عنفا وهو الدكتور زكى مبارك ، قوله: « لا يسعنى إلا أسداء الثناء للاستاذ وجدى على أسلوبه فى الجدل . ذلك الأسلوب المهـــذب من شوائب الفرض والعناء وتلك سجية عرفناها له منذ أمد بعيد » .

فهذا التمديد لأعصابه وتحريرها من اندفاعات الصراع كان بالغ الأثر فى قدرته على الاستمرار طوال عمره على العمل الذهنى المستمر ، فضلا عن زهده فى مطامع الجاه أو الشهرة أو المنصب أو إحداث الدوى . وهو فى هذا المجال يرقى إلى مجال الزهادة فى المظهريات ويقابلها بإيمان عميق فى الخبريات والجوانيات، مع إيمان راسخ ، لا يخالجه شك ولا قلق ، بأن الإنسانية مقبلة على دعـــوة غالب عليها إيمان الفطرة بالله والروحية هى دعوة الإسلام . وأن البشرية لن تقف عند مطارف الحضارة وزخارفها ، ولـكن حقائق العلم ستغلب آخراً أخطاء الحضارة فتدفعها إلى الإصالة وتحول بينها وبين الانهيار .

وقد عاش فريد وجدى حياة بسيطة ممتدة ، لا نتوء فيها ، ولا أحداث بارزة ، حياة عالم باحث متجرد ، لا تعرف له رحـــلات واسعة ولا تقلبات ضخمة ، ولا اصطدامات بأهل عصره ، أو اندفاعا فى مجال الصحافة أو الصراع السياسى . كان يمر عليه الصيف بقيظه لا يغادر القاهرة ، وقلما يذهب إلى ثغر من الثغور . وقته كله ملك للعلم والمعرفة ، أمامه كتابه وقلمه ونظاراته ، يقرأ ويبحث، لا يضيق بالوقت الطويل أو العمر الممتد وله وقت راحته ووقت عمله. وكانت له مراسلات واسعة مع أعلام الفـكر فى العالم الإسلامى وكثير من الباحثين من الغرب ولطالما كانوا يرسلون اليه بعض إنتاجهم فينظر فيه ويبدى ملاحظاته . كما كان حفيا بكل ما يكتب فى باب الروحيات والدين فى الفـكر الغربى ، يكاد يشترى من الـكتاب نسختين من باب الاحتياط ، ويشترى كل

طبعاته ويراسل أعلام هذه الدراسات مؤمنا بإنسانية الفكر البشرى فى سبيل دعم الحضارة بالدين والتوفيق بين الدين والعلم ، وكان له تلاميذ يأخذون مذهبه فى الفكر الإسلامى ومذهبه النباتى وفى مقدمتهم المهندس المؤمن محمد توفيق أحمد صاحب دار تبليغ الإسلام وصحيفة « البريد الإسلامى » [1].

كان « فريد وجدى » ولاشك رائد مدرسة فكرية عصرية ، تجمع بين القديم والجديد والشرق والغرب ، والحضارة والدين وتحاول أن تزاوج بينهما على منهج جديد يختلف عن منهج الباحثين من رجال الدين أو العلم على السواء. ويمكن أن يقال أن كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومحمد أحمد الغمراوى ومحب الدين الخطيب فى هذا المجال هى امتداد لمنهجه واستمرار لفكرته .

ولا يضير فريد وجدى أنه أمضى أكثر من نصف قرن يعمل فى حقل واحد ، ولا ينقص ذلك من قدره ما دام ذلك الحقل واسعا عريضا عديد البذور والأثمار ، يستقبل جهود عشرات من الباحثين والدارسين ، موذعاً حيا ليس بالطريق المسدود .

---

(١) عندما اعددت رسالة فى (أعلام العرب) عن فريد وجدى أمدنى المهندس محمد توفيق أحمد بفيض ذاخر من آثار استاذه وفى مقدمتها اجابة عن أكثر من سبعين سؤالا عن حياته الشخصية ، وما يزال كتاب فريد وجدى منذ عام ١٩٦٦ رابضاً فى أضابير إدارة أعلام العرب مع الأسف

مدحت

أبو الدستور العثمانى

١٨٨٣ — ١٨٧٦

* « لقـــد ولدت عارى الجسد وسأموت عارى الجسد وذخيرتى أنى عاهدت الله ألا أقول إلا الحق ولو أوصلنى إلى مثل ما إلاقيه الآن من الشدائد » .

* * *

سبق زمانه . وأتاحت له الفرصة أن يحقق الإصلاح فهو من بناة الدول الذين لم يتوقف عملهم على رسم الخطوط والدعوة إلى التطور والتجدد والتقدم ولـكنه حقق الإصلاح عملا وانفذه نظما ومشروعات كانت بعيده المدى فى دفع الظلام وكشف الظلم وإيقاظ الروح الهامدة ، وإيقاظ الحياة القائمة فى الشرق غير أن قوى الشر كانت أقوى منه ، لذلك حطمت كل ماصنع ، وبددته فى الرياح وقد كان ذلك باكرا ، قبل منتصف القرن التاسع عشر ..

عندما كانت الإمبراطورية العثمانية دولة الخلافة تمر بأقسى مراحلها ،وقد أوغل الإستعمار فى الشرق والعالم العربى يسيطر ويحكم ويحتل ، وقد وقعت الجزائر تحت سلطانه الفعلى ووقعت الإمبراطورية تحت سلطان نفوذه عن طريق قناصله وإمتيازاته وتجاره وغزوه الإقتصادى والسياسى فى ظل حياة راكده امتدت ثلاثة قرون انقطعت فيها صلة الشرق بالغرب ، وانقطعت فيها

صلة العـــالم الإسلامى بنفسه فأغنى وألقى سلاحه واستسلم لضعف الخلافة والأمراء وسلطان الإقطاع والظلم وعدوان الجهل والأمية وقفل باب الاجتهاد وغيبة التقليد والبدع والأهواء واستسلام العلماء للحكام .

* * *

وإن كان مدحت هو « أبو الدستور » فى تركيا فإنه روح الفـكر الدستورى فى الشرق والعالم العربى والإسلامى كانت صيحته جديدة ومثيرة ، ودعوته سابقة للزمن ، لولا انحراف عنيف إلى الفـكر الغربى وولاء له ولولا حده طبع ، وقلق شعور ، واندفاع دون حيطه ، وكل هذا حال دون التوثق من الأمور قبل الأقدام عليها ، ودون الخروج من المآزق قبل الوقوع فيها . فقد استطاعت مطامع الصهيونية الباكرة أن تنفـذ إلى فـكرته ودعوته وتحتويها ممثلة فى الدونمة الطامعين فى إسقاط الدولة العثمانية .

* * *

ثلاث مراحل فى حياة « الحافظ أحمـــد شفيق » الذى غلب عليه اسم «مدحت» وهى حياة غنية بالخبرة والعمل والرحلة والتطلع إلى الآفاق . فقد بدأ من السلفح « مأموراً » فى الولايات حتى بلغ مرتبة « الصدر الأعظم » وعمل فى خلال ذلك حاكما فى البلغار والطونه وبغداد ثم سوريا ، وسائحاً فى باريس ولندن وبروكسل وفيينا . وأتاح له ذلك النبوغ كله «عقلا» إدرايا مرنا فعرف ببراعته فى السياسة والإدارة والتنظيم وقدرته على الإصلاح والإنشاء فقد شق الشوارع وبنى الجسور والقناطر وأنشأمدارس الصنائع والفنون، وبنى المستشفيات ورمم السفن ووسع الأرض المزروعة .

وفى بغداد وقد طال مقامه أجرى إصلاحات تدل على إيمانه بالترقى وقدرته على العمل ، غير نظام ملكية الأرض للدوله بعد أن قسما لأرض إلى قطع وباعها للبدو . وحقق بذلك دخلا كبيرا للدولة وقلل من التمرد، وزادمن غلة الأرض.

وانشأ خط ترام بين بغداد والقاظمة ، وانشأ مصنعاً للنسيج ، وانشأ مطبعة وأصدر جريدة الزوراء الرسمية وشكل مجالس بلدية فى أهم المدن وذلك بالاضافة إلى المدارس والمستشفيات والملاجىء .

وقد كانت تجربته هذه بعد أن بلغ الخامسة والأربعين ، صورة لما بلغه فكره من إيمان بالإصلاح ، هذا الإصلاح الشامل المتكامل فى خلال السبعينات من القرن التاسع عشر وقد جعل قوامها الصحافة والتعليم والصحة والزراعة والمواصلات .

وفى كل قطر ، كان مدحت ذلك المصلح الذى يبنى المستشفيات ويبنى الجسور ويفتح المدارس . ويقضى على الفتن والعصاة ومثيرى الدسائس ويزيد إيراد الدولة ويوحد الطوائف ويقر العدل ويقضى على الفرقة بين المذاهب والأديان ويحل المشاكل وكان ذلك ثمرة قراءته ورحلاته وتجاربه .

* * *

ويمثل هذه الروح وهذا الإستعداد اتجه مدحت إلى المرحلة الثانية والخطيرة من حياته ؛ مرحلة « الصدر الأعظم » حيث تولى هذا المنصب الخطير مرتين الأولى ١٨٧٢ والأخرى ١٨٧٦ .

وفى المرة الأولى حاول « مدحت » إيقاف الفساد الذى كان قد أشترى نتيجة لإسراف السلطان عبد العزيز ، فلما أرتفع صوته اقصاه السلطان وأمر بنفيه إلى أدرنه لولا أن سانده مؤيدوه من الأحرار والعلماء ثم عاد فتولى وزارة العدلية ، غير أن إزدياد الفساد حال بينه وبين الإستمرار فى العمل فاستقال عام ١٨٧٤ وأعتزل .

وكان ذلك إيذاناً بالخطر فقد هدد الإفلاس الدولة التى بلغت ديونها فى عهده إلى ٢٥٠ مليون ليره أنفقها فى بناء القصور والإسراف فى اللذات ، ولم يكن مدحت قد إعتزل قبل أن يجبه السلطان برأيه ، هذا الرأى الحر الجرىء الذى أغضب السلطان .

« لا يخفى على جلالتكم أن الدواء الشافى لهذه العلة هو اجتثاث أسبابها التى نعرفها حق المعرفة ، فإذا أزيلت الأسباب زال المرض ، فإذا أصدرتم خطا همايونيا جديداً حتمتم به أتباع القوانين والنظم والمساواة بين الغنى والفقير والكبير والصغير فى نظر القانون وأرجعتم المنشئات الخيرية إلى أصلها ، وصرفتم الأموال فى سبيل ما خصصها له الواقفون وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالى ، والوزراء ولم تستأثروا بشىء من حقوق الدولة ، وجعل الوزراء مسئولين عن نتائج أعمالهم وحتمتم ذلك على خواصكم ، إذا تم ذلك وصلت الدولة إلى الطريق . . »

وكان لصيحة مدحت صدى ، ولذلك كان منزله وجهة الأحرار عندما تأزمت الأحوال حيث توالت الاجتماعات للتفكير فى وسيلة لإنقاذ الدولة ،

وكان قادة الرأى وعلماء الدين يجمعون على خلع عبد العزيز ، فلما إنضم إليهم الجيش بقيادة حسن عونى ، تحقق إنفاذ هذا الإجراء وأصدر شيخ الإسلام فتوى « خلع السلطان » .

وكانت حجتهم فى ذلك أنه قام « بإنفاق الأموال الأميرية فى مصارفه الخاصة على درجة لا طاقة للملك ولا للمملكة على تحملها . وأخل بالأمور الدينية والدنيوية .

ونودى بالسلطان مراد وهو الذى أخذ الأحرار عليه المواثيق أن يعلن الدستور الذى أعده مدحت وزملائه ، غير أن مراد لم يلبث أن أصيب باضطرابات عصبية . ووقع أبان ذلك حادث انتحار عبد العزيز المخلوع ، بأن قطع أوعية يده بموسى وقرر الأطباء أن الموت إنما كان بالانتحار (٤ يونيه ١٨٧٦) .

وكان اضطراب عقل مراد مدعاة إلى عزله وتولية عبد الحميد . .

وقد اختار مدحت وزملائه وسيلة « أخذ المواثيق » وهو أسلوب سهل على الحاكم تقبله والوعد به وقت توليه ، وقد كان ذلك من أخطاء مدحت التى جنت عليه من بعد وأودت به .

وقد قبل عبد الحميد المواثيق قبل مبايعته (١) بأن يعلن الدستور (٢) وأن لا يستشير فى أمور الدولة إلا مشيريه المسئولين (٣) وتعيين رجلين من الأحرار سكرتيرين خاصين له .

— ٣ —

كان تعيين عبد الحميد بداية معركة ضخمة بين « دهاء » عبد الحميـــد و « حماسة » مدحت فقد ظن مدحت أنه صاحب يد على الخليفة الجديد وأنه لذلك سيمضى فى الطريق الذى رسمه الأحرار فى نقل الحـكم التركى من النظام التقليدى إلى الحـكم النيابى الدستورى .

وقد تمت فى أول الأمر مراسم إعلان الدستور وقيام الحياة النيابية ، ولـكن ذلك لم يكن أسلوباً للمرور من الأزمة التى أحدثتها الدول الغربية إزاء موقف تركيا من الطوائف غير الإسلامية .

وبدأت الأزمة بين الرجلين منذ اللحظات الأولى فقـــد قدم مدحت الدستور إلى عبد الحميد الذى راجعه وحذف وأضاف ، ثم عدل المادة ١١٣ من الدستور وأضاف فقرة تعطيه الحق فى النفى إلى خارج المملـكة .

وعين مدحت فى ١٩ ديسمبر عام ١٨٧٦ صـــدراً أعظم حيث أعلن القانون الأساسى وعقد مجلس المبعوثان . وأعلن الدستور رسميا فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦ .

ولم يلبث أن اختلف الرجلان ، فعين عبد الحميد من أراده فى مناصب قيادة الجيش ورئاسة الياوران وبذلك سيطر برجاله على الحـكم . ووقع الخلاف حين إعترض على المسودة التى كتبها مدحت لخطبته السياسية فى شأن العمل بالدستور وأجل من نصوص الدستور :

١ — قبول النظام الدستورى وإعلانه فى البلاد .

٢ — تخفيض نفقات القصر .

٣ — تأليف لجنة من الوزراء وعلماء الحقوق لوضع مشروع قانون يضمن للبلاد الحياة الدستورية .

٤ — تأسيس مدارس عامة يلتقى فيها أبناء البلاد على اختلاف مذاهبهم.

٥ — إلغاء الاتجار بالرقيق وعتق عبيد القصر وجواريه كما عارض (عبد الحميد) إتجاه (مدحت) فى إلغاء نظام الترثية الإسلامى وإقامة نظام غربى مشترك لمختلف العناصر وإدخال غير المسلمين فى المدارس الحربية . كما عارضه فى تعيين ولاة مسيحيين .

وأحس مدحت بأن الخطة التى رسمها لتغيير الحكم فى الإمبراطورية العثمانية تجد معارضة وتحول العوائق من كل ناحية دون تحقيقها . وكان عبد الحميد فى موقفه بالتسويف وتأجيل كل ما يعرضه مدحت ، فى الوقت الذى يعمل مدحت جاداً على دفع عجلة العمل الكبير الذى أراده إلى الأمام ..

هنالك لم يتمالك مدحت أعصابه بعد أن تعهد له السلطان بالعمل نحو إقامة الحياة الدستورية على النحو الذى يجنب تركيا أخطار الإستبداد الذى سيطر به السلطان عبدالعزيزعلى أزمة الحكم فى البلادمما أدى إلى أخطار كبيرة .

لذلك وجه إلى عبد الحميد خطابا خطيراً يعد من أهم الوثائق فى حركة الاتحاديين قال :

يتحتم على جلالتكم قبل كل شىء أن تعرفوا واجبات السلطان كى نستطيع التخلص من داء التملق الوبيل الذى عود شعبنا الدناءة منذ أربعمائة سنه . وتدهور البلاد إلى دركات الإنحطاط .

أنى احترم شخص جلالتكم غاية الإحترام ، ولكن هذا الإحترام لا يمنعنى من مخالفتكم حتى فى أتفه الأمور التى آراها ضارة بمصلحة بلادى .

لأن مسئوليتى عظيمة جداً وأنا أخاف من ضميرى .

ولا يخامرن قلب جلالتكم الشك فى الحقائق التى أعرضها عليكم فإن العثمانيين يجب أن يكونوا قادرين على إصلاح أنفسهم بأنفسهم . وهل تعرفون ما معنى النظام فى الشعوب الدستورية ، إن الجواب على هذا السؤال بسيط جداً لا يحتاج إلى إيضاح أو تفصيل . وهو : ثقوا بى وببقية الشعب .

مضت تسعة أيام على مقترحاتى التى أهملتم أمرها . وأنى أراكم ترفضون الأنظمة التى هى أشبه شىء بالأدوات الضرورية للعامل ، والعمل لا يتم بلا آلة أسمحوا لى أن أقول : أنكم بعملكم هذا تعملون على هدم بناء الدولة فى الوقت الذى نعمل نحن على ترميمه . لم يكن غرضنا من إعلان القانون الأساسى إلا محو الإستبداد وتعيين مالجلالتكم من الحقوق ، وما عليها من الواجبات وتعيين وظائف الوكلاء ومسئولياتهم وتأمين حياة الناس على حريتهم حتى تنهض البلاد فى معارج الإرتقاء » .

وبالرغم من عنف هذا الخطاب فقد تلقاه عبد الحميد فى هدوء وأرسل يستدعى مدحت ليتفاهم معه وقد كان الخلاف بينهما عميقاً هو خلاف بين منهجين أحدهما يستمد من مفهوم الوحدة الإسلامية والآخر يرمى إلى إلقاء تركيا فى أحضان الغرب وكانت الباخرة «عز الدين» فى مرسى « ضولمه بغجة » فى إنتظاره لتحمله إلى منفاه . حيث نقل إلى برنديزى فى إيطاليا .

وأعلن أن « مدحت » قد أخل بامانته للدولة وإن للسلطان الحق فى نفيه طبقاً للمادة ١١٣ وقالت جريدة الجوائب أنه قد ضبطت أوراق تدل على خيانته.

- ٤ -

وفى منفاه ظل « مدحت » يعمل لمصلحة بلاده ، أجرى مفاوضات كثيرة للصلح بين روسيا وتركيا بالرغم مما كان يقاسى من الفقر والمسغبة فقد ظل كريما عزيز النفس مما دفع السلطان إلى استدعائه . فقد نقل سعيد باشا الصدر الأعظم إلى مدحت رغبة عبد الحميد فى العودة وكان قد حاول استعطاف السلطان بما يقاسيه من فقر وبؤس فى منفاه :

وغضب مدحت ، وكان حفياً بكرامته ، وأرسل إلى الصدر الأعظم يؤنبه « لقد عبرتم للسلطان عن حالى بأنها حال بائس ، ينتقل من بلد إلى بلد » تستدرون بذلك شفقته ، وهذا وصف لا يوصف به إلا آفاق فاقد الشعور ، لا رجل مثلى عمل ما عمل وتولى الصدارة بجدارة ، وأنا كما وصفتم من أسباب عيشى وفقرى ، فقد أقترضت عشرة آلاف فرنك فنفذت ، وأنا اليوم أسعى إلى قرض جديد أسد به رمق أسرتى فى الآستانة ولكنى فخور بذلك ، فقد ولدت عارى الجسد وسأموت عارى الجسد وذخيرتى أنى عاهدت الله ألا أقول إلا الحق ولو أوصلنى إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد . وما الذى فعلت من إجرام حتى أطلب العفو . لقد سعيت فى تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز فلما مرض سعيت أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد ، وكان جلوسه مقروناً باعلان الدستور ووضع خطة الإصلاح . ومنذ خروجى من الآستانة وأنا أفكر فى الدولة وفى سبيل إنقاذها من المهالك ولا أفكر فى نفسى . فماذا فى هذا مما يعتذر منه . . »

وعاد مدحت إلى الآستانة وأرسل إلى كريد ثم نقل إلى سوريا . وفى كل مكان ذهب مدحت عمل فى سبيل الإصلاح . وفى سوريا أنشأ

المدارس والمستشفيات وفتح الشوارع وجمع العناصر وألف القلوب ووحد بين المذاهب والأجناس وأطلق حرية المطبوعات ..

وكان عهده استهلالا لمطالبة العرب بالإستقلال ..

ولكنه كان لا يكتم رأيه ، ويقول كلمته فى جرأة ، ويجاهر بانتقاد «المابين» . ولذلك نقل إلى ولاية أزمير خشية أن ينفرد بحكم سوريا أو يعلن نفسه ملكا عليها .

— ٥ —

وجاءت النهاية . . فقد أثيرت مسالة مقتل السلطان عبد العزيز ، بالرغم مما تأكد من موته منتحرا . وجرت إشاعة تقول أنه قتل فى بيت مدحت وأعيدت قضيته إلى التحقيق .

وكان على مدحت أن يختار بين الإلتجاء إلى أوربا أو السفر إلى الآستانة للمحاكمة .

وقد حاول الأولى ولم يوفق . وكانت محاكمة صورية أريد بها القضاء على مدحت وحكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم إلى النفى إلى « الطائف » .

ولما توفى أسدل الستار على حياة رجل من رواد الإصلاح فى العالم الإسلامى الحديث ، ذلك أن مدحت كانت له وجهة نظر فى الاصلاح وبالرغم مما وجه إليه من اتهامات وصلت إلى حد القول أنه من الدونمه فقد كان مؤمناً بالعمل فى سبيل تحرير الأمة العثمانية بتوجيهها نحو الغرب . . وقد أثار اتجاهاً جديداً فى أفق الشرق والعالم الاسلامى وسرت دعوته فى الآفاق وتأثر بها جمال الدين الأفغانى وكان عمله للمطالبة بالدستور .

وقد كان مدحت ذكى الفؤاد ، ولكنه كان حاد المزاج ، عرف بالحزم والهمة وكراهية الاستبداد ، ولقد كانت دعوته من أخطر الدعوات حين طلب إلى الخليفة السلطان خاقان البرين ظل الله فى الأرض ، صاحب الأمر والنهى الذى لا يعارض ، أن ينزل عن سلطانه وتوقف عنه الأموال المتدفقة ، وإن تحد حريته ، ولا ينفذ من رغباته إلا ما يقره البرلمان ، وهو شىء خطير ، لم يكن فى الامكان تحقيقه على هذا النحو من العنف الذى إرادة له مدحت ، وقد كانت دعوته فى حاجة إلى مطاولة وعمل يصل إلى القلوب على أماد واسعة وجهد ضخم فى بث دعوته وتشرب القلوب لها .

ولم يكن مدحت من المؤمنين بالنقل الكامل لقوانين أوربا بل كان يرى حاجة الأمة وروح العصر وقدرة التطور ، كان يرى « أن أخذ القانون من أوربا ووضعه لنا لأنه أفادهم ، يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنسيج وجلبها الى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من سرعتها » وكان يؤمن بتدريب الرجال وإلقاء أزمة الأمور اليهم بالتدريج .

وقد رفض منح الخديو إسماعيل عقد قروض من الدول الأجنبية وقال أن هذه القروض ستضيع استقلال مصر وتدخل الأجانب فى شئون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم .

وصور مدحت الفساد الذى وصلت اليه الدولة حين أشار إلى : « أن التبذير فى الدولة قد بلغ درجة لا تطاق . فنظارة المالية ترسل الأموال إلى المابين فيصرفها السلطان والنظار يبيعون الوظائف بيع السماح فالوالى يشترى وظيفة من الصدر الأعظم ، ويذهب إلى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم ، حتى خربت الولايات ووقعت الدولة فى أزمة شديدة ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية وتبديلها يكون بإنشاء مجلس نيابى .

وجعل النظار مسئولين أمام هذا المجلس على أن يكون هذا المجلس قومياً فلا يفرق فى انتخابه بين المذاهب والعناصر . وأن يوضع الولاة فى الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثون بمصالح الرعية . . »

وإذا كان مدحت قد حمل لواء الإصلاح فى الدولة العثمانية فإنه قد تجاهل خطر النفوذ الأجنبى بل وعاون هذا النفوذ الراغب إلى تمزيق الدولة العثمانية كأكبر قوة تقف فى طريق بنفذ مخطط الاستعمار .

ومن اليسير أن يقال إن دعوة مدحت التى حملت لواء الاتحاد والشرق من بعد كانت صادقة فى محاولة الإصلاح ولكن إدراكها خطأين كبيرين : الانفصال عن طابع الوحدة الإسلامية وسيطرة الدونمة والاستعماريين على مناحجها وتحويلها إلى غرض واحد هو إسقاط عبد الحميد وتمزيق الدولة العثمانية .

ولا شك أن نظام الاتحاديين بعد عبد الحميد كان تطبيقاً حقيقياً لهذه الأهداف الغربية الاستعمارية .

محمد أحمد المهدى

الرجل الذى أسر غردون ليفتدى به عرابى

١٨٤٥ — ١٨٨٥

« أما هديتك فلدينا مثلها كثير ، وقد أعرضنا عنها طلباً لما عند الله . لست بمتحيل ولا بمريد ملكاً ولا جاها ، وإنما أنا أكره تغرر السلاطين ونبوهم عن الحق ، وإن غاية ما نسعى إليه هو أن نجدد لهذه الأمة ما اندرس من معالم دينها » .

محمد أحمد المهدى

* * *

لم تكن ثورة المهدى إلا مرحلة من مراحل الكفاح العربى الضخم فى مقاومة الإستعمار ، فعرابى فى مصر ، والمهدى فى السودان ، وعبد القادر فى الجزائر ، وعمر المختار فى ليبيا ، كلها سيوف مسلولة تواجه هذا الخطر الذى بدأ يزحف إلى الأمة العربية لتمزيقها وسحقها .

وثورة المهدى هى أيضاً حركة تحريرية لمواجهة الظلم والطغيان فى صورها المختلفة وخطاب المهدى إلى غردون وثيقة تاريخية تصور إيمان الرجل بوطنه وصموده فى وجه القوى المحتلة . وزهده فى متاع الدنيا .

وكان غردون قائد القوات المصرية بسلطان الإنجليز وتوجيههم بعد إحتلال مصر قد أرسل إلى محمد أحمد المهدى بعد أن سيطر على جانب كبير من السودان عام ١٨٨٢ فى حركته التحريرية لتخليص السودان من حكم العثمانيين يغريه بتعيينه سلطاناً على كردفان ويقول فى خطابه :

« إن حكومة جلالة الملكة قد عينتنى والياً عاماً على السودان وأعترفت بإستقلال البلاد وفصلها عن الحكومة الخديوية فصلا نهائياً كما أعترفت بعظمة السيد محمد أحمد بالسيادة على السودان وتلقيبه بسلطان السودان الغربى ، وأنها — أى حكومة غردون — ستعنى بفتح طريق سواكن لسفر الحجاج لا نقصد من ذلك إلا حقن الدماء . . »

وأرسل مع الخطاب بعض الهدايا الثمينة إلى « المهدى » !

ولم يلبث محمد أحمد أن رد رسول غردون ومعه هداياه وإنذاره :

« . . أتمدوننى بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون أرجع إليهم فلتأتنهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . . »

إما فتح طريق الحج فإنه خديعة منك وتظاهر بحماية الدين الإسلامى مع أنك لا تؤمن بحرف واحد منه ، أما هديتك فلدينا مثلها كثير ، وقد أعرضنا عنها طلباً لما عند الله . . لست بمتحيل ولا بمريد ملكا ولا جاها ، وإنما أنا أكره تنمرد السلاطين ونبوهم عن الحق ، وإن غاية ما نسعى إليه هو أن نجدد لهذه الأمة ما إندرس من معالم دينها » .

* * *

وكان «محمد أحمد» قد أحس منذ مطالع شبابه الباكر بالظلم الذى يقاسيه أهل

وطنه ، فلما بلغ مبلغه من العلم وساح فى البلاد إزداد إحساسه بجهامة الحياة التى يحياها الناس ، لذلك عقد العزم على تحريرهم فكريا وسياسياً ، وحمل على كتفيه التحيلتين الضامرين آمال شعب ودين وبدا يكون أتباعه على أسلوب الخشونة والتجرد والزهد ، وفق الأسلوب الذى أعدت به كتائب النصر فى بدر والقادسيه والنهروان .

وبدأت معركة تحرير السودان من جزيرة أبا عام ١٨٨١ووصلت ذروتها حين سقطت الخرطوم يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥ فى أيدى رجاله الدراويش، وقتل غردون وكان المهدى يريده حياً ليفتدى به أحمد عرابى الذى كان قد أنهزم فى معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ وحكم عليه بالنفى إلى سيلان .

من هذا الخيط يظهر مدى الإرتباط التاريخى بين الثورة العرابية والثورة المهدية وقد بدأ فى وقت واحـــد ، فى جو مشحون بالتوتر وفى ظل زحف النفوذ الأجنبى ليسيطر بديلا للدولة العثمانية ، وكانت فرنسا قد احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ وأغتصبت بريطانيا أسهم قناة السويس ١٨٧٥ وأخرج جمال الدين الأفغانى من مصر بعد أن بذر بذور الثورة فى العالم الإسلامى وكان أمله مركزا فى الأمة العربية عام ١٨٧٩ وأحتلت تونس عام ١٨٨١ .

وكان محمد أحمد بذكائه المتطلع إلى حركات التحرر ، وضغط النفوذ الأجنبى قد أحس بالمؤامرات تصصرع من حوله وقرأ صفحات من جهاد عبد القادر الجزائرى وتابع دعوة محمد بن عبد الوهاب وحركة محمد بن على السنوسى ؛ كل هذا دفعه إلى العمل لتخليص السودان .

فلما تحررت أندفع صوب مصر فقد كان يطمع فى معاونتها للتخلص من الاحتلال البريطانى الذى لم يكن قد خيم على صدرها إلا منذ سنوات قليلة ،

لولا أن العمر لم يمتد به فمات فى ٢٢ يونية ١٨٨٥ .

* * *

و كان المهدى قد بدأ حياته معاونا لوالده وعمه فى صناعة السفن ، ولكنه ألتفت إلى الفقه والعلم وحفظ القرآن ومال إلى التصوف النقى والزهاده وجهاد الغاصبين ، وعرف بحدة الذهن وقوة العارضة وصولة البيان ، ووجد الناس فيه أملا فتجمعوا حوله ، كانوا يرونه مركز الضوء فى دائرة الظلام الواسعة.

وقد عرف المهدى بحسن السياسة ، والقدرة على التأثير فى عواطف الجماهير حتى قيل أنه إذا تكلم ظهر للسامعين أن جوارحه كلها تتحرك ، كاعرف بالصبر و كظم الغيظ وكانا أداته إلى النصر .

وتتمثل دعوته فى الجمع بين الدين والمجتمع والسياسة : وهى امتداد لدعوة التوحيد التى ظهرت فى قلب الجزيرة العربية بقيادة محمد بن عبد الوهاب ، ودعوة السنوسى التى ظهرت فى صحراء ليبيا ، فهى تجمع بينهما وتأخذ منهما غير أنها إذ حققت قيام دولة فى السودان لم تتح الفرصة للمهدى لتأصيل دعوته ، التى كانت خليقة بأن تجد نفوذها فى قلب أفريقيا جنوباً وشرقاً وربما إلى الشمال أيضاً ، فقد جمعت بين الدعوة إلى إلتماس مفهوم الإسلام ومقاومة الغزو والنفوذ الأجنبى . وأرتبط طابعها بطابع البيئة السودانية الصوفية وكان ذلك مصدر ثقة العامة ، والتفاف الجماهير حولها . وكانت إنتصاراته المتوالية مصدراً من مصادر القوة . فقد قاوم قوات حاكم فاشوده وأبادها وهو فى ٤٢٠ جنديا فقط . وحارب فى موقعة أخرى قوات تبلغ أربعين ألفاً بقواته التى لا تزيد عن ثمانية آلاف ، وفى كل المعارك ، معركة بعد معركة ، أنتصر المهدى ولم ينهزم قط، هنالك هاجر الناس إليه من كل مكان

وأنضموا لجيشه . ولم يهزم قوات الدولة العثمانية وحدها ، بل هزم قوات بريطانيا أيضاً .

* * *

ولد محمد بن أحمد عبد الله فى جزيرة تابعة لدنقلة ١٨٤٣ وكان أبوه فقيها يعمل فى صناعة السفن ، فتعلم منه القراءة والكتابة وحفظ القرآن وهو فى الثانية عشرة ، ثم ذهب إلى الخرطوم فقرأ الفقة التفسير والتصوف ، ثم أنقطع فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض للعبادة والتدريس ، وسافر إلى كردفان فنشر فيها رسالة من تأليفه يدعو فيها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام ورفع الضرائب التى كانت تفرض على أهل السودان بلا شفقة ولا رحمة ، وتعرف على رفيق نضاله وصديق عمره : « عبد الله التعايشى » وقويت عصبيته بقبيلة البقاره ، ولقب عام ١٨٨١ بالمهدى المنتظر وكتب إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته ، وأنبث إتباعه ويعرفون بالدراويش بين القبائل يحضون على الجهاد .

وكان طويل القامة عريض المنكبين اسمر اللون عظيم الهامة واسع الجبهة ، اقنى الأنف قوى البنية ، ذكياً . مدبرا ، رضى الخلق ، حسن السياسة ، ماهراً فى كسب عواطف الناس ، يتكلم بجوارحه كلها صبوراً على البلوى ، كاظماً للغيظ مسالماً لخصومة ، محسناً إليهم . وكانت شمائله هذه من أكبر عوامل إنتصاره . ويمكن أن تلخص أبرز معالم دعوته فى الخطوط التالية :

(أولا) الدعوة إلى الزهد فى الدنيا وملذاتها ونبذ الأمجاد الفردية حيث أبطل الرتب والألقاب وساوى بين الأغنياء والفقراء وفرض على أتباعه لباساً خاصاً يمتازون به .

(ثانياً) جمع المذاهب الأربعة (المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة) ووحدها بالتوفيق فيما بينها من الخلاف مع إبراز جوانبها الإيجابية وألف جميع

الطرق الصوفية بكل طوائفها فى طريقة واحدة، وكان هدية فى هذا هو ضرورة الرجوع مباشرة إلى الـكتاب والسنة والتخلص من الشروح المعقدة التى تبعد المسلم العادى بخلافاتها الـكثيرة عن الفهم والإيمان .

(ثالثاً) حرم الأحتفال بالأعراس إحتفالا يدعو إلى النفقة المسرفة ومنع شرب الخمر ، وخفض مهور الزواج وأبدل ولائم الأعراس بطعام من التمر واللبن وأبطل الرقص واللعب .

(رابعاً) دعا إلى الجهاد وإعداد القوة المستطاعة لحماية الحق والعدل وتحدث عن آداب الفروسية والفنون .

(خامساً) نفذ تعاليم الإســـــلام فى القصاص والسرقة والزنا والمزور الشرع وأبطل زيارة القبور .

وقد حاول بذلك إقامة المجتمع المثالى المرتبط بتعاليم الإسلام ، وقد كان لحركته أثراً كبيراً فى حياة السودان السياسية وفى مجرى الفـكر الإسلامى واليقظة العربية الإسلامية .

واستهدف بخطوته فى الفقة والتصوف إلغاء الخلاف نهائياً بين الناس حول أمور العبادات .

ولم يؤثر عن المهدى مؤلفات سوى مجموعة المناشير التى أصدرها .

* * *

صور الإمام المهدى مفهوم حركته فى عبارات قليلة واضحة :

(١) أمرنا هذا دينى مبنى على هدى من الله ونور من رسول الله ، مؤيد من عند الله وما قصدنامنه إلا أحياء الدين وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين ، ولا تريد منه ملـكا ولا جاها ولا مالا . »

(١) إن مذهبنا الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ وقد حققت الثورة المهدية نجاحاً واضحاً فى مختلف المجالات : ومصدر ذلك :

(أولا) إنها أخذت بالجوانب الإيجابية فى الإسلام وحررت المسلمين من السلبية والانعزال والجبرية التى فرضها مفهوم خاطىء للتصوف .

(ثانياً) إنها أزالت الخلافات بين الناس تمهيداً لتكتيلهم صفاً واحداً سعياً للتحرر والاستقلال ومحاولة لايجاد مجمع سودانى واحد.

* * *

ويجمع المؤرخون على أن «المهدى» هو الرجل الوحيد الذى يدين له السودان باسترجاع حريته واستقلاله اللذين أضاعهما الحكم التركى زهاء ستين عاماً .

وأنه أعلن دعوته فى ظروف قاسية ساعياً وراء إقامة العدل .

ولما كانت دعوته «إسلامية» فإن الذين يفرقون فيها بين الدين والسياسية يخطئون وذلك نظراً لترابط الأمرين فى مفهوم الإسلام . وقد قامت فى يونيه ١٨٨١ على أساس إحياء تعاليم الإسلام ، واستهدفت إقامة حكومة عادلة تسير على أحكام الإسلام . وقد بلغت غايتها بعد احتلال الانجليز لمصر ، وكان الاحتلال فى تقدير الكثيرين هو الذى استثار حماسة أنصاره .

وربما كانت هناك صلات بين المهدى وجمال الدين من أجل إقامة حكومة إسلامية كبرى ، ذلك أن المهدى دعا أتباعه للمحافظة على حياة غردون ليفتدى به أحمد عرابى ، وقد انتصر المهدى فى جميع المعارك التى قادها الضباط الإنجليز : غردون ، هكس ، مونكريف ، ستيورث ، بيكر ، جراهام ، ولسن وهزمهم شر هزيمة .

وكان زعماء المسلمين فى أنحاء العالم مبتهجون لانتصاراته وقد سجلت جريدة العروة الوثقى ١٨٨٤ صدى هذه الانتصارات .

وقد اتصل جمال الدين وأحمد عرابى عام ١٨٨٥ ببريطانيا لتعدل عن سياستها فى إعادة فتح السودان ، غير أن بريطانيا عرضت على جمال الدين عرش السودان فرفضه وأعلن للقادة الإنجليز فى صراحته المعهودة أنهم لا يملكون السودان حتى يقيمونه سلطاناً عليه .

والمفهوم أن دعوة المهدى كانت تتمثل دوماً فى ذلك الطموح الذى يترقبه المسلمون « إذا ملأت الأرض جوراً وظلماً » فى قائد جديد يحقق العدل ويرفع الظلم . وقد جمع المهــدى فى دعوته بين مناهج السلفية والصوفية ، والفقهاء والزهاد .

وقد حاول النفوذ الاستعمارى تشويه المهدية كما حاول ذلك بالنسبة للسنوسية والوهابية ، بحسبان أنها دعوات تفرض مفهوم الإســلام الصحيح وأبرز مفاهيمه مقاومة الغاصب .

وقد ثبت بطلان كل ما وجه إلى الحركة المهدية مما أريد به طمس معالم هذه الدعوة وتبرير عمل بريطانيا الذى قامت بعد دخول الجيوش الإنجليزية والمصرية بقيادة كتشنر (سبتمبر ١٨٩٨) حين فوضت حكومة الدراويش بقيادة التعايشى الذى اختفى حتى قتل فى ٢٤ نوفمــبر ١٨٩٩ . فقد نسفت بريطانيا قبر الإمام المهدى ونبشت قبره فى بربرية وهمجية لا حد لها ، وبعثرت هيكله وبعثت بجمجمته إلى المتحف البريطانى انتقاماً لمقتل غردون . فلما أرادت أن تسترضى السودانيين بعد أعادت رأس المهدى وإقامت بناءاً جديداً لقبره . (توفى فى ٢٢ يونية ١٨٨٩)

محمد على جناح

مؤسس باكستان

توفى عام ١٩٤٧

* إن قصة باكستان هى فى الواقع قصة الضمير والعقل والقلب ، أن لهذه المائة مليون نفس كيانا مستقلا متميزا ، يتمثل فى عاداتها ، تقاليدها ، عقيدتها ، لغتها ، ثقافتها ،هذه المئة مليون لها شعورها الصائب ، أنه الشعور الذى يضىء أمامنا الطريق ونلمح على ضوئه حاجتنا نحن مسلمى الهند جميعاً إلى دولة جديدة مثالية تحتضن هذا كله وتقترن فيها السياسة بالأخلاق حتى تكون مثلا لغيرها من الأمم التى استهلكتها اليوم حضارة المادة وعميت عينها عن حاجة البشرية إلى « الضمير » .

أن ردى على القائلين بأنى أبغى تأسيس حكومة « ثيوقراطية » أن هذه الحكومة لا محل لها فى مفهوم الإسلام نفسه الذى أومن به ، فالاسلام دين ودولة ، وعبادة وسياسة ، وحضارة وضمير وأنا حين أجاهد فى سبيل الباكستان إنما أجاهد فى سبيل هدف إنسانى كبير » .

يقول الآن كامبل جونسون :

« أن جناح يستمد نفوذه من القيادة على بعد فهو لا يتزلف للجماهير ولا يكثر من مخالطتها ، وقد مزج بين التدبير المرن

المصقول فى حزم ودقة وبين المقدرة على الأنتفاع من أغلاط خصومه بإرادة من حديد ونفاذ إلى الغاية الموحدة التى لاينحرف عنها وأنه لظاهرة فذة فى القضايا الكبرى : نادى بالباكستان وهو فى الستين وحققها وهو فى السبعين » .

* * *

لايذكر اسم محمد على جناح « القائد الأعظم » حتى يرد على الذهن قيام دولة باكستان منفصلة عن الهند. وهو عمل ضخم قام به هذا الرجل العظيم دون أن يريق قطرة دم واحدة . وهو إجراء طبيعى قصد به فصل المسلمين عن الهندوس بعد أن تأكد أنه من المستحيل قيام دولة واحدة تجمعهما على ما بينهما من اختلاف واضح فى العادات والتقاليد والتفكير .

ولقد عاش حياته السياسية كلها إلى قبيل الحرب العالمية الثانية وهو مدى طويل لايقل عن أربعين عاماً وهو يشارك فى العمل الكبير الذى يدعو إلى تحرير الهند واستقلالها غير أن الأيام المتوالية بأحداثها المتعدده كانت تزيده أيمانا بأنه لاسبيل إلى الوحدة بين المسلمين والهندوس . وقد عرفت عنه عبارته الدقيقة « أن استقلال البقرة رهين باستقلال الباكستان » .

وقد عرف جناح بشخصيته الإيجابية الواضحة : صريحاً قوياً ، مؤمنا بالكرامة والأستقلال بالرأى، كبير الثقة بنفسه ذا عزيمة واضحة. هذه الشخصية الباهره هى التى اكسبته ثقه المسلمين وأعضاء العصبة الإسلامية فأختاروه رئيساً لها عام ١٩٣٤ وهو غائب عن الهند فأضطر أن يصفى أعماله ويعود ليحمل الرسالة التى كان موضع الثقه فى حملها .

وجناح على مظهره الأنيق وقامته الطويلة ونحافته وثرائه كان صادق الإيمان بحق بلاده فى الحرية وقد جرى فى هذا الشوط مع غاندى سنوات طويلة غير أنه لم يلبث أن اقتنع بدعوة « اقبال » فى قيام دوله للمسلمين منفصلة عن الهند ،

ورأى استحالة الأندماج ، فقد كان يجرى فى خط مختلف أشد الأختلاف عن خط غاندى ، كان يؤمن بالإيجابية ويكره السلبية . ويرى الأخذ باساليب الحضاره . وبناء المصانع والأشتراك فى الحكم حتى ليمكن أن يقال أن جناح يمثل الصورة المقابلة لصورة غاندى .

وترجع إيجابيه جناح إلى ثقافته ودينه وعوامل تكوينه وعوامل القضية التى يحمل لواءها ويدعو إليها .

وكذلك حملت « العصبه الإسلامية » لواء الدعوه إلى قيام دولة مستقلة تضم شمل المسلمين فى الهند .

ولا يذكر جناح فى ميدان الدعوه إلى الباكستان حتى يذكر اقبال الذى كان يوالى رسائلة إليه يشرح إليه فكرته ويحرضه على حمل « لواءها » ومن هذا قوله :

« اننى أعلم إنك رجل جم المشاغل ، ولكنى أرجو إلا تضجرك كيابتى إليك حينا بعد حين . إذ أنت اليوم المسلم الوحيد فى الهند الذى يحق للامة كلها أن تتطلع إليه لقيادتها فى هذه الزوبعة التى تهب على شمال الهند الغربية ، وإننى لمبلغك إننا نعيش فعلا فى حرب أهلية لولا الشرطة والجيش لعمت فى مثل لمح البصر » .

وكان القانونى : (رحمة على) قد أطلق عام ١٩٣٣ على الباكستان قبل أن توجد « أرض الطهر » واتخذ هذا الاسم من حروف اسماء الإقاليم التى يراد تكوين الباكستان منها وهى : بنجاب واسام وكشمير وسند وثان (بلوشستان) :

وهكذا تجمع رحمة على واقبال وجناح فى بناء هذا الوطن : هذا وضع اسمها

وذاك الهم سرها وقام القائد الأعظم بتحقيق هذا الحلم .

وقد حمل جناح لواء الدعوة إلى شرح هذه القضية فى العالم كله ، فقد كانت هناك شبهات مظهرية حول الإنفصال وكان لابد من توضيحها .

وقال جناح « أن الأنفصال بين المسلمين والهندوكيين هو نتيجة اختلاف فى كل شيء حتى فى الأكل . فأن الهندوكى لايريد المسلم أن يأكل لحم البقرة التى يعبدها . وأن مسلمو الهند وهم حوالى مائة مليون فى قارة عظيمة يمكن أن ينشئوا دولة كبرى .

وقارن بين الإسلام والمسيحية وبين الهندوكية والاسلام فقال : أن بين المسلمين والهندوس مختلف جداً . وفى الاسلام والمسيحية تسامح ولاتتجاوز الفروق بينهما شؤون العبادة الخاصة . أما الديانه الهندوسية فهى التى تسير الهندوس فى كل شؤون حياتهم . وبينها وبين الأديان السماوية المعروفة فوارق كبيرة جداً تحمتل بين ثناياها كل أسباب النزاع والخصومة » .

وكان جناح لايرتضى منهج غاندى ولايوافق على سلبيته فى رفض الحضارة أو مقاطعة الوظائف والمصانع . ومعنى هذا أن الخلاف بين غاندى وجناح هو خلاف جذرى وعلى الأسس الأصلية .

وتجمع المصادر على أن « جوكهيل » استاذ جناح وقدوته هو الذى كشف منذ عهد بعيد عن مثل ما اضطر جناح إلى الاتجاه إليه فى انشاء دولة اسلامية ، وكان احمد خان وهو من رواد الفكر الهندى الاسلامى يقول « إننى اليوم مؤمن بأن القومين لن يخلصا النية فى أمر واحد، وليس بينهما اليوم عداء مكشوف ولكن هذا العداء سينكشف فى المستقبل من جراء من يسمونهم بالطائفة المتعلمة ومن يعش ير . . » وصدقت نبوءة المفكر الاسلامى الكبير .

ولكن « جناح » لم يصارح العالم كله بنظرته إلا بعد أن تأكد تماما بأنه لامفر من العمل لإقامة دولة الباكستان وقال فى صراحة « فى جميع هذه الشؤون نظرتنا لاتختلف وحسب بل وتناقض مع النظرة البرهمية . نحن أناس مختلفون فى الأسماء والملابس والأطعمة ، مختلفون فى الحياة الإقتصادية وفى مثل التربية والتعليم . وفى معاملتنا وفى مسلكنا مع الحيوان . وخذ إليك مسألة البقرة الأبدية ، نحن نأكلها والبراهمة يعبدونها . وقد يخطر للانجليزى أن هذه العبادة تقليد من التقاليد التى تصلح للفرجة . وبقية من تراث الأيام الخالية . ولكن الأمر على نقيض ذلك . ومنذ أيام فقط أصبحت مشكلة البقرة فى مدينتنا هذه إحدى مشاكل الأمن العام . . ومامشكلة البقرة بعد إلا واحدة من الوف » « أنهم يعبدون البقرة ونحن نأكلها فكيف يحكمنا نظام واحد » .

* * *

لقد اجمع خصوم جناح واصدقائه على أنه كان قوى الشخصية باهر الشمائل وأنه كان طموحا نزيها مستقيما على حظ من الشرف الشخصى عظيما ، كما قال الدكتور كرشنالال أحد خصومه ــ الذى سجل فى كتابه عن الهند والغرب ــ أنه لايوجد رجل بذلت بريطانيا لاغرائه مابذلت لأغراء جناح وكسب معونته فرفض جميع المغريات ومضى على نهجة فى الإستقلال » والحق أنه لم يتفق لرجل فى مثل ثراء « جناح » أن يشغل نفسه بالعمل السياسى وأن يرهق نفسه بهذه المهام الخطيرة المجهده ، لولا أنه كان يؤمن فى قرارة نفسه بوطنة وأخواته الذين كانوا فى حاجة إلى أن يتحرروا وأن يحققوا أملا يملأ نفوسهم . وكذلك وضع كفايته وأعصابه وماله وجهده فى هذا السبيل مخلصاً وظل يدفع هذا الجبل الضخم مع إخوانه حتى رحزحه من مكانه فأذهب الليل

والظلام ، وكشف عن ضياء الصباح : دولة مستقلة للمسلمين .

ولاشك أن محمد على جناح قد أعطى للشرق كله درساً فى الخلق ، فقد كان الساسة يفصلون بين السياسة والخلق . ولـكنه جمع بينهما وربط بين الدهاء واليقظة والحرص وهما من صفات السياسى . وبين الخلق المتين والـكلمة الصادقة والعهد الوثيق الذى لا يتخلف ولا يهن مادام صاحبه قد اعطاه .

ولو كان غير جناح لما استطاع أن يصمد أمام اغراء بريطانيا . لولا أنه كان يحمل نفسا عازفة عن الزخارف والألقاب والمطامع ، وكان غنيا بطبيعته الأصيلة عن كل اغراء .

وقد جمع جناح بين شميلتين قل أن يجتمعا لإنسان هما : الايمان بالمثل العليا والتقيد بالنزعة العملية . وكما كان مؤمنا إلى أبعد الايمان بدعوته متحمسا لها وكان لا يعدم الوسيلة إلى دراسة كل شىء والنظر فى كل أمر والاستماع إلى إلى كل رأى ، ويدل هذا ولاشك على قوة النفس وسلامة الفطرة .

وعرف جناح بحربه لسياسة العاطفة وإيمانه بمخاطبة عقول الجماهير بالحقائق الملموسة لا بالألفاظ المثيرة التى تطير فى الهواء ولا تخلف وراءها فى أعماق النفس شيئاً . وقد عرف عنه الأعتزاز بكرامته واحترام نفسه إلى أبعد حد .

ولقـــد كان لجناح داراً فخمة فى نيودلهى . وكان محامياً ناتجا بلغ ماتقاضاه من الأتعاب فى أحدى قضاياه مليون روبية ، أى مايساوى ثمانية آلاف من الجنيهات . وكان انيقاً يلبس البذلة الأفرنجية البيضاء . وقد تعلم فى بريطانيا وانضم إلى حزب المؤتمر الوطنى الهندى والرابطة الإسلامية ثم رأس الرابطة وقاسى السجن والإضطهاد فى سبيل هدفه .

وفى عام ١٩٤٠ نادى بدعوة الباكستان فلقى معارضة الهندوس والبريطانيين جميعاً . ولـكنه كان موقناً بأنها الحل الوحيد لإقرار السلام . كما أنـكر جدوى

العصيان المدنى بين وسائل الكفاح . وعندما قيل : أن فى الهند الحكومة البريطانية وحزب المؤتمر صرخ بأعلى صوته « أن فى الهند طرفاً ثالثاً هو الشعب المسلم » .

وقد عرف بشغفه بالمطالعة منذ سن باكرة ، وكان يسهر طويلا يقرأ : ويقول عن ذلك « أحسب أننى لن أصبح شيئاً مذكوراً فى الدنيا بغير القراءة وفى لندن كانوا نفتقدونه فى كل مكان فلا يجدونه إلا فى مكتبة المتحف البريطانى .

وبالرغم من أن جناح لم يكن خطيباً شعبياً فقد كان موضع ثقة الشعب وكان إيمانه بالكرامة واستغلال الرأى والعزيمة والثقة بالنفس من عوامل عظمته الإنسانية ، ولم يتملق غاندى حاكما من حكام الهند ، ولم يترافع إلا فى قضية كبرى . وكان اتجاهه إلى تعلم المحاماه بهدف الدفاع عن قضية بلاده .

وقد أحب جناح ووجد تلك العاطفة الحلوة فعاش لها سنوات كانت من أسعد سنوات حياته العامرة بالكفاح والمتاعب فلما قضت صاحبته هزته النكبة وافرط فى التدخين ولكنه سرعان ما أغرق نفسه فى شئون الوطن والكفاح .

ومن ابرز مظاهر كرامته النفسية قرضاً رفضه لأن يحصل على مرتب مدى ولايته للدولة ولا لاسفاره إلى أوربا فى سبيل الدفاع عن قضية بلاده وغاندى هو الذى لقبه « القائد الأعظم » وكان سكرتيراً لحزب المؤتمر ، غير أنه لم يلبث أن عارض سياسته التى تهدف إلى عدم استعمال العنف وانشق عليه واحتضن مطالب المسلمين عندما وجد أنه لا سبيل لانقاذ المسلمين إلا سبيل التقسيم .

* * *

وموجز حياة محمد جناح تتلخص فى أنه ولد فى ٢٥ ديسمبر ١٨٧٦ وتعلم

فى كرانشى ثم قصد إلى لندن حيث أحرز أجارة القانون من جامعة كمبردج . فلما عاد إلى الهند مارس المحاماه والقضاء ووصل إلى درجة مستشار واشترك فى حزب المؤتمر وعمل له سكرتيراً ، ودعا خلال ذلك إلى تغيير قانون المؤتمر وفى عام ١٩٠٩ انتخب عضوا فى المجلس التشريعى لمدينة بومباى وعارض سياسة غاندى فى المقاومة السلبية وكان يؤمن بأن إنشاء مصنع انفع من إنشاء ألف مغزل .

واشترك فى الرابطة الإسلامية ١٩١٣ وجمع بذلك بين اشتراكه فى حزب المؤتمر وعمل على التقريب بين المسلمين والهندوكيين . وفى عام ١٩١٦ أعلن فى اجتماع الرابطة الإسلامية أن التعاليم الإسلامية والآداب شاهدة على عظمة الإسلام .

وفى عام ١٩٣٤ أعاد تنظيم الرابطة الإسلامية وطالب بالاستقلال التام للهند ونادى بإقامة كيان إسلامى منفصل عن الهندوس وبايعه بالرئاسة مسلمو البنجاب والبنغال ، وكان ذلك مقدمة للمناداة بالباكستان عام ١٩٤٠ وقال : «أقيمو الباكستان أو افنوا» ذلك على أثر تأكد المسلمين بإن الهندوس يتوقون إلى فرض سيطرتهم عليهم ، وأنه لا سبيل للاستقرار إلا إذا تولى المسلمون أمرهم بأنفسهم : « إنى أعرف أن الباكستان هى الحل الوحيد لمشاكلنا فدعونا نسير إلى تحقيق هذا الحلم واتبعونى دون أن تلتفتوا ذات اليمين أو ذات الشمال » وقد اقترن قيام الباكستان باسم اقبال وجناح وكان اقبال قد نادى بالباكستان فى عام ١٩٣١ فى مؤتمر المسلمين فى (الله آباد) حيث دعا إلى وحدة المسلمين وطالب برفع الحواجز المصطنعة وأشاد بمجد الإسلام ، ومما يذكر أن زعماء كثيرون قد نادوا بإقامة كيان خاص للمسلمين قبل جناح منهم أحمد خان

ونواب محسن ومولاى محمد على الذى كان أول من نادى بإقامة حكومة إسلامية .

وفى ١٤ أغسطس ١٩٤٧ أعلن قيام دولة باكستان واختير جناح رئيساً للدولة التى تضم البنجـــاب والإقليم الشمالى الغربى وبلوخستان والسند وغرب البنغال وشرقه .

(توفى فى ١١ سبتمبر ١٩٤٨)



محمد بن عبد الوهاب
مجدد الاسلام وداعية التوحيد

١٧٠٣ — ١٧٩٢

كان ظهور الإمام محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية بالدعوة إلى «التوحيد» علامة على فجر « اليقظة العربية الإسلامية » ونهاية لمد «الجبرية» التى فرضت على العالم الإسلامى خلال مرحلة الضعف والجمود والتقليد .

لقد كان الفكر الإسلامى العربى متصل الأواصر بالدعوة إلى الاجتهاد وتحرير الفكر من اسر التقليد ، ولكن الدعوة خفقت بعد عصر ابن تيمة ولم يصل جهد الدعاة إلى مكان التأثير والتعميير ، واجتاح عالم الإسلام طابع من الانحراف عن مفهوم : دنيا ودينا ، وعقلا وقلباً ، وروحاً ومادة ، وكان ذلك فى ظل غلبة مفهوم القوة العسكرية فى عصر الوحدة العثمانية الإسلامية ، وهو أول انفصال عن تكامل الاسلام مع ضعف هذه القوة العسكرية كان استعلاء مفهوم الجبرية والجمود والتقليد .

حتى إذا كانت صيحة الإمام محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية ، علامة على اليقظة بحسبان أن هذه الدعوة إلى التوحيد كانت حرباً على الاستبداد والجمود والتقليد فى مختلف ميادين السياسة والاجتماع والدين .

وكان نجاح الدعوة حين تحولت إلى حركة بالاتصال بالأمير وقيام دولة بالدفاع عنها ، على نحو لفت إليها أنظار العالم الاسلامى كله ، فكانت نقطة البدء فى كل حركة تدعو إلى اليقظة أو الإصلاح أو التجديد أو الاجتهاد .

فقد حمل الإمام عبد الوهاب لواء الدعوة إلى تنقية الإسلام مما علق به من

البدع والمفاسد ، والتماس مفهومه الأصيل وجوهره الأول النقى ، مع رفض ما يتعارض مع أصول الاسلام فى بساطته وسماحته وقصر العبادة على توحيد الله وكان هذا المفهوم الذى حمل لواءه عبد الوهاب هو مفهوم الإسلام مجددا فى معارضة كاملة لما اتسم به الفكر الإسلامى فى هذه الفترة تحت تأثير ما دخل إلى عقائد بعض الصوفية من جبرية أو اتحاد أو حلول أو مايسمى وحدة الوجود .

كانت دعوة عبد الوهاب معارضة صريحة لكل ما تضمنته هذه المفاهيم التى غلبت على ثقافة المسلمين وسيطرت عليهم فكانت مصدر الضعف والتخلف الذى وقع بهم خلال هذه المرحلة من حياتهم .

فقد رفض ابن عبد الوهاب مفهوم وحدة الوجود الذى يقول بأن الوجود واحد وأن وجود المخلوق هو وجود الخالق، وأكد مسئولية الانسان عن عمله وتصرفه وهاجم القول بأن أناساً ممتازون فى العبادة يرفع عنهم تكاليف أداء العبادة أو حق الشريعة ورفض مفهوم التأويل رفضاً كاملا .

وأعلن وحدانية الربوبية بمعنى أن المؤمن لا يكون موحدا إلا إذا قصر عبادته على كائن واحد .

كما أعلن أن التوسل والاستغاثة والشفاعة لا تكون بغير الله تعالى ، كما وقد أنكر الإمام عبد الوهاب إثارة قضايا الذات والصفات والجبر والاختيار ورفضها كلية .

وكان من أبرز أعمدة دعوته : فتح باب الإجتهاد ، والتماس الحلول لمختلف قضايا المجتمع من المصادر الأصلية رأساً وهى القرآن والسنة وإجماع المسلمين على حكم معين إلى آخر القرن الثالث الهجرى كما دعا إلى عدم التقيد بمذهب من المذاهب الأربعة وأعلن أن لكل قاض أن يأخذ من أى مذهب بما يرى ، مما هو أقرب إلى القرآن والسنة .

* * *

ودعا الإمام عبد الوهاب إلى استئناف دور العرب الأصيل فى حمل لواء الدعوة الإسلامية وقيادة حركة اليقظة وتصحيح المفاهيم والتماس مفهوم الإسلام فى القرآن أساساً ، وبالجملة فإن هذه الدعوة أقامت بناءاً جديداً فى كيان الفكر الإسلامى قادراً على معارضة التيار الضخم المندفع خلال ثلاثة قرون ، حاملا مفهوماً ناقصاً للاسلام وللفكر الإسلامى بالانحراف نحو ثقافة القلب والايغال فيها على نحو حمل معه طابع الجمود والجبرية والتخاذل والاستسلام .

وقد حسب ابن عبد الوهاب أن هذا الطابع من الجبرية هو مصدر التدهور السياسى العام الذى أصاب المسلمين تحت لواء « الوحدة الإسلامية العثمانية » التى غلبت عليها الثقافات الفارسية والقديمة والتى أصابت مفهوم الإسلام بإضافات منحرفة أبعدته عن جوهره وعزلته عن مقوماته الأصيلة القائمة على التوحيد الخالص . وأن هذه الانحرافات قد حملت معها طابع الاستسلام للظلم والذل وتقبل الواقع دون معارضة ، والانفصال عن المجتمع وإيثار العزلة والاعتكاف فى الخوانق والتكايا على نحو قريب من الرهبانية ، ثم الاتصال بالأولياء على نحو قريب من الوثنية .

« كما اتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلا للأيدى عن العمل »

وقد أذاعت الجبرية « أن الزمان قد أقبل على آخره وأن الساعة قد أوشكت أن تقوم فلا فائدة من السعى ولا ثمرة للعمل ولا حركة إلا إلى العدم » .

هذه هى المفاهيم التى واجهها الإمام عبد الوهاب بدعوته حين دعا إلى التوحيد مناشداً الناس التماس مفهوم القرآن أساساً فهو المفهوم الوحيد القادر على منح الايجابية بدلا من السلبية ، والإيمان بإرادة الإنسان ومسئوليته وحق الأمة العربية نفسها فى أن تستيقظ وتتحرر من قيود التقليد فى الفكر والاستبداد فى الحكم ، وأن تحمل لواء اليقظة بحسبانها هى التى حملت

هذا اللواء منذ مطالع الإسلام . وأن دورها قد جاء فعلا لتستأنف رسالتها العالمية الانسانية .

* * *

غير أن الأمر لم يكن سهلا على هذا الداعية فقد واجهته خصومة ضارية ضخمة ، خصومه فى مجتمعه ، وخصومه من قبل الدولة العثمانية التى تصورت فى حركته انتقاضاً على نفوذها وسلطانها، بل ووجدت خصومة أكثر ضراوة من جانب النفوذ الاستعمارى الذى كان متطلعاً إلى منطقة الخليج العربى حريصاً على السيطرة عليها ، وانتزاعها من يد العثمانيين ، وحيث كان التدبير الأوربى يجرى قبل أوائل القرن التاسع عشر للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها وتقسيم أسلابها ، ومن هنا فقد كان ظهور هذه الدعوة باسم التوحيد عملا سياسياً خطيراً ، هو إيذان بظهور قوة جديدة يمكن أن تسيطر فى المنطقة من حيث يريد الاستعمار القضاء على الدولة العثمانية « دولة الرجل المريض » ولذلك فقد أغرى الانجليز بوصفهم أكبر الطامعين فى منطقة الخليج — الأتراك العثمانيون بهذه الحركة ودفعوهم إلى مقاومتها ومعارضتها، فأذاعوا فى العالم الاسلامى حولها حملة ضخمة اتهموها فيها بأنها خرجت عن مفهوم الإسلام التقليدى السائد . ثم أغروا بها قوة عربية جديدة هى حركة محمد على فى مصر الذى سار إليها وقاتلها فى عقر دارها .

وبذلك قضى على واقعها السياسى وإن لم يقض على مضمونها الفكرى والاجتماعى الذى انساب فى العالم الإسلامى وكان بعيد الأثر فى مختلف حركات اليقظة ودعوات الاصلاح التى امتدت منذ ذلك اليوم إلى اليوم .

* * *

وكانت دعوة الإمام عبد الوهاب التى أذن بها فى نجد قد واجهت خصومة

الجامدين فى البيئة البدوية ، بين حريملاء والعيينة ثم أتيح لها أن تجد فى الدرعية قبولا من أميرها « محمد بن سعود » فانتعشت وتحولت إلى حركة ، ومضت تشق طريقها منذ أذن بها حوالى ١٧٤٠ حتى توفى ١٧٩٢ فكان لهامن فسخه عمر قائدها وداعيها قدرة على الظهور والتأييد ، وقامت فى ظلها دولة اتسع نطاقها . واستطاعت أن تسيطر على « مكة » قلب العالم الاسلامى ومثابة وفود حجيج المسلمين من مختلف انحاء العالم الإسلامى، فتأثر بها المستنيرون المثقفون الذين عرفوا مرماها الحقيقى وجوهرها الأصيل : دعوة إلى توحيد الله وشجب الوثنية وإلى تحرير الفكر والقضاء على التقليد وإلى إعطاء الإنسان مسئوليته الكاملة ورفض الجبرية ، وهى حركه لها طابع عربى فى قلب الجزيرة العربية : مهد الدعوة الأولى ايذاناً باستعلان دور العرب فى قيادة الحركة إلى اليقظة الإسلامية وهى ليست صيحة جديدة فى ذاتها مبتدعة ولكنها دعوة إلى التماس المنابع الأولى للاسلام والفكر الاسلامى ، بعيداً عن تعقيدات الفقهاء وجبرية الصوفية وتحريراً للعقل الإسلامى من مختلف القيود التى كبلته ، وخروجاً من نطاق مرحلة الضعف والتخلف والتقليد .

وكان هذا هو مصدر خصومة الدولة العثمانية لها إذ انتزعت منها أقوى مراكز تأثيرها فى العالم الإسلامى وهى « مكة والمدينة » وهددت حدودها فى العراق والشام وكانت قذى فى عين النفوذ الاستعمارى الزاحف على مياه الخليج والمندفع إلى توطيد نفوذه فى إمارات مسقط والبحرين والكويت .

وكانت ثورة سياسية على الحكم العثمانى ، ودعوة إلى اندفاع العرب إلى مكان القيادة الفكرية والسياسية والاجتماعية .

ولذلك فقد حرص النفوذ الاستعمارى على مهاجمتها واتهامها وشجبها ورميها

يكل ما ينتقص من قدرها ، لأنها هاجمته فى كل مكان وباسمها ظهرت دعوات ودول فى كل أجزاء العالم الإسلامى تقاومه وتنازله وخاصة فى الهند .

وقد وصفت بأنها « أول مقاومة تلقائية للسيطرة السياسية والفكرية العثمانية التى كانت قد لعبت أقسى مراحل الضعف والتخلف ، إيذاناً بفجر جديد ، وصحوة جديدة وكانت فى أوسع صورها إعلاناً بأن اليقظة العربية الاسلامية قد انبعثت من أعماق عالم الإسلام ومن قلب العالم العربى قبل قدوم أول الحملات الاستعمارية بأكثر من ستين عاماً .

وقد كانت حملة الدوله العثمانية وتأليب محمد على عليها إنما تنبعث من إحساسها بأن أقوى مفهوم كانت تسيطر به على العالم الإسلامى وهو أن سلطان إمام الحرمين قد ضاع ذلك أن الأتراك العثمانيين الذين لم يكونوا عرباً ولم لم يكن فى يدهم من النفوذ السياسى غير تسلم مفاتيح الأماكن المقدسة وقد أتيح لهذا النفوذ أن يعود إليهم بعد هزيمة محمد على للوهابيين عام ١٨٧٠ .

* * *

غير أن دعوة التوحيد، التى أطلق عليها النفوذ الاستعمارى كلمة « الوهابية » لم تكن فى الحق قد أستطاعت بعد أن تستكمل قدرتها التى تجد من عقول المسلمين لها ، فقد كانت عنيفة المظهر ، قد حملت لواء الخصومة للجبرية الصوفية ولما تقبلا سوى التوحيد فى عنف ، بل لقد حملت السلاح فى سبيل القضاء على خصومها عندما أعلن أصحاب الدعوة سخطهم على كل الطوائف الإسلامية الحضرية كما قصروا عن فهم العصر وتخلفوا فى ميدان القوة المادية ما مكن محمد على بالقضاء على ملكهم السياسى ، غير أن الدعوات بطبيعتها لا تعرف الوسط ولا تعرف الموقف المعتدل فى أول عهدها ، ولو استطاعت حركة محمد بن عبد الوهاب المجددة للفكر وحركة محمد على المجددة للحياة أن يلتقيا لاستطاعا

معاً أن يواجها الاستعمار الزاحف ، غير أن الاستعمار كان قادراً على ضرب الحركتين تحت لواء الدولة العثمانية المربضة فلما قضى على الحركة الوهابية ، أمكن القضاء على الحركة الأخرى .

غير أن الحركة التى قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب فى تقدير المؤرخين المنصفين لا تقاس بأثرها السياسى بقدر مايقاس بأثرها الفكرى ، ذلك أن هذا الأثر السياسى وأن لم يطل أمده فهو الذى أعطى الأثر الفكرى قوته من حيث السيطرة على مقر الحركة فى مكة واستعلان الصوت القوى، فى صراعه مع الدولة العثمانية ومع الحركات الأخرى .

ومن هنا فإنه لم يكد يهل القرن التاسع عشر، وبعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بسنوات قليلة حتى ظهر كثير من الدعاة : أمثال الشوكانى فى اليمن والألوسى فى العراق والسنوسى فى ليبيا والمهدى فى السودان ثم كانت حركات جمال الدين ومحمد عبده والسلفية فى المغرب وخير الدين التونسى فى تونس والقاسمى والبيطار فى الشام[1] .

وذلك فضلا عن الحركات الإسلامية التى ظهرت خارج نطاق الأمة العربية التى تأثرت بالدعوة التى قادها محمد عبد الوهاب أمثال صديق حسن خان فى بهوبال وأمير على فى كلكتا .

* * *

ولا شك كانت شخصية محمد بن عبد الوهاب قوية صلبة ، هذه الشخصية التى استطاعت أن تحمل لواء الدعوة أكثر من خمسين عاما ، وأن تظل قادرة على مواجهة العواصف الهوج من كل مكان دون أن تستسلم .

ويرجع ذلك فى الأغلب إلى البيئة البدوية الصلبة حيث تولد كل الدعوات.

وقد ولد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى فى العينية بنجد ، ونشأ بها ثم رحل إلى الحجاز فمكث فى المدينة فترة قرأ فيها على بعض أعلامها ،

(١) وقد ترجمنا لهؤلاء جميعاً فى كتابنا هذا وفى كتابنا (أعلام وأصحاب أقلام) .

وعاد إلى نجد فسكن حريملاء وكان أبوه قاضياً بها ثم انتقل إلى العينية ناهجا منهج السلف الصالح داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع فاستقبلته ثم عارضته فقصد إلى الدرعية فتلقاه أميرها محمد بن سعود وقبل منه دعوته وآزره، كما آزره من بعده ابنه عبد العزيز بن سعود بن عبد العزيز واتسع نطاق ملكهم فأستولوا على شرق الجزيرة وملكوا مكة والمدينه وقبائل الحجاز.

وعرف من ولاه وآزره فى قلب الجزيرة بأهل التوحيد وسماهم خصومهم بالوهابين

وقد رسم الأمام محمد بن عبد الوهاب منهج دعوته فى عديد من رسائله أهمها: كتاب التوحيد ورسالة كشف الشبهات وبحثه الضافى: «المسائل» التى خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية وهى أكثر من مائة مسألة.

(توفى عام ١٧٩٢)

محمد بن على السنوسى

صاحب الدعوة إلى تحرير الاسلام من القيود

١٧٨٧— ١٨٥٩

« إن السنوسية هى المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا فى الجزائر ، واليد المدبرة لجميع نكبات فرنسا فى الشمال الأفريقى وفى السنغال .

« إن الحقيقة التى يجب إلا نغفل عنها أن الطرق السنوسية هى أخطر أعداء نفوذنا وأنها العقبة الكأداء فى سبيل توسعنا السياسى والإقتصادى داخل إفريقيا وعائق فى طريق أهدافنا فى القارة الواسعة شمالى خط الإستواء .

وإن السنوسية هى القوة المحركة لجميع الحوادث التى وقعت فى البلاد الإسلامية للحيلولة دون إنتشار النفوذ الأوروبى » .

(الرحالة الفرنسى دوفرير)

* * *



أبرز ما تتمثل صورة الإمام محمد بن على السنوسى ، إنما تتمثل فى صورة مجاهد شديد المراس واجه أخطر تحدى ، فما أن وقع الإحتلال الفرنسى على الجزائر حتى كان قد وضع فى تقديره «خطة عمل» ، فقد أحس بأن الخطر الذى اتجه إلى الجزائر إنما هو غزو جـــديد ضخم يستهدف العالم الإسلامى كله ويتطلب عملا موحداً كبيراً ومن هنا كانت رحلته الطويلة الواسعة فى قلب العالم العربى بين الجزائر ومـكة ومصر فى دراسة عميقة للأوضاع والحلول .

كانت خطته خطة : « فـكر وتربية » ولم تـكن خطة حرب فلم تـكن مقاومة الأمير عبد القادر قد حققت شيئاً بالرغم من الصمود الطويل أمام أساليب الحرب الحديثة . وكان مفهوم محمد بن على السنوسى ، أن الطريق إلى المقاومة بالحرب لن يـكون إلا بعد بناء فـكر وعقول ونفوس على مفهوم الإسلام والدفاع عن الأرض من خلال إيمان عميق .

ولذلك فقد اتجه وجهتين: (الأولى) العمل الواسع فى سبيل الترابط الوثيق بين أجزاء عالم الإسلام ، و (الثانى) بناء نماذج من القادة والمجاهدين على نحو خاص يذيعون الإسلام ويوسعون آفاقه فى قلب القارة ويسابقون النفوذ الإستعمارى وبعثات التبشير .

وقد نجح العمل فى الميدانين نجاحاً بالغ الأثر قاطع النظير .

فقد استطاعت السنوسية أن تقيم زواياها العديدة فى كل مكان وإن تجعلها مراكز علم وجهاد فأنتشرت فى برقة وفزان وطرابلس وأمتدت إلى السودان بل وأمتدت إلى الحجاز (زاوية ابن أبى قبس) .

كانت هذه الزوايا هى الركائز الحقيقة لبناء الإنسان العربى المسلم من مختلف

النواحي الروحية والتربوية والنفسية، ثقافة وعبادة وعملا مادياً وممارسة للحياة . كانت هذه الزوايا مدارس لتحفيظ القرآن ومراكز للاصلاح الديني والاجتماعي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعاهد علمية وثقافية ودوراً للقضاء والفتوى وميادين للتدريب على الرماية والفروسية ومزاولة مختلف المهن وممارسة فلاحة الأرض وزراعتها وقد أمتدت الزوايا الخمسة والخمسين إلى السودان وتشاد السودان الشرقي وبرقة وسيوه ، وكان المنهج الفكري فيها هو منهج المجددين فقد أستطاع أن يجمع بين أمرين :

(أولا) التحرر من الجمود والتقليد وتحرير العقيـــــدة وتعميق مفهوم التوحيد .

(ثانياً) تنقية الطرق الصوفية من مفاهيمها المنحرفة ودفعها إلى العمل الإيجابي البعيد عن مفاهيم الجبرية أو الاتحاد .

وكان الإمام السنوسي بإجماع آراء مؤرخيه يمقت تعصب المتزمتين وسكون الجامدين وينادي بتطهير العقيدة مما ألصق بها من خرافات وأوهام وشوائب - يقول المؤرخ التركي « زاده أحمد حلمي » : إن الطريقة السنوسية قد أسست على حكمة عملية واجتماعية وإن أساسها هو الأخوة والتعاون وإن الطريقة السنوسية ما هي إلا جمعية سياسية أفـكارها ومقاصدها معلومة لدى خواص الأخوان والخلفاء والمشايخ والزعماء » .

وكان السنوسي في طليعة المجددين المصلحين ، إذ كان يأخذ على متعصبي المذاهب الإسلامية خصوماتهم وخلافاتهم مؤمناً بأن ذلك من العوامل التي تعوق حركة البعث الإسلامي ، والنهوض بالمسلمين ومقاومة الغزو الاستعماري الداهم ، موقناً بأن الإسلام يجاري تطور الأزمان وتحول العصور ويأخذ مكانه الأول من كل تقدم تقيضيه سنة الطبيعة .

وهكذا لم يتوقف عمله عند بناء الأفراد بناءاً قائماً على ثقافة العقل وثقافة القلب معاً ، وعلى مفهوم الإسلام ملتمساً من مصدره الأول « القرآن » .

وإنما خط خطوة جديدة بحركة اليقظة حين دعا إلى تحرير الفكر الإسلامى من « التقليد الأعمى والتسليم العاجز » وطهر السنة المحمدية من الأقوال المشوبة والأساطير الموروثه ، ورفض مفهوم الصوفية التقليدية الزاعمة بأن الإسلام ليس من شأنه الدنيا أو أن المسلم ليس من شأنه المادة . ودحض القول الذى كان يردده خصوم الاسلام من أن ما عليه المسلمون من ظلام الفكر وخدر الشعور إنما هو مصدره الدين أو روح الإسلام .

ويتمثل مفهومه فى تحرير الفكر من قيد التقليد واجتهاده فى فهم الاسلام فى مؤلفاته وأبحاثه وفى مقدمتها : « المسائل العشر » و « إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن » .

فقد كشفت هذه الأبحاث عن اجتهاده فى أمرين خطيرين فى حياة المسلمين هما : التصوف والفقه ، وقد حدد موقفه من التصوف فى عبارات واضحة :

« الصوفية يزنون سلوكهم بمبادىء الشريعة ولا يعيبهم إلا الجهلة بعلومهم أو المستعصبون عليهم . السنة هى المرجع وهى الحاكة على الخطأ والصواب لأنها حجة على الجميع وليس هناك أحد حجة عليها .

« نعرض ماجاء عن الصوفية على الكتاب والسنة فما قبلاه قبلناه وإلا فلا نقبله . نحفظ ود الصوفية ولا ننكر عليهم إلا ما خالفوا فيه الكتاب والسنة » .

وعنده أن « التصوف المعتدل المبنى على السنة : هو طريق النفس إلى الخلاص من الآثام ، والأرتقاء فى مراتب الكمال البشرى » ، ومن ثم فقد دعا إلى تحرير

التصوف من الشطح والغلو والتواكل المميت لشخصية المسلم والدافع له على الاعتماد على غيره فى رزقه .

وقد واجه أفكار وحدة الوجود والاتحاد والحلول وهى التى دخلت على التصوف الإسلامى من فلسفات الهند القديمة فى صراحة وقوة . يقول فى كتابة المسائل العشر :

فالذى يفنى من العبد على التحقيق صفاته لا ذاته ، كما يفهمه الجاهلون ، الذين كذبوا على الله وأعتقدوا الحلول والاتحاد ، وإن وقع من أحجاب الشطح ذلك فلا يعول عليه ، لأن الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى » .

وقد وجه السنوسى التصوف إلى معينه الأصيل الذى تمثل من خلال تاريخه الصحيح ، وهو « التربية » متفقاً مع الأمام الغزالى من حيث أن التصوف هو طريق الوصول إلى المعرفة الحقة .

* * *

وموقفه من « الفقة » يكشف عن جوهر فكره كأمام مجتهد: فهو مؤمن بفتح باب الإجتهاد للقادرين عليه وإرجاع الأقوال كلها إلى مصدرها الأصيل من الكتاب والسنة مجاهراً بالعداء للتقليد المطلق رافضاً القول بتحريم الإجتهاد وضرورة تقليد أحد الأئمة الأربعة وقد بنى دعوته على أساسين إثنين: تاريخى وعقلى .

« تاريخى » : حيث أثبت أن السلف الصالح لم تكن تعتمد إلا على الكتاب والسنة وأثبت أن المجتهدين لم ينقطعوا فى أى جيل من الأجيال الإسلامية وما دام هناك مجتهدون فقد سقطت دعوى القائلين بغلق باب الاجتهاد .

وفى كتابه الأيقاظ : دعا إلى وجوب الإجتهاد فى كل زمان ، ووجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة، وعنده أنه على العامى أن يسأل المفتى عن دليله الذى استند إليه فى فتواه أو حكمه فإذا أخبره بالدليل أقتنع وإلا تركه إلى غيره ممن هو أقدر منه على الأتيان بالدليل وهذا هو اجتهاد العامى .

وهو لا يرى لغير الكتاب والسنة « وجوب الأتباع » ، بل يدعو إلى الاجتهاد ومباشرته فعلا ، ويرى أن الاجتهاد « ضرورة عقلية » لأن فتح باب الإجتهاد يجعل لدى المسلم حيوية وتمسكا بالإسلام حيث يجد فيه الحلول الملائمة بالنسبة للمشاكل التى تجد فى كل زمان .

* * *

أما العمل الضخم الذى حققه فعلا فهو نشر الإسلام فى قلب إفريقيا على نحو رائع ، فقد كانت زاوية جغبوب مدرسة كبرى لأعداد دعاة الإسلام وبعثهم إلى بحيرة تشاد وقلب إفريقيا فقد استطاعت السنوسية إن تنتشر حتى بلغت البحر الأدنى وأصبحت بحيرة تشاد هى مركز الإسلام العام فى أواسط إفريقيا .

وكان السنوسى ورجاله يربون صغار الشباب الأفريقى فى جغبوب وغدامس حتى إذا أتموا دراستهم وتعليمهم أعادوهم إلى بلادهم، وقد استطاعوا أن يطلقوا كل عام مئات من الدعاة يبعثون الإسلام فى جميع جوانب افريقيا من ساحل الصومال شرقاً إلى سواحل السينغامبية غرباً هذا بالإضافة إلى أتباع السنوسية من التجار والدعاة الذين انطلقوا بوحى من إيمانهم بين الأقوام الفتشيين وبنوا زوايا عديدة فى هذه الأقطار الواسعة الممتدة من شمال افريقيا إلى أقاصى السودان وأستطاعوا من بعد أن يؤسسوا ممالك مثل سلطة رابح وأحمد وساموري .

وهكذا افتتح الأمام محمد على السنوسى الطريق أمام إنتشار الإسلام بين الوثنيين

الأفريقين فأهتدت بدعوته ممالك شتى فى أفريقيا .

وقد أفاد هذا المصلح من الحركات التى سبقته والدعوات التى تقدمته فتجنب مآخذها وأستطاع أن يوسع آفاق عمله فلم يقصره على ناحية واحدة ، وأولى اهتمامه بالتربية العملية وتوسيع دائرة الإسلام .

وكان من آية ذكائه أنه تجنب الاصطدام بالدولة العثمانية ، التى كانت تخشى مثل حركة محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وتقاومها ، وقد أحس الإستعمار الزاحف بمدى الخطر الذى يتمثل فى اليقظة الاسلامية على النحو الذى قام به السنوسى فحاول الإيقاع بينه وبين الدولة العثمانية فى مؤامرة للقضاء عليه غير أنه بحرصه وذكائه استطاع أن يتجنب مثل هذا الاصطدام مع الدول العثمانية ومع الاستعمار فى هذه المرحلة الدقيقة وذلك حتى يتم بناء دعاته وأتباعه على نحو يجعلهم قادرين على الصمود فى معارك الجهاد والمقاومة .

وقد سجل المؤرخ الفرنسى أثر السنوسية فى مقاومة الجزائر للاستعمار الفرنسى حين قال : أن السنوسية هى المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا فى الجزائر واليد المدبرة لجميع نكبات فرنسا فى الشمال الأفريقى وفى السنغال .

ومن الحق أن السنوسية أستطاعت أن تغذى مختلف الثورات التى واجهت الفرنسين فى إفريقيا وخاصة ثورات الجزائر المتوالية بعد الإحتلال الفرنسى .

* * *

ولد الإمام محمد على السنوسى ، (والجزائرى الأصيل من قبيلة مستغانم) بمقاطعة وهران من محلة الواسطة فى ٢٥ ديسمبر ١٨٨٧ وقد بدأ حياته بالتزود من العلم ثم رحل إلى فاس ١٨٢٢ حيث ألتحق بجامعة القرويين ، ثم عين مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس وتنقل فى إنحاء المغرب لدراسة الحركات

الإسلامية بها وكان قد اتجه إلى تأمل حاكم المسلمين ، فبلغ عين مهدى فقاس فاغوات وغيرها حيث درس جهود الطرق التيجانية والقادرية والناصرية والشاذلية والجزولية ، وألتقى بالشيخ الدرقاوى أكبر الشخصيات الدينية فى المغرب وأقواها نفوذا .

فلما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ يمم نحو الشرق للاطلاع على أحوال العالم الإسلامى فزار فى طريقه إلى بيت الله الحرام قابس وطرابلس وبنغازى ، وبلغ مصر وألقى دروساً فى الأزهر أثارت الريبة من حوله ، حيث خرج على المألوف التقليدى فاتهموه بالإبتداع فى الدين ، فترك مصر إلى مكة وقابل بها أحمد بن إدريس الفاسى ، وقصد معه إلى اليمن وأقام معه حتى توفى فعاد إلى مكة .

وبها اصل دراسة العلوم الدينية والعربية والمذاهب الصوفية وأخذ يرسم خطة إيجابية لعلاج أمراض المسلمين، بعد أن ألم بأدواء المجتمعات الإسلامية وعيوبها حتى يحقق له عمله الكبير الذى قام به فى بناء الزوايا وتربية رجالها فى برقة والجبل الأخضر وجغبوب .

وللامام السنوسى نحو ٤٠ كتاباً ورسالة منها: الدر السنية فى إخبار السلالة الأدريسية و (إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن) .



محمد بن العربى العلوى

مجدد الاسلام فى المغرب

١٩٦٤ م

شهد « عالم الإسلام » فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى (يقظة) فكرية إسلامية عربية ، تناثر فيها المصلحون والمجددون والمجتهدون فى مختلف وحدات الأمة العربية والعالم الإسلامى ، فحيثما التمست فى قطر من الأقطار ضوءاً ، وجدت منارا عاليا ، ففى الهند ، والجزيرة العربية والمشرق العربى برز أعلام : من أمثال الأئمة : محمد بن عبد الوهاب والشوكانى وشبلى النعمانى والألوسى وكاشف الغطاء وجمال الدين الأفغانى والبيطار والقاسمى . فاذا يممت شطر المغرب العربى وجدت السنوسى الكبير . أما فى المغرب الأقصى فكان العلامة «محمد بن العربى العلوى» هو حامل لواء الإصلاح منذ ١٣١٦ هـ إلى أن توفى ١٣٨٤ هـ خلال فترة لا تقل عن سبعين عاماً كان خلالها يمثل القيادة الفكرية الإسلامية فى المغرب كله وقد نشأ الأجيال من المجاهدين والكتاب والمفكرين فى مختلف مجالات السياسة والاجتماع والدين والأخلاق .

* * *



وقد ظل حياته كلها التى أربت على خمسة وثمانين عاماً ، مناضلا جريئاً قوى القلب جهير الكلمة ، لا تتوقف معاركه أو خصوماته مع المعارضين، شأنه فى ذلك شأن أستاذه ورائد حركة الإصلاح الإسلامى «ابن تيمية» فقد هز العلوى الحياة الفكرية الإسلامية وكشف عنها ذلك الغشاء الذى خلفته فترة التخلف والضعف والجمود والتقليد ، وأبان عن جوهر الإسلام وفكره المتألق ، فى بساطته وسلامته وصفائه، وكشف قدرته على مواجهة العصور والبيئات، ومدافعة الحضارات والمدنيات ، يوجهها ويعدل نهجها دون أن يصادمها أو يقف فى وجهها .

* * *

ولقد كان شأن هذا الجيل من المصلحين الأعلام ، جد خطير ، فقد كانت مرحلة الجمود والجبرية التى فرضتها مرحلة التخلف عن مفهوم « التكامل » و« الوسطية » فى الإسلام بالانحراف إلى جانب الروح دون العقل ، والعاطفة دون الفكر ، نعم، كان أثر هذه المرحلة عميقاً فى النفوس والبيئات والمجتمعات، وكانت الوراثيات التقليدية قد فرضت على « جوهر الإسلام » غشاءاً كثيفاً ، وتركت قشرة جامدة ، وكان لا بد لكى يكشف الإسلام عن قيمه الأساسية من أن يزيل هذا الغشاء الكثيف ، وأن يطلع الإنسانية من جديد على إصالته ، وليكون ذلك سلاحاً يواجه به ذلك الغزو السياسى والعسكرى والفكرى الغربى الذى فرض نفسه على عالم الإسلام منذ احتلت الجزائر ١٨٣٠ ، ثم اتصلت حلقات الاحتلال وامتدت لتطوق عالم الإسلام كله .

* * *

فى هذه المرحلة برز « محمد بن العربى العلوى » ليحمل لواء الإصلاح .

وقد كان دعاة الاصلاح والتجديد فى الفكر الاسلامى أحد رجلين: رجل يحمل القلم ويصحح المفاهيم ويكشف عن الحقائق . وقد كان عمل مثل هؤلاء المجددين بطىء الأثر ، وكان منهم الألوسى والشوكانى وشبلى والنعمانى.

ورجل يحمل لواء الإصلاح بالتوجيه من خلال كيان المجتمعات وعن طريق الاقناع والمواجهة للجماعات فى المساجد والمعاهد ، وذلك مافعله (محمد بن العربى العـــلوى) وهو مثيل لما فعله ابن تيمية ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وعبد الرازق البيطار ، وجمال الدين القاسمى ، وقد واجه أمثال هؤلاء خصومة عنيفة وتحدياً خطيراً من العامة ومن قوى الاحتلال والاستعمار التى كانت حريصة دوماً على أن يظل المسلمون غرقى فى مستحدثات جامدة اتصلت بدينهم من خلال رحلة طويلة ، مع الزمن واتصال بثقافات أمم متعددة ، وإضافات وإسرائيليات وكتابات الباطنية والصائبة وشبهات الفلسفات والوثنيات المتعددة، والشعوبيات المتجددة ، وضعف القيادة الفكرية فى مرحلة ضعف الدولة الاسلامية وانقسامها وصراعها ، وقد كان هذا الانحراف عن مفهوم الاسلام « فكرياً » بالتجزئة والفصل بين ثقافة العقل وثقافة الروح ، أو بالانحراف عن مفهوم الاسلام « اجتماعياً » بالتخلف فى مجال العلم والجيش والقوة ، كان ذلك كله من عوامل التمزق الذى أتاحت الفرصـــة لقوى الغزو الغربى الـكبرى بالتقدم على مختلف جبهات العالم الاسلامى ، بغداد ودمشق والقاهرة والمغرب .

هنالك هب هؤلاء الدعاة المجاهدون يعملون فى سبيل تحرير القيم ، وتصحيح المفاهيم ، وإزالة الغشاوة عن جوهر الإسلام ، وكذلك كان الإمام

« محمد بن العربى العلوى » هو حامل لواء الإصلاح فى هذه المرحلة خليفة لمحمد بن كنون وشعيب الدكالى .

* * *

ولعل أبرز ما يتمثل فى حياة العربى العلوى هو أنه شاهد احتلال فرنسا المغرب منذ بدأ زحفها عام ١٩٠٠ على ثوات و ١٩٠٧ على وجده و١٩٠٨ على الدار البيضاء ثم سيطرتها الكاملة على المغرب عام ١٩١١ . وكان هذا هو ما دفعه إلى العمل عن طريق المجال الوحيد الذى عرفه المصلحون فى هذه الفترة: ميدان العلم وتصحيح المفاهيم .

وكان الإمام محمد عبده قد زار فى هذه المرحلة تونس والجزائر قبل وفاته عام ١٩٠٥ ، ثم أصبح لمجلة المنار التى يصدرها تلميذه « رشيد رضا » مدرسة كاملة هناك تجرى فى نفس الاتجاه الذى سار فيه العلامة العربى العلوى .

ومن حق أن هذه المدرسة الاصلاحية التى كانت ترى فى « التوحيد » سلاحاً ضخماً ترفعه فى وجه الاستعمار والاستبداد على السواء ، قد استطاعت أن تعمل فى كل وحدات العالم الاسلامى وأن تواجه النفوذ الغربى الذى كان يعمل على تحطيم مختلف مقومات الفكر الإسلامى : اللغة والتاريخ والدين والتراث ، وأن تقاومه بالدعوة إلى التوحيد والتحرر من الجبرية ومن الاضافات التى أضيفت فى عهد الضعف .

وقد استطاعت فى خلال نصف قرن أن تعيد « الإسلام » إلى مفهومه الأساسى وأن تكشف عن جوهره الأصيل ، مؤمنة بأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة إلى تحقيق الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والحصول على الأسلحة

القادرة على مقاومة النفوذ الاستعمارى والتحرر منه ، فقد أثار الاستعمار على (الإسلام) حملة ضاربة وحاول أن يصوره بصورة أديان أخرى وقفت فى وجه النهضة والحرية والعلم ، وأراد أن يصور قضية التأخر والضعف التى عاشها المسلمون فى القرنين الأخيرين وكأنما هى راجعة أساساً إلى الإسلام، وقد استطاع هؤلاء المصلحون أن يكتشفوا هـذا الزيف وأن يؤكدوا حقيقة جوهرية : هو أن التخلف والضعف وسقوط عالم الإسلام فى قبضة النفوذ الأجنبى إنما كان مصدرها الأساسى هو الانفصال عن قيم الإسلام ومقومات فـكره ، وجوهر مفاهيمه .

فقد أعلنوا إن الإسلام لا يعارض الحضارة ولا يضاد العلم، ولا يرفض النهضة، بل هو أداة أكيدة فى الحرية والقوة والبناء والحضارة، وآية ذلك أنه حين التمس « المسلمون » جوهره ومفاهيمه ومقوماته استطاعوا بناء حضارة ضخمة ، كان الإسلام عوناً فيها على العلم ودافعاً إلى الحضارة ، ولم يكن عائقاً ، ولا جامداً ولا حائلا ، بل لعله للمرة الأولى فى تاريخ الحضارات الإنسانية استطاع ـ أى الإسلام ـ إن يضفى على الحضارات (روح الضمير) ، وعلى النهضات (طابع الحق) وأن يجعل المعنى الروحى ممتزجاً بالمعنى المادى فى مختلف مجالات العلم والسياسة والاجتماع والاقتصاد وأن يجعل « الخلق » أساساً وجوهراً لـكل هذه القطاعات من المجتمع والحضارة وذلك ببناء الفرد بناءاً سليماً ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع الناهض .

* * *

عاش شيخ الإسلام: محمد بن العربى العلوى حياة خصبة رأى فيها المغرب خلال مراحله الثلاث : قبل الاحتلال خلاله وبعده ، وشارك فى هذه المراحل مشاركة فعالة، ذات طابع ايجابى قوامه مفهوم الإسلام فى التجديد والإصلاح،

وقد تقلب فى كثير من المناصب خلال هذه المرحلة الطويلة : أستاذا فى جامعة فاس ، وقاضياً ، ووزيرا ، ومفتياً عاماً ، وشارك فى الحركة الوطنية التى انبثقت أساساً من حركة الاصلاح الدينى وكان بالغ الأثر فى توجيه أعلام هذه الحركة الذى كانوا جميعاً من تلاميذه ومريديه، كما استطاع أن يمد أثره فيربط بين حركات الإصلاح والتجديد فى شمال أفريقيا ، حيث قامت فى الجزائر حركة الإصلاح التى قادها الأمام عبد الحميد بن باديس والتى كانت بعيدة الأثر فى الحفاظ على المفاهيم الثلاث : الجزائر أمة العربية ولغة الإسلام ديناً .

غير أن العلامة العربى كان جريئاً جهيراً قادرا فى ميدان المخاصمة والمعارضة والمساجلة لعلماء الدين المخالفين للتقدم والوطنية وشيوخ الطرق الممالئين للاستعمار . وكانت جرأته تسلمه إلى السجن ولـكنه لم يكن يخشاه ، مؤمناً بأنه على الحق، معدا نفسه له إعداد ابن تيمية فى قولته المشهورة : « أن سجنى خلوة، وتغريبى سياحة ، وقتلى شهادة » وكانت عدته فى مقاومة النفوذ الاستعمارى «الزهادة» فى الحياة الخاصة وقلة الحاجات التى تجعل صاحبها حريصاً على متاع الحياة ، فقد كان يعيش فى بساطة مأكل وملبس ومسكن ، فإذا ما صادم خصوم وطنه أو دينه، لم يجد فارقاً كبيرا بين حياته خارج السجن وداخله ، يعينه على ذلك إيمان لا يتزلزل ، وحرص على زاد الوحدة ، يتمثل فى تلاوته للقرآن وحفظه .

وقد بلغ من حماسته أن طلب عام ١٩٤٨ التطوع فى الجيش العربى للجهاد فى فلسطين وسنه إذ ذاك سبعون عاماً ، وقد جاهد من قبل وهو فى سن الشباب عندما بدأ الاحتلال الفرنسى وحمل السلاح فعلا .

وهو عالم عصامى كون نفسه ، واستطاع بشخصيته الرائعة الجبارة أن يستصفى طائفة من التلاميذ المخلصين ، وكان لعلمه وشجاعته ونزاهته أبعد الأثرا فى « الصورة » التى أحبها فيه تلاميذه وخافها خصومه فلم يكن حريصاً

على متاع الدنيا ولم يمتلك عقاراً أو مالا » وعاش فقيرا ، حتى قيل أنه حين تولى القضاء فى فاس أول الحماية (١٩١١) كانت فترة ازدهر فيها الاتجار بالأراضى ، وجر ذلك ربحاً عظيما للقضاة ، أما هو فلم يستفد من ذلك شيئاً ، وذلك من فرط حرصه على أن تظل شخصيته المجاهدة المصلحة خالصة لا تشوبها شائبة ترد عنه أولياءه وخلصائه أو تلقى على كلمته ظلا من التعريض والتشويه .

وهو إلى ذلك لم يخلف إنتاجاً مكتوباً شأنه فى ذلك شأن جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول أنه (يؤلف) الرجال لا الكتب ، فقد كان «العربى» زاهدا فى الكتابة ولكنه كان حجة فى الحديث والسجال .

ومن خلال قضاء فاس والتدريس بجامعة القرويين والمدرسة العصرية الثانوية الأدريسية ومدرسة ماء العينين والمدرسة الناصرية التقى به بعديد من الشباب الذى آمن بمجرى فكره ومفهومه فى الكشف عن جوهر الإسلام ، والتحرر من قيود الجبرية التى فرضتها ظروف الضعف والتأخر ، وكان ذلك سلاحه فى مقاومة النفوذ الاستعمارى .

* * *

ويعد الإمام العربى واحدا من أئمة العصر الحديث وقادة الفكر العربى الاسلامى حيث جمع بين مفهوم التصوف ومفهوم الشريعة ، وزاوج بين العقل والنقل ، والتقى بفكر العلامتين الكبيرين : الغزالى وابن تيمية وجمع بينهما فى مفهوم متكامل .

وقد كان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا على مثل هذا المثال ، بدأ كل منهما حياته متصلا بالفكر الصوفى ثم بلغت به ثقافته وتكامل فهمه للاسلام أن يربط بين الروح والعقل والشريعة والحقيقة ، وبذلك استطاع الفكر الإسلامى العربى من خلال هؤلاء المجددين المصلحين المجتهدين : أن

يعود إلى صميم مفهومه ، وجوهر مقوماته ، وأن يجد ذلك السلاح القوى لمقاومة الاستعمار والتغريب جميعاً . وفى خلال هذه السنوات تتقارب مفاهيم المسلمين من خلال مذاهبهم وفرقهم — وتجرى على سنة التوحيد والتكامل . وقد قطعت فى طريق ذلك مرحلة طويلة ولم يبق إلا القليل جدا حيث يلتقى المسلمون جميعاً على وحدة فكر — وقد تخففوا من قيود مذاهبهم والتعصب لها — على مفهوم الإسلام الأصيل الذى رسمه «القرآن» وبلغه «محمد» مفوتين بذلك الفرصة على النفوذ الاستعمارى الذى يحاول أن يبقى على خلافات ليست جذرية ولكنها خلافات فى الفروع ، حيث يبقى جوهر مفهوم المسلمين فى عالم الإسلام كله صحيحاً . وتبقى مقومات الإسلام وقيمه الأساسية : تجمع ولا تفرق ، وتحول دون من أثارة خلافات تاريخية قديمة ، لم تكن أساسية بقدر ما كانت مرتبطة بالسياسة نظم الحكم فى فترات بعيدة من تاريخ الإسلام .

والمعروف أن السلفية كانت حركة مقاومة للنفوذ الاستعمارى حيث انحرف بعض رجال الطرق الصوفية وآزروا المستعمر ، ومن هنا كانت الحركة الوطنية وليدة الدعوة إلى التوحيد والإصلاح العقائدى . ولكن هؤلاء المصلحون لا ينسون أبداً ذلك الأثر الضخم الذى قدمته الحركة الصوفية لعالم الإسلام فى خلال القرون الأربعة الأخيرة حيث استطاعت أن تنشر الإسلام وتوسع آفاقه وتضم إليه ملايين كثيرة تزيد عن عدد أهله السابقين من العرب والفرس والترك . نعم ، استطاعت الحركة الصوفية ذلك فى مجموعها الضخم الكبير ، فلا يضيرها أن ينحرف بعض رجالها فى تلك الفترة ، مما كان رد الفعل له قيام حركة الإصلاح التى كان من أكبر زعمائها شيخ الاسلام محمد العربى العلوى ومن ثم اعتدل الميزان وقامت اليقظة الاسلامية العربية تجمع بين طرفيها صوفية تتحرر من تصرفات بعض قادتها وتجدد جوهرها بالشريعة ، وسلفية لا تستطيع وحدها

أن تمثل مفهوم الاسلام ، الذى هو جماع الشريعة والحقيقة ، والعقل والقلب ، والتصوف والفقه .

لقد نقل العلامة محمد العربى العلوى حركة الاصلاح الاسلامى من الكلمة الفردية ، إلى العمل الجماعى ، ومن النقد والمناصحة ، إلى تغيير المجتمع وتعديل تقاليده ومفاهيمه وإعادته إلى الجادة .

ولا شك كان لنزاهة خلقه ، واستعلائه على الغايات الفردية والذاتية ، وتمسكه بالقيم وإصراره على الحق الذى اعتقده من عوامل قدرته الكاسحة التى مكنت لدعوة التجديد الاسلامى فى المغرب .

(توفى فى يونية ١٩٦٤)

محمد مصطفى المراغى

مجدد الاسلام والأزهر

١٨٨١ — ١٩٤٥

« للمسلمين فى الأزهر أمال من الحق أن أنبه أهله لها :

أولا : تعليم الأمم الاسلامية المتأخرة من المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعـــرفة الفقه الاسلامى وتاريخ الاسلام ورجاله .

ثانياً : إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الاسلام فى العلوم الدينية والعربية العقلية وهى مجموعة مرتبط بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات .

ثالثاً : عرض الاسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد منه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعاً : العمل على إزالة الفوارق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة فى محنة من هذا التفريق ومن العصبية لهذه الفرق ، ودراسة أسباب الخلاف دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى تهدى إلى الحق ، وأن بعض هـذه المذاهب والآراء قد أحدثها الساسه فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ثم انقرضت تلك

المذاهب السياسية ، وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال ، وما أفتراه أهلها ، هذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن وجعلتها شيعا فى الأصول والفروع ، ونتج عن هذه التفرقة حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين . »

* * *

يتمثل إسم الامام المراغى فى العمل على تحرير مناهج الأزهر من التقليد، بتحقيق الهدف الذى رسمه الامام محمد عبده وعمل له قبل أربعين عاماً فقد أتيح لهمالم يتح لأستاذه ، أن يلى منصب عمادة الأزهر وأن تتهيأ له من الفرص ما تمكنه من تنفيذ برنامج التطوير الذى أخرج الأزهر من ثوبه التقليدى القديم إلى حيث أستطاع من بعد مواجهه المناهج الحديثة للتربية والتعليم وبناء علماء جدداً يحملون لواء الفكر الاسلامى قادرين على مواجهة علوم العصر وتحديات الحضاره .

وقد وصف المراغى « أهل الأزهر » قبيل نهضته على نحو يكشف عن مدى التطور الذى تحقق بعد حين قال : « إن العلماء قد استكانوا فى القرون الأخيره إلى الراحة وظنوا أنه لا مطمح لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ، ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا توجد فيها روح العلم ، وأبتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة ، وجهلتهم الحياة ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وجهلوا ماجد فى الحياة من علم ، وما وجد منها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا أنفسهم له ، وأصبح الاسلام بلا حملة ولا دعاة : »

* * *

ذلك بحق هو العمل الأكبر الذى شغل المراغى واستطاع أن يحقق فيه خطوة كبرى ، وأن تكون هذه الخطوة متابعة للهدف الذى رسمه الامام محمد عبده التى حالت عوامل الضعف والجمود عن تحقيقه ، وهو عارف يقدر هذا الإمام وريادته فى هذا العمل حيث يقول :

« لا ننسى ذلك الكوكب الذى أنبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية فى فهم روح الاسلام وتعاليمه، ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن ، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق ، وذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن أمعن فى التاريخ ، الاستاذ الامام « محمد عبده » قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة[1] ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ، ونحن نتحدث عن الأزهر أن تجعل لذكراه المكان الأول فهو مشرق النور وباعث الحياة وعين الحياة الصافية التى نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التى نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير ».

وهكذا يبدو المراغى متابعاً لأستاذه فى هـذا المجال ، بالغاً قدراً أكبر مما بلغه الإمام ، وإن ظل الامام مثلا على ريادة كاملة فى الفكر الاسلامى كله وليس تجديد الأزهر إلا واحدا من أهدافه فى التجديد والاصلاح .

* * *

أما المراغى فقد أولى كفايته وبراعته فى سبيل وضع هذه اللبنة الضخمة فى بناء تجديد الأزهر وإصلاحه ، وأتيح له بحق أن يبلغ فى ذلك شوطاً له قدره المقدور ، فقد إستطاع أن يرسم منهجاً فلسفياً كاملا لنهضة الأزهر على النحو

(١) من خطاب للمراغى فى حفل تكريمه عام ١٩٣٥ .

الذى يمكنه من أداء دوره فى تجديد الاسلام ، تمثل هـذا المنهج فى عبارات له دقيقة :

« الأزهر هو البيئة التى يدرس فيها الدين الاسلامى الذى أوجد أمماً من العدم ، وخلق تحت لوائه مدينة فاضلة ، وكان له هذا الأثر الضخم فى الأرض فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إضافية ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا فى أدائها وهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ، ودينهم وأنفسهم ، إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف الماضين ، ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين وأصوله وفروعه » .

وهو مؤمن بأن « الأزهر » قد نهض بعد عزلته التى طال أمدها ليشارك الأمة فى الحياة العامة وملابساتها وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكرى الذى نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه وعن شعوره بأن فى الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق فى التعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها » .

* * *

ويحدد المراغى عمل الأزهر فى خطوط واضحة دقيقة :

* تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتهـا إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنّة ومعرفة الفقه الإسلامى وتاريخ الإسلام ورجاله .

* أثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام فى العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهى مجموعة مرتبط بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات . وقد

حاول العلماء كشفها فعقبوا عنها وبذلوا جهوداً مضنية وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هـذه المجموعة دراسة واحدة ، فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق فى دراسة هذه المجموعة ، أمكنهم أن يعرضوا هـذه الآيات عرضاً صحيحاً صادقاً بلغة يفهمها أهل العصر الحديث .

* عرض الإسـلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً ، فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه ، ومن الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

* « العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق » .
« ومعروف لدى العلمـاء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها ، دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق (خاصة) وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينيـــة لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها وهـذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم ، وجعلتها شيعاً فى الأصول والفروع ، ونتج عن هذه التفرقة حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال فى فروع الفقه الصحيح إن ولد الشافعى كفء لبنت الحنفى ، ومثل ما يرى فى المساجد عن تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة »

* دراسة الفقه الاسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وأن تدرس

قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، والغاية من الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام مجمع عليها والنظر فى لأحكام الاجتهادية بما يجعلها تلائم العصور والأمكنة والعرف وأمزجه الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء» .

هذا هو المنهج الذى رسمه « المراغى » لإصلاح التعليم فى الأزهر ، وهو فى نفس الوقت خطة تجديد وإصلاح للفكر الاسلامى نفسه، ودعوة حقة إلى إعادة صياغة مفاهيم الإسلام من جديد على نحو يلتمس منابعه من القرآن الكريم .

ولم يقف المراغى عند رسم الهدف بل رسم أيضاً الخطة العملية :

« صار من الحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر أن يغير التعليم فى المعاهد ، وأن تكون الخطوة إلى هذا جريئة يقصد بها وجه الله تعالى : يدرس القرآن والسنة دراسة جيدة ، تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وإبتدع . يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهبه ، تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ليظهر للناس يسره وقدسه وإمتيازه عن غيره فى مواطن الإختلاف، وأصول المذاهب » :

وتوجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة بما يحافظ على جوهر الدين ، وكل ما هو قطعى فيه محافظة تامة ، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالإجتهاد بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل وكل ما هو موافق لمصلحة العباد .

« ليس لنا حتى اليوم مراجع فى القضاء إلا تلك الكتب المؤلفة فى القرون الماضية ، وهى كتب معقدة لها طريقة خاصة فى التأليف لا يفهمها كل من

يعرف اللغة العربية ، وإنما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها ، وعرف اصطلاح مؤلفيها . وأيضاً فإن العلوم الشرعية التي يحتاج إليها القاضي مشتبكة، يستمد بعضها من بعض ، ولا غنى للفقيه عن تعرف علوم كثيرة ترتبط بالفقه ولست أدافع عن الكتب القديمة ، وإنما أدافع عن الموجود الذي قضت الضرورة بوجوده ، فنحن في حاجة إلى رسل بين القديم والحديث ، أولئك الرسل يجب أن نعلمهم القديم والحديث ليخرجوا للناس حديثاً جديداً ، فلابد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون معه تصوير ذلك في أسلوب حديث .

«وفي الدين الإسلامي عبادات وعقائد وأخلاق وفقه في نظام الأسرة ، وفقه في المعاملات مثل البيع والرهن ، وفقه في الجنايات، وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة ، هوجم من أتباع الأديان السابقة ، وهوجم من ناحية العلم وهوجم من ناحية القانون ، لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جداً تتطلب معلومات كثيرة ، وتتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ، ومعرفة ما في الأديان السابقة ومعرفة ما يجد في الحياة من معارف وآراء ، ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الإقناع ، وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهماً صحيحاً وتتطلب معرفه اللغة وفقهها وأدابها ويتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره ويتطلب العلم بقواعد الاجتماع ، وتلك مهمة الأزهر الجديد » .

* * *

هذه هي مفاهيم المراغي في مجال تجديد الأزهر أما في مجال «تجديد الفقه» فقد كان قادراً على « الاجتهاد » والخروج من دائرة « التقليد » بما يحقق مسايرة الإسلام للتطور ؛ يقول :

« إن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة ، وما وقع بينه وبين أصحابه وزفر وابى يوسف يجد أن التجديد فى الأحكام ميسور لنا ، وفى أهون مستطاعنا ، ويجدأن بطلان الدوام لأحكام معينة بقاءها حيث يبقى الدهر من الأمور البديهية ، ولقد وضع علماء الحنيفية قاعدة تشريعية هى أن العرف العام يعمل به ، والعرف الخاص أيضاً ، والعرف العام عندهم بخصوص النصوص والقياس ، ويترك به ظاهر الرواية ، وكذلك يترك ظاهر الرواية بالعرف الخاص ، وقال بعض فقهائهم أن من شروط المفتى والقاضى أن يكون ملماً بأهل زمانه وأحوالهم وإلا كان ضرره أكثر من نفعه، إن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير » .

ويقول : هناك أمور ينبغى أن يترفق الفقهاء فيها بالناس وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى من أخص صفات الإسلام ، يراعونها فى العمال والمرضى فيقربون الناس إلى الإسلام ولا يوقعونهم فى الحرج ، وعندى أن من يفطر فى رمضان بعذر ويصرح بذلك أطهر ممن يفطر من غير عذر .

إن الشريعة قد جاءت بالخير ،وما دسه بعض المتأخرين بجهلهم أو تساهلهم يجب أن يبقى منها . أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه » .

وقد تمثل مفهوم الإجتهاد والتجديد عند المراغى خلال عمله فى لجنة الأحوال الشخصية عند البحث فى أمور الهبة والوصية والوقف :

كان يقول لأعضاء اللجنة : صغوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان ، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الاسلامية يطابق ما وضعتم .

* * *

ومجال ثالث ساهم فيه الإمام المراغى وقدم عملا إيجابياً ذلك هو مجال الدعوة إلى الإسلام ، ومقاومة الأديان لنزعه الإلحاد .

يقول فى رسالته إلى مؤتمر الأديان :

« إن الأديان كلها قد اتحدت فى الإنسان على أصل راسخ من غريزة التدين ، ودفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة عادلة، ترقب النيات وتحكم الضمائر ، وإن هذه الحياة سائرة إلى غاية من المسئولية والمجازاة ، ففى التدين من هذا التأليه والخضوع لله ، وتوقع محاكمته عوامل لها أكبر الأثر فى دفع الإنسان إلى الخير والبر، فقد عنى الإسلام بفكرة الأخوة الإنسانية ، فقد نبه القرآن الكريم إلى وحدة الأبوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم » ودعا المسلمين إلى إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان الأخرى فى حالة العدوان .. »

وهو يدعو المسلمين إلى تنقية دينهم من شوائب البدع قبل دعوة الناس إليه :

« لقد انتشرت فى الشعوب الإسلامية حتى العريقة منها فى الدين بدع ، حلت لدى العامة محل الأصول الأولية ، وهى التى يقع عليها الناقد لأحوالهم، فى كل مظهر من مظاهر حياتهم ، يجب على المسلمين مع تفكيرهم فى دعوة الأمم إلى ملتهم أن يفكروا فى القضاء على البدع فى جماعتهم وأن يعملوا على ترقية أنفسهم إلى المستوى الذى يسترعى الأنظار إليهم لتقع دعوتهم المحل الجدير بها فى القلوب ».

* * *

تلك أبرز خصائص العمل الذى تصدى له الإمام المراغى وحقق فيه شوطاً ليس بالقليل ، وقد وقع ذلك فى المرحلة الأخيرة الخصبة من حياته منذ أختير شيخاً للأزهر عام ١٩٢٨ وحتى توفى عام ١٩٤٥ .

وقد أتاحت رحلة الحياة للمراغى تجربة خصبة وافرة كانت هى مصدر نضجه الباكر وقوته الدافعة إلى العمل حين أختير شيخاً للأزهر قبل أن يبلغ الخمسين بسنوات ثلاث، فكان أدنى سناً فيمن تولوا هذا المنصب الخطير ولعله رحلته إلى السودان وذكائه وتطلعه إلى الثقافات الغربية وإجادته اللغة الإنجليزية ، وصلته الوثقى بالشيخ محمد عبده كانت من الدوافع الهامة التى حققت له هذا العمل ، وربما كان عمله صدر حياته بعيداً عن الأزهر وفى مجال القضاء والإتصال بالناس قد منحه هذه المرونة العجيبة ، وهذا التجدد القادر على الفهم ، وهذه النظرة البعيدة وتلك القدرة على فهم مدى مسئولية الأزهر الخطيرة وصدق الرؤيا فى وضع خطة العمل النافذة .

* * *

وتاريخ حياة المراغى يرسم صورة أحد أبناء بلد المراغة، من أعمال مديرية جرجا ، نشأ كما ينشأ الشباب ، ثم اتصل بالأزهر وتلقى العلم على شيوخه واتصل بالشيخ محمد عبده وحضر دروس التفسير فى الرواق العباسى وأحرز العالمية عام ١٩٠٤ وعين فى نفس العام قاضياً لمديرية دنقلا بحكومة السودان ، ثم نقل إلى مدينة الخرطوم وعاد عام ١٩٠٧ إلى مصر مفتشاً للدروس الدينية فى وزارة الأوقاف ، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى السودان قاضياً للقضاء عام ١٩٠٨

وانتهى عمله وعاد إلى مصر عام ١٩١٩ حيث تولى منصباً للتفتيش بالمحاكم الشرعية ثم أصبح رئيساً للمحكمة الكلية فرئيساً للمحكمة العليا .

وكان من أعضاء لجنة إصلاح الأزهر ، ثم ولى منصب شيخ الأزهر (مايو ١٩٢٨) ومن هنا بدأ عمله فى إعداد قانون تجديد الأزهر ، وتقسيم الدراسة العالية إلى ثلاث كليات (الشريعة ، اللغة ، أصول الدين) غير أنه لم يلبث أن استقال (أكتوبر ١٩٢٩) حين تعثر مشروعه ، ثم أعيد فى (أبريل ١٩٣٥) على أثر حركة أزهرية ضخمة طالبت بعودته فبقى فى منصبه إلى أن توفى (٢٢ أغسطس ١٩٣٥) .

ومن أبرز أعماله :

(١) تقريره عن الأحوال الشخصية الذى صدر القانون المصرى عليه ولم يتقيد فيه بالمذاهب الأربعة وأخذ عن أكثر المذاهب المعتمدة .

(٢) تقريره فى إصلاح الأزهر .

(٣) فتواه فى جواز ترجمة القرآن .

(٤) أعماله فى تفسير القرآن .

وقد عرف ببراعة البيان وعذوبة الأسلوب ، وسهولة الأداء ، وعمق المعنى ، كما عرف فى أحاديثه بالبراعة وطلاقة اللسان .

وقد تحدث العلامة محمد كرد على عنه — وكان يرد مجلسه فى حلوان فقال :

فى إحدى جلساتنا فى دار الشيخ المراغى فى حلوان أيام كونه معتزلا الأزهر ، وكثيراً ما كانت تدوم الجلسة ثمانى ساعات ، تفضل وقرأ على

بعض تقاريره الدينية ومنها تقريره فى الأحوال الشخصية الذى صدر القانون المصرى عليه .

«وقد حلت تقاريره وتفاسيره من أساليب البلاغة ما يستكثر من شيخ أزهرى ، وفى الرسائل القليلة التى دارت بيننا نموذج من فصاحته وبلاغته ، وكان يـكتب دون تكلف بألفاظ عذبة رقيقة لا سجع فيها ولا ازدواج ، عبارته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين فى القرن الرابع والخامس، وتغلب عليه ألفاظ القرآن ، أما طلاقة لسانه فـكانت كبلاغة قلمه ، وربما ظن السامع وهو يتلو درسه أو عظته أنه يقرأ من كتاب أومن حفظه لأنه يشاهده وقد نسق كل فـكر إلى جانب أخيه .

« كان يستميل بحديثه قلوب سامعيه ،و تفعل فى نفوسهم نبراته اللطيفة، وإن كانوا ممن لا يوافقونه على آرائه كلها ، تأدب بأدب الدنيا وأدب الدين ، ولا تـكون إلى الغلو إذا أدعينا أنه قل من أمثاله من استجمعوا صفات العظمة الحقيقية . ، شأنه شأن أستاذه الشيخ محمد عبده لم يخلق مؤلفـــات كثيرة يودعها لباب علمه وزبدة تحقيقه وما خطته يمينه دعت إلى تسطيره الدواعى وقام به لأمور اقتضتها حالة عمله » .

والحق أن الإمام محمد مصطفى المراغى ثمرة من ثمار الأزهر،ورائد على طريق اليقظة الإسلامية والتجديد والإصلاح والاجتهاد ، وأنه خطوة تالية لأستاذه الإمام محمد عبده .

فقد كان يحبه ويجله ويتحدث عنه حديث العارف لقدره .

يقول : ودعته ليلة سفرى إلى السودان ليتولى قضاء مديرية دنقلة فى نوفمبر عام ١٩٠٤ فما قال لى: أنصحك بأن تـكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون

قاضياً وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم ، فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجروح .

وسألنى : هل تعرف تعريف « العلم » .

فقلت له نعم ،وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم فسردت بعضها.

قال : أسمع منى تعريفاً مفيداً : « العلم هو ما ينفعك وينفع الناس » .

وقال : هل أنتفع الناس بعلمك . قلت له لا .

قال : إذا أنت لست بعالم ، فأنفع الناس بعلمك تكن عالماً .

ومن حق أن يقال أن المراغى قد وضع قاعدة الإمام محمد عبده نبراساً لحياته كلها واستطاع أن يبنى لبنة جديدة فى بناء الأزهر،ويضيف اضافة بناء فى مجال تجديد الفكر الإسلامى .

● له بحوث فى ترجمة القرآن وفى التشريع الإسلامى .

* * *

موجز حياته :

ولد بالمراغة من جرجا من صعيد مصر عام ١٨٨١وتعلم فى الأزهر وتتلمذ على الشيخ محمد عبده ولى قضاء السودان ١٩٠٨ — ١٩١٩ عين شيخاً للأزهر عام ١٩٢٨ وتركه عام ١٩٢٩ وأعيد عام ١٩٣٥ فأقام حتى توفى عام ١٩٤٥ .

محمد مصدق

صوت الحرية فى إيران

١٨٧٩ — ١٩٦٧

« إن الشرق قد تيقظ وإن الأمم الشرقية قد حطمت الأغلال والسلاسل التى كانت تقيدها الواحدة بعد الأخرى وهى الآن تبتسم ساخرة هازئة من أولئك الذين لا يزالون يحلمون بأحلام الإستعمار الإمبراطورى ، فقد انقضى العهد الذى كانوا يستطيعون فيه مص دماء الشعوب الضعيفة ويختارون لها حكومات صورية زائفة ويرغمون شعوبها على تحمل الآلام والجوع والعرى» . مصدق

* * *

يعد « محمد مصدق » عـــلامة على الطريق الطويل المسير فى مقاومة الإستعمار البريطانى وتحطيم شوكته وسحق كبريائه فقد رسم للأجيال صورة واضحة عميقة لبطولة المقاومة فى الشرق وصدق التصميم على إعادة حق الأوطان إلى أهلها وفضح أساليب الغرب فى الخيانة والغدر واستغلال خيرات الشرق دون أصحابها .

فقد استولى الغرب على بترول إيران فى ظل ظروف مريبة وبوسائل غير

مشروعة واستطاع بقوته المادية المسيطرة فى الوقت الذى كانت شعوب الشرق تقاسى الضعف والجهل والأنزواء أن « يسرق » قناة السويس وبترول إيران ولؤلؤ الخليج الفارسى وأن يضع يده على سواحل الهند وأندونيسيا والجزيرة العربية .

ولكن اليقظة العربية الاسلامية قد أيقظت النائمين وكشفت الغشاوة وردت إلى أصحاب الأوطان قدرتهم على معرفة الحقائق، غير أن الاستعمار حرص دائماً على خلق طبقة من الحكام يسيرون فى ركابه ويقفون ضد إيمان شعوبهم بالحرية أو المقاومة .

وبين آن وآخر يظهر « زعيم بطل متحرر » لا يؤمن بالاستعمار ولا يسير فى ركابه، يستطيع أن يرفع صوته بكلمة الحق فتجتمع حوله الأمة ، وتؤيده ثم يتآمر الاستعمار عليه محاولا سحقه والقضاء عليه. ويكون للزمن والأحداث حكمها فى سير الأمور ، فإذا كانت شوكة الرجعية أقوى عزماً ، مؤيدة بالقوى المتآمرة فإنها سرعان ما تتغلب على القوى الوطنية وتجتاحها . ويكون إنتصار الغاصب بالمؤامرة لا بالحق . وقد حدث هذا لعرابى فى مصر ومصدق فى إيران .

لقد وجه مصدق أقوى ضربة إلى صدر الاستعمار عندما نادى « بترولنا لنا» فقد كانت إيران أكبر دولة منتجة للبترول فى الخليج الفارسى ومع ذلك فلم تكن تحصل إلا على الفتات . وكان الجشع الانجليزى يطوى أكبر قدر من أرباح البترول عن الشعب « صاحب النفط » الذى يقاسى الجوع والفقر. كانت أرباح البترول مائة مليون جنيه حيث لا تحصل منه إيران إلا على خمسة عشر

مايونًا وكانت حقول البترول تنتج سبعمائة ألف برميل فى اليوم وكانت الصيحة عارمة قوية هزت الشعب من الأعماق فلما عرضت بريطانيا أن تدفع خمسة وعشرون مليونًا من الجنيهات فى السنة لم تجد سميعًا . فقد أصبح تأميم البترول أمنية وطنية تملأ خيال كل إيرانى .

وفى مارس عام ١٩٥١ رفض البرلمان الإيرانى بزعامة مصدق عرض شركات البترول التى تملك بريطانيا (٥٣ فى المائة) من إسهمها والذى يمنح الحكومة الإيرانية خمسون فى المائة من أرباح البترول وأصدر البرلمان قراراً بتأميم البترول الايرانى وفى ٢٩ أبريل تولى مصدق الوزارة وطرد الانجليز من « عبدان » وتوقف إنتاج البترول الذى يبلغ ١٠ فى المائة من بترول العالم كله . وأقال الشاه « مصدق » عام ١٩٥٢ ولكن القوة الشعبية الثائرة أعادت مصدق إلى الوزارة واستمالت بريطانيا الشاه . ووسعت شقة الخلاف بين مصدق والقصر وفى إبان المعركة سقط « رزم اراه » رئيس وزراء إيران ، سقط فى المجلس قتيلا بأربع رصاصات أردته صباح ٧ مارس ١٩٥١ .

ووقف الغرب كله من مصدق موقف العناد . كانوا يريدون منه أن يجثو على ركبتيه حتى يقدموا له العون . وقال سفير أمريكا فى إيران (هنرى جرادى) . . « ومع وزارة مصدق الجديدة تلقيت تعليمات من وشنطون تريد أن توقف القرض المنتظر حتى يستمر فى عناده تجاه الإنجليز وبالتالى حتى لا يكون فى ذلك عمل عدائى من جهتنا للسياسة البريطانية » . وهكذا تضامنت أمريكا مع إنجلترا ضد مصدق .

وعندما يئست بريطانيا من الإتفاق مع مصدق بدأت فى العمل لإسقاطه حيث أخذت فى تجويع لإيران وخنقها إقتصاديا .

وقال مصدق « إن الاتفاق الذى يعقد تحت تهديد البوارج الحربية بدون رضى الأمة لا يمكن أن يوصف إلا بأنه مهزلة لا قيمة لها .

وأن الأمة عندما تعتمد على نفسها فى إدارة أمورها لا تنظر إلى أمثال هذه الاتفاقيات إلا على أساس أنها قصاصات من الورق ».

وصور مصدق هدفه من تأميم البترول فقال : نحن لا نقصد بتأميم الزيت الإيرانى تحقيق هدف تجارى أو مضاعفة دخلنا من الزيت .

ولهذا أقولها كلمة صريحة مدوية «لو أن شركة الزيت الانجليزية استمرت فى أعمالها لظل إستقلالنا مخدوشاً مهدداً .

وسخر مصدق من تهديد بريطانيا « إن اتخاذ أى قرار بشأن قناة السويس وبترول عبدان من حق الحكومتين المصرية والايرانية وحدها وليعلم الغربيون أن التهديد والوعيد والارهاب وإشهار رءوس الحراب وتوجيه المدافع والرشاشات نحونا ، كل هذا لا يرغم ملايين البشر على التسليم بالطغيان والعدوان » .

وظل الرجل يقاوم فى صمود باهر ، واستمرت المعركة رهيبة طويلة المدى، لم يضعف ولم يتخاذل وكانت أقوى الحجج التى أعتمد عليها مصدق هى مرضه الدائم . وعندما زار أمريكا نزل فى المستشفى بدلا من الفندق وكان سلاحه السياسى هو العاطفة وقد أطلق عليه الانجليز لقب «روبسبير إيران» .

وعندما عجزوا عن هزيمته تجمعوا ضده واتهموه بالخيانة العظمى ومحاولة

قلب نظام الحكم وزج به فى السجن وحوكم محاكمة كان فيها أقوى ما يكون بياناً وأصلب عوداً .

فقد أزعج قضاته وسخر بهم فقد كان يعرف أن الشعب معه وأن الذى يحاكمه هو الاستعمار وكشف عن مؤامرات الاستعمار وطالب بإعدامه وقال « لو أنكم أعدمتمونى لأشعلتم الثورة فى إيران »

ولم يضعف ولم يتخاذل ولم يحاول أن يبرر تصرفه .

ودخل السجن محكوماً عليه بثلاث سنوات (أغسطس ٥٣ـ أغسطس ١٩٥٦)

وفى كل مراحل حياة مصدق تلمس هذه الروح ، روح المقاومة والصلابة والفهم الحقيقى للاستعمار والقدرة الكاملة الجريئة على مقاومة الاستبداد الذى يتمثل فى صورة الطغيان الحاكم أو الولاء للمستعمر وهو فى ذلك عنيد صامد لا يبالى العواقب ولا يتردد فى التضحية ولا يهمه النتائج ولذلك فقد عاش أغلب حياته منفياً أو مسجوناً ولكنه كان صادق الايمان بفكرته فما يلبث أن يخرج من سجنه أو يعود من نفيه حتى يشمر ساعده للمقاومة من جديد .

* * *

ولد محمد ميرزا هدايت ، عام ١٨٨١ ، وتنحدر أمه من القوقاز وكان أبوه وزيراً لخزانة الشاهات فى إيران مدى ثلاثين سنة متصلة . ظفر بالدكتوراه فى القانون من جامعتها عام ١٩١٤ . وفى عام ١٩١٩ قاد ثورة سياسية عنيفة ضد معاهدة التحالف والصداقة التى عقدت فى ذلك الحين بين بريطانيا وإيران ، ونفى إلى خارج البلاد .

وفى عام ١٩٢١ عين وزيراً للمالية فطالب بإقصاء مئات من الموظفين الذين يتقاضون مرتبات ضخمة دون عمل . وخفض المرتبات الحكومية بنسبة خمسين فى المائة ثم عزل عن منصبه .

وفى عام ١٩٢٥ نصب الشاه رضا بهلوى امبراطوراً لإيران ، وعارض مصدق شرعية هذا التنصيب وظل يعارضه إلى عام ١٩٢٨ ، وكان الاستعمار مختفياً وراء هذا الحاكم فدفعه إلى أن يبطش به . قال له مصدق « من أين جئت لتحكم » ودارت معركة عنيفة انتهت بأن أعلن أنه يعتزل السياسة أحد عشر عاماً متوالية وبأمر الشاه زج به فى السجن عام ١٩٤٠ لمدة أربعة اشهر ونصف وفى عام ١٩٤٦ طالب بخروج الروس من البلاد ثم حمل لواء الدعوة إلى تأميم البترول فهز الاسد المجوز ولفت نظر الدنيا وقلقل مواقع الاستعمار وفتح باباً سيظل مصدق علماً عليه إلى وقت طويل . وكان مثلا للكبرياء الوطنى .

وقد صور موقفه فقال : أحب الشاه ولكنى أحب بلادى ولهذا أريده أن يملك ولا يحكم . الحقيقة أننى لم ارتكب إلا جريمة واحدة ، وهى أننى رفضت أن أحنى رأسى أمام رغبات الأجانب. بل أبعدت أيديهم عن مواردنا القومية ، لقد كافحت لانقاذ ايران وبعد خمسين عاماً من التجارب فأنا على ثقة من أن إيران لن يتم إنقاذها إلا إذا حصلت على استقلالها بالقوة . إن الحركة الوطنية خالدة وستنتصر . »

وفضح مصدق مؤامرات الاستعمار وكشف عن خداعهم ودسائسهم « فوجىء الغرب الذى كان يعتقد أن الشرق لا يزال يغط فى ثبات عميق بأقوى صدمة قاصمة وضربة حاسمة ضد الاستعمار وقد ظن فى بادىء الأمر أنه يستطيع أن يقضى على هذه اليقظة بالدسائس وتدبير المؤامرات وأعمال التخريب وأثارة الشعب والقلاقل الداخلية . لقد كان الغربيون يعرفون أن شعوبنا غير راضية عن تدخلهم ومؤامراتهم ودسائسهم ولكنهم لم يكونوا يظنون أن اتفاق الكلمة ووحدة العقيدة واتحاد الهدف تستطيع أن تمحو أثار البغى والظلم والعدوان ولم يكن يدور بخلدهم أن للايرانيين من الوعى القومى ما يستطيعون به إدراك

حقهم دون الاكتراث للعدوان والطغيان » .

وخرج مصدق من سجنه ليعتزل السياسة ولكنه لا يزال حيا فى نفوس الشرق كله ، ولا يزال عمله التاريخى الخالد حياً قائماً لا ينسى .

* * *

وملخص حياة محمد مصدق بن ميرزا هدايت أنه ولد عام ١٨٧٩ وتعلم بطهران ثم سافر إلى باريس لدراسة العلوم السياسية بها وقد حصل عام ١٩١٤ على أجازة الدكتوراة « عن الاثبات فى الشريعة الإسلامية وايران والامتيازات، عارض انقلاب رضا شاه يهلوى عام ١٩٢٠ ثم تولى وزارة الحقانية فالمالية ، وعمل فى الحقل السياسى فانتخب عضو بمجلس النواب فلما اختلف مع الشاه وأنسحب من الحياة السياسية حتى عام ١٩٤١ .وفى عام ١٩٤٤ تزعم فى مجلس النواب حركة ترمى إلى إيقاف منح امتيازات بترول جديد طالما احتلال الحلفاء (فرنسا وانجلترا) لايران قائما وتزعم كتلة تدعو إلى تأميم البترول الايرانى عام ١٩٥٠ وأثار مصدق الشعور القومى ضد الاحتكارات الأجنبية بين طبقات الشعب الايرانى وفى ١٥ مارس عام ١٩٥٠ وافقت لجنة البترول برئاسة مصدق على تأميم شركة النفط البريطانية » ثم تولى مصدق رئاسة الدائرة فى ٢٩ أبريل عام ١٩٥٠ وامتدت حكومته عامين وبضعة شهور اتجه خلالها إلى تنفيذ عدة مشروعات فى الاصلاح الزراعى وتقوية الجيش .

ثم وقع الخلاف بينه وبين أية الله كاشانى الزعيم الدينى بسبب الأوقاف الاسلامية وكانت بريطانيا وأمريكا قد فرضتا حصارا على ايران والنفط الايرانى ثم جرت محاولة لإرغامه على التخلى عن منصبه . وغادر الشاه البلاد إلى روما وكان الاتجاه قوياً نحو إعلان الجمهورية ، غير أن القوى الأجنبية استطاعت إقالة مصدق وتقديمه للمحاكمة

العسكرية بتهمة قلب نظام الحكم وقد استغل مصدق بالدفاع عن نفسه ثمان ساعات متوالية وختم دفاعه بقوله :

لا تخونوا بلادكم ولا تتيحوا لأحد فرصة القول بأن بعض الضباط الإيرانيين هزموا خصم بريطانيا .

وسجن مصدق ثلاث سنوات ثم خرج من سجنه ولم يلبث أن توفى فى ٤ مارس عام ١٩٦٧ .

محمد مسعود

صاحب الجزازات التاريخية

— ١٩٤٠

تلك مدرسة انقرضت أو كادت ، كان قوامها أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة ، وأحمد تيمور ، وصادق عنبر ، وكامل كيلانى ، وطاهر الجزائرى وأنستاس الكرملى ، وعبد القادر المغربى ، وشكرى الألوسى ، وفارس الشدياق ، ومحمد مسعود ولم يبق منها فى زمننا إلا قليل ، من أبرزهم : محب الدين الخطيب .

كان محمد مسعود رائداً من رواد الصحافة والترجمة والتحقيق اللغوى والتاريخى عمل فى هذا الميدان خمسين عاماً كاملة ، منذ مطلع شبابه حين اشترك فى تحرير المؤيد سنة ١٨٨٩ وظل يعمل دون توقف حتى توفى عام ١٩٤٠ .

وكان يكتب مذكراته الشخصية حتى آخر أيام حياته :

يقول أنه : بدأ حياته بالبحث والتنقيب فى مكتبة والده ،فقرأ مجله (روضة المدارس)التى كان يحررها فى سنواتها الثمانى رفاعه الطهطاوى وصفوة من كتاب مصر ، ومجلة الجنان التى كان يصدرها البستانى .

كما قرأ منتخبات الجوائب لفارس الشدياق ،واتصل فى صدر شبابه بإبرهيم اليازجى صاحب الضياء ، والبيان ، وتأثر باتجاهه الفكرى .

وأخذ عنه أحب أمرين كان اليازجى كلفا بهما وهما : أبحاث الفلك والتحقيق اللغوى . .

فيروى عن اليازجى أنه من شدة حبه للنجوم والفلك كان يخرج مع أصدقائه إلى الشوارع الهادئة فى أول الليل ويقف فى بعض الساحات حيث يلفت نظرهم إلى السماء شارحاً لهم أسماء الكواكب ومطالعها ومجارى سيرها ، والشيء نفسه كان يصنعه مسعود فيما يرويه عنه ابن الأستاذ يحيى مسعود .

وقد ظل مسعود وفياً للفلك والكواكب طوال حياته فكتب فى تقويمه أكثر من عشرين بحثاً فى دراسات الكواكب والبروج والأفلاك .

وكان مسعود حفياً بالتحقيقات اللغوية والتاريخية يتطلع إلى وضع كتاب عن أخطاء الصحف على نسق كتاب اليازجى (لغة الجرائد) بعد أن جمع منها بضعة آلاف .

وفى الترجمة يقف مسعود فى صحف أعلام الترجمة فى بلادنا : أمثال رفاعة الطهطاوى وصالح مجدى وفتحى زغلول .

أما فى ميدان الصحافة وكان واحداً من روادها الأوائل وهو يحدث عن بدأ هوايته للصحافة فيقول : نشأ من ولوعى بالصحف التى طالعتها إن أحببت الصحافة وتمنيت لو أكون فى مستقبلى صحفياً وعكفت على التفكير حتى تجسمت الأمنية فى خيالى ولم يفارقنى شبحها .

وتعرف مسعود بعد ذلك بالشيخ على يوسف فوجهه ، ولما صدر المؤيد كتب فصولا مترادفة فى الرد على حملة الكردينال لافيجرى الذى هاجم موقف الإسلام من الرقيق . وهكذا استهل عمله فى الصحافة ، وقد أعانه على

النجاح فيها أنه كان واحداً من عدد قليل جداً ممن يجيدون اللغة الفرنسية القادرين على الترجمة منها ، فقد تلقى تعليمه في مدرسة الفرير وعمل في مطالع حياته مدرساً للغة الفرنسية في مدرسة رأس التين بالإسكندرية .

واتصل مسعود بالصحافة الأفرنجية أولا ، وكتب فيها فصولا عديدة عن الأحوال العامة في مصر . وقد مضى مسعود يعمل في ميدان الصحافة حتى عام ١٩١٠ عندما اختير محرراً فنياً لقلم المطبوعات ثم عمل في وزارات الداخلية والتجارة والصناعة ورئاسة مجلس الوزراء وتولى منصب مدير إدارة المطبوعات حتى أحيل إلى المعاش في فبراير ١٩٣٣ .

* * *

في خلال هذه الفترة التي قضاها مسعود في مختلف الوظائف الحكومية لم يتوقف عن التحرير والكتابة والترجمة ، ولم ينقطع عن الصحافة ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان : كاتباً وصحفياً متنوع القدرات، بل دائرة معارف حية ، فكان يكتب التعليق السياسي والبحث الاجتماعي والنقد الأدبي مع عفة في النقد والترفع عن الهوى . وظل مرحلة طويلة من حياته يصدر التقويم السنوى الذى عرف باسم : تقويم المؤيد .

ويمكن القول بأن مسعود كان رائداً في ميادين ثلاثة :

الصحافة والترجمة والتحقيق اللغوى والتاريخي .

وقد دارت في هذه الفترة مساجلات بينه وبين أحمد زكى باشا شيخ العروبة حفلت بها الصحف ،وكان مسعود قد اهتم في الفترة الأخيرة من حياته بالأندلس وتاريخها وكل ما يتعلق بها من أدب وتاريخ ، كما درس اللغة الأسبانية ، كيما يستطيع الكشف عن كلماتها ذات الأصل العربي ، وعنى بجمع الأمثال العربية

ينقلها بالسماع ويرصدها مبوبة مرتبة حتى استوى عنده منها سجل لم يسبقه إلى مثله أحد .

. . .

وكانت شخصية مسعود شخصية بارزة ، وصف بأنه ناصع الصفحة ، نقى العارضة وأنه حمل طابعه هذا إلى عمله الصحفى الذى كان معرضاً لـكثير من عوامل الإغراء والضغط بالنسبة للـكتاب الوطنيين فقد قال معاصروه ، أنه عاش خادماً أميناً للقلم والصحافة وأنه عرف بالجلد على العمل والأمانة فى البحث والصدق فى القول ، وكرامة النفس ، كما عرف بالدأب المتصل والجمع بين الـكبرياء والتواضع مع النزاهة فى العبارة ، وعفة اللسان ، كما عرف بالجدل الذى يعتمد على الإقناع بالحجة فإذا رأى مناظره قد بدأ يتجه إلى المهاترة تركه وحده .

وقال معاصروه : أنه لم يكن يبالى أن يرجع إلى الحق حتى نبه إليه واقتنع بصحبته .

ويرى مؤرخوه أنه بالرغم من إقامته فى بيئة سياسية واشتغاله بها طويلا، واحتراف الصحافة ، وإصدار الصحف مشتركا مع غيره ومنفرداً فإنه لم يخضع لما فى أوضاعها إذ ذاك من عبث ، وظل عالى الأدب عف اللسان فلم تقو السياسة على المساس بأخلاقه العاليه ، وقد تحدى كل هذه المغريات وعاش كريماً .

وقد وصفه إبنه القاضى يحيى مسعود بأنه كان جلداً صابراً مثابراً ، لا يعرف الـكلل ، وربما يقضى الليالى ساهراً باحثاً فى وجه من التواصل وفى جهد مطرد متناسق ، وربما طالع كتاباً برمته للبحث عن معنى أو كلمة .

وكانت حاسته فى الاستذكار تساعده على الإشارة إلى مصدر ما علمه من

قبل ، فمن النادر أن يفوته المصدر مع تعيين موضعه من الكتاب ، محباً للتؤد والتفكير المرتب والنظام فى كل شىء ، وهو إلى ذلك يحب الاتقان فى كل ما يتولاه من الأمور ، كأنه لا يرى فى شىء مجالا للتهوين كما لم يكن يرى فى مجال القول موضعاً للتبذل .

وقد وصفه أيضاً بدقة الملاحظة والاستنتاج ،وضرب على ذلك مثلا بواقعة الزلزال الذى حدث ذات ليلة فى شهر يونيو ١٩٢٦ وبانت آثاره الشديدة فى القطر كله ونشأ عنه تهدم بعض المبانى فى القاهرة ، وسارعت جريدة الأهرام إلى سؤال مرصد حلوان عما أشارت إليه أجهزته من أثر الزلزال ثم خطر للجريدة أن تتصل تليفونياً بمحمد مسعود فى بيته لتسأله رأيه ، فأجاب أنه يعتقد أن مركز الزلزال جزيرة كريت وعلل ذلك بسبب قدره ، وجاءت البرقيات تؤكد أن مصدر الزلزال كان جزيرة كريت .

ومما يتصل بأسلوب مسعود فى الكتابة ، فقد عرف بالوضوح والبساطة مع البلاغة ، وتتسم طريقة تفكيره بالاعتدال والاتجاه إلى التربية بالمثل والقيم .

وقد جمع فى أحد تقاويمه كلمات لكبار الكتاب وأورد لنفسه من بينها كلمة ربما تكشف عن طابعه النفسى :

قال : قمين بالعاقل البعيد مرامى النظر فى أطوار الدهر وتقلباته ألا يعتمد أبداً على كونه حظيا ولا على أنه نال ما كان يبتغيه من ثروة وجاه ، بل يجب عليه إذا أفتر له ثغر الزمان أن يسجل فى ذاكرته تلك الابتسامة مكتفياً بذلك دون الاطمئنان إليها أو الاعتماد عليها مرجحاً فى نفسه أنها ابتسامة قد يعقبها عبوسة وانعطاف قد يتبعه نفور ورخاء قد تتلوه شدة .

وخير الذرائع إلى المجد والجاه والغنى إنما هو أن يتخذ المرء من عزيمته

مطية تعرب له البعيد من هذه الغايات السنية والمراتب الشريفة على شريطة التحلى بالفضائل الكفيلة بأمن الطريق ، لأننا لسنا الآن فى حيز الزمن الذى كان أهله يصورون الحظ أو الجزاف فى صورة غادة تطرق باب المستغرق فى النوم ، بل صرنا إلى زمن لا يلوح طيف الحظ فيه إلا لمن يقتفى أثره معانياً فى إدراكه المشاق والأهوال ، ما يشق المراء ويقطع نياط القلوب .

. . .

ولعل حادث مبارزة محمد مسعود للكاتب الإيطالى سانتوريللى رئيس تحرير جريدة السكوربيرى دى أجبزيانوا فى القاهرة من الطرافة بما يستحق الإشارة إليه لتلقى ضوءاً كاشفاً على شخصيته ، فقد نشر مسعود فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠١ موضوعاً رأى فيه المسيو سانتوريللى إهانة للجالية فدعا مسعود إلى المبارزة وحدد الزمان والمكان ولم يضطرب مسعود — الذى لم يكن يعرف لعبة السيف — وكان ذلك حدثاً أثار الصحف وشغلها ولفت الأنظار إليه بقوة ، ثم كان السعى لفض الخلاف بعقد تسوية ، وقد وجدت صورة لهذه التسوية عند آل مسعود محررة فى ٢٥ سبتمبر ١٩١ جاء فيه أنه بعد الاطلاع على المقال المشار إليه تبين أن كاتبه قد تكلم فيه بوجه عام وقد رأى أن « مسعود أفندى » لم يكن يرمى فى مقاله إلى إهانة الرجل لا باعتباره فرداً ولا باعتباره صحفياً وأعلن شهود المبارزة لمسعود وسانتوريللى بأن المسألة قد اعتبرت منتهية .

* * *

ويتلخص وقائع حياة محمد مسعود فى أنه ولد بالإسكندرية عام ١٨٧٢ .

وأتم تعليمه بمدارس الفرير ، وعمل مدرساً للغة الفرنسية فى مدرسة

رأس التين الثانوية عامين ، ثم التحق بتحرير المؤيد فى أول نشأته عام ١٨٩١ وظل به حتى عام ١٩٠٦ عندما اشتغل مع أحمد حافظ عوض بإنشاء صحيفة المؤيد التى تركها عام ١٩٠٩ بإنشاء جريدة النظام .

وفى عام ١٩١٠ التحق بالتحرير الفنى بإدارة المطبوعات وظل بها حتى أحيل إلى المعاش فى فبراير ١٩٣٢ حيث ظل يعمل فى ميدان البحث والتأليف والمراجعة .

ومن أهم ما خلفه أرشيفاً كاملا من الجزازات المبوبة على الحروف الأبجدية للأعلام والمواقع والأحداث ، كان يغذيه يوماً بعد يوم بما يصل إليه من قصاصات الصحف أو المؤلفات الجديدة ، وقد أشار عبد الله عفيفى إلى أنه كان قد استخدم له موظفاً يعطيه بضعة عشر جنيها شهرياً للاشراف عليه ، وهذا العمل لم يقم به مصر غير أحمد زكى باشا وأحمد تيمور باشا ، ولكن الأسف يملأ النفس لأن هذه الجزازات كلها قد ضاعت وتآكلت حين حجزت فى « بدروم » خلال فترة طويلة ، نشأ خلالها خلاف قضائى من أبنائه مما قضى على هذه الثروة الأدبية الجليلة القدر .

وقد توفى محمد مسعود عام ١٩٤٠ .

ومن مؤلفاته :

- آداب اللياقة — ١٩١٣ وقد عدله فى طبعة تالية إلى (الأدب اللائق) .
- المرأة فى أدوارها الثلاثة : فتاة وزوجة واما — ١٩٢٥ .
- لباب الآداب ١٣٢٤ هـ .
- مصر والاحتلال (مجموعة أعمال مصطفى كامل) .

- وسائل النجاح — ١٩٣١ .
- التحفة الدهرية فى تخطيط مدينة الإسكندرية — ١٣٠٨ هـ .
- الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)١٩٢٢
- الرحلة السلطانية إلى الوجه القبلى ١٩١٧ م .
- تقويم مسعود (١٨٩٨ - ١٩١٧) .

---

(١) أعمال محمد مسعود وآثاره الادبية (راجع البحث فى كتابنا صفحات مجهوله من الآدب العربى المعاصر)

مصطفى عبد الرازق

ثقافة الشرق والغرب

١٨٨٢ — ١٩٤٧

« لم تكن دراستى فى الأزهر على طول مدتها بالتى تشبع رغبتى فى العلم وتحقق لروحى ما تتطلع إليه من الاطمئنان . ولكن الدروس التى كنت أحضرها فى الأزهر على الأستاذ محمد عبده كانت تنسينى ما أشعر به من مرارة، وتصد عن نفسى السأم واليأس اللذين كانا يساورانها إذ ذاك ، فلما انقطع رضوان الله عليه عن التدريس فى الأزهر عاودنى هذا اليأس وذلك السأم واسودت دنيا الدراسة فى الأزهر أمام عينى ، فكرهت المضى فيها ، بيد أنى رأيت ألا أتركها قبل أن أستنير برأى الأستاذ الإمام فبعثت إليه بكتاب عام ١٩٠٥ :

« إنى نظرت فى أمرى بعد أن قضيت ما قضيت فى الجامع الأزهر وأضعت ما أضعت من صحتى وشبابى فى طلب العلم فلم أجد ثمناً لما بذلت إلا حشداً من الصور والخيالات لا تضىء البصيرة ولا تبعث العزيمة ، ولا تعد للسعادة فى الحياة الدنيا ولا فى الحياة الأخرى .

ليت الحوادث باعتنى الهوى أخذت   منى بعلمى الذى أعطت وتجريبى

« طلبت السبيل إلى العلم النافع فما وجدت الدليل ، ولا اهتديت إلى السبيل وقد هدتنى إليك خاتمة المطاف وفاتحة الألطاف ، فجئتك أسألك أن تعلمنى مما

علمك الله ولا تكلنى إلى رأيى وها أنا ذا أبسط يد الرجاء إليك ولم أبسط لغيرك يداً وأرفع إليك أمنيتى فى الحياة وقد وضعت أملى ببابك ومثلك من لا يخيب ببابه الأمل » .

فاستدعانى الإمام وقال لى :

« إن الحق معك ، وقد مر بى مثل حالتك ، وغاية ما أستطيع أن أرشدك إليه – قبل نيلك شهادة الأزهر — هو أن تعنى إلى جانب دراستك الأزهرية بالتزود من الدراسات الأدبية » واختار لى طائفة من الكتب لأطالعها فى أوقات فراغى ، وما أشك أن هذا التوجيه الصائب كان له أثر كبير فى ثقافتى الأدبية إذ صارت منى ميلا إلى هذه الناحية كان يغذيه والدى رحمة الله عليه .

على أن فضل الأستاذ الإمام ليس قاصراً على هذا الجانب وحده ، فقد كان لتشبعى بمبادئه وتشيعى لها أثر كبير فى حياتى العملية .

وصرت بعد انتهائى من الدراسة فى الأزهر واشتغالى بالتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى أن انتخبت وكيلا لجمعية تضامن العلماء التى تألفت من تلاميذ الاستاذ الإمام للسعى فى إصلاح الأزهر واستقلاله وأن يكون حراً فى اختيار قادته فتوجس ذو السلطان خيفة من قيام هذه الجماعة بعد أن كثر الإقبال عليها وبدت تباشير نجاحها فى مهمتها .

وكان أن استدعانى ناظر المدرسة (عاطف بركات) وتحدث إلىّ فى هذا الشأن حديثاً فهمت منه أن اتصالى بمدرسة القضاء الشرعى مع اشتراكى فى الحركة التى تقوم بها جمعية تضامن العلماء يثير حول المدرسة ظنوناً ، وسرعان ما أثرت استقالتى من المدرسة ذاكراً أن نفسى لا تطيب بأن أهجر جمعية

شريفة المقاصد مرجوة النفع للاسلام وأهله من أجل أوهام ليس لها سند صحيح وقدمت استقالتي من مدرسة القضاء واعتزمت تحقيق أمنية السفر إلى أوربا لأتم ثقافتي هناك . . » .

* * *

كتب مصطفى عبد الرازق مذكرات وقصصاً وفصولا نشرت فى الصحف ثم جمعت بعد وفاته فى كتاب ضخم ، كما حرر فصولا عن حياة الشيخ محمد عبده وكتاباً عن البهاء زهير . .

لا شك أنها تضعه بين طائفة الأدباء المقلين الذين لم يتفرغوا للأدب كفن وحرصوا على أن يقفوا فى صفوف العلماء الذين عملوا فى محيط الجامعة حيث أحبه لفيف من الطلاب والمريدين الذين بهرهم منه حسن الخلق وصفاء النفس وسماحة الطبع التى كانت أبرز من مميزات هذا الكاتب الإنسان .

ولكن ما هو السر الذى دفع مصطفى عبد الرازق أن يفرد للبهاء زهير بحثاً خالصاً، ربما كان هناك تقارباً بين هذا العمل الأدبى الوحيد وبين حياته الخاصة . فالبهاء شاعر رقيق حى ، هادىء النظرات ، متئد ، لا تطوف بحياته زوابع ولا عواصف ولا هو من أولئك المندفعين الذين يفترعون المغامرات أو يدخلون حلبة الصراع . وهذا الطابع هو صورة من حياة مصطفى عبد الرازق الذى عاش حياته هادئاً منتحياً بعيدا عن مشاغبات الأدباء . فلا يصول فيها ولا يجول . على عكس طه حسين وزكى مبارك وهم جميعاً من الأزهريين .

كان لمصطفى عبد الرازق طابعه الحيى المتوارى . وكان مثلا للأناقة والرقة والهدوء . كأنما الحياة عنده أغنية جميلة أو موسيقى هادئة . ولقد عرف عن مصطفى عبد الرازق حب الجزالة والرصانة مع الحرص على المراجعة والتغيير

والتبديل فى صياغة الأثر الفنى الذى يكتبه قبل أن يظهر عليه الناس . وهو فى هذا يقول وكأنما يصف نفسه « ان الجزالة هى التطبع فى شعر البهاء وأن الرقة هى الطبع .

ومصطفى عبد الرازق بعد ذلك موضع إعجاب كل من عرفه أو لقيه أو تتلمذ عليه . وما رأيت إنساناً التقى به أو عرفه إلا وهو محب له . كلف بهذا الحب . ولكن ماذا تعطى هذه الكتابات الهادئة الأنيقة التى نقرؤها لمصطفى عبد الرازق؟ هل يمكن القول بأن وراء شخصيته جانباً آخر أثر طيه عن الناس وكان آخر وحيه وإلهامه مصدراً لهذا النتاج المصقول .

بدأ هذا الكاتب حياته فى الأزهر هناك بين الكتب المعقدة التى كانت تؤذى نفسه وتذهب صبره وتمنحه كل شىء إلا هذه الرقة وهذا السمت الهادىء الأنيق المشرق الذى يخيل إلينا معه أنه لا يعرف الضيق والألم .

نشأ مصطفى عبد الرازق فى الريف من الصعيد ثم أمضى فى الأزهر اثنى عشر عاماً حتى حصل على العالمية . ولما تخرج عين مدرساً فى مدرسة القضاء الشرعى ، ثم رحل إلى باريس شيخاً معمماً فبقى بالعمامة نحو سنة وهو يروح ويغدو بين الباريسيين .

وتلقى فى السربون دروس علم الاجتماع على دوركايم ثم التحق فى ليون بمدرسة اللغات الشرقية .

فلما عاد إلى مصر سنة ١٩١٤ اشترك فى تحرير الجريدة والسفور والسياسة الأسبوعية وقد عين سكرتيراً عاماً للمعاهد الدينية ثم مفتشاً بالمحاكم الشرعية فأستاذاً بالجامعة .

وقد كتب فصولا فى الجريدة أطلق عليها « صفحات من سفر الحياة »

بإمضاء (ع) وجعلها فى صورة مذكرات صديق له سماه الشيخ حسان عامر الفزازى، وهذا الاتجاه فى الكتابة يمثل طبيعته الحسيية فقد عزف عن أن ينسب ما كتب من الصور إلى إسمه الصريح حرصاً على الحرية فى التعبير ، ورعاية للتقاليد ، فقد عرض فى هذه المذكرات إلى رأيه فى المرأة والأزهر والحب ولولا هذه التقية لما استطاع أن يظهر الناس على هذه الفصول الجريئة .

وقـد وصفها الأستاذ على عبد الرازق بقوله « إن ما اشتملت عليه هذه المذكرات هى آراء ومذاهب الشيخ مصطفى عبـد الرازق نفسه ومنها يستطيع الإنسان أن يلمس حقيقة نفسه وطبيعته وأخلاقه وأن يدرك مذاهبه فى الحياة وأسلوبه فى الدعوة إلى الإصلاح » .

وقد صور مصطفى عبد الرازق حياة الأزهر فى رأى الشيخ الفزازى فقال :

« أصبحت لا أجد لمـا أحضره من دروس الأزهر طعماً ولا أشعر بفائدة فى تـكوين ملـكة أو تهذيب ذوق لهذه الأبحاث المجدبة التى أفنى فيها حياتى جاهداً ، ثم أن فى أعماق نفسى قلقاً ينزع به إلى أمانى لا موضع لتحقيقها فى هذا الوسط . ويارحمتاه للمجاورين لا يفتئون يقبلون تلك الأيدى التى لا هى أيدى النساء الناعمة فتجىء فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب . ولا هى مرتجاه لخير فتـكرم لخيرها ومعروفها » .

ولـكن الشيخ مصطفى غير رأيه بعد ذلك ، وتخلص من هـذه النظرة القاتمة بعد أن التقى بالشيخ محمد عبده الذى كان بعيد الأثر فى تحويل مجرى هذه الحياة .

يقول : اتصلت بالشيخ محمد عبده فتأثرت بدروسه وآرائه واضطرمت فى

نفسى تلك اليقظة الفكرية التى بثها الشيخ فى عقول تلاميذه بما كنا نتلقى عن شيوخ لم ترضنا معارفهم ولا مذهبهم .

* * *

ولقد كان مصطفى عبد الرازق منذ شبابه الباكر يتطلع إلى المجد وترنو إلى آفاق بعيدة . لم تكن واضحة وضوحاً صريحاً فى نفسه ولكنها كانت تملأ قلبه وعواطفه تصورها هذه العبارات التى كتبها فى مذكرات الشيخ الفزازى سنة ١٩٠٥ « أنا استيقظ من منامى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ إلى مشاركة رفيق فى المطالعة إلى انفراد بالدرس حتى آوى إلى مخدعى قبل نصف الليل فاتر القوة متنبه عصب الدماغ محتاجاً إلى النوم غير واجد إليه سبيلا . وليس لى من لذة العمل نفسه ولا من ثمرته . ثم أن فى أعماق قلقاً ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها فى هذا الوسط » .

كان فى خلال هذه الفترة من شبابه كثيراً ماذا كان يقرأ ؟ يقول : « كنت وأنا يافع أسهر فى بعض الليالى إلى جانب أبى أقرأ له ديوان المتنبى والبهاء زهير فيجهر بالطرب للشعر الجيدوارتاح فى نفسى للوزن والنغم . وذلك أول أثر عرفته للكتب فنشأت للشعر عندى نزعة قوية أخذها حينا ماانصرفت له من الدرس فى الأزهر . . .

وطالعت بإرشاد محمد عبده ديوان الحماسة ونهج البلاغة فبعثا ما كان خبا من نزوعى الأدبى . ومن الكتب التى تأثرت بها « المنقذ من الضلال » للغزالى وفصل المقال « لابن رشد » وحياة المسيح لرينان .

ومن خلال تصوير مصطفى عبد الرازق لشبابه كتب ما عاقه الحياء عن أن

يقوله: « كنت يومئذ شاباً تتفتق عنه غلائل الطفولة . ولم تكن بنيتى قوية . ولا أعصابى متينة فضعفت من أثر الجهد المضنى فى دراسة غير منظمة وعرانى سأم من الدراسة فى الأزهر. واشتد ذلك السأم حتى صار ألماً ملازماً وكانت طبيعة الحياة تعوقنى فى ذلك الوقت عن أن أبث مابى الى أحد . ولكن هل أذهبت أوروبا والعلم وارتفاع السن هذا الحياء . كلا : فقد بقى مصطفى عبد الرازق رمزاً لهذه المعانى العالية النبيلة من الخلق وقد رسم فى مذكرات الشيخ الفزازى صورة رائعة للمرأة تكشف عن شاعريته الرقيقة وإنسانيته المشرفة ، وطبيعته الأدبية التى تأخذ خير كل شىء .

« والمرأة هى المنبع الفياض لما فى الحياة الإنسانية من حب هو أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة ، على أن فى فطرة المرأة نوعاً من السحر والخلابة والجمال هو الذى يسمو بخيال أهل الفن إلى ما يبدعونه فى آثارهم الفنية ويلهم الشعراء روائع الشعر ويذكى فى قلوب المستنيرين نار العشق العظيم . وإذا كان الجمال فى الحياة فناً وشعراً وحباً فإن المرأة هى التى تبنى كل ما فى الحياة من معانى الجمال » .

وهكذا يعطى هذا الأسلوب الرشيق صورة نفسه المشرقة . هذه النفس التى ظل صاحبها بعد أن عاد من باريس يلبس العمامة ويحتفظ بها إلى آخر العمر . فلا يمنعه ذلك من أن يرسم لبركة لكسمبورج هذه اللوحة الرائعة .

« . . . ثم يخرج إلى ساحة تبسم الأنوار فيها والزهر . وتنحدر على درج إلى البركة ذات النافورة. مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواهها. ومن حولها دكك متفرقة لمن ليسوا أطفالا . ولمحت فى بعض النواحى سيدة بيدها خطاباً تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم . وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة. وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها . وكم يأوى إلى هذه البركة من باك ومبتسم.

ليس ماء ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج ولكن ذوب ابتسامات ودموع . رويدكم أيها الأطفال العابثون بالماء . . » .

لقد دخل الشيخ مصطفى عبد الرازق باريس بين صديقين كريمين وكان أحدهما يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشاً وكان هو الثالث شيخاً معمماً .

وبعد فهل هذه الآثار التى خلفها مصطفى عبدالرازق تعطى سرائر حياته ومنها هذه المذكرات التى نشرت فى الصحف على أنها (مذكرات قديمة) هذه (عذراء الريف) تاريخها ١١ أغسطس ١٩٠٦ ونشرت عام ١٩٣٦ .

« خرجت أصيل الأمس إلى الخلوات أطوف فى أنحاء المزارع حتى انتهيت إلى فجوة فى زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيها ماء غير آسن . فألقيت عباءتى فوق تلك الحشائش العذبة . واستلقيت عليها وكان معى الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه ، وبهامشه زهر الآداب للحصرى . وجعلت أداول الكتابين فى القراءة . وأقيد فى أوراق معى ما يسترعى منى عناية خاصة . وبينما أنا مشغول بمحاولة الإجادة فيما أشدو به متأثر النفس بمعانى الأغانى نفسها إذ أقبلت فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رؤوسهن ثم جلسن إلى جانب يسمعن غنائى . وكنت أراهن وأتكلف الجهل بمكانهن حتى لا ينفرن . . ولما رأيت أنسهن بصوتى غنيت من شعر أبى تمام . ولم يكن يبدو على جاراتى مظهر الفهم ولكنى كنت ألمح فى أسارير صفراهن علامات التأثر كما جعلت فى نغماتى شبه أنين غرامى وألتقت عينى بعينها عند منصرفى »

وفى اليوم التالى كتب فى مذكراته بقية القصة : « .. رجعت اليوم إلى مكانى بالأمس فعادت وحدها الآنسة الفتية . شابة فى السابعة عشر ذات قامة وافرة من غير أن تكونَ طوالا . نحيفة من غير أن يذهب التحول بحسنَ

التناسب بين ما يعلو ممتلئاً وما يهبط أهيف من جسم كأنما صب فى قالب . فلست ترى فى خطوطه عوجاً . شيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طبعة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال . الجمال النسائى فى ثغرها . وعيونها آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والاحساس الرقيق .

رنوت إلى الفتاة يدفعنى شعور بأن إلى جانبها حظاً من سعادتى وركبنى الحياء . ثم حييتها فردت من غير نفور ، قلت : وحيدة أنت اليوم ، فأجابت أننى أحب الوحدة فى كثير من الوقت .

قلت : إن الميل إلى العزلة نزعة النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطى السلوان للانفس المعذبة . وليكون فى ظلام الحياة نورا .

قالت : إذا كانت الوحدة آية الألم النفسى . فما بالك تحبها وأنت منعم .

قلت : إن من وراء هذا كله مواضع للالم فى قلب غير جامد .

ولبثنا ساعة سكوتاً نتبادل نظرات ناطقة سمعنا ساعتئذ حفيف أوراق القصب ينحسر عن قادم فإنتبهنا من تلك السكرة الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الأولى . »

* * *

هذا هو مصطفى عبد الرازق فى مذكراته : قلب محب كبير وعاطفة صادقة كانت الضياء لحياة الرجل ، ومادة لأدبه . وكان وهجها النفاذ الكامن فى أعماق القلب يمنح أسلوبه تلك الرقة وبيانه ذلك الجمال . ويعطى روحه هذه السكينة والطمأنينة .

وفى ميدان العلم ، كانت دراساته الفلسفية قوامها ما فطر عليه من حب الخير والجمال يقول الدكتور عثمان أمين « كثيراً ما كان يحدثنا فيقول أن هناك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الإسلامى وثبتت على أحداث التاريخ وهى فلسفة « كرام النفوس » أولئك الذين عاشوا للعالم كله لا لأنفسهم وظلوا

على وفاق مع قانون المجد والسخاء . وكان أول من رسمها أنبياء الشرق ثم أذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء من سقراط إلى أفلاطون إلى أرسطو والفارابى وديكارت وغاندى . جميعهم استطاعوا أن يستشفو جوهر الدين .

هذه الفلسفة تتلخص فى حالة نفسية يصح أن يطلق عليها الاسم الجميل ، الذى اختاره ديكارت : إسم « الأريحية » وتلك حال النفوس التى تعطى ولا تأخذ وتسعى إلى اسعاد الغير مهما كابدت من عناء » .

ويقول طه حسين : خصال ثلاث أثرت فى أدب مصطفى عبد الرازق وحياته تأثيراً قويا جداً هى : الأناة ، الحياء ، الوفاء .

* * *

والحق أن مصطفى عبد الرازق أخذ من الريف ذلك الوفاء النبيل وتلك الطبيعة الثابتة التى لا يتحول منها شىء سواء كان صاحبها فى القاهرة أو فى باريس ، فى الوزارة أو الأزهر أو فى الجامعة .

وأخذ من الأزهر اللغة والبيان والرصانة . وأخذ من السربون التحقيق العلمى ومزج الشرق بالغرب وظل مع ذلك محتفظاً بطابعه . وفى يوميات إبراهيم الغزارى التى كان يكتبها عن نفسه قوله : إن حياتى ليست منطقية . إن الحياة المنطقية هى مطابقة الحياة للمزاج والسير فى الشئون الخارجية على وفق طبيعة النفس الداخلية ، أما جو قلق لنفس هادئة . فهو معمعة حرون لطبيعة مسالمة ، فليس من المنطق فى قليل أو كثير »

* * *

ولد مصطفى عبدالرازق فى قرية أبى جرج من أعمال المنيا وتعلم فى الأزهر والقضاء الشرعى والسربون ، درس الفلسفة الإسلامية فى الجامعة المصرية وتولى منصب وزير الأوقاف وشيخ الأزهر .

ومن مؤلفاته : الإمام الشافعى ـ البهاء زهير ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

مصطفى كامل

موقظ الوطنية بعد الاحتلال

١٨٧٤ — ١٩٠٨

« مهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ، ولا نقف فى الطريق ، ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار .

« إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم . وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها .

أجل وألف مرة أجل . إن مصر بالغة آمالها فى الاستقلال محققة أمانيها بإرادتها وهمتها .

الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر فى بث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والإقدام فى الأمة ، وإعلاء ملكها وإيجاد حب السؤدد والرفعة ومسابقة الأمم الراقية فيها .

إذا تمكنت هذه الروح ، واتحدت الأمة فى الغايات والمقاصد ، وقضت على كل أعمال الخصام والانقسام وصارت أمة من قوى الأمم اضطرت إنجلترا أن تتفق معها على الجلاء والاستقلال .

* * *

« إنى وأن أكن أزهر سن الشباب لست ممن يميلون مع الأهواء ويقضون الساعات والأيام فى الملاهى والملذات ، بل أنا ممن لا تحلو الحياة فى عيونهم مادام الوطن فى خطر ، والأمة على شفيرها . إنى وهبت حياتى لأمتى وبلادى . وسأقتفى أثر رجال شرفهم التاريخ لما شرفوا بلادهم وأعزتهم مواطنهم لما أعزوها وأعلوا شأنهم » .

مصطفى كامل

* * *

حياة قصيرة خصبة ، عاشها صاحبها عاملا لا يتوقف ولا يكل عن الدعوة لحرية مصر ويقظتها ويعبىء مشاعرها بخطاباته وكتاباته على نحو يثير العاطفة ويهز القلب ويوقظ الضمير . وتلك هى فضيلة مصطفى كامل الأولى والكبرى ـ وإن كانت فى نظر خصومه هى رزيلته الأولى ـ فهو أول صوت ارتفع بعد الاحتلال باليقظة ، وأول من أحيا فى النفوس الأمل بعد أن مرت سحابة من الانقباض والظلام واليأس لفت قلوب الوطنيين فأحسوا بأنه طغيان الاستعمار سوف يكتم أنفاسهم ويمزق كرامتهم ويدحر حرياتهم ، وفى أعماق هذا الليل الطويل الذى امتد عشر سنوات برز صوت مصطفى كامل قوياً هادراً يرد إلى النفوس شعورها بالعزة ويدعو المصريين إلى أن يؤمنوا بأنفسهم ويكتشفوا جوهرهم ويعرفوا حقيقتهم ، فهم أصحاب المجد التليد والحضارة الخالدة والنيل العظيم والتاريخ العريض المعلم فى حياة الإنسانية.

« إنى لا أزال[1] صغيراً . ولكن لى آمالاً كباراً ، فإنى أريد أن

---

(١) من خطابه إلى مدام جوليت آدم — ١٨٩٥

أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له وأنا أقول إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى وأجعل حياتى وقفاً عليه . أريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز .

وقد قيل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالا وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال » .

ولاشك كان أبرز أعمال مصطفى كامل هى دعايته لحرية مصر فى المجالات الدولية وكان هذا عملا بارعاً فى فرنسا وألمانيا والآستانة والنمسا. وفى مدن باريس وفيينا وبودابست توالت زياراته وجولاته يخطب فى المحافل ويكتب فى الصحف ويذيع الأحاديث ويرسل الرسائل إلى عدد من العظماء والكبراء وقد أعانه على ذلك أنه حصل على ليسانس الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر ١٨٩٤ فأجاد بذلك اللغة الفرنسية أجادة مكنته من الكتابة والخطابة بها وكان قد أتيح له أن يلتقى بالسيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية حيث درس معه أسرار الثورة العرابية وخفاياها وأسباب فشلها ودسائس السياسة الانجليزية . وقد دفعة ذلك إلى مزيد من الحماسة فى مقاومة بريطانيا والتنديد بها .

ولم يلبث أن تابع تاريخ مصر فى الفترة السالفة للثورة العرابية وما بعدها وجمع كل ما كتب عنها ثم لم يلبث أن أرسل إلى جلادستون يسأله عن تصريحاته التى أعلنها أبان رئاسته للوزارة البريطانية بشأن الجلاء عن مصر وكان حدثاً تاريخياً أنه تلقى رداً منه يقول فيه « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين .

وقد أستطاع خلال السنوات من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٨ ، أن يثير عاصفة

صحفية ضخمة ضد بريطانيا فى صحف أوربا وفى فرنسا بالذات التى كانت خصماً لبريطانيا إذ ذاك وقـد صور هذا الاتجاه فى رسائله إلى شقيقه على فهمى كامل : « إنى الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين لأنتفع بهم فى خدمة مصر المحبوبة وقد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد . وإنى أجد فى نفسى قوة فى هذه الأيام ما وجدتها فى حياتى ، بيد أنى أشعر بأن البلاد فى حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب البعيد بما يحدثه فى العالم من تأثير ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة فإنه هو وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب »

وهكذا يظهر مصطفى كامل فى صورة الرجل الذى يدعم العمل الوطنى بالكفايات والقوى وقد سار فى هذا الاتجاه مؤمناً بأن التعليم والثقافة هى التى تبنى المقاومة فأنشأ الصحف والمدارس .

وقد كانت أحاديثه وكتاباته فى هذه الفترة تصوير حقيقى لحالة مصر :

* إننا متألمون من الاحتلال الإنجليزى لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة فضلا عن كونه جارحاً لعزة بلادنا حسا ومعنى . فإننا أمة تقدر محبة الوطن حق قدرها ونعلم أن بلادنا ما دامت تحت النير الأجنبى وما دمنا لا ندير شؤوننا بأيدينا فلا حق لنا فى أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم .

* إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا ونعتقد أن من واجبنا القيام بهذا العمل الشريف وأن فينا من الحياة ما يكفى لتمتعنا بكل حقوقنا أما ما يشيعه الانجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب محض يدحضه البرهان إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزاباً وحسا ومعنى .

* إننا نبنى نجاحنا على نشر العلوم والمعارف والتشهير بأخطاء الاحتلال

الانجليزى لنرقى بالعقول و نبغض الغاصبين إلى البلاد .

* إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة والاعتدال ولهم مآثر على العالم أجمع أن أنكرها الانجليز فلا ينكرها التاريخ الذى هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التى أقسمت بشرفها والتاج الذى يجب احترامه فقدمتهما ضماناً على صدقها عندما دخلت بلادنا ووعدت بالجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن .

● أن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد .

* إن من السياسة القومية المصرية أن تكون حسنة العلائق مع تركيا مادام الانجليز محتلين وطننا العزيز .

* مادام الاحتلال الانجليزى باقياً فى مصر فهو العار الذى يحمله كل فرد من الانجليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع .

* إن الوطنية هى أشرف الروابط للافراد والأساس المتين الذى تبنى عليه الدول القوية .

* لا يغيبن عن البال أن مصر كانت فى جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا ولا بد أن يأتى يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا العظيمة القادرة .

* * *

كانت كلمات مصطفى كامل هذه هى معالم الطريق لحركة اليقظة الفكرية والوطنية التى تصدى للعمل لها والتى لم يطل أمرها أكثر من ثلاثة عشر عاماً ، كانت سنوات خصبة حافلة بالعمل والكفاح لم يتخلف خلالها عاماً واحداً عن السفر إلى أوربا والدعوة للمسألة المصرية فى أنديتها فقد كان ذلك

جانباً من أهم جوانب دعوته ، وقد أسمع إسم مصر فى أوربا ، وكشف عن جرائم بريطانيا وشغل صحافة العالم كله بقضية مصر .

وفى نفس الوقت أصدر فى مصر اللواء (يناير ١٩٠٠) فكان مدرسة فكرية جديدة فى الدعوة الوطنية تقوم على أساس إيقاظ العاطفة والوعى ، وإثارة النفس المصرية على الاحتلال البريطانى والوقوف بالمرصاد لخصوم مصر ولأعوان المستعمر ، وما من قضية أو حادث أو كلمة وجهت ضد مصر إلا كان لها قلم مصطفى كامل بالمرصاد يرد الصاع صاعين .

وقد وقف من حادث فاشوده ١٨٩٦ واتفاقية السودان الباطلة ١٨٩٩ موقف الخصومة وفضح نوايا المستعمر والهب المشاعر الوطنية.

وكان « اللواء » حدثاً هاماً فى تاريخ الحركة الوطنية والصحافة العربية، حمل رسالة الأمل إلى الأمة « إنى أشد الناس أملا فى مستقبل أمتى وبلادى . أرى الشعب الذى أنا منه جديراً بالرفعة والسمو ، حقيقاً بالمجد والحرية والاستقلال. وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتى أجد فيها روحاً جديدة وحياة صادقة . هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها وقيامها من وهدتها » .

ولم يقف مصطفى كامل فى الدعوة الوطنية عند الصحافة وإنشاء المدارس بل دعا إلى إحياء الصناعة وتكريم الرجال العاملين ، ولم يلبث مصطفى كامل أن تحول عن اتجاهه إزاء فرنسا والخديوى تحولا كان أكثر فائدة للحركة الوطنية وتعميقاً لها فقد حدث ما جعل مصطفى كامل يعتمد على نفسه وينفصل عن ركب الخديو وقد جاء ذلك بعد أن استقال كرومر وحلفه غورست الذى أنشأ مع الخديو سياسة الوفاق وكذلك تخلى عن الاعتماد على فرنسا ودول أوربا بعد أن وقعت بريطانيا وفرنسا الاتفاق الودى الذى تطلق به كل منها يد الأخرى = فرنسا فى المغرب وبريطانيا فى مصر. وهنا دعا الأمة إلى الاعتماد

على نفسها ولم يدفعه ذلك إلى اليأس. بل لعله أمده بقوة جديدة «كلا أننا لم نيأس. ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز فإننــا نعلم أن مصر مقبرة للأمم الطاغية ولـكنا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوربا وأصبحنا نوجـه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمـة وترتيبها بإنشاء المدارس فى أنحائها» .

«عجباً وألف مرة عجباً . كيف تسىء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث . وقاتلت الليالى وما ولدت . وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها . كيف يقول بعض أبناء الأمة عنها أنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسياً منسياً . وهى التى اهتز لمجدها الشرق والغرب وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها .

* * *

نعم، كان الاتفاق الودى لمصطفى كامل ١٩٠٤ حدثاً هاماً فقد كشف له عن أن الدول الأوربية كلها خادعة وأن فرنسا إذا كانت قد رحبت باحتضان دعوته يوماً فإنما كان ذلك للخلاف بينها وبين بريطانيا وليس لوجه الحق الخالص .

وقد كان اتجاهه بعد ذلك إنما يهدف تعميق العاطفة الوطنية وتعليم الأمة ضرورة الاعتماد على نفسها وهى «خطة كثيرة الواجبات وتحتاج إلى زمن طويل وعمل مديد ومع ذلك فليطمئن أصدقاءنا . لقد قضت مصر على جميع الدول الفاتحة الطامعة . ربما كان سير الزمن بطيئاً ولـكن بلاد أبى الهول لاتسأم ولا تضجر أبداً» .

ولم تلبث بريطانيا بعد اتفاقها مع فرنسا أن ضربت الحركة الوطنية أعنف ضربة فى حادث «دنشواى» الذى ما زال سبة فى تاريخ بريطانيا والحضارة الغربية، وقد ألب مصطفى كامل العالم كله على بريطانيا بعد هذا الحادث وفضحها

فى صحف أوربا . وكتب خطب وأثار المشاعر بتصوير الجريمة البشعة « إنى جئت اليوم أسأل الأمة الإنجليزية نفسها والعالم المتمدن إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادىء العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد . جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية . جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية . مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى الغامرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوربية فى أعين الناس كافة .. »

هذه بعض عبارات المقال المطول الذى نشرته جريدة الفيجارو الفرنسية فى ١١ يوليه ١٩٥٦ بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن » وقد تناقلته الصحف فى مختلف أقطار أوربا وزلزل مركز كرومر فسحبته حكومته. فكان ذلك نصراً ضخماً للحركة الوطنية وضربه لحزب الأمة وأعوان كرومر .

ولم يلبث مصطفى كامل أن أعلن تأليف الحزب الوطنى فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧ « حزب الجلاء » وألقى خطابه التاريخى فى فندق زيزنيا بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ فكان ذلك إيذاناً باقتراب الأجل المحتوم حيث انقضى أجله فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ وذلك بعد أن بلغت العلة به مبلغها فى الأشهر الثلاثة الأخيرة ، وكان قد أرسل قبل وفاته بخمسة أيام برقيات احتجاج ضد تصريحات السير ادوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى الذى اتهم المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ..

وبذلك انطوت صفحة حياة قصيرة ولكنها عريضة خصبه ، فقد ولد

مصطفى كامل فى ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤ وتوفى فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨ عن ثلاثة وثلاثين عاماً مضى منها أكثر من ثلاثة عشر عاماً فى خضم الكفاح فى فترة من أشد حياة الشعوب حرجاً واضطرابا ومع ذلك فقد خلف أثراً لا يمحى وحفر فى سجل حياة الوطنية المصرية عملا من أعمال رواد الوطنية، فقد ابتعث الوطنية بعد أن بلغ اليأس بالأمة مبلغه وأخرج بالمسألة المصرية من النطاق المحلى إلى النطاق الدولى. وأيقظ المشاعر بعباراته وخطبه وكتاباته المليئة بالأمل والإشراق وقد أفاد خطته وأيدها أنه درس كيف انتكست الثورة العرابية بعد خيانة الخديوى . ولم يقف مصطفى كامل عن الدفاع عن حرية مصر ولكنه كان مؤمنا بالحرية لكل الأمم ومن ذلك قوله عن حرب البوير « إنى لا أجد كلمات تعبر عن استيائى من أوربا ومن المدنية الإنسانية التى تخلت عن البوير البواسل وأى درس لنا فى هذا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوربا »

وكانت أسفاره ورحلاته ومقابلاته التاريخية مع أعلام الوطنية والصحافة وزعماء أوربا قد كونت له عصارة تجارب ضخمة. كما كانت رسائله إلى كبار الساسة فى أوربا تمثل طوراً من أطوار الجهاد الوطنى وهى لو جمعت لكانت عدداً من المجلدات، وكان مصطفى كامل يؤمن بالثقافة كسلاح جوهرى لارتقاء الشعب ، فقد أنشأ عام ١٨٩٨ مدرسة باسمه وتوالت المدارس. وصدر « اللواء » فكان ناراً على دنلوب وكرومر والعملاء المزعومين. وكان مصطفى كامل قبل اللواء كاتباً بارعا أفردت له الأهرام أبرز مكان فيها ورحبت به المؤيد وغيرها وله مسرحية فتح الأندلس (١٨٩٤) كما ألف رسالة بالفرنسية عن أخطار الاحتلال الانجليزى. وكتابه « المسألة الشرقية » ودعا إلى إحياء الصناعة . ودعا إلى إنشاء الجامعة المصرية (٢٦ أكتوبر ١٩٠٤) . وأصدر اللواء الفرنسى والإنجليزى . ومجلة العالم الإسلامى الأسبوعية عام ١٩٠٥ .

وقد تردد أن مصطفى كامل كان يستند فى معارضته للانجليز على صلته

بالسلطان عبدالحميدوالخديوىعباس ، وأن كلاهما كان يؤيده بماله وجاهه وكلاهما كان لا يهمه غير سلطانه الشخصى وهذا اتهام منقوض .

ويقول عبد الرحمن الرافعى مؤرخ مصطفى كامل : إن مصطفى كان يرى أن خطوة البدء فى جهاده هى التخلص أولا من الاحتلال البريطانى . فإن الجلاء هو بحق الرمز الحقيقى للاستقلال . أما السيادة التركية فإن التخلص منها يصبح من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال، وخاصة أن تلك السيادة كانت قد تراخت بمرور الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء . لهذا لم يرى مصطفى أن لا يحارب فى أكثر من جبهة فينادى بالجلاء وإلغاء السيادة العثمانية معاً » .

ولا شك أن مصطفى كامل فى خـــلال معركته التى امتدت من عام ١٨٩٦ إلى ١٩٠٨ قد واجهته صدمات متعددة منها حادث فاشودة حيث أرسلت فرنسا حملة بقيادة الـكابتين مارشان لمنع تقدم الإنجليز فى أعالى النيل وانتهت بتراجع فرنسا وتوقيع اتفاقية السودان (١٩ يناير ١٨٩٩)التى خولت انجلترا رسمياً حق الاشتراك فى إدارة شئون الحـكم فى السودان مما أدى إلى إقصاء مصر عنه ، واستئثار بريطانيا بحكمه وإدارته ثم تنفيذ بريطانيا لسياسة الوفاق وتحول الخديوى عن الحركة الوطنية ، ثم توقيع الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا ، كل هذه الصدمات العنيفة حولت الحركة الوطنية من وضع إلى وضع ولـكنها دعمتها وخلصتها من الإيمان بعون الخديوى وعون فرنسا وجعلتها تعتمد على قواتها الحقيقية.

وقد انقصف عود هذه الحياة بعد أربع وثلاثين عاماً ، بعد أن لمع كوكبها وبهر الأنظار ، فقد نال مصطفى كامل أجازة الحقوق (نوفمبر ١٨٩٤) من جامعة تولوز ولم يلبث بعد عام واحد أن عاد إلى أوربا ليتصل برجال السياسة

والأدب والصحافة وقدم إلى مجلس النواب الفرنسى نداءاً حار فى شكل صورة رمزية سياسية تمثل مصر وهى ترسف فى قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا والإنسانيةلتحريرها.وأرسل عام ١٨٩٦ خطابه التاريخى إلى جلادستون رئيس الوزارة البريطانية أيام الاحتلال عن رأيه فى الجلاء وأمضى عامين متنقلا بين عواصم أوربافىالدعوة لقضية مصر.وظهر اللواء فى يناير سنة ١٩٠٠ وظل يجاهد حتى أعلن الحزب الوطنى بخطابه فى الإسكندرية (٢٢ أكتوبر ١٩٠٧) . وكان ذلك خاتمة جهاده أما مرضه فقد بدأ عام ١٩٠٣ وامتد حتى ساءت صحة عام ١٩٠٦ .

وفى خلال حياته العريضة دعا إلى إنشاء الجامعة الأهلية وأنشأ المدارس لدعم التعلم القومى والصحف العربية والفرنسية والانجليزية .

ولا شك كان سعد زغلول صادقاً حينما أعلن عام ١٩٢١ أن النهضة الوطنية المصرية كانت من صنع مصطفى كامل ومحمد فريد .

وله مؤلفات متعددة منها فتح الأندلس ، والرق عند الرومان ، والشمس المشرقة (اليابان) والمسألة الشرقية .

* * *

وكذلك كتب مصطفى كامل إسمه فى صفوف الخطباء البارعين والكتاب المنشئين ودعاة بناء الأمم عن طريق التربية والتعليم وإثارة المشاعر بالحماسة والدعوة وكان حادث دنشواى أعظم فرصة صادفته لتحطيم سلطان بريطانيا وتخليص مصر من الطاغية كرومر بعد أن حكمها ربع قرن كامل .

* * *

وملخص حياةمصطفى كامل أنه ولد فى القاهرة ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤ وبدأ حفظ القرآن وأحرز إجادة الحقوق من جامعة تولوز فى فرنسا (١٨٩٤) قبل بلوغ سن العشرين ، وقد عرف بالفصاحة وسحر البيان ، وأولى اهتمامه

منذ مطالع الشباب بمقاومة الاحتلال البريطانى لمصر بالكلمة المقولة والمكتوبة وأولى الكتابة فى صحف أوربا وفرنسا بالذات اهتماما خاصاً ، وأنشأ فى مصر جريدة اللواء اليومية ١٩٠٠ وأنشأ الحزب الوطنى رسمياً ١٩٠٧ .

ومن الوقائع الهامة فى حياته إنشاء مجلة المدرسة ١٨٩٣ والتعرف إلى جوليت آدم سنة ١٨٩٥ وإرسال خطابه إلى غلادستون ١٨٩٦ .

وقدهاجم اتفاقية السودان١٨٩٩ وحث الأمة على نشر التعلم القومى وأنشأ مدرسة باسمه بباب الشعرية ١٨٩٩ وهاجم حادث دنشواى ١٣ نوفمبر ١٩٠٦ فكتب فى صحف أوربا منددا بتصرف بريطانيا .

وعرف ببلاغة البيان : ومن كلماته الموحية :

- دعوا البكاء للأرامل والأيامى وسكان الأديرة والكهوف وانشئوا أمة جلاد وصراع وحتوف .
- لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .
- لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد ،أن لى روحاً من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد . سأستمر ولو بقيت وحيداً أخطب فى الصحراء أو أكتب على صفحات الماء .
- إذا لم نقتطف ثمره عملنا وجهادنا فى حياتنا فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يأتى بعدنا .
- إن من تسامح فى حقوق بلده مرة واحدة ، يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

• بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وحنانى ، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر .

(توفى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨)

نعمان أبو الثناء الألوسى

صاحب « روح المعانى »

١٨٠٢ — ١٨٥٤

منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) بدأت اليقظة العربية ممثلة فى صيحة التوحيد المنبعثة من قلب الجزيرة العربية . هذه الصيحة التى انطلقت إلى آفاق العالم الإسلامى فتجاوبت أصداؤها فى كل مكان . ومع أوائل القرن التاسع عشر ، ومن خلال حركة الغزو الاستعمارى الضخمة ، برز مجددون وأعلاماً حملوا لواء اليقظة ، كان أبرزهم فى هذه المرحلة: رفاعة الطهطاوى فى مصر وخـــير الدين التونسى فى تونس والألوسى فى العراق .

* * *

كانت دعوة التوحيد ، وتصحيح المفاهيم بالتماس المنابع الأولى للاسلام من القرآن نفسه ، دعوة متجددة على العصور لا تتوقف ، وكان أبرز من دعا إليها شيخ الاسلام ابن تيمة وتلميذه ابن القيم غير أن عصرا من العصور بعد، وحتى تجددت الدعوة فى منتصف القرن الثامن عشر ، لم يخل من داعية ومن كاتب ومن مصلح وإن لم يصل صوته إلى الآذان ولم تتهيء له الفراصة لكى ينقل

الدعوة إلى مجال الحركة السياسية أو الاجتماعية ، كما حدث ذلك حين التقى الامام بن عبد الوهاب بأمير الدرعية .

ولقد كانت المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية قد غلبت فيها نزعة الجبرية والتصقت بالصوفية على نحو أشاع التواكل والتخلف فى عالم الاسلام فكان لا بد من صوت جهير تتبعه أصوات تحمل هذا اللواء .

كان صوت الشهاب الألوسى فى العراق من الأصوات الحية المؤثرة فى هذه المرحلة ، وفى ظل جمود فكرى يسنده نفوذ سياسى له طابعه التقليدى البعيد عن مفهوم الاسلام .

ومن هنا فقد أزعجت صيحة دعاة التوحيد الدولة العثمانية وهزتها وكان ذلك الصراع العسكرى والسياسى الذى وقع بين القوة المصرية والقوة العربية .

لذلك فقد كان الدعاة إلى التوحيد والتماس منابع الإسلام الأولى من القرآن على حذر كبير ، وهم يعيشون فى ظل النفوذ العثمانى ، ومن هنا كانت لباقة الشهاب الألوسى ومرونته وبراعته فى عرض مفاهيم التوحيد من خلال تفسيره للقرآن فى موسوعة (روح المعانى) .

ولذلك فقد كان يعرض فى تفسيره لآراء أهل الكلام ، وأهل التصوف ، وأهل السنة ، على نحو يتيح للآراء التى يراها أن تبرز تاركا للقارىء أن يحكم ويقتنع . فهو يرى كما يرى الغزالى أن أهل الكلام شغلوا الناس بالمساجلات والرد على أرسطو وأفلاطون ، وأن أهل التصوف غلبوا المواجيد والأذواق ،ولذلك الطريق الأسلم والأقوى ، ليس هو الا منهج القرآن نفسه .

وقد هاجم الفلاسفة الباطنية وهاجم الصوفية المنحرفين ، وعارض كل

مذهب ودعوى ونحلة خارجة عن منهج القرآن ومفهوم الإسلام فى تكامله وشموله وبساطته .

فأرباب الطرق زهاد وأهل تقوى ، دخلتهم الفتوة للعمل الصالح وكانوا أرباب ثقافة ولهم أقوال مشهورة ، ثم دخلتهم عقائد زائفة أو جاهلة فنفروا من الفضائل وأفسدوا بدل أن يصلحوا وتهاونوا بالرسوم الدينية بل تباعدوا عنها بدعوى قد رفعت عنهم التكاليف وعدوا أنفسهم واصلين[1] فهم قبلوا فلسفة الإشراق فصارت عقيدتهم من جهة ، ومن جهة أخرى ستروا جهلهم وصاروا يتظاهرون بالمراقبة وكثيراً ما ناصروا الحكام وبثوا لهم الدعاية وهو حريص على أن يحسن الظن بالصوفية الصادقين ، ولكنه يدعو إلى الإنكار على كلماتهم التى تخالف ظواهر الشريعة ، ويهاجم تحولهم حين قبلوا وحدة الوجود والإتحاد والحلول ونفى الصفات ورفع التكاليف وهذا كله مخالف للقرآن .

وقد ركزدعوته دائماً على الشريعة الإسلامية السمحة السهلة: «ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاهالك » .

كما هاجم دعاة الفلسفة اليونانية والفلاسفة الأفلاطونية الحديثة ودعا إلى مذهب التوحيد وبطلان من هذه المذاهب .

* * *

وتعد : موسوعته فى التفسير « روح المعانى » هى أعظم أعماله ، أنشأها فى تسع مجلدات فى أشد أوقات حياته ضيقاً وحرجاً ، وبدأها فى شعبان ١٢٥٢هـ وانتهى منها فى ١٢٦٧ هـ وأقام خمسة عشر عاماً فى العمل بها ، يقول :

---

(١) من دراسة لعباس الغزاوى عن الالوسى

«لم أزل أسود الأوراق فى تحرير ما أفضت على حتى بيض نسخة عمرى المشيب وأجدد النظر بتحديق الاحداق فيما افضت به المشايخ حتى بلى برد شبابى القشيب، هذا مع ما قاسيته من خليل غادر، وخليل حائر، وزمان غشوم وغيوم وابلها غيوم .

ولم يقف الألوسى عند التفسير وإن كان أكبر أعماله ، وفيه وضع آرائه ونظرياته التى تقوم على البعث والتجديد والإحياء ، والارتباط بالقيم الأساسية والتماس المفاهيم الأساسية للاسلام وشجب كل ما دونها

غير أن غايته هذه لم يكن يكفى فيها عمل واحد ، ولم يكن « روح المعانى » وحده هو العمل المرتجى فى هذه المرحلة الدقيقة ، ولكنه آمن بالكلمة المقولة ولذلك كانت له مجالس حافلة ، إتصل بها صفوة الشباب الذى تصدر الحياة الفكرية والأدبية فى العراق من بعد ، وكانت مداخله إلى الاصلاح من بابى الأدب والتاريخ .

ومن هنا فإن « عظمة [1] الألوسى تتجلى بأكثر ماتتجلى فى مجالسه الأدبية ، والعلمية ، وما يبث فيها من روح ثقافية تدريسية » وقد تحدث الناس هذه المجالس وشدت إليها الرحال، من كل انحاء العراق، وقصده الطلبة بالأغلب فسمعوا عليه واستجازوه .

وكان مجلسه مجمعاً لأرباب الفضل والعلم كما وصفه الكثيرون ممن شهدوه وكأنما قد وكل إليه شأن التربية والتعليم والحركة العلمية فى وقت لم تكن به إدارة للمعارف وكان عمله يهدف إلى بناء أجيال جديدة مدربة للعمل بمفاهيم جديدة تحمل طابع إيجابية الإسلام وحركته وتجنح عن طوابع الجمود والجبرية التى كانت متفشية اذ ذاك .

---

(١) القزاوى ـ المصدر السابق

وهكذا كان طابع اليقظة المستمدة من مفاهيم التوحيد التى يمثها الأمام محمد بن عبد الوهاب مستمدا إياها من شيخ الإسلام ابن تيمة علامة على عصر جديد ، وأجيال جديدة .

كان الألوسى يردد دوما كلمته التى حفظتها له مقاماته :

« يا بنى عليكم فى باب العقائد بعقيدة السلف فإنها أسلم بل أنها من أنصف بل أنها أيضاً أعلم وأحكم لأنها أبعد عن القول على الله بما لا يعلم » .

* * *

وعن طريق الأدب وطريق التاريخ أتاح الألوسى لفكرته أن تتسع وتعمق ، فقد دعا إلى التحقيق العلمى فى العرض لأحداث التاريخ والبعد عن الجوانب الشخصية والعاطفية والتماس الحقيقة المجردة العلمية ، وطالب المؤرخ بأن يكون « حياديا لا ينساق مع التيارات المتنازعة » .

وحاول الألوسى نفسه هذا فى تراجمه وكتاباته التاريخية ، واستعلى عن إرضاء الولاة والحكومات ، وهو « أول مؤرخ فى عهده بدأ عمله العلمى بنفسه ثم درب تلاميذه فأختطوا طريقته » ويرى الغزاوى وهو من تلاميذه — أنه لولا أبو الثناء وآثاره والعصبة الأدبية التى التفت حوله من تلامذته وغيرهم لندر وجود المؤرخين المعاصرين ، فقد تولدت فى عصر الألوسى حركة تاريخية امتدت وأطردت من بعده ، وتكونت فى ظله كتبة أدبية من علماء الأدب .

ويرى عباس العزاوى أن العصر الحديث فى العراق يبدأ عام ١٢٤٧ هـ (١٨٤٠ م تقريبا) ويصح أن يسمى عصر الألوسى وهو عصر لم ينقطع بوفاته بل امتد مائة سنة .

وهكذا أتاحت له علاقة بالأدباء فى عصره ، عن طريق مجالسه الأدبية ، وعلاقته بالشعب عن طريق عمله فى الإفتاء ، وعن طريق

صلته بالتدريس أن أصبح الرأى العام كله ممثلا فى توجيهاته ، محاطاً بفكره، فهو مشغول دائماً ، جالساً فى حلقته أو ماشياً إلى مسجده يحل المشكلات .

وكان مكانه فى قصور الولاة ودوائر الحكام صدى للرأى العام ونائباً عنه متحدثاً ومطالباً بحلول لمشا كل الجماهير ، ولا يمنع ذلك من أن يعارض ويقارع الولاه فى سبيل هذه المطالب والحقوق ، وقد ناوىء السلطة حيناً وجاهر بعداء الولاء ، حتى اضطروه إلى ترك مناصبه الرسمية فقنع بالعمل فى المجال العام ولم يتوقف عن توجيه المسلمين ودعوتهم إلى الإصلاح عاملا فى مجال التربية والتكوين النفسى بأكثر من عمله فى أى مجال آخر ، فقد كان يعرف حقيقة الخطر الذى يكمن فى الأعماق وهو ذلك الطابع من الجبرية وروح الإستسلام والتوا كل التى رانت على آفاق المسلمين فأفسدت عقلياتهم وكانت مصدر ما أصابهم من أنهيار اجتماعى وسياسى أتاح الفرصة لعدوهم لغزوهم والسيطرة عليهم .

وقد مضت حياة الألوسى بين اليسر والشدة ، والفقر والغنى ، والأمن والإضطهاد ، استطاع فى كل مرحلة من هذه المراحل أن يكون المؤمن القوى الثقة بالله ، فهو قد ولى الافتاء فى الثلاثين من عمره ، وكان ذلك مبكراً بالنسبة للعلماء ، وما كادت حياته تنتعش ويتسع رزقه حتى خصص للفقراء والغرباء من الطلبة جانباً من موارده ، فأخذ ينظم لهم أمور الطعام والكتب والخدمات الأخرى « وأمست داره مدرسة هو عميدها » وبلغت دروسه أربعة وعشرين درساً فى اليوم .

ولما أصابته المحنة احتمل الضيم صابراً حتى ليقول : مما اتفق لى أنى بعت ثياب الشتاء لشراء قرطاس ، وطالعت على نور القمر حيث أعوزنى نبراس وكم قاسيت من شدائد تذيب الجلاميد .

ويقول محمود العيطة أنه ذاق مرارة الفقر والحرمان فى طفولته والسجن والهوان فى شبابه ، وقد أوصى تلامذته وأبناءه أن يكونوا علماء حلماء إبراراً اتقياء مجدين فى تحصيل العلم وإن يحلوا علمهم بالأدب الرفيع وأن يحفظوا نفائس الأشعار ويرووا طرائف الأخبار وأن يكونوا يداً واحدة وأن يوقر صغيرهم كبيرهم ويعطف كبيرهم على صغيرهم .

* * *

وملخص حياة الألوسى الكبير أنه ولد عام ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ)

وتوفى عام ١٨٥٤م (١٢٧٠هـ) أى أنه عاش حياة قصيرة لم يتجاوز الخمسين إلا قليلا ولكنها عريضة خصبة فقد حضر عهد المماليك وعهد الدولة العثمانية باستيلائها على العراق ، وشهد الانقلاب السياسى والعلمى والأدبى وشارك فيه .

تخرج الألوسى من مدرسة عاتكه خاتون الكيلانى وجرى له احتفال عظيم، وقد تلقى مفاهيم التوحيد على استاذه على علاء الدين الموصلى الذى تتلمذ عليه أربع عشر سنة وكان له خير معين على تفهم دقائق العلوم المنقول منها والمعقول ، وكان استاذه حاد الذكاء حاد المزاج معاً كما اتصل بكثير من أعلام عصره فلما أن أعلن آرائه عارضه العلماء التقليديون معارضة شديدة .

« وقد رأى من جفوة العلماء ما رأى فلم يبال شيئاً واستطاع بثباته وصموده أن يتغلب على المصاعب وكان ذلك من أسباب نجاحه وذيوع صيته وظهور مفاهيمه وكلما زادت ثقافته عظم فى أعين تابعيه .

تقلد عام ١٢٤٨هـ منصب افتاء السادة الاحناف وظل فى هذا المنصب الخطير مشتغلا بالتدريس والتأليف ، حيث ظهرت مواهبه واتصل به الأدباء والعلماء على مختلف طبقاتهم وأمسى بيته منتدى علم وأدب .

وكان دائم الاتصال بالأدباء والعلماء من كل مذهب ونحله .

وكان حفيا بتنمية ثقافته بقراءة الكثير مما كتب فى اللغات التركية والفارسية

وله رحلات متعددة منها رحلته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وزيارته للقاهرة حيث طبع تفسيره « روح المعانى »

ويرى مورخو الألوسى أنه قد تولدت فى عصره حركة يقظة فى مجال الفكر والتاريخ أزعجت الدولة العثمانية بالإضافة إلى موقفه الحر فى مجابهة الولاه ، مما دفع الدولة العثمانية إلى عزل الألوسى عن الافتاء فانصرف توا إلى التدوين والتأليف واتجه بهمة عالية إلى اتمام تفسيره وتعليم تلاميذه، بعدأن توقف عمل الافتاء ، غير أن هذه الأزمة استمرت طويلا وعمقت فعزلت الألوسى عن مختلف موارد الرزق حتى عن عمله فى جامع مرجان، ولما كان قد فقد كل ما أتيح له من موارد « فقد عضه الفقر بنابه حتى باع كتبه وأثاثه وحاجاته لتغطية نفقات أهله وعائلته الكبيرة بثمنها ، حتى لم يبق فى بيته من أثاث واشياء ما يباع واستمر على ذلك ثلاث سنوات حتى كاد على ما يقول أن يأكل الحصير على مداد التفسير » هنالك أذن الله بالفرج فشد رحاله إلى العاصمة العثمانية (استامبول) فسافر إليها عام ١٨٤٥ فى شبه هجرة ، حيث اتصل بشيخ الإسلام عارف حكمت وقدم له التفسير فقابله ببرود غير معهود ، وجرت بينهما مناظرات ، ووجهت إليه رتبة قضاء أرضروم وعاد إلى بغداد بعد عامين .

وفى تركيا شاهد مدى ماوصلت إليه من إنحلال وضعف ، مما دفعه إلى العمل على بعث روح إسلامية عربية تكون مستعدة لحمل الرسالة ومواجهة مايراد بالعالم الإسلامى، فألف رسالة الجهاد وأسماها (سفرة الزاد لسفرة الجهاد) كما كتب مذكرات رحلاته فى ثلاث مؤلفات: نشوة الشمول، نشوة المدام، غرائب الأعراب؛ فإذا أضفنا هذا الموقف إلى المواقف التى عاشها فى مواجهة الولاه ،وفى معارضة العلماء عرفنا إلى أى حد تأثرت أعصابه واهتز كيانه النفسى مماعجل بموته المبكر فقد وقف فى مواجهة الأحداث بإرادة قوية ، وواجه حياة الفقر ، مع

الأصرار على احتمال المكاره والحيلة فى الخروج من المأزق بنفس صامدة وكان ذلك كله بعيد الأثر فى تكوينه النفسى والجسمانى فعجل به .

وبالجملة فقد ارخ الألوسى العصر ، وفتح الآفاق للفكر الإسلامى المتجدد وتابع دعوة التوحيد ، وقد مضى إلى خطته فى كل مجال : الأدب والتاريخ والعقائد والتفسير ، والمجالس الأدبية والمدارس والقرى .

وقد أحصى الباحثون للالوسى اثنين وعشرين مؤلفاً فى مقدمتها :

- روح المعانى فى تفسير القرآن ٩ أجزاء طبع مصر ١٣٠١ ه
- الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية .
- الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية
- غرائب الاغتراب ونزهة الألباب فى الذهاب والاقامة والآيات

(توفى ١٨٥٤ م)



يوسف العظمة

البطل الذى رفض أن يرى إستعمار وطنه

١٨٨٤ — ١٩٢٠

« بعدالعشاء جاء يوسف العظمة يودعنا قائلا : إنه سيتوجه إلى الجبهة ، ولـكنه قبل أن يغادرنا انتحى بى زاوية من الغرفة وقال لى بصوت تخنقه العبرات :

أنا ذاهب ، إنى أترك ليلى أمانة لديكم . أرجو ألا تنسوها وليلى هى ابنته الوحيدة التى جاءت من الأستانة مع أمها قبل أسبوعين .

من تاريخ تلك الحوادث ، أى قبيل بدء الزوبعة التى كانت تجرفنا فى ذلك الحين لقد أدركت حالا ما كان يقصد من كلامه هذا . إنه يتوجه إلى الجبهة موطدّ العزم على أن لا يعود منها أبداً ، ولم أشأ فى هذا المقام الرهيب أن أبدى له أى رأى كان ، بل قلت له بهدوء تام :

« تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان » .

وشاءت الظـــروف أن أؤدى الأمانة التى وضعها يوسف العظمة فى عنقى بعد مرور ثلاث ليال على تلك الليلة الأليمة ، فقد ذهبت إلى بيته برفقة إحسان الجابرى خلال الليلة التى قضيناها فى دمشق بعد عودتنا وواجهنا هناك زوجته الشكلى وابنته ليلى ، وأبلغنا الأم العزاء . « ساطع الحصرى »

كانت سوريا تمر بأقسى أيامها . عندما بدأت تشرب ثمالة الكأس من يد الاستعمار ، وقد مضى عليها أربع سنوات تحمل علم الوحدة العربية خفاقاً . وتحمى الثورة العربية وتذود عنها . وتقود الكتائب فى ذلك الخط الطويل . من ينبع إلى دمشق ، وتصهر فى بوتقتها الشباب الذى أقبل من مختلف أنحاء العالم العربى على صوت النـداء ليستشهد فى معركة الأمة العربية حين انفصلت عن الدولة العثمانيـة فى مواجهـة خطر الدعوة الطورانيـة ، هنالك تكشفت لسوريا نية الغدر ، فإذا هى بمزق ، وإذا بوعد بلفور يعطى فلسطين لليهود ، وإذا بمعاهدة (سايكس — بيكو) تمزق الدولة العربية المرتقبة إلى شطائر توزع على فرنسا وبريطانيا تحت أسماء خداعة ماكرة : الوصاية والانتداب .

كان « يوسف العظمة » واحداً من المحاربين السوريين الذين خاضوا المعارك . وأمضوا الليالى الطوال فى الخنادق ينتظرون الفجر ، فإذا هم يباغتون بهذا التآمر الغادر وقد عز عليه أن يقدر لسوريا هذا المصير . وهى التى قدمت بالأمس وقود الثورة على المشانق شباباً ذا عزيمة ومضاء .

قدمت عبد الحميد الزهراوى ، وأحمد طباره وعبد الغنى العريسى وأحمد محمصانى الذى نادى فى قومه وهو فوق المقصلة :

« إننى أردت بكل قواى هـذا التحرر . ولا أندم بحال على ما فعلت وإننى سعيد باعتبارى أول الضحايا . وإنه من المحتم علينا أن نثور نحن العرب أبناء أعظم مدنيات العالم كلما فكرنا فيما صرنا إليه من ذلة ساقتنا إليها قبائل الأناضول المتوحشة . ولقد ضقنا ذرعاً بالظلم المزرى الذى يوقعه على رأسنا الأتراك . . . » .

كانت هذه الكلمات تملأ قلب « يوسف العظمة » وعقله وعاطفته وهو

يشهد الفصل الجديد من فصول المأساة ، وقد انتهت جيوش العرب من فتح سوريا بقيادة « فيصل » الذى بدأ فى إقامة حكومة وطنية ، غير أن فرنسا لم تلبث أن أرسلت حملة احتلت الساحل اللبنانى وأنزلت العلم عن دور الحكومة، ثم تكشفت المؤامرة على خطوة أخرى حين أعلن الحلفاء فى مؤتمر سان ريمو فى أبريل سنة ١٩٢٠ فرض نظام الانتداب على سوريا وتقويض العرش العربى ولم يلبث الجنرال غورو أن تحرك فى اتجاه سوريا لاحتلال دمشق وكان الموقف حرجاً . فقد أمر فيصل بتسريح الجيش قبل الموقعة بقليل .

هنالك لم يكن فى وجه الأحداث غير رجل واحد . صمم على أن يموت دون أن يرى بلاده وهى تحتل من جديد . وتذوق مرارة الظلم على يد الفرنسيين بعد أن حاربت طويلا فى سبيل التخلص من الظلم على يد العثمانيين .

ذلك هو :« يوسف العظمة » الذى كانت حياته العسكرية مثلا للايمان الصادق وقوة الإرادة، فقد ولد فى دمشق ١٨٨٤ وتعلم بها ثم انتقل إلى الأستانة والتحق بالكلية الحربية عام ١٩٠٦ وتخرج بها . ثم تطوع فى الجيش العثمانى فحارب فى بلغاريا ورومانيا وعاد إلى الأستانة ثم رافق أنور باشا فى رحلاته إلى الأناضول وسوريا والعراق ولم يعد إلى دمشق حتى انتهت الحرب ، فاختاره الأمير فيصل مرافقاً رئيساً لهيئة أركان الحرب فى سوريا . ثم تولى وزارة الحربية عام ١٩٢٠ وقد استطاع بعد المناداة بفيصل ملكا على سوريا أن ينظم جيشاً وطنياً من عشرة آلاف مقاتل .

وجاء إنذار (غورو) بتدخل الجيش وتسليم السكك الحديدية وقبول تداول النقد الفرنسى السورى وكانت شروط فرنسا قاسية . وانقسم الرأى . كان هناك من ينصح بالتسليم وحقن الدماء . وأرسل الملك برقية يخطر فيها

الجنرال غورو بموافقته على الشروط . واستسلم فيصل وأوعز بتسريح الجيش .

وغدر الفرنسيون بسوريا بعد أن استسلمت وتقدمت جيوشهم تزحف نحو العاصمة . دون أن تصادف مقاومة .

ولكن « يوسف العظمة » كان وحده بين وزراء فيصل الذى لم يقبل التسليم . كان يعلم أن غـــدر الفرنسيين لا يقف عند حد . وأنهم بالرغم من إبلاغهم الموافقة على شروطهم سيدخلون على أسنة الرماح ودماء أبناء الوطن .

وتحقق شعوره . وزحف (غورو) عندئذ لم يكن أمام يوسف العظمة سبيل. فقد ثار الدمشقيون وغلى مرجل الوطنية فى صدورهم . وغمرت المدينة موجة من الحماس، وأعلن يوسف أنه ذاهب إلى الجبهة ونادى فى الشعب وسار على رأس المتطوعين ، ومعه ألف ومائتين من رجال القبائل . وإن لم يكن هـذا الجمع المتدفق إلى طريق ميسلون جيشاً بالمعنى الحربى الصحيح . ولكنه كان يمثل انتفاضة شعب لا يقبل الذل ولا يرضى الهوان . ولا ينتظر أن يغزى فى داره أو يستسلم لغاصب . لقد خرج المواطنون الأحرار يحملون ما استطاعوا حمله من سيوف ورماح أو بنادق أو فؤوس . وسارت النساء مع الرجال جنباً إلى جنب .

أما « يوسف العظمة » فقد ذهب إلى صديقه ساطع الحصرى وقد صمم على أن يستشهد .

يقول ساطع الحصرى : وبعد العشاء جاء يوسف العظمة يودعنا قائلا أنه سيتوجه إلى الجبهة ولكن قبل أن يغادرنا انتحى به زاوية من الغرفة وقال لى بالتركية بصوت تخنقه العبرات :

أنا ذاهب . إنى أترك ابنتى « ليلى » أمانة لديكم . أرجوكم ألا تنسوها »
وكانت إبنته الوحيدة التى جاءت من الاستانة مع أمها قبل أسبوعين :

وكان معنى كلامه . أنه متوجه إلى الجبهة موطد العزم على ألا يعود منها أبداً

وما كنت أستطيع إن أمنى النفس بأى أمل فى الانتصار بعدما علمت من أحوال جيشنا وشاهدت ما شاهدت من عود الجيوش الفرنسية وما كنت أجد مجالا للشك فى النتيجة الاليمة التى ستنتهى إليها المعركة ولم تبطىء النتيجة كثيراً فقد وردت الأنباء قبل الساعة العاشرة بانكسار الجيش واختراق الجبهة وقالوا : يوسف العظمة قتل فى ميسلون ، قلت ، بل انتحر هناك واستشهد على كل حال » .

نعم : ذهب ليواجه خصماً قديماً . هو الجنرال غورو . وذكر يوسف موقفه ذاك وهو على رأس المدفعية العثمانية فى غاليبولى ، عندما حاول الحلفاء اقتحام الدردنيل وقد قذف بالقنبلة التى قطعت ذراع الجنرال غورو اليمنى . يااللاقدار . إنه اليوم وجها لوجه أمامه للمرة الثانية .

وقاتل يوسف مع أبناء سوريا قتالا رهيبا . وتكبد الفرنسيون خسائر ضخمة ، لقد آمنوا بأنهم « الفرقة الانتحارية » التى لابد منها لمواجهة هذا العدو الغاصب ، وأنهم إنما يشتشهدون بإسم الحرية . وأنهم لن يحولوا دون دخول هذه القوة الغاصبة « دمشق » ولكنهم على هذا المعنى استشهدوا على أبواب المدينة الخالدة .

كانت خطة يوسف العظمة للدفاع عن دمشق تقتضى إنشاء سلسلة من الحصون حول قرية « مجدل عنجر » وكانت مجموع القوات المرابطة ثلاثة آلاف جندى نظامى مسلحين — ببطاريتين من المدافع — ثم سرحت هذه

القوى فى ١٧ يوليو فارتدت المدفعية إلى دمشق تاركة خطوط الدفاع الخلفية كما تفرق المشاة . فلما نادى يوسف العظمة بالجهاد يوم ٢١ يوليو انتشرت صرخته ونفخ فى بوق الحـــرب بعد أن اقتحم الجيش الفرنسى منطقة « مجدل عنجر » .

وتبعد ميسلون عن دمشق ٢٨ كيلو من جهة الغرب .

وقد ظلت القوى الفرنسية تتقدم دون مقاومة حتى أشرفت على منطقة ميسلون مساء ٢٣ يوليو وفى صباح ٢٤ يوليو حيث أخذت المدفعية الفرنسية تطلق نيرانها بشدة على أماكن المتطوعين الذين زحفوا إلى الأمام وأصلوهم ناراً حامية ، وكان يوسف العظمة واقفاً على أحد التلول يرقب حركة القتال . وحاول مرافقه العسكرى (ياسين الجابى) أن يحمله على التراجع حتى لا يعرض جسده لرصاص الاعداء فرفض بأباء فلم تلبث أن فاجئته رصاصة فى صدره وتلتها رصاصات أخرى فسقط مضرجاً بدمه واستمر القتال بين الفريقين حتى الظهر . وفقد العرب ثمانمائة شهيد بعد أن كبدوا الفرنسيين ثلاثمائة قتيل وغسل يوسف غلطته يوم وافق فيصل على تسريح الجيش .

سقط يوسف العظمة فى جومة الصراع والسلاح فى يده وحقق أمنية غالية كانت تملأ نفسه هى ألا يرى جيش العدو وهو يقتحم دمشق .

ويوسف العظمة فى موقفه هذا أشبه بمحمد عبيد فى معركة « التل الكبير » ، لقد وقف يوسف العظمة على أبواب دمشق مثلما وقف محمد عبيد على أبواب القاهرة وقال للغاصبين : لن تمروا إلا على جثثنا واشلائنا . وصدق الله وعده .

لقد عاش يوسف العظمة حياة عريضة . عاش مبتسماً متفائلا . ملء الثقة بنفسه . قوى العارضة . نفاذ البصيرة أحبه رجال جيشه . واندفعوا معه بقوة واستبسلوا ما وسعتهم البسالة والتضحية .

كان من طليعة شهداء الحرية والوحدة . كتب سطرا فى ذلك الثبت الذى

ضم عديداً من الشهداء الأبرار . الذين قدموا أرواحهم فى سبيل حياة الأمة العربية .

* * *

وتتلخص حياة يوسف العظمة أنه ولد عام ١٨٨٤ فى دمشق وتعلم بها وأكمل دروسه فى المدرسة الحربية بالاستانة سنة ١٩٠٦ وتنقل فى الأعمال العسكرية بين دمشق ولبنان والاستانة ، وتطوع فى الحرب العامة وعين رئيساً لأركان الحرب فى بلغاريا ثم رومانيا ، وعاد إلى الاستانة ثم عين رئيساً لأركان حرب الجيش العثمانى فى قفقاسيا ، وعاد إلى دمشق بعد الحرب فعين رئيساً لأركان الحرب العام وولى وزارة الحربية سنة ١٩٢٠ فنظم الجيش الوطنى ، فلما أوعز فيصل بفض الجيش بعد إنذار غورو بغزو سورية ، تقدم يوسف العظمة فقاد المتطوعين لمواجهة الغزو الفرنسى فى موقعة ميسلون وقال كلمته الخالدة :

« لن تمروا أيها الأعداء إلا على جثثنا »

استشهد فى « ٢٤ يوليو عام ١٩٢٠ »

فهرس

صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٦٧٣ / ١٩٧٠

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١